مدخل إلى
الأنثروبولوچيا



تأليف
نخبة من أعضاء هيئة التدريس

تحرير

دكتور
محمد عباس إبراهيم
أستاذ و رئيس قسم الأنثروبولوچيا
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

دار المعرفة الجامعية

المدخل إلى
الأنثروبولوجيا

تأليف

نخبة من أعضاء هيئة التدريس

تحرير

د. محمد عباس إبراهيم

أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ

دار المعرفة الجامعية

للطبع والنشر والتوزيع

٤٠ شارع سوتير - الأزاريطة - الإسكندرية ت: ٤٨٧٠١٦٣

٣٨٧ شارع قنال السويس - الشاطبي - الإسكندرية ت: ٥٩٢٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كتاب المدخل إلى الانثروبولوچيا محاولة موضوعية ومنهجية جاء فى جهد جماعى مشترك لنخبة من السادة أعضاء هيئة التدريس المتخصصين فى الدراسات الأنثروبولوجية فى شتى فروعها وتوجهاتها البحثية ، ويهدف فى الأساس إلى تعريف القارئ المبتدئ والدارس المتقدم بأهمية علم الأنثروبولوچيا ودوره فى مواجهة الكثير من القضايا المجتمعية والإنسانية .

ويحتوى الكتاب على تسعة فصول، جاء الفصل الأول بعنوان : فى الأنثروبولوچيا وفروعها وكتبه السيد الدكتور حمدى عباس أحمد عبد المنعم المدرس بقسم الأنثروبولوچيا عرض من خلاله لتطور منهج الأنثروبولوچيا والبدايات البحثية للمدرسة الأمريكية بزعامة فرانزبواس ، والدور الذى قدمه علماء المدرسة البريطانية لاسيما فى الدراسات الميدانية ذات الطابع البنائى، مع عرض لأهم الخصائص والسمات المميزة لعلم الأنثروبولوجيا ، والأقسام الفرعية للأنثروبولوچيا المتمثلة فى الأنثروبولوچيا الطبيعية أو الفيزيقية ، وعلم الآثار والأنثروبولوچيا اللغوية والأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية . أما الفصل الثانى فكتبه السيد الدكتور / مصطفى عوض إبراهيم مدرس الأنثروبولوچيا بجامعة الاسكندرية بعنوان : « الأنثروبولوجيا الفيزيقية والتنوع البشرى » ، وناقش من خلاله أهمية المعالجات الفيزيقية لوجود الإنسان وخصوصاً من منظور البيولوجيا البشرية ، فجاءت اهتمامات هذا الفصل منصبة على التصنيف الطبيعى للإنسان ، والسمات العامة للرئيسيات ، والخصائص المميزة للإنسان ، ومفهوم الجنس والنوع والسلالة ، والعوامل التى تؤدى إلى ظهور الصفات السلالية ، والصفات المورفولوجية العامة للجماعات البشرية الرئيسية ، والاختلافات الفيزيقية بين الجماعات البشرية كسمات تكيفية . وكتبت السيدة الدكتورة مرفت العشماوى عثمان المدرس بقسم الأنثروبولوچيا بجامعة الاسكندرية الفصل الثالث بعنوان «الملاحظة فى الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية » ليعالج إحدى الأدوات الرئيسية لجميع البيانات والمعلوم فى البحث الأنثروبولوچى، فالملاحظة العلمية

يمكنها الاستعانة بأدوات ووسائل علمية أخرى تمكن من القياس والدقة ضماناً للوصول إلى نتائج موضوعية. هذا وناقش الفصل ماهية الملاحظة واستخداماتها وقواعد وأسس إجرائها، وما تتسم به الملاحظة من مزايا وعيوب أثناء تطبيقات البحوث الحقلية ثم عرض الفصل لأهم أنواع الملاحظة ونماذج لاستخداماتها فضلاً عن الأسس الأخلاقية التي يجب أن يتسم بها القائم بالملاحظة . أما الفصل الرابع فجاء بعنوان « البناء الاجتماعي للمؤسسات الطبية » وكتبته السيدة الدكتورة فادية فؤاد حميدو مدرس الأنثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية ليناقش طبيعة العلاقات الاجتماعية في ضوء نظرية البناء الاجتماعي باعتبارها أحد الاهتمامات الرئيسية للأنثروبولوجيا الاجتماعية ، موضحة طبيعة العلاقات باعتبارها التي تقدم عليها المؤسسات الطبية ، ومدى عمق تلك العلاقات وطبيعتها الدائمة والمؤقتة وذلك من خلال دراسة ميدانية أجرتها صاحبة هذا العمل العلمي في بعض مستشفيات جامعة الاسكندرية .

أما الفصل الخامس بعنوان « الأنثروبولوچيا ودراسات التنمية » فكتبه الأستاذ الدكتور فاروق أحمد مصطفى أستاذ الأنثروبولوچيا بجامعة الاسكندرية وناقش فيه دور وأهمية الأنثروبولوچيا منذ القرن التاسع عشر حين بدأ الاهتمام بتنمية المجتمعات الإنسانية والعمل على دراسة أسبابها ومقوماتها ومعوقاتها ونتائجها بين الشعوب والمجتمعات المختلفة ، حيث ظهرت أهمية الأنثروبولوچيا التطبيقية في دراسة التغير والتنمية في شتى المجالات مع عرض لأهم أسس التنمية الاجتماعية ومدى تطبيقها على مجتمع النوبة المصرية من خلال دراسة أجراها سيادته موضحاً فيها أهمية مجتمع النوبة كحالة خاصة متمايزة ثقافياً واجتماعياً وعرقياً مع عرض وجهة نظر المجتمع نفسه في تلك التغيرات ، كما ناقش الفصل النظرة المستقبلية لوضع النوبيين في كل من مجتمع النوبة القديمة والنوبة الجديدة في شمال أسوان ودور الأنثروبولوچيين في دراسة التنمية .

أما الفصل السادس فجاء بعنوان « الأنثروبولوچيا الطبية ودراسة المرضى وكتبته السيدة الدكتورة هندومة محمد أنور حامد الأستاذ المساعد بقسم الأنثروبولوچيا بجامعة الاسكندرية ، وتناولت من خلاله بالدراسة والتحليل مفهوم

المرض ومداخل دراسة المرض ونظرية المرض في ضوء الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية ومراحل المرض والأدوار الاجتماعية للمرض والمرض والتحولات الاجتماعية والمرض والفئات العمرية والنوعية والمهنية وتصنيف المرض. وجاء الفصل السابع الذى كتبته السيدة الدكتورة نادية أحمد محمد مدرس الأنثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية بعنوان « الأنثروبولوجيا الثقافية والبحث الأركيولوجى » ، حيث قدم الفصل عرضاً لأهمية الدراسات الأركيولوجية باعتبارها علماً مستقبلاً مر بعدة تطورات أهمها أركيولوجيا ما قبل التاريخ والأركيولوجيا التاريخية ، والأركيولوجيا الحديثة وما يطلق عليها الآن اسم الأركيولوجيا الأنثروبولوجية والتى لا تهتم فقط بتسجيل الثقافات وعناصرها فى الماضى ، وإنما تولى اهتماماً خاصاً بتسجيل ورصد الثقافات المادية فى المجتمعات المعاصرة. وجاء الفصل الثامن بعنوان « الأنثروبولوجيا الفلسفية النشأة والاهتمامات» وكتبه الأستاذ الدكتور محمد عباس إبراهيم مناقشاً التفسير الفلسفى/ الأنثروبولوجى للظواهر سواء تلك التى كانت محل إهتمام من جانب علم اجتماع المعرفة، أو تلك التى كانت مثار اهتمام من جانب علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية ، وقد عرض هذا الفصل لأهم التطورات الفكرية فى مجال علم اجتماع المعرفة والمدخل الفكرى المنهجى للأنثروبولوجيا الفلسفية ودورها فى تحليل الظاهرات المختلفة ، وكانت نقطة البداية والإنطلاق فى المعالجة مستندة بصفة أساسية على فكر المفكر الفرنسى بول ريكور فى الحرية والإرادة وأنثروبولوجيا الحرية ، والحرية والطبيعة ، والحرية وإتخاذ القرار ، والحرية والفعل ، والحرية وقبول الفعل ، فضلاً عن مناقشة مبحث ذاتية الجوهر ، والحرية والقابلية للخطأ ، والأنثروبولوجيا الفلسفية ورمزية الحرية ومضمون الأسطورة ، أما الفصل التاسع فجاء بعنوان « تطبيقات المنهج التاريخى فى الأنثروبولوجيا » فقد كتبه السيد الدكتور مصطفى عمر حماده أستاذ مساعد الأنثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية ، وعالج فيه أهمية المنهج التاريخى فى تطور الدراسات الأنثروبولوجية على المستويين النظرى والميدانى ، وذلك من خلال عرض الجذور التاريخية للأنثروبولوجيا فى علاقتها بالتاريخ والمنهج التاريخى ، وتاريخ البحث وتطويرها

فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية المختلفة كإصلاح النظم التعليمية والقضائية والوسائل الفنية والتكنولوجية فى الزراعة والصناعة ، وغيرها .

وهكذا يأتى الكتاب فى عمل جماعى مشترك ليقدم فكرة واضحة لمفهوم الأنثروبولوجيا ومجالات الدراسة بها وتطبيقاتها المختلفة فى شتى المجالات .

ونأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة للمكتبة العربية فى علوم الإنسان والمجتمع .

والله من وراء القصد ،

الاسكندرية فى ٢٠/٨/٢٠٠٧

دكتور

محمد عباس إبراهيم

فهرس المحتويات

الفصل الأول

فى الأنثروبولوجيا وفروعها *

- مقدمة
- التعريف بالأنثروبولوجيا
- الخصائص المميزة للأنثروبولوجيا
- الأقسام الفرعية للأنثروبولوجيا
  - الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية)
  - علم الآثار (الأركيولوجيا)
  - الأنثروبولوجيا اللغوية
  - الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية
- مراجع ومصادر الفصل الأول

---

* كتب هذا الفصل الدكتور / حمدى عباس أحمد عبد المنعم مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

الفصل الأول

فى الأنثروبولوجيا وفروعها(*)

• **مقدمة :**

يهدف هذا الفصل إلى التعريف بالأنثروبولوجيا anthropology التى تعنى بأصول وتطور وبنية المجتمعات الإنسانية، وبالكشف عن التشابهات فى السلوك الإنسانى، وبوصف وتفسير الاختلافات البشرية.

هذا، وتهتم الأنثروبولوجيا بعدد هائل من الموضوعات المتنوعة والمختلفة فضلاً عن ارتباطها واتصالها بعدد كبير من الفروع الأخرى للمعرفة نذكر منها – على سبيل المثال – علم الأجتماع sociology والبيولوجيا biology وعلم النفس psychology واللغويات linguistics.

وقد جرت العادة على التمييز بين مجالين رئيسيين فى الأنثروبولوجيا: الأول وهو الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) physical anthropology أما الثانى فهو الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية social and cultural anthropology. فبينما يهتم المجال الأول بالمظاهر البيولوجية للإنسان، يهتم الثانى بدراسة التماثلات والاختلافات الاجتماعية والثقافية.

وتعتبر الثقافة culture – كما سنرى فيما بعد – أحد أهم وأبرز المفهومات الرئيسية فى الأنثروبولوجيا، وهى تشير إلى ما يتعلمه الفرد كى يصبح عضوًا فى مجتمع معين. وإذا كان من الممكن دراسة الثقافات والمجتمعات بطرق عدة، فإن الأنثروبولوجيا معروفة بكونها تعتمد على الدراسة الحقلية fieldwork – وهى الدراسة التى يمكن تعريفها بأنها أسلوب من أساليب البحث الذى يعتمد على المشاركة participating والملاحظة observing وتسجيل recording حياة مجتمع ما من المجتمعات.

(*) كتب هذا الفصل د. حمدى عباس أحمد عبد المنعم، المدرس بقسم الأنثروبولوجيا (كلية الآداب – جامعة الإسكندرية).

هذا وقد كانت الأنثروبولوجيا تهتم فى الماضى بالمجتمعات غير الغربية الصغيرة والبسيطة والغريبة. بيد أن الوضع لم يعد كذلك، إذ يقوم الأنثروبولوجيون فى الوقت الحالى بدراسة الدول الصناعية والنامية أيضًا. فقد يتجه الأنثروبولوجيون إلى دراسة جماعات صغيرة من الصيادين جامعى الطعام فى جنوبى أفريقيا أو جيب من جيوب الفقر فى هارلم Harlem بنيويورك أو قرية صغيرة فى إحدى غابات غينيا الجديدة New Guinea أو إلى دراسة البرلمان الأوروبى The European Parliament.

كما يهتم الأنثروبولوجيون اهتمامًا بالغًا بدراسة الماضى the past ليس فقط باعتباره وسيلة لتفسير الحاضر بل باعتباره هدفًا فى حد ذاته. فالمنهج المقارن comparative method – والذى يعتبر حجر الزاوية للتعميم generalization فى الأنثروبولوجيا – يبدو ملائمًا فقط إن أردنا دراسة كل من المجتمعات القديمة والمعاصرة.

وفى هذا الفصل سوف نقوم بالتعرف على طبيعة الأنثروبولوجيا، وتقديم تاريخية عن نشأتها وتطورها، لننتقل للحديث بعد ذلك عن أهم الخصائص المميز لها، ثم نتناول فى النهاية الفروع والأقسام المختلفة لهذا الفرع من المعرفة.

- **التعريف بالأنثروبولوجيا :**

يمكن النظر للأنثروبولوجيا على أنها علم إنسانى إجتماعى متكامل. فهى تشمل بعدًا اجتماعيًا – ثقافيًا فضلاً عن كونها تضم بعدًا بيولوجيًا – سيكولوجيًا .. كما أنها تعتمد مدخلاً تطوريًا – تاريخيًا فضلاً عن اعتمادها مدخلاً مقارنًا. وبجانب ذلك، فالأنثروبولوجيا – كما ذكرنا – تدرس كلاً من الماضى والحاضر كما تتناول المجتمعات البدائية primitive والتقليدية traditional بالإضافة إلى المجتمعات الحديثة أو العصرية modernity . وعلى هذا، يمكن القول أنه ليس بمقدور أى فرع آخر من فروع المعرفة – سوى الأنثروبولوجيا – تبنى الشعار الكلاسيكى الشهير الذى رفعه ترينس Terence حين قال "أنا كائن بشرى ... ولا شىء بشرى غريب علىّ".

وبإلقاء نظرة سريعه على تاريخ الأنثروبولوجيا نجد أن هناك تقليدان رئيسيان قد توجدا معًا جنبًا إلى جنب. التقليد الأول ويعرف باسم الأنثروبولوجيا العلمية scientific anthropology ويهتم هذا التقليد فى أساسه بوصف وتفسير الظواهر، أما الثانى فيطلق عليه اسم الأنثروبولوجيا الإنسانية humanistic anthropology ويهتم بتفسير الثقافات وبشرح وتوضيح معنى هذه الثقافات. هذا، وهناك بعض الكتاب من الأنثروبولوجيين الذين يميلون إلى رؤية الأنثروبولوجيا بأنها علم يهدف إلى التعميمات generalizations وتقديم التفسيرات السببية casual explancitions، كما يميل هؤلاء إلى إعتبار الأنثروبولوجيا الإنسانية قسمًا متممًا للحقل العلمي ومكملًا له. ومهما يكن من شيء، فالأنثروبولوجيا يجب أن تتميز فى النهاية بالموضوعية to be objective، كما يجب أن تخضع فروضها وقضاياها إلى المعايير العلمية المتعارف عليها.

هذا وقد ظهرت أسس الأنثروبولوجيا بنهايات القرن التاسع عشر بفضل إنجازات ومجهودات المفكرين التطوريين الذين استوحوا أفكارهم إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من ما يعرف باسم "الثورة الدارونية" Darwinian Revolution. وقد استطاع الرواد الأوائل من أمثال لويس هـ. مورجان Lewis H. Morgan وإدوارد ب. تايلور Edward B. Tylor – استنادًا إلى النذر اليسير من المعرفة والمعلومات المستقاة مباشرة من المجتمعات البدائية – أستطاعوا وضع أسس المنهج المقارن comparative method وقدموا إسهامات جوهرية للأنثروبولوجيا. فقد أرسى "تايلور" قواعد الأنثروبولوجيا محددًا إياها بإعتبارها علم الثقافة the science of culture ويبدو هذا واضحًا فى مستهل كتابه "الثقافة البدائية" primitive culture الذى ظهر عام ١٨٧١ والذى عرّف فيه الثقافة على أنها «ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والقانون والأخلاق والعرف وأى قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بإعتباره عضوًا فى المجتمع». أما "مورجان" فيعود له الفضل فى تأسيس وإرساء القواعد المتعلقة بدراسات القرابة Kinship studies.

أما الأنثروبولوجيا باعتبارها فرعًا من فروع المعرفة الأكاديميه فقد ظهرت مع العقود الأولى من القرن العشرين، وهى الفترة التى شهدت القيام بدراسات حول المجتمعات البدائية، وتحديد الافتراضات النظرية، بالإضافة إلى استحداث بعض المناصب والوظائف الجامعية، وتأسيس الجمعيات الأنثروبولوجية. هذا وتعتبر الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا من أهم الدول التى لعبت دورًا بارزًا فى هذا المجال أثناء هذه المرحلة التأسيسية.

أما مؤسس الأنثروبولوجيا الأمريكية فهو الألمانى فرانز بواس Franz Boas الذى ارتاد مجال الدراسة الحقلية متحديًا فى ذلك مبدأ التطورية evolutionism ومؤكدًا على ضرورة دراسة الثقافة المفردة أو المستقلة القائمة بذاتها individual cultures. هذا وقد تأثر عدد كبير من الأنثروبولوجيين الأمريكيين الذين ظهروا فى النصف الأول من القرن العشرين "بفرانز بواس" ولعل أبرزهم ألفريد كروبر Alfred Kroeber وروبرت لوى Robert Lowie ومرجريت ميد Margret Mead وروث بينديكت Ruth Benedict. كما أخذ عدد أعضاء الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية The American Anthropological Association فى الازدياد بشكل ملحوظ : ففى عام ١٩١٠ كان عدد أعضائها ٣٠٠ عضوًا، وفى عام ١٩٥٠ ارتفع هذا العدد إلى ٢٢٦٠ عضوًا، بينما تضم هذه الجمعية الآن أكثر من ١٠ آلاف عضوًا. هذا، وعادة ما يشار إلى المدخل الذى تبناه "بواس" وتلاميذه باسم مبدأ "الخصوصية التاريخية" historical particularism ويعود سبب هذه التسمية إلى "بواس" وأتباعه قد ذهبوا إلى أن أفضل سبيل لتفسير الواقعة الثقافية cultural fact هو الرجوع إلى سوابقها التاريخية historical antecedents. هذا وتعرف الأنثروبولوجيا فى الولايات المتحدة الأمريكية باسم "الأنثروبولوجيا الثقافية" لأنها تولى اهتمامًا كبيرًا لدراسة الأنماط الثقافية cultural patterns.

أما فى فرنسا فقد أخذت التطورات التى طرأت على الأنثروبولوجيا منحى آخر واستطاعت المدرسة الدوركايمية The Durkheimian School والتى كانت

تضم كل من إميل دوركايم Emile Durkheim ومارسل موس Marcel Maus واونرى هوبير Henry Hubert وكلستين بوجليه Celestine Bouglé وفرانسوا سيميان François Simiand وموريس هلبواش Murice Halbwachs وآخرون – استطاعت هذه المدرسة تأسيس علم الاجتماع Sociology استنادًا إلى قواعد وأسس علمية. فعلم الاجتماع الدوركايمى كان على هذا النحو شاملاً وجامعًا لكل العلوم الاجتماعية الأخرى. أما من الناحية المنهجية، فقد قام دوركايم بتعريف الوقائع الاجتماعية Social facts موضحًا كيفية بناء أو إقامة النماذج الاجتماعية social types والمقارنة بينها. وبالإضافة لذلك قام دوركايم ببيان الكيفية التى يمكن بها صياغة الفروض العلمية. ولعل أهم الافتراضات التى وضعها دوركايم بشأن المجتمع هو الفرض القائل بأن البناء الاجتماعى social structure لمجتمع ما يكون مسئولاً عن تشكيل أفكار هذا المجتمع، وهو الأمر الذى أوضحه دوركايم فى دراسته الشهيرة للدين لدى سكان أستراليا الأصليين والتى ضمنها كتابه الذى يحمل عنوان "الأشكال الأولية للحياة الدينية Les élémentaire de la vie religious" عام ١٩١٢ والذى ترجم إلى الإنجليزية عام ١٩١٥.

هذا، وقد كان تأثير دوركايم على التطور النظرى للأنثروبولوجيا -- سيما فى بريطانيا – تأثيرًا واضحًا لا يخامره شك. أما الأسماء البارزة لمؤسسى الأنثروبولوجيا فى بريطانيا فى تلك الفترة فقد ضمنت برونسلاو مالينوسكى Bronislaw Malinowski وراد – كليف براون A.R. Radcliffe – Brown. فالأول يعود له الفضل فى إعطاء الأنثروبولوجيا شكلها المميز والذى يتمثل فى الدراسة الحقلية fieldwork والتى تعنى الملاحظة (المركزة) بالمشاركة intensive participant observation لإحدى الثقافات الدخيلة أو الغريبة على الباحث. وفى هذا الصدد يمكن القول أن دراسته لسكان جزر التروبرياند فى المحيط الهادى the trobriand Islanders of the Pacific تعتبر من الدراسات الأسطورية التى اعتمدت هذه الطريقة وهنا ينبغى التذكير بأن مهمة الأنثروبولوجى تتمثل فى اكتشاف وظيفة كل

نظام من نظم المجتمع (فالدين – على سبيل المثال – يشبع الحاجة إلى البقاء). أما بالنسبة لراد – كليف براون فقد نظر إلى الأنثروبولوجيا باعتبارها فرعًا مقارنًا من علم الاجتماع a comparative branch of sociology سائرًا بذلك فى ركب الاتجاه الدوركايمى. هذا، ويعرف المدخل الذى تبناه راد – كليف براون باسم الاتجاه البنائى الوظيفى structural functionalism ويركز هذا الاتجاه على الكيفية التى تسهم بها مؤسسات ونظم المجتمع institutions فى الحفاظ على النسق الاجتماعى the social system. ويرتكز هذا الاتجاه على مفهوم البناء الاجتماعى social structure الذى يشير إلى علاقات الجماعات داخل مجتمع ما. وبسبب التركيز الشديد والمحدد على هذا المفهوم – أى مفهوم البناء الاجتماعى – تُعرف الأنثروبولوجيا فى بريطانيا «والدول الأخرى التى تسلك ذات النهج» باسم الأنثروبولجيا الاجتماعية social anthropology.

وعلى أية حال، يمكن القول بأن الاختلافات بين الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية هى اختلافات تتعلق بمسألة التأكيد أو التركيز على دراسة موضوعات بعينها أكثر من ارتباطها بالمحتوى أو المضمون ذاته كما سنرى عند تناول الأقسام الفرعية للأنثروبولوجيا فى القسم الأخير من هذا الفصل.

- **الخصائص المميزة للأنثروبولوجيا :**

ذكرنا من قبل أن العديد من العلوم والمعارف تهتم بمظهر أو بآخر من مظاهر الإنسان وإنجازاته. فما الذى يميز الأنثروبولوجيا إذن ويجعلنا نصفها بكونها "علم الإنسان" ؟

(١)

المميزة الأولى التى تميز الأنثروبولوجيا عن غيرها من العلوم الأخرى تتمثل فى كونها "دراسة للجنس البشرى فى عمومه" the study of mankind as a whole. فإذا نظرنا نظرة سريعة إلى العلوم الأخرى نجد – على سبيل المثال – أن علم السياسة يدرس الحكومات الإنسانية، وأن علم الاقتصاد يدرس الإنتاج وتوزيع السلع، وأن علم وظائف الأعصاب يدرس الجهاز العصبى للإنسان، وأن فن العمارة

أو البناء يدرس سكنى الإنسان، وأن علم الاجتماع يدرس المجتمع الذى يحيا فيه الإنسان. معنى هذا أن أحدًا من هذه العلوم أو أيًا من العلوم الأخرى المتخصصة التى قد نسميها يقوم بدراسة كل المظاهر المتعلقة بالكائن البشرى والأنشطة المرتبطة به بطريقة شاملة. فمن الأمور المهمة فى الأنثروبولوجيا هو أنه لا يمكن فهم أحد الأجزاء فهمًا كاملاً – أو حتى لائقا – بمعزل عن الكل والعكس صحيح، فلا يمكن إدراك الكل – أى الإنسان بكل مظاهره – إدراكًا جيدًا دون معرفة دقيقة بالأجزاء المكونة له. وعلى هذا فالأنثروبولوجيا تستمد أساسها بالفعل من كل مجالات المعرفة، وإن مهارات الأنثروبولوجى يجب أن تكون – إذن- على درجة عالية من التنوع. إلا أن توحد وشمول هذه المعرفة المتطلبة لا يتأتيان إلا من خلال التركيز على التصور الكلى للإنسان والثقافة.

أما الميزة الثانية من مميزات الأنثروبولوجيا فتتمثل فى أنها قد كرست نفسها منذ أمد بعيد بالتزامها "المنهج المقارن" comparative method. فعالم الأنثروبولوجيا لا يطلق تعميمات generalizations حول الطبيعة الإنسانية استنادًا إلى خبرته بالمجتمع الذى ينتمى إليه وحدها، أو حتى استنادًا إلى خبرته بمجتمعين أو ثلاث قام هو بدراستها –لاسيما إذا كانت هذه المجتمعات مرتبطة بنفس التقليد الثقافى الذى نشأ فيه الباحث وتربى واكتسب منه ثقافته.

فإذا كنا بصدد دراسة الإنسان والطبيعة البشرية فإننا نكون بحاجة ماسة لتتبع ومعرفة الخط العام الذى سارت فيه البيولوجيا البشرية والسلوك البشرى والأشكال الإجتماعية البشرية. ولإكتساب هذه المعرفة، يقوم عالم الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) بدراسة ومقارنة أكبر عدد ممكن من المجتمعات البشرية القديمة والحديثة لتحديد الخصائص البيولوجية التى قد يشترك أو يختلف فيها الجنس البشرى. أما المتخصص فى الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية فيقوم بدراسة ومقارنة أكبر عدد ممكن من المجتمعات البشرية – البدائية منها والمتحضرة- فى كافة بقاع العالم للتعرف على المقومات الاجتماعية والثقافية العامة التى تميز السلوك البشرى. فى

حين يتولى المتخصص فى الأنثروبولوجيا العامة ربط هذه المظاهر الفيزيقية والثقافية والاجتماعية على اختلافها وإيجاد العلاقة بينها.

أما الميزة الثالثة للأنثروبولوجيا فهى تمتعها بالدراسة الحقلية fieldwork كبديل للمختبر التجريبى. فالعالم التجريبى – كالكيميائى مثلاً- عندما يواجه مشكلة ما، يقوم بإجراء تجربة مصممة خصيصًا لاختبار صحة الفروض موضع اهتمامه. فالهدف من الاختبار المعملي هو معالجة وضبط مقدار وتأثير عوامل محددة سلفا لمعرفة الكيفية التى يؤثر بها كل منها فى الآخر. وعادة ما تكون هذه الأداة الرئيسية المستخدمة فى العلوم الطبيعية غير متاحة (أو غير قابلة للتطبيق) فى مجال العلوم الاجتماعية التى يجب أن تعتمد – وإلى حد بعيد – على ملاحظة الأوضاع الكائنة بالفعل أكثر من اعتمادها على تلك المصممة تجريبيًا لمواجهة الاحتياجات (المعملية). ومع هذا، وجد الأنثروبولوجيون بديلاً فعالاً للتغلب على هذه المشكلة وذلك بدمج الدراسات الحقلية بالمنهج المقارن. فلحل إحدى المشكلات البحثية يتجه الأنثروبولوجي إلى دراسة مجتمع أو عدد من المجتمعات التى تتميز بوجود مزيج من العوامل الضرورية لاختبار النظرية أو الفرض محل الدراسة. فالباحث الأنثروبولوجى يقوم هنا بفحص بيانات أو معلومات منشورة بتقارير ميدانية سابقة يتحصل عليها من المكتبات الأنثروبولوجية، أو قد يخطط للقيام بدراسة حقلية كقبيلة ما أو مجتمع معين ولهدف محدد.

ميزة أخرى وأخيرة للأنثروبولوجيا تتمثل فى تطويرها لمفهوم "الثقافة" The concept of culture الذى – وكما سبق الإشارة- يحتل أهمية كبيرة فى الفكر الأنثروبولوجى. فبجانب تعريف تايلور الكلاسيكى الشهير المنوه عنه سلفا – يمكن تعريف الثقافة بأنها : «النسق المُوحد لأنماط السلوك المكتسب المميز لأعضاء مجتمع ما والذى لا يكون ناتجًا عن الوراثة البيولوجية». فالثقافة إذن لا تكون محددة سلفًا بالعومل الجينية، وهى ليست فطرية أو غريزية. فهى برمتها محصلة أو نتاج لإبتكار إجتماعى «أى أنها أداة إجتماعية مبتكرة / أو مبتدعة اجتماعيًا»، كما أنها تنتقل وتكتسب من خلال الاتصال والتعلم فحسب.

تلك كانت المكونات الأساسية لمفهوم الثقافة كما يتضح من الاستخدامات الحالية لهذا المصطلح من قبل معظم علماء الأنثروبولوجيا. وبالطبع ... يمكن التعبير عما يعنيه هذا المصطلح بأساليب وصور أخرى كثيرة. فبعد استعراض وفحص وتقييم نحو ٥٠٠ من التعبيرات والاستخدامات الخاصة بهذا المصطلح، تمكن كل من كروبر Krober وكلاكهون Klukhohn من وضع الصيغة التالية للثقافة : «تتكون الثقافة من الأنماط الظاهرة الكامنة للسلوك المكتسب والمنتقل عن طريق الرموز – وهى الأنماط التى تشكل الإنجازات المميزة للجماعات البشرية بما فيها تلك الإنجازات المتمثلة فى كل ما يصنعه الإنسان». ويكمن جوهر الثقافة فى الأفكار التقليدية المشكلة والمنتقاة تاريخيًا وكذا فى القيم المتصلة بهذه الأفكار. فمن ناحية، يمكن النظر لأنساق الثقافة culture systems باعتبارها نتاجًا للسلوك، أو بوصفها – من ناحية أخرى – عوامل تكيفية للأنشطة السلوكية. وإذا كان لكل مجتمع ثقافته الخاصة المميزة له، فإننا نجد أن السلوك المميز لأعضاء مجتمع ما يكون مغايرًا للسلوك المميز لأعضاء كل المجتمعات الأخرى. هذا وتوضح الدراسات الأنثروبولوجية أن السلوك المميز للجماعات البشرية المختلفة أو الاختلافات السلالية – على سبيل المثال – هى بلا شك نتاج للخبرة الثقافية أكثر من كونها نتيجة للموروثات الجينية.

• <u>الأقسام الفرعية للأنثروبولوجيا</u> :

يتضح من كل ما سبق أن مجال الأنثروبولوجيا هو مجال متسع ورحب. فالانثروبولوجيا هى دراسة الجنس البشرى mankind بكل أبعاده. وصحيح أن الكائنات البشرية – كما رأينا – تكون أيضًا محل اهتمام ودراسة من قبل الفروع الأخرى من المعرفة مثل علم الحياة biology وعلم النفس psychology، وصحيح أيضًا أن المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد وعلماء السياسة وغيرهم من العلماء الاجتماعيين يقومون هم أيضًا بدراسة مظاهر مختلفة للجنس البشرى، إلا أن الأنثروبولوجيا تتخطى وتتمم فى الوقت ذاته كل هذه الأفرع المختلفة من المعرفة.

فالأنثروبولوجيا فى أوج صور شمولها يمكن أن توصف بأنها الفرع الوحيد من المعرفة الذى فى وضع يسمح له بإحداث وخلق توليفة أو تركيبة متكاملة من كل هذه المعارف المختلفة والمتنوعة.

فمن الناحية التقليدية، تنقسم الأنثروبولوجيا إلى عدد من الأفرع هى: الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) أو البيولوجية biological / physical anthropology والأركيولوجيا archaeology، والأنثروبولوجيا اللغوية linguistic anthropology، والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية social – and – cultural anthropology. أما الأنثروبولوجيا السيكولوجية psychological anthropology فيمكن رؤيتها باعتبارها أحد المجالات الفرعية للأنثروبولوجيا الثقافية. ويعكس هذا التقسيم بوضوح المنظور الأمريكى، إذ تقوم أقسام الأنثر وبولوجيا فى الجامعات الأمريكية بتدريس كل هذه الفروع المختلفة وإعداد الطلاب بحيث يكون بإمكانهم فى النهاية الإلمام الكافى بطبيعة الأنثروبولوجيا، وذلك بالرغم من أنهم يتجهون فى نهاية الأمر. إلى التخصص فى مجال واحد محدد. أما فى بريطانيا، فتتخصص معظم أقسام الأنثروبولوجيا فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية social anthropology دونما الأنثروبولوجيا الفيزيقية أو الأركيولوجيا، إذ أن هناك عدد ضئيل فقط من الأقسام التى تتبع النموذج الأمريكى. وعادة ما يكون الطلاب متأثرين بتطورات علم الاجتماع أكثر من أى شىء آخر. وعمومًا، نجد أن معظم طلاب الأنثروبولوجيا سواء فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى أوروبا يتخصصون فى الأنثروبولوجيا الثقافية / الاجتماعية.

وفيما يلى نتناول بشىء من التفصيل كل فرع من الفروع الأربع الرئيسية التى تشكل الأنثروبولوجيا.

أولاً: الأنثروبولوجيا الطبيعية(الفيزيقية) Physical anthropology :

الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) أو البيولوجية physical or biological anthropology تدرس البشر – باعتبارهم كائنات بيولوجية حية – فى إطار التطور evolution. وهى تركز فى دراستها هذه على التفاعل بين البيولوجيا والثقافة. فالبشر من الرئيسيات primates، وهم قد يتقاسمون ماضيًا مشتركًا مع الرئيسيات الأولية pro-simians والقردة monkeys والقردة العليا apes. ومن خلال الدراسة والفحص الدقيقين للحفريات fossils بجانب ملاحظة الرئيسيات الحية تسعى الأنثروبولوجيا الفيزيقية إلى فهم الصورة التى عليها البشر الآن.

هذا، وقد ظهرت الأنثروبولوجيا الفيزيقية فى القرن التاسع عشر كنتيجة لاهتمام المؤرخين الطبيعيين natural historians بأصول وتطور النوع الإنسانى. وهنا واجه النموذج التوراتى biblical model – وباضطراد – نقدًا لاذعًا حين أثيرت المسألة المتعلقة بمدى قِدم الجنس البشرى، إذ كان لاكتشاف البقايا الحفرية لإنسان نياندرثال Neanderthal man – والذى وجدت أولى بقاياه فى العام ١٨٥٦ – أثر كبير فى توفير المادة اللازمة للبحث فى هذا المجال. بيد أن مؤلف تشارلز داروين Charles Darwin الذى ظهر عام ١٨٥٩ تحت عنوان "أصل الأنواع" The Origin of species كان هو السبب الرئيسى فى إذكاء الاهتمام بمسألة التطور البشرى human evolution.

وحين نتحدث عن الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) فإننا عادة ما نأخذ فى الاعتبار أربع أقسام فرعية أساسية وهى : الباليوأنثروبولوجيا أو علم الإنسان القديم أو الإحاثى palaeo anthropology والذى كان يعرف سلفًا باسم "علم الإحاثة البشرية human palaeontology"، وعلم الوراثة genetics، ودراسة الرئيسيات primatology، والإيكولوجيا البشرية human ecology.

هذا ويعتبر القسم الأول هو الأهم بين أقسام الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية)، إذ يشير هذا القسم إلى دراسة التطور البشرى human evolution كما

ينعكس فى السجل الحفرى fossil record، ويتوفر المتخصصون فى علم الإنسان القديم أو الإحاثى حتى اليوم على الآلاف من الحفريات التى تغطى حوالى من ٤ إلى ٥ مليون سنة من عمر الحياة البشرية والأسلاف المباشرين للجنس البشرى. فبالإستعانة بهذا السجل الحفرى – رغم عدم اكتماله – يقوم هؤلاء المتخصصين بوضع الفروض والتصورات حول ظهور أسلاف الإنسان الأول والعملية التطورية التى أدت إلى نشوء الإنسان الحديث modern man.

أما القسم الثانى من أقسام الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) فيتمثل فى علم الوراثة genetics. ويدرس هذا القسم آليات وأسباب الاختلاف الوراثى والبيولوجى. وقد تشكلت البنية العلمية الرئيسية الخاصة بالفروض الوراثية نتيجة لتطور البيولوجيا الجزيئية molecular biology فى الخمسينات من القرن الفائت. هذا ويتيح علم الوراثة إمكانية لدراسة العمليات التطورية evolutionary processes وبالتالى الوقوف على التكيفات المصاحبة لها adaptations.

هذا وتستخدم أساليب علم الوراثة لقياس المسافة التطورية بين الرئيسيات والإنسان من جهة، وبين الأنواع المختلفة التى تمثل الأسلاف المباشرين للكائنات البشرية من الجهة الأخرى.

وبعبارة أخرى ... إذا كان موضوع تطور الإنسان يطرح سؤالين : "ماذا حدث؟" و"كيف حدث هذا؟ "، فإن إجابة السؤال الأول تتأتى – وبإستفاضة – من خلال الدراسة المقارنة للحفريات (بما فى ذلك حفريات القردة والقردة العليا والإنسان) وهى الدراسة التى تدخل فى نطاق "علم الإحاثة" palaeontology و"الباليوانثروبولوجيا" palaeoanthropology التى عرفت أيضًا باسم علم الإحاثة البشرية human palaeontology كما أوضحنا من قبل. بينما تنبثق الإجابة عن السؤال الثانى – "كيف حث هذا؟"- من علم الوراثة البشرية ودراسة التكيف البيولوجى مع البيئة وكلاهما يقعان فى نطاق الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية).

أما القسم الثالث من الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) فيعنى بدراسة الرئيسيات primatology إذ يتناول هذا القسم تشريح وسلوك الرئيسات غير البشرية

والتى تضم الرئيسات الأولية pro-simians والقردة والقردة العليا. كما يولى هذا القسم أهمية خاصة لملاحظة هذه الحيوانات فى بيئتها الطبيعية. هذا، وقد ألقت الدراسات التى أجريت على القردة العليا great apes (والتى تضم الشمبانزى والبونوبوز والغوريللا والأورانج أوتان).. ألقت هذه الدراسات الضوء على عدد من المجالات مثل: رعاية الصغار، والسلوك الاجتماعى، والاتصال، والسلوك المنتج – وهى مجالات وثيقة الصلة بفهم السلوك البشرى.

أما الإيكولوجيا البشرية human ecology وهى القسم الرابع من أقسام الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) – فتدرس المسألة المتعلقة بالتفاعل البشرى مع البيئة environment. فالبيئة بالنسبة لأى تعداد سكانى معين تشمل الجماعات الأخرى من البشر والكائنات الحية من غير البشر (من نبات وحيوان) بالإضافة إلى المقومات الطبيعية physical features (كالبحيرات والأنهار والمحيطات والجبال ... وهلمجرا). هذا، ويشار إلى كل هذه الأنواع المختلفة التى تشارك فى بيئة معينة باسم"النسق البيئى" ecosystem. هذا، وتشكل الموضوعات المرتبطة بالإغتذاء والخصوبة والنمو والتكيف النفسى مع المناخ والارتفاع عن سطح البحر – تشكل هذه الموضوعات وغيرها محاورًا أساسية فى دراسة الايكولوجيا البشرية. ومن المفهومات التى تحتل أهمية خاصة لهذا القسم من الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) مفهوم "التكيف" adaptation والذى يشير إلى العملية التى يمكن للكائنات البشرية من خلالها استغلال البيئة الاستغلال الأمثل الذى يؤتى فى نهاية الأمر بنتائج مثمرة من شأنها الحفاظ على النسق البيئى برمته.

ثانيًا : علم الآثار archaeology :

تشتق كلمة أركيولوجيا من اليونانية أرخيوس archaios بمعنى قديم، وlogia بمعنى دراسة. وعلى هذا يعنى المعنى الحرفى للكلمة "دراسة القديم". هذا، وقد يختلط مفهوم هذه الكلمة مع مفهوم الأنثروبولوجيا لدى غير المتخصصين. فهؤلاء الذين لم يسمعوا قط بالانثولوجيا ويعرفون شيئًا عن هؤلاء العلماء الذين يستخرجون بالحفر هياكلا عظمية وأدوات حجرية يعتقدون أن هذه هى الأنثروبولوجيا. وصحيح أن الأركيولوجيا هى قسم هام من أقسام الأنثروبولوجيا، إلا أنها لا تعدو سوى فرعًا ولا يجب أن تختلط مع الكل.

هذا، وتهتم الأركيولوجيا باستعادة بقايا الإنسان القديم وتجريد غطاء الأرض من البقايا المادية لثقافاته القديمة لإكتشاف ما تبقى منها. وعلاوة على الدور الواضح المتمثل فى ملئ نوافذ العرض وعنابر المتاحف، تتمثل الأهمية الفعلية للأركيولوجيا فى الدور الذى تلعبه فى تزويد علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) ودارسى التاريخ الثقافى cultural history بشواهد وأدلة من الماضى يمكن إخضاعها للتحليل العلمى.

وعلى هذا، تشير الأركيولوجيا فى معناها العام إلى اكتشاف وتحليل وتفسير الثقافات المادية material culture أو البقايا المادية القديمة past material remains بغرض تفسير السلوك البشرى. فالثقافة المادية تختص بالمظاهر الفيزيقية للأنشطة البشرية وهى المظاهر المتمثلة – على سبيل المثال – فى الآلات والأدوات والفخار والمبانى والأوعية المدفونة وغيرها. فهذه البقايا والوضع الذى كانت عليه حين اكتشافها من شأنهما توفير الدلائل والمعلومات التى تعين الأركيولوجيين على وضع الفروض المتعلقة بالسلوك البشرى.

فأحد أهم أهداف الأركيولوجيا – إذن – يتمثل فى إعادة تركيب أسلوب الحياة فى الماضى the reconstruction of a past way of life من خلال الدراسة الدقيقة والمتأنية لبقايا هذا الماضى ومخلفاته. معنى هذا أن ذلك الفرع من المعرفة يتطلب

قياسات دقيقة فضلاً عن الوصف الدقيق والشامل هذا بجانب أساليب وتقنيات الحفر والتنقيب excavation techniques. فمهمة الدراسة الميدانية الأركيولوجية تتمثل فى استخدام أساليب تنقيب مدققة وصارمة بهدف "إعادة تركيب" أكثر اكتمالاً للبعد الزمنى والظروف المعيشية والعلاقات المتبادلة بين البقايا المكتشفة فى وضعها الأصلى. ولتحقيق هذا الهدف الصعب، نجد أن الأركيولوجيين يشتركون فى الوقت الحالى فى مشروعات بحثية متعددة العلوم والمعارف multidisciplinary projects يتعاونون فيها عن كثب مع الإحـ ثيين والكيميائيين والجيولوجيين وغيرهم من المتخصصين فى مجالات أخرى.

هذا، وتأخذنا الأركيولوجيا إلى فترة زمنية أبعد من ما تسمح به فترة الخمسة آلاف سنة الأخيرة التى ظهرت فيها السجلات التاريخية historical records. فلأن إنسان ما قبل التاريخ prehistoric man لم يترك وراءه سجلات مكتوبة أو مدونة، يكون نتاج الجهد الشاق الذى يبذله الأركيولوجى هو كل ما لدينا لدراسة الماضى .. ففى هذه الحالة – بل وفى أغلب الأحوال- يعتمد الأركيولوجى فى إعادة تركيب الثقافات القديمة على الأدلة والشواهد المادية الصامتة (كالمبانى والنصب التذكارية والمواد أو الأدوات المستخرجة بالحفر). وفى أحوال أخرى قد يتمكن الأركيولوجى من دراسة بعض الثقافات المبكرة من خلال الاستعانة بما خلفته هذه الثقافات والحضارات من سجلات مكتوبة أو وثائق مدونة. فألواح الطين السومرية Sumerian clay tablets ولفائف البردى المصرية Egyptian papyrus scrolls والنقوش الرونية المحفورة على الصخر Runic inscriptions –على سبيل المثال – جميعها تعزز معرفتنا للثقافات والحضارات القديمة التى ارتبطت بها.

معنى هذا أن حضارات وثقافات شعوب ما قبل التاريخ والشعوب التاريخية تقع جميعها ضمن مجال الأركيولوجيا. فالأركيولوجى الذى باستطاعته إلحاق المواد التى قام باستخراجها بالحفر بتلك المعلومات التى جمعها من السجلات المكتوبة الخاصة بحضارة أو ثقافة ما – هذا النوع من الأركيولوجيين – يعمل فى نطاق

الأركيولوجيا التقليدية أو الكلاسيكية classical archaeology، أما إذا كان على الأركيولوجى أن يعيد تركيب أساليب الحياة الماضية من خلال الأدلة المستمدة من البقايا المادية وحدها دون سواها فهو يعمل فى نطاق أركيولوجيا ما قبل التاريخ prehistoric archaeology.

وفى كلتا الحالتين علينا أن نذكر بأن تفسير البقايا الأركيولوجية هى مهمة عقلية وذهنية لا تختلف عن تلك التى يضطلع بها الأنثروبولوجيون الآخرون المهتمون بالتاريخ الثقافى والعمليات التطورية. فهى واحدة من المهام المتعلقة بربط الوقائع facts بالمبادئ العامة الملائمة لتفسير ما كان كائنا. وعلى دارسى ما قبل التاريخ فهم الثقافات والعمليات الثقافية cultural processes حتى يكون بمقدورهم "إعادة الحياة" للعظام الميتة والأحجار الصامتة العائدة إلى الماضى السحيق وتقديم مدلول لها. وهذا لن يتأتى – بالطبع – دونما التمرس فى الأنثروبولوجيا العامة general anthropology والتضلع فى معارف بعينها وهى المعارف المرتبطة بعلمى الإحاثة palaeontology والجيولوجيا geology فضلاً عن التمكن من الأساليب والتقنيات المستخدمة فى الأركيولوجيا.

ثالثا : الأنثروبولوجيا اللغوية linguistic anthropology :

إن القول بأن الثقافة الانسانية تكمن فى اللغة لهو حقيقة بدهية. فاللغة المنطوقة هى أهم المظاهر التى تميز الكائنات البشرية عن القردة العليا. فالأخيرة بمقدورها الاتصال لكن بغير لغة منطوقة .. تلك اللغة التى أتاحت للبشر حفظ ثقافتهم ونقلها عبر الأجيال. واكتساب اللغة لهو من الأمور الشائعة والمشتركة لدى كل الجماعات البشرية فانتقال المعلومات من الآباء إلى الأبناء ومن المعلمين إلى التلاميذ ومن جيل إلى آخر هو أمر لا يمكن تصوره بمعزل عن استخدام اللغة سواء أكانت هذه اللغة منطوقة أو مكتوبة.

هذا، وتعرف الدراسة العلمية للغة - بأشكالها المختلفة - باسم اللغويات linguistics. واللغويات هى علم اللغة the science of language. وينظر العديد من اللغويين لعلمهم هذا باعتباره علمًا مستقلا بذاته. كما أن هناك الآن اتجاه متنامى داخل الجامعات الأمريكية لتأسيس أقسام للغويات مستقلة بذاتها كما هو الحال فى الجامعات البريطانية.

وما يعنينا هنا هو أن اللغة هى شكل من أشكال الثقافة ومظهر مهم من مظاهرها يتفاعل - وبطريقة جوهرية - مع كل المظاهر الثقافية الأخرى، وبالتالى يمكن أن تكون اللغة مفهومة على أكمل وجه ضمن السياق الثقافى cultural context. وعليه، فإن الدراسة العلمية كاللغة - فى إطار العلوم الاجتماعية - تظل وإلى حد بعيد فرعًا من فروع الأنثروبولوجيا. ويبدو هذا بجلاء إذا عرفنا أن أقسام الأنثروبولوجيا الكبرى فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية تضمن "التحليل اللغوى" كجانب من برامجها الدراسية. ومع هذا، نجد أن الدراسات اللغوية التقليدية traditional language studies التى تتناول اللغات القديمة "السنسكريتية Sanskrit واليونانية Greek واللاتينية Latin على سبيل المثال" واللغات الهندو-أوربية الحديثة modern Indo-European languages قد شكلت - ولقرون عدة- جانبًا من الأنشطة الجامعية التى تقع خارج نطاق الأنثروبولوجيا وما أن بدأ الأنثروبولوجيون تأسيس

دراساتهم استنادًا إلى الدراسة الحقلية الموضوعية، اضطروا مرغمين لتعلم العديد من اللغات البدائية وذلك من خلال الاحتكاك أو التعامل مع أعضاء المجتمعات محل الدراسة دون وجود كتب للقواعد اللغوية التى تعينهم على القيام بذلك. وقد كان هذا الأمر مدعاة لتطوير نظام عام للكتابة الصوتية a universal system of phonetic ما ادى إلى وجود سجلات أو تسجيلات تحفظ ما كان يتلفظ به الإخباريون المحليون من لغات لا يوجد لها نظم كتابية من أساسه. وقد أدى هذا الوضع إلى إدراك حقيقة مؤداها أن الثقافات المختلفة تنظم الكلام أو الحديث أو الخطاب أو اللغة وفقا لمبادئ مختلفة تمامًا عن تلك التى تحكم اللغات الهندو-أوربية القديمة المألوفة. مأخوذون باكتشافاتهم الجديدة هذه – شرع بعض الأنثروبولوجيين فى تركيز جهودهم على تسجيل اللغات البدائية وتحليلها، فتطورت اللغويات باعتبارها فرعًا متخصصًا من الأنثروبولوجيا.

هذا وتهتم اللغويات الأنثروبولوجية anthroplogical linguistics بمكانة اللغة وبوضعها الصحيح ضمن سياقها الثقافى والاجتماعى الاوسع. وعلى هذا، تتداخل اللغويات الأنثروبولوجية وتشترك إلى حد بعيد مع اللغويات الاجتماعية sociolinguistics. ومن الموضوعات المهمة التى تقع فى نطاق دراسات الأنثروبولوجيا اللغوية نجد –على سبيل المثال لا الحصر – موضوع "اللغة المرتبطة بمصطلحات اللون" the language of colour terminology وموضوع "الجنس من حيث التذكير والتأنيث فى اللغة" gender، وموضوع "اللغة المرتبطة بقواعد الأدب والكياسة" politeness codes، فضلاً عن دراسة اللغات المنطوقة ذائعة الانتشار أو عالمية النطاق the languages spoken world – wide وتاريخ علاقاتها بعضها بالبعض، ودراسة تطور اللغة والثقافة.

رابعًا : الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية

Cultural and social anthropology:

أشرنا سلفًا فى هذا الفصل إلى أن الاختلافات بين الأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الاجتماعية هى لاختلافات ناجمة عن وجود تقليدين وطنيين أو قوميين مختلفين هما التقليد الأمريكى والتقليد البريطانى. فمن الناحية النظرية، يمكن القول أن مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية يكون أضيق من مجال الأنثروبولوجيا الثقافية. فالأنثروبولوجيا الاجتماعية تركز على دراسةِ موضوعات محددة كالقرابة kinship والاقتصاد economic والتنظيم الاجتماعى والسياسى social and political organization والأيديولوجيا ideology (وبخاصة الدين religion والقيم values). أما الأنثروبولوجيا الثقافية – ففضلاً عن كونها تتناول الموضوعات سالفة الذكر والتى تدرسها الأنثروبولوجيا الاجتماعية – تهتم – أيضًا – بدراسة الثقافة المادية material culture ورؤى العالم worldviews والفن art والشخصية personality ..إلخ. وبالإضافة لما سبق، يمكن القول أيضًا أن الأنثروبولوجيا الثقافية تؤكد على دراسة الرموز symbols فى حين تركز الأنثروبولوجيا الاجتماعية على العلاقات الاجتماعية social relations.

على أنه يجدر الإشارة هنا إلى أن طلاب الأنثروبولوجيا يغطون – من الناحية العملية – نفس الموضوعات سواء كانوا يتناولون بالدراسة الأنثروبولوجيا الثقافية أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية، والسبب فى هذا هو أن الخطوط العامة التى تميزهما هى خطوط غير واضحة وذلك على العكس من ما قد توحى به التعريفات الدقيقة المحددة : فموضوع الأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الاجتماعية هو موضوع واحد من غير ريب.

من هنا نرى كيف أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية – الثقافية socio-cultural anthropology تدرس كلاً من المجتمع society والثقافة culture، وهى فى هذا تهتم بوصف وتفسير التشابهات والاختلافات بين هذه المجتمعات والثقافات.

هذا، وقد جرت العادة وفقا للاتجاه الأمريكى على التمييز بين مظهرين مختلفين للأنثروبولوجيا : المظهر الأول وهو الاثنوجرافيا ethnography أما الثانى فهو الاثنولوجيا ethnology.

فالاثنوجرافيا تشكل الأساس الذى تقوم عليه الدراسات الأنثروبولوجية. وتشتق لفظة "اثنوجرافيا" ethnography من المقطعين اليونانيين "إثنوس" ethnos بمعنى "سلالة" أو "ناس" أو "شعب"، و"جرافين" graphein بمعنى "يكتب". وعلى هذا، يكون المعنى الحرفى لكلمة "اثنوجرافيا" هو : "الكتابة عن الشعوب". ويشير هذا المصطلح – كما نستخدمه – إلى الدراسة الوصفية descriptive study للمجتمعات البشرية. وقد كانت معظم الكتابات الاثنوجرافية المبكرة تعتمد كلية على تقارير الرحالة والمبشرين والتجار والعسكريين.

وقبيل نهاية القرن التاسع عشر دخل إلى هذا الميدان ملاحظون مدربون – أمثال فرانز بواس F. Boas – لدراسة المجتمعات الإنسانية بطريقة مباشرة. والآن، نجد أن معظم الدراسات والبحوث الاثنوجرافية تنجز بواسطة أنثروبولوجيين مدربين وعلى دراية فائقة باستخدام أساليب. "الملاحظ – المشارك" – participant observer techniques التى تقتضى "ملاحظة" و"مقابلة" موضوعيتين ونافذتين objective and penetrating observation and interviewing، بالإضافة إلى "الصلة المباشرة والعلاقة الطيبة" empathic rapport مع أعضاء المجتمع محل الدراسة، و"التقارير الدقيقة" accurate reporting. هذا، وتنطوى الدراسات الاثنوجرافية على شيء من الإطار النظرى فى مخططها العام، إلا أنها لا تهتم – على نحو واضح وصريح – بالمشكلات النظرية. وعلينا أن نكرر هنا أن هذه الدراسات الاثنوجرافية هى فى الواقع تقارير وصفية للبيانات ولا تهتم كثيرًا بالمقارنة فى حد ذاتها أو بالفرض أو بالنظرية. فالاثنوجرافيا – على هذا النحو- تمد الأنثروبولوجيا الثقافية – الاجتماعية بالوحدات أو البنية الأساسية المكونة لها.

أما الاثنولوجيا ethnology – والتى يعرفها كروبر Kroeber بأنها "علم الشعوب وثقافاتهم وتواريخ حياتهم" – فتهتم برصد العلاقات المتبادلة بين الشعوب

وبيناتهـا؛ والعلاقـات المتبادلـة بـين الكائنـات البشـرية - ككائنـات حيـة - وثقافاتهـا؛ والعلاقـات المتبادلـة بـين الثقافـات المختلفـة؛ والعلاقـات المتبادلـة بـين المظـاهر أو الأشكال المختلفة للثقافات. فالاثنولوجيا كعلم، تسخر طاقاتها لاستنتاج التفسيرات التى تتعـدى مجـرد الوصـف، مؤكـدة فـى ذلـك علـى التحليـل analysis والمقارنـة comparison. ولأن كل ثقافـة مـن الثقافـات هـى - وبوضـوح - عبـارة عن متصل متغير عبر الزمن، تولى الاثنولوجيا اهتمامًا بالخلفيـة التاريخيـة للثقافات. وفـى بعض الأحيـان يطلـق علـى هـذا الـشكل مـن الاثنولوجيـا اسـم "التـاريخ الثقـافى" cultural history. أمـا عنـدما ينـصب اهتمـام الاثنولوجيـا علـى المبـادئ العامـة للنمـو الثقـافى يعرف هذا الشكل باسم "التطوريـة الثقافيـة" cultural evolutionism. هذا، وتنقسم الاثنولوجيا إلى عدد من المجالات الفرعية وفقًا لدرجـة التخصص بحيث يكون هنـاك متخصصـون - وبالتـالى دراسات متخصصـة - فـى القرابـة البدائيـة والحيـاة العائليـة، والقانون، والحكم والحكومات، والدين، والثقافـة الماديـة والتكنولوجيـا، واللغـة، وفنـون التصوير والنحت والموسيقى والرقص، والفولكلور والأسطورة، أو أى مظهر رئيسى من مظاهر الثقافة الإنسانية التى يمكن التفكير بها.

وإجمـالاً، يمكـن القـول أن اهتمـام الاثنوجرافيا ينصـب فـى المقـام الأول علـى وصـف ثقافـة مجتمـع معين فـى فتـرة زمنيـة معينـة - وهـى بصـفة عامـة فتـرة زيـارة الباحـث الأنثروبولـوجى للمجتمـع محـل الدراسـة. أمـا الاثنولوجيـا فتهـتم بـسلوك الجماعات البشرية سواء أكانـت تـشكل قبائـل صـغيرة يقدر عدد أعضاء الواحدة منها بالمئات أو شعوب وأمم قوام كل منها عدة ملايين نسمة. ويتضمن البحـث الاثنولـوجى إما تحليلاً كاملاً لإحدى الثقافات خلال فترة زمنية محددة، أو مقارنـة عدة ثقافـات وإذا كانت الاثنوجرافيا تشير إلى الدراسات الحقليـة المباشـرة firsthand fieldwork لأحد المجتمعـات اعتمـادًا علـى الملاحظـة بالمـشاركة participant observation، فـإن الاثنولوجيـا تقـوم باختبـار وتحليل ومقارنـة مـا أفضت إليـه الاثنوجرافيـا مـن نتـائج - وذلك بهدف التنظير theorizing أو التعميم generalizing .

وبالرغم من هذه التفرقة الواضحة، فإن مصطلح الاثنولوجيا – والذى كان شائعًا حتى الثلاثينيات من القرن الفائت – يكون مستخدمًا فى أضيق الحدود فى الوقت الراهن.

وعلى أية حال، يشير مصطلح الاثنولوجيا فى التقليد البريطانى إلى إعادة تركيب تاريخ مجتمع ما أو مجموعة من المجتمعات فى منطقة معينة. أما فى معظم أنحاء أوروبا – وقبل اعتماد كلمة "الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الثقافية" فى الستينيات من القرن الفائت - كانت "الاثنولوجيا" هى المصطلح المستخدم للإشارة إلى الدراسة المقارنة comparative study للمجتمعات والثقافات. أما فى التقليد الجرمانى والاسكندنافى The Germanic and Scandinavian tradition فقد كانت الاثنولوجيا تشير – وبصورة أساسية – إلى دراسة أقليات الشعب المحلية، أما فى الوقت الحالى فقد بدأ هذا المصطلح يختفى شيئًا فشيئًا من المفردات المستخدمة فى الأنثروبولوجيا، وهو – إن استخدم – فإنه يستخدم فى هذه الحالة باعتباره مرادفًا للأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية.

هذا، وقد كان – وما زال – شائعًا لدى العامة إدراك بأن الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تهتم على وجه الحصر أو القصر بالشعوب غير الغربية التى تعكس كل ما هو غريب وشاذ والتى لها من العادات التى توصف بالبدائية Primitive. وعمومًا، يمكن القول أن الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية قد ركزت بالفعل – ولعقود عدة- على دراسة هذا النوع أو هذه الفئة من المجتمعات. ولقد كان هذا فى حد ذاته بمثابة إسهام مهم ومميز لها تمثل فى ما أسماه راد – كليف براون Radcliff – Brown "علمًا اجتماعيًا عامًا" a general social science أو علم الاجتماع sociology. على أن هذا الوضع – كما ذكرنا من قبل – لم يعد قائمًا، إذ اتجهت الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية – بجانب اهتمامها التقليدى هذا – إلى دراسة العالم الصناعى الحديث modern, industrialized world ... ولم يعد هذا الفرع من المعرفة أشبه بمجرد مغامرة غريبة أو اكتساب خبرة مثيرة. ولقد كان لهذا التحول تبعاته فى إحداث العديد من التطورات الهامة على الصعيدين النظرى والمنهجى – وهى التطورات التى تحتاج إلى أن نفرد لها فصلاً آخر مستقلاً بذاته.

المراجع التى اعتمد عليها هذا الفصل

- Hoebel, E.A., 1966. Anthropology : The Study of Man, (Third edition). New York : McGraw Hill.

- Liobera, J.R., 2003, An Invitation to Anthropology : The Structure, Evolution and cultural Identity of Human Societies. New York : Berghahn Books.

- Salzmann, Z., 1973. Anthroplogy, (Revised edition). New York : Harcourt Brace Jovanovich.

مراجع بالعربية للإستزادة

يمكن للطالب توسيع مداركه بشأن الموضوع المطروح فى هذا الفصل وذلك من خلال الاطلاع على عدد لا بأس به من المراجع منها على سبيل المثال :

*** الأنثروبولوجيا العامة :**

- حسين فهيم، ١٩٨٦. قصة الأنثروبولوجيا : فصول فى تاريخ علم الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٩٨). الكويت : المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب.

- رالف ل. بيلز وهارى هويجر، ١٩٧٦. مقدمة فى الأنثروبولوجيا العامة (الجزء الأول)، ترجمة محمد الجوهرى والسيد محمد الحسينى. القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

- قبارى محمد إسماعيل، ١٩٧١. الأنثروبولوجيا العامة. الإسكندرية : منشأة المعارف.

*** الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيقية) :**

- إبراهيم رزقانة، ١٩٥٠. العائلة البشرية. القاهرة : مكتبة الآداب.

- تشارلز داروين، بدون. أصل الأنواع (الجزء الأول والجزء الثانى)، ترجمة إسماعيل مظهر. القاهرة : وزارة الثقافة والإرشاد القومى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

- فاروق عبد الجواد شويقة، ١٩٨٦. مقدمة فى الأنثروبولوجيا الطبيعية والسلالات البشرية، (الإصدارة الثانية). القاهرة : دار روتا برينت.

* الأركيولوجيا :

- آشلى مونتاجيو، ١٩٨٤. المليون سنة الأولى من عمر الإنسان، ترجمة رمسيس لطفى. القاهرة : مؤسسة سجل العرب.

- جوردون تشايلد، ١٩٨٤. التطور الاجتماعى، ترجمة لطفى فطيم وكمال الملاخ. القاهرة: مؤسسة سجل العرب.

- وليم هاولز، ١٩٦٥. ما وراء التاريخ، ترجمة أحمد أبو زيد. القاهرة: دار نهضة مصر.

* الأنثروبولوجيا اللغوية :

- أحمد أبو زيد، ١٩٧١. حضارة اللغة. عالم الفكر، المجلد ٢، عدد ١٠. الكويت : وزارة الإعلام.

- مها معاذ، ١٩٩٧. أنثروبولوجيا اللغة. فى: المدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) : نخبة من أساتذة الأنثروبولوجيا (كلية الآداب – جامعة الإسكندرية)، الإسكندرية: مركز سروات للأبحاث.

- محمود فهمى حجازى، ١٩٧٢. أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الانثولوجية. عالم الفكر، المجلد ٢، عدد ١. الكويت : وزارة الإعلام.

* الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية :

- إدوارد إ. إيفانز بريتشارد، ١٩٧٥. الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الطبعة الخامسة، ترجمة أحمد أبو زيد. الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- عبد الحميد لطفى، ١٩٦٨. الأنثروبولوجيا الاجتماعية. القاهرة : دار المعارف.

- فاروق مصطفى إسماعيل، ١٩٨٤. الأنثروبولوجيا الثقافية، الجزء الأول. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

* ولمن يريد الاطلاع على مراجع باللغة الإنجليزية، فيمكن – كبداية – الرجوع إلى القسم الخاص بالكتب المصنفة تحت عنوان General Anthropology بمكتبة قسم الأنثروبولوجيا أو بمكتبة الكلية. فمن شأن هذه الفئة من الكتب تكوين خلفية لا بأس بها للطلاب الذين يزمعون التواصل مع الأنثروبولوجيا مستقبلاً.

الفصل الثانى

الأنثروبولوجية الفيزيقية والتنوع البشرى *

- مقدمة
- التصنيف الطبيعى للإنسان
- السمات العامة للرئيسات
- الخصائص المميزة للإنسان
- مفهوم الجنس والنوع والسلالة
- العوامل التى تؤدى إلى ظهور الصفات السلالية
- الصفات المورفولوجية العامة للجماعات البشرية الرئيسية
- الاختلافات الفيزيقية بين الجماعات البشرية كسمات تكيفية

---

* كتب هذا الفصل السيد الدكتور / مصطفى عوض إبراهيم مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الاسكندرية .

الفصل الثانى

الانثروبولوجيا الفيزيقية والتنوع البشرى *

ـ مقدمة :

تدرس الأنثروبولوچيا الفيزيقية الجوانب الفيزيقية للإنسان ، فهى تدرس تركيبه الجسمانى والتغيرات التى مر بها إلى أن حصل على صورته الحالية ، وكذلك التنوع البيولوجى للإنسان وهى فى ذلك تهتم بدراسة أسباب التنوع وإتجاهات التغير فى كل من الأفراد والجماعات سواء فى الماضى أم الحاضر . ويمكن تقسيم مجالات دراسة الأنثروبولوچيا الفيزيقية إلى عشرة مجالات ، بعضها يعود تاريخه إلى فترات طويلة والبعض الأخر يعتبر حديثا نسبيا وهى :

دراسة العظام والأسنان ـ الأيكولوجية البشرية ـ دراسة الأجنة والنمو ـ دراسة تركيب الجسم والبنية ـ البيولوجيا الجزيئية ـ الوراثة البيوكيميائية ـ الوراثة السكانية ـ دراسة التطورات الصغرى ـ دراسة الرئيسيات ـ وأخيرا الأنثروبولوجيا الفيزيقية التطبيقية وهناك علوم أخرى أكثر تخصصا تدرس مثل تلك الموضوعات ، ولكن أهم ما يميز الأنثروبولوجيا الفيزيقية من هذه العلوم هو أنها تعالج مسائل البيولوجيا البشرية فى سياق عريض وواسع ، فمدخلها يركز فى الغالب على النوع البشرى ككل ، أو على المجموعات السكانية البشرية أكثر من تركيزه على الأفراد ، وبالإضافة إلى ذلك فإن موضوع دراسة الأنثروبولوچيا الفيزيقية هو الإنسان ، الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يحمل ثقافة ، ومن أجل ذلك فإن الأنثروبولوچيا الفيزيقية هى العلم الذى يهتم بتفاعل العوامل السوسيوثقافية وغيرها من العوامل البيئية الأخرى مع العمليات الوراثية والبيولوجية .

وهناك علوما كثيرة تدرس الإنسان (كالطب ـ وعلم الإجتماع ، وعلم النفس

---

* كتب هذا الفصل السيد الدكتور / مصطفي عوض ابراهيم مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

.. الخ) . ولكن أهم ما يميز الأنثروبولوچيا فى دراستها للإنسان عن كل تلك العلوم هو الآتى :

١ ـ التركيز على دراسة الجماعات البشرية ، كل الجماعات البشرية ، وليس الأفراد .

٢ ـ إستخدام المنهج المقارن فى الدراسة .

٣ ـ الإعتماد على المنظور الشمولى للإنسان (من حيث سلوكه ، وتكوينه النفسى والبيولوجى ، وثقافته المادية ، وتاريخه البشرى).

٤ ـ الإعتماد على مفهوم الثقافة كسمة بشرية .

ويمكن إدراك التمييز بين الأنثروبولوچيا الفيزيقية والعلوم البيولوجية الأخرى عن طريق الإهتمام بالتنوع العرقى للإنسان ، فكل ماهو مشترك بين الجنس البشرى من الناحية الفيزيقية يدخل فى مجال إهتمام البيولوجيا البشرية بإعتبارها فرعا متخصصا من البيولوجيا العامة ، فى حين يعتبر وصف التنوع الفيزيقى للإنسان وتفسيره هو العمل التقليدى للأنثروبولوچيا الفيزيقية . وهناك بعض العلماء الذين يفضلون إستخدام مصطلح البيولوچيا البشرية *Human Biology* للإشارة إلى الأنثروبولوچيا الفيزيقية ، وهى تدرس تحت هذا المسمى فى بعض الجامعات وتعتبر علم من العلوم الطبية الأساسية ، ولكن من الهام أن نؤكد أن الأنثروبولوچيا الفيزيقية *Physical Anthropology* تختلف عن البيولوجيا البشرية فى بعض النقاط المتعلقة بالمدخل والتأكيد على بعض الجوانب الخاصة . وهذا الإختلاف يوجد فى عقل عالم الأنثروبولوچيا الفيزيقية ، ولنضرب لذلك مثلا ، فالباحث المتخصص فى البيولوچيا البشرية عندما يدرس بعض الجماعات البشرية قد يلاحظ أن لون البشرة السمراء يتردد فى مجموعة سكانية معينة بنسبة أعلى منها فى مجموعة سكانية أخرى ، وهو يقوم فى هذه الحالة بوصف هذا الإختلاف بين المجموعتين ويحاول فى نفس الوقت أن يبحث عن

الميكانيزمات الوراثية التى أدت إلى هذا التباين ، أما عالم الأنثروبولوچيا الفيزيقية فبالاضافة إلى هذا فهو أيضا يحاول أن يكشف عن التقاليد والأعراف الثقافية التى ربما تمنع المجموعة السكانية ذات البشرة الداكنة من التزاوج مع المجموعات ذات اللون الفاتح ، وبكلمات أخرى ، فإن عالم الأنثروبولوچيا الفيزيقية عند دراسته للظواهر البيولوجية يضع فى إعتباره الحقيقة التى تقرر أن الثقافة تؤثر وتغير من الجوانب البيولوچية للإنسان .

إن مصطلح الأنثروبولوچيا الفيزيقية هو المفضل لدى العلماء الذين يرغبون فى أن يتصفوا بقربهم من الدراسات الإنسانية والإجتماعية ، وعلى ذلك فالأنثروبولوچيا الفيزيقية تحاول أن تجيب على بعض التساؤلات المتعلقة بطبيعة وجوهر الإنسان مثل : ماهو الإنسان ، وكيف أصبح كذلك ، وكيف إكتسب شكله وسلوكه الحاليين ؟ وللإجابة على مثل تلك التساؤلات فإن علماء الأنثروبولوچيا الفيزيقية يعتمدون على كل من العلوم البيولوجية والعلوم الإجتماعية لإستخلاص الأسس التى يقوم عليها علمهم لتقديم فهم أعمق وأشمل للإنسان .

وبما أن هناك مجالات لاحصر لها يمكن أن يختلف فيها البشر ، فإن الأنثروبولوچيا يجب أن تركز إهتمامها على أنوا ع معينة من الإختلافات البشرية ، فالأنثروبولوچيا تهتم أساسا بنوعين رئيسيين من الجوانب التى يختلف فيها البشر، الجانب الثقافى والجانب البيولوجى ، وتعتبر الثقافة هى المفهوم الأساسى فى الأنثروبولوچيا فدراسة الإنسان بدون دراسة ثقافته تشبه تماما دراسة الأسماك دون فهم لخواص الماء الذى تعيش فيه ، فالثقافة هى الوسط الذى يعيش فيه الإنسان ، فهى تزوده بالوسائل التى يستطيع بها مواجهة تحديات البيئة والتكيف معها .

وبالنسبة لعالم الأنثرولوچيا الفيزيقية من العملى إستخدام مصطلح الثقافة للإشارة إلى كل ما يوظفه الإنسان فى التكيف لمتطلبات البيئة التى يعيش فيها ، فالإنسان كالحيوانات الأخرى ، يستطيع أن يتكيف بسهولة للمجال المحدد من

الظروف البيئية عن طريق إستخدامه لأشياء لاتزيد عن إمكاناته البيولوجية ، ولكن على خلاف الحيوانات الأخرى هو الوحيد القادر على إستخدام مجال واسع جدا ومتنوع من الأشياء التى تزيد عن إمكاناته البيولوجية المحدودة ، فهو يضع الأدوات، ويشيد المنازل ، ويحيك الملابس ، ويعيش فى تجمعات منظمة إجتماعيا ، ويسن الشرائع والقوانين ، ويعتنق معتقدات خاصة بالحياة بعد الموت ، وهذه كلها وغيرها من الأشياء الأخرى الكثيرة ، ساعدت الكائنات البشرية على أن تتكيف لأنواع كثيرة من الظروف البيئية ، وهى مجموعة الأحداث والأشياء التى نشير إليها ككل بلفظ الثقافة ، وهى التى تشكل الموضوع الأساسي لدراسة الأنثروبولوچيا الثقافية ***Cultural Anthropology*** ، وتركز الأنثروبولوجيا الثقافية على دراسة الإختلافات الثقافية للبشر ، أما الأنثروبولوچيا الفيزيقية فهى تبحث فى الإختلافات البيولوجية للإنسان ، ويعالج هذا الفصل موضوعا هاما من موضوعات الأنثروبولوچيا الفيزيقية وهو نشأة الخصائص الجسمانية للكائنات البشرية وتطورها والبحث فى العوامل البيئية والثقافية والإجتماعية والوراثية التى لعبت دورا فى نشأة هذه الخصائص وتباينها بين المجموعات البشرية المختلفة ، فكثيرا ما يتساءل الإنسان ، إذا كنا جميعا ننتمى إلى أصل واحد فلماذا إذن كل هذه الفروق الجسمية والوراثية الملحوظة بين الجماعات البشرية ، وما معناها ؟ وقبل أن نستطرد فى الإجابة على هذا السؤال ، نرى أنه من المناسب أولا تقديم صورة عن الإنسان موضوع دراستنا والتعرف على مكانته فى الطبيعة وموقعه بين الكائنات الحية الأخرى .

- التصنيف الطبيعى للإنسان :

تنقسم المملكة الحيوانية التى يدخل تحتها الإنسان علميا إلى مستويات تصنيفية متعددة من المفيد أن نبدأ بذكر الفئات التصنيفية التى ينتمى إليها الإنسان ، لأن ذلك يساعدنا على فهم مكانة الإنسان فى الطبيعة وعلاقته بغيره من الكائنات الحية ، وهناك العديد من الفئات التصنيفية التى يمكن إستخدامها

الوصف الإنساني وتحديد وضعه بالنسبة لغيره من أشكال الحياة . والمعروف علميا أن المملكة الحيوانية التى يدخل تحتها الإنسان كأحد فروعها تنقسم إلى مستويات تصنيفية متعددة تشمل المملكة وفيها عدة قبائل ، كما تنقسم القبيلة الواحدة منها إلى عدة صفوف ، ويشمل الصف عدة رتب ، والرتبة بدورها تشتمل على أكثر من عائلة ، وهذه تنقسم إلى أكثر من جنس ، والجنس بالتالى يشمل أكثر من نوع ، ويشمل النوع الواحد أكثر من تحت نوع ، وأخيرا يحتوى التحت نوع على أكثر من سلالة . ولكى نفهم ماهو المقصود بالنوع يمكن تقسيم المملكة الحيوانية إلى المستويات التالية التى توضح موقع السلالات البشرية الحالية من الشجرة الحيوانية ، وهناك إتفاق عام بين علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية على إستخدام الفئات التصنيفية التسع التالية :

- المملكة : الحيوانية *Kingdom : Animalia*
- القبيلة : الحبليات *Phylum : Chordata*
- الصف : الثدييات *Class : Mammalia*
- الرتبة : الرئيسيات *Order : Primates*
- العائلة : أشباه البشر *Family : Hominidae*
- الجنس : الإنسان *Genus : Homo*
- النوع : العاقل *Species : Sapiens*
- تحت النوع : العاقل العاقل *Subspecies : Sapiens Sapiens*
- السلالة : الأجناس الحالية للإنسان *Race : Currentraces of man*
- (الزنجية ، القوقازية ، المغولية)

(Negroid, Caucasoid, Mongoloid)

والهدف من هذا التصنيف بالطبع هو إيجاد وسيلة علمية مبسطة تمكن الطلاب والدارسين من فهم ومعرفة الكائن الحى الذى يتناولونه بالدراسة على وجه

التحديد ، ومن هنا يتضح الإطار العلمي لمفهوم كل من مصطلح جنس ونوع وسلالة بحيث لايجوز أن نخلط فيما بينها ، وهذا ما سنتناوله بالشرح فيما بعد .

ـ السمات العامة للرئيسيات :

يهتم عالم الأنثروبولوجيا الفيزيقية بدراسة الرئيسيات *Primates* لأنها الرتبة التى ينتمى إليها الإنسان ، ورغم أن الإنسان يعتبر أحد أعضاء المملكة الحيوانية إلا أننا لا نحتاج إلى دراسة جميع الحيوانات حتى نصل إلى فهم عميق ومعرفة حقيقية بالإنسان وإنما نكتفى بدراسة الحيوانات التى تشترك مع الإنسان فى العديد من الصفات وهذه هى الرئيسيات ، والتشابه بين الإنسان والرئيسيات فى العديد من السمات يجعل من الضرورى دراسة الرئيسيات ، وكذلك الإختلافات بينه وبين الرئيسيات تفيد فى معرفة الكثير من الأشياء التى ينفرد بها الإنسان .

وتنقسم الثدييات إلى عدد من الرتب منها الرئيسيات ، وتتميز هذه الرتبة بنوع عام من التركيب المورفولوجى غير المتخصص ، وبالمرونة الفائقة فى الجوانب السلوكية والتركيب التشريحى العام أوغير المتخصص والسلوك المتخصص للرئيسيات ساعدها على إستغلال العديد من البيئات التى صادفتها وذلك على العكس من الحيوانات الأخرى الأكثر تخصصا والتى لم تستطع أن تستغل بيئات كثيرة فى نفس الوقت وذلك بسبب الحدود التى فرضتها تراكيبها التشريحية المتخصصة .

والرئيسيات اليوم تشتمل على حوالى ٢٠٠ نوع من أنواع القردة والنسانيس ، ولكن أغلبها من النسانيس *Monkeys* . والغالبية من أنواع الرئيسيات تعيش على الأشجار وتمسك الفروع بأيديها وأحيانا تستخدم أقدامها فى المسك ، ولكن هناك بعض أنواع الرئيسيات الكبيرة التى تعيش على الأرض وتمضى أغلب أوقاتها عليها ، وتتميز الرئيسيات بقوة الأبصار المتجه إلى الأمام ، وبقصر الوجوه ، وتحتفظ أفراد هذه الرتبة برؤوسها منتصبة وهى تجلس أن تتحرك بأجسامها بطريقة عمودية وليست أفقية ، وتنشط أغلب أنواع الرئيسيات نهارا ،

ولكن هناك بعض الأنواع التى تنشط ليلا ، وتعيش الرئيسيات فى عائلات أو جماعات إجتماعية كبيرة تختلف من حيث الأعمار والأجناس ، وهى حيوانات إنتهازية تأكل ما هو متاح ، وغالبا ما تتغذى على النباتات مثل أوراق الأشجار والسيقان والأزهار والفواكه والبذور ولكن بعض الرئيسيات تعيش على لحوم الحيوانات التى تصطادها ، والأنواع العليا من رتبة الرئيسيات تتميز بالبراعة والإدراك البصرى والذكاء والتنظيم الإجتماعى وكذلك لديها وعى ذاتى بنفسها وبيئتها بشكل ليس له مثيل فى الأنواع الأخرى من المملكة الحيوانية ، وهناك عدد من السمات العامة التى تتميز الرئيسيات عن غيرها من الحيوانات هى :

١ ـ الرئيسيات هى إحدى الثدييات الشجرية التى لها أطراف مرنة قابضة وليس مخالب وفى حالة وجود مخلب أو أكثر يكون على باقى الأصابع أظافر منبسطة .

٢ ـ تتميز الأنواع الشجرية من الرئيسيات بصغر الحجم وخفة الوزن كغيرها من الحيوانات التى تعيش على الأشجار ، أما أنواع الرئيسيات التى تعيش على الأرض كالبابون والغوريللا والإنسان فهى أثقل وزنا من تلك الرئيسيات الشجرية .

٣ ـ متوسط طول العمر فى الرئيسيات أطول منه فى الثدييات الأخرى التى تساويها فى الحجم .

٤ ـ الحيوانات التى تعيش دائما يجب أن تعثر على طعامها على الأشجار أيضا ورغم أن الجهاز الهضمى للرئيسيات قادر على هضم البروتينات (مثل اللحوم) إلا أن فى الحياة الفعلية نادرا ما يتأتى لها ذلك ، وهى غالبا ما تعتمد على غذاء نباتى وتلتقط الرئيسيات غذاءها بأيديها وليس بالفكوك سواء كان الغذاء نباتيا أو غير ذلك ، فهى تعتمد على اليد ذات الأصابع المرنة التى أصبحت تقوم بالعديد من الوظائف التى تقوم بها القواطع والأنياب فى الثدييات الأرضية ، وتركيب أسنان الرئيسيات بسيط نسبيا ، وهناك ميل فى الرئيسيات نحو صغر

حجم الفكوك والأسنان .

٥ ـ تعيش الرئيسيات فى الأماكن الأكثر دفئا من العالم والتى تكثر بها أوراق الأشجار والحشرات ، وتقل هذه المواد الغذائية فى المناطق الباردة من العالم، كما أن الأصابع تقل مرونتها مع شدة البرودة وتقل كفاءتها تبعا لذلك .

٦ ـ أكتاف الرئيسيات عريضة وتوجد بها ترقوة ، قوية تعمل كسنادة تبعد الطرفين الأماميين عن بعضهما ، كما تعطى حرية أكبر فى حركة الذراع وخاصة الحركات الجانبية التى تفيد كثيرا فى الحياة الشجرية .

٧ ـ تحتاج الرئيسيات إلى الوصول إلى فروع الأشجار حتى تقبض عليها وهى تستطيع أن تقوم بذلك فهى إما منتصبة القامة أو نصف منتصبة وبعضها يسير على قدمين ، وبعض الحيوانات الأخرى يمكنها المشى على ساقين ولو لفترة محدودة ، ولكن أغلب الرئيسيات يمكنها مد الأرجل بدرجة لا تتوفر فى الحيوانات الأخرى وذلك بسبب الفائدة التى تعود عليها من الوضع الرأسى .

٨ ـ تقتضى الحياة الشجرية قوة الأبصار لعدة أسباب من أهمها دقة تحديد المسافة بين فروع الأشجار وإتجاهها للإنتقال بينها وبذلك إتجهت الرئيسيات نحو تعقد جهازها البصرى بينما تشجع الحياة الأرضية حاسة الشم ، أن تنقل كثيرا من المعلومات التى تمكن الحيوان من إقتفاء أثر الفريسة أو إكتشاف إقتراب الأعداء بينما يزيد الإعتماد على العينين فى الحياة الشجرية ، وقد أصبح بصر الرئيسيات فى أثناء فترة تطورها الطويلة حادا للغاية وذلك على حساب حاسة الشم عندها ، وففى حين تقلصت خياشيمها من حيث الحجم فإن عيونها تحركت إلى الأمام فى رؤوسها ، وبمعنى أخر تطورت لها وجوه ، ويبدو أن الوجوه مثل الأيدى جاءت كتكيف لطريقة الحياة الشجرية ، ولما كانت عيون معظم الرئيسيات لايفصل بينهما أنف طويل فإن وضعهما فى الجزء الأمامى من الرأس قد أعطى الرئيسيات ميزة الرؤية المجسمة أو ثلاثية الأبعاد ، أما الحيوانات الأرضية فإنها ترى عالمها مسطحا بعكس الرئيسيات التى ترى العالم فى العمق .

٩ ـ تستخدم الرئيسيات حاسة اللمس عن طريق أطراف الأصابع الغير مغطاه بشعر أو مخالب وتوجد على راحتها مخدات حساسة تسمح بعمليات دقيقة وتتحسن قدرة الأيدى والأقدام فى معظم الرئيسيات بتحويل المخالب التى تميز الرئيسيات الدنيا إلى أظافر مسطحة .

١٠ ـ تتعرف بعض الحيوانات على الأشياء بتوفها ، ولكن الرئيسيات تستخدم حاسة البصر أكثر فتدقق النظر ثم تتحسس الأشياء لزيادة لاتعرف عليها فلديها حاسة اللمس ، وربما تلتقط الشئ لتراه بدقة أكثر ، ويساعد على هذا السلوك صغر حجم الخيشوم ، كما أن الرئيسيات تاكل بيدها ، وتقوم مناطق الإحساس بالمخ بالربط والتنسيق بين وظائف الحواس المختلفة ، وبذلك تعتمد الرئيسيات على العين واليد أكثر من أى وسيلة أخرى .

١١ ـ كانت الرئيسيات الأولى صغيرة الحجم وضعيفة ولم يكن لها أى أدوات دفاعية أو هجومية مثل القرون والمخالب والأنياب التى كانت للحيوانات الأرضية ، ولكى تحافظ على نفسها وحياتها كان عليها أن تعتمد على سرعة بديهتها وبصرها الحاد ، ومما لا شك فيه أن الحاجة إلى القدرات والمكر كان أحد الأسباب التى أدت إلى الإتجاه إلى أكبر حجم المخ وتعقد تكوينه فى وقت مبكر جدا من التاريخ التطورى للرئيسيات ، كما أن تطور العيون أدى إلى تطور الجزء من المخ الذى يسيطر على حاسة البصر .

١٢ ـ يوجد فى الرئيسيات ثديين فى وضع قريب من بعضهما فى الأمام .

١٣ ـ تضع الرئيسيات مولودا واحدا .

وهذه السمات التى تميز الرئيسيات لا تتحقق بدرجة واحدة بالنسبة لجميع الرئيسيات حتى من الرئيسيات التى تعيش حاليا ، ولذلك كان من الصعب تعريف الرئيسيات بوجود خاصة واحدة مميزة لها ، ويصبح التعريف أكثر صعوبة إذا أخذنا فى الإعتبار الرئيسيات المنقرضة أيضا .

ولكن بشكل عام ، يمكنه تعريف الرئيسيات بأنها رتبة من الثدييات تتميز عن غيرها من الرتب بالميول الأتية :

الأطراف ـ الأصابع ـ الأظافر بدلا من المخالب ـ قوة الأبصار على حساب قوة الشم والجهاز الشمي ـ قصر الخيشوم ـ بساطة الأسنان ـ كبر حجم المخ وتعقده .

ـ الخصائص المميزة للإنسان :

على الرغم من اشتراك الإنسان مع الرئيسيات في العديد من السمات العامة ، إلا أنه يتميز ببعض الخواص التى لاتوجد فى أى نوع آخر من الرئيسيات والثدييات ، فالإنسان هو الحيوان الثديي الوحيد الذى كيف جسمه للوضع التام الإنتصاب وأن يسير على قدمين ، ومن أهم الحقائق أن يقف منتصبا عادة بدون جهد متعمد ، وبذلك إنفرد بنفسه على الثدييات الأخرى . ويبدو أن هذا التمييز قد حدث أولا ثمّ نشأت بعد ذلك المميزات الأخرى ، ولكن الإنسان ليس الوحيد الذى يسير على ساقين ، فالطيور والكانجارو والدببة تشترك معه فى هذه الخاصية ، ولكنه الوحيد الذى يمد الساقين مستقيمين ويقف رأسيا بسهولة بحيث تكون الرأس فوق القدمين ، ويخطو والجذع منتصبا ، وقد تغير الجسم كله حتى يكون المشى بهذا الشكل وحتى يمكن أن يحتفظ بتوازنه .

ويمكن تلخيص خصائص الإنسان فى ثلاثة مجموعات من الصفات :

أ ـ وقفة الإنسان *Human Posture*

ب ـ مخ الإنسان *Human Brain*

جـ ـ صفات إنسانية غير مرتبطة بوقفة الإنسان .

وسوف نتناول هذه المجموعات من الصفات بالشرح .

أ ـ وقفة الإنسان :

١ ـ قدم الإنسان هى أكثر جزء متخصص فى تشريح الجسم من ناحية

الشكل ، فعليها أن تحمل وزن الجسم كله ، فأثناء تطورها كعضو قابض كان عليها أن تفقد حركتها مقابل زيادة ثباتها ، فقوس القدم أصبح يمتص الصدمة مع كل خطوة والأصبع الكبير فقد حركته في إتجاه راحة القدم وأصبح وضعه في نفس خط الأصابع الأخرى ، وقد قصرت الأصابع الأخرى التى أصبحت قليلة النفع فى القبض . وتشبه قدم الغوريللا البالغة إلى حد ما قدم الإنسان ، ولكن هذا التشابه يظهر فى الغوريللا أثناء حياتها بينما يتميز المولود البشرى بهذا النمط منذ ميلاده

٢ ـ إنخفاض مركز الجانبية بحيث يوجد فى الجزء الأسفل من العمود الفقرى . وهذا هام جدا لكائن يقف على قدميه الخلفيتين .

٣ ـ يبلغ طول الساقين حوالى نصف الطول الكلى للإنسان البالغ بينما يبلغ هذا الطول حوالى الثلث فقط فى القردة العليا البالغة والمولود البشرى ، وتزداد أرجل الإنسان فى الطول والمحيط أثناء الطفولة بمعدل أسرع من الزيادة فى الجذع

٤ ـ أسطح الإحتكاك ومناطق إتصال العضلات بعظام الساق تسمح بالإستقامة الكاملة عند الركبة دون صعوبة .

٥ ـ عظمتى الفخذ منخرفتان قليلا وليستا متوازيتين حتى تقترب الركبتان من بعضهما عند الوقوف

٦ ـ منطقة الحوض تغير شكلها الآن عن شكلها فى الأسلاف ، إذ قل عمق الحوض وضاق مخرجه ، والقاعدة أن حوض الإناث فى الإنسان أوسع منه فى الذكور ، ولما كان المخ الكبير ضرورى للإنسان فقد أصبح من الضرورى أن يولد الأطفال برؤوس تمر بصعوبة من مخرج الحوض .

٧ ـ يكون العمود الفقرى فى الحيوانات ذات الأربع قوسا واحدا بينما يوجد منحنيين فى العمود الفقرى للإنسان يتجه احدهما إلى أعلى فى إتجاه

البطن أما الأسفل فاتجاهه معاكس له ويساعد هذا فى حفظ التوازن .

٨ ـ قصر السواعد مع الإحتفاظ بطول الذراع الأعلى (العضد) فى الإنسان ، وهذا ساعده على رفع الأشياء .

٩ ـ شُدت الأكتاف إلى الخلف بعضلات وتفلطح القفص الصدرى .

١٠ ـ تغيرت اليد فقصرت وعرضت نسبيا كى يمكن ضغط الأبهام فى الإتجاه المعاكس كما فى باقى الرئيسيات ولكنه يتميز فى الإنسان بطوله ومرونته ، وقد مكن ذلك الإنسان من القبض على الأشياء جيدا وبدقة ، وعلى الرغم من بساطة هذا التغير التشريحى فى الإبهام إلا أنه يعتبر عظيم فى الوظيفة ، فنتيجة المشى على ساقين تفرغت الأيدى لمعالجة الأشياء وأعطى ذلك فرصة لحسن الأداء.

١١ ـ توازن الرأس فى الوضع المناسب أعلى العمود الفقرى وأصبح الثقب الكبير فى قاعدة الجمجمة ، ولما كان التوازن جيدا أصبحت عضلات الرقبة صغيرة.

١٢ ـ مع كبر حجم المخ إنحسر الفكين وصغر حجم الأسنان والفكين ولم يصبح الفك الأسفل فى حاجة لأن يتسع للأسنان الكبيرة ، ولو كانت الفكوك ضخمة وبارزة لما أمكن حفظ التوازن ، وتولد صغار القردة العليا ببروز قليل فى الوجه وعضلات صغيرة فى الرقبة ويتوقف نمو المخ وتلتحم عظام الجمجمة ، ويحدث العكس فى الإنسان فتبقى عضلات الرقبة ضعيفة ويستمر المخ فى النمو أثناء الطفولة ولذلك لا تلتئم عظام الجمجمة التئاما كاملا .

ب ـ مخ الإنسان :

١ ـ يفخر الإنسان بمخه رغم أنه ليس الأكبر حجما فى الحيوانات ولا يمثل أعلى نسبة مئوية من وزن الحيوانات ، ولكن لايوجد حيوان كبير مثله وله مخ فى حجم مخ الإنسان ، ويمثل المخ ٢٪ من وزن الجسم ، ويتراوح حجم مخ الإنسان بين ٩٠٠ ـ ٢,٢٠٠ سم٣ وهو فى المتوسط يبلغ ١٤٥٠ سم٣ .

٢ ـ يمثل الفص الأمامى أقل قليلا من نصف حجم المخ فى الإنسان بينما تقل هذه النسبة فى القردة العليا .

٣ ـ زيادة التعاريج وعمقها على سطح المخ ، والمخ بصرى بشكل واضح وكذلك مناطق الربط بين الأنشطة أصبحت متسعة ، وقد زادت الأجزاء الخاصة بالإبصار فى المخ على حساب نقص الأجزاء الخاصة بالشم .

٤ ـ زيادة النشاط يتطلب زيادة فى التغذية والأوكسجين ، وقد بلغ وزن الدم الذى يضخ إلى المخ كل دقيقة مثل وزن المخ نفسه ، وتتمتع قشرة المخ بكمية كبيرة من التغذية فهى التى يتم فيها التنسيق النهائى للنشاط العصبى ، وتزيد التعرجات من مساحة قشرة المخ بنسبة ٥٠٪ تقريبا عنها لو كان السطح أملس .

٥ ـ ينقسم كل من نصفى المخ إلى أربعة فصوص ، وتتماثل وظائف نصفى المخ إلى حد كبير ولكن يقع الجزء الأكبر من قشرة المخ المختص بالكلام فى الإنسان فى نصف المخ الشمالى .

٦ ـ كبر حجم الفص الأمامى بشكل ملحوظ فى الإنسان ، ويعتقد أن هذا الجزء من المخ هو المسئول عن وظيفة الإنتباه لشئ ما ، وتجنب المؤثرات التى يمكن أن تشتت الفكر وبذلك يكون السلوك الإنسانى .

٧ ـ يختلف مخ الإنسان عن غيره تشريحيا ولكنه مرتبط بنمط السلوك النابع من نشاط ومن أهم أوجه نشاط الكلام المقصود ، وهذه خاصية إنسانية ينتج عنها تفاعلا إجتماعيا بدرجة كبيرة.

٨ ـ يحدث صوت فى الكلام بالتعاون بين الأحبال الصوتية والحنجرة واللسان ، وقد سهلت بعض التغيرات فى الفم الكلام المنطوق ولكنها لم تحدثه ، ومنها زيادة عرض الفك السفلى وبروز الذقن مما أعطى حرية للسان .

٩ ـ الأذن فى الإنسان حساسة لموجات تختلف فى سرعتها فى مدى واسع وهى ليست فريدة فى التركيب ولكن فى التمييز السمعى بحيث يمكن التفرقة بين

الكلام ويرجع ذلك إلى قشرة المخ .

جـ - صفات إنسانية غير مرتبطة بوقفة الإنسان :

١ - صغر حجم الأنياب ، وهذا يرتبط باستخدام الأيدى وإنحسار الفك ، فلا يحتاج الإنسان لإستعمال الأنياب فى التهديد مثل غيره من الحيوانات ، وتظهر الأنياب الدائمة فى القردة قرب نهاية فترة البلوغ تقريبا ، إذ لو ظهرت فى الصغار ربما أصبحوا عدوانيين وهذا ضار بهم بالطبع ، والأنياب فى الإنسان تظهر مع بداية فترة البلوغ أى حوالى سن ١٢ سنة ، فهى لاتخيف الإنسان البالغ .

٢ - ظهور جزء غشائى من الشفاه ، وقد يكون هذا نتيجة ثانوية لإختزال بروز الوجه ، وعلى كل حال هذه صفة ينفرد بها الإنسان ، ويختلف سمك الشفاه فى الأجناس البشرية وفى الجنس الواحد ، ولكنها تختلف فيها جميعا عنها فى الشمبانزى مثلا .

٣ - بروز عظام الأنف ، وهذا نتيجة لإنحسار عظام الفك والأجزاء الملاصقة من الوجه .

٤ - صغر حجم الفك والأسنان التى لم تعد هناك حاجة لها مع زيادة إستخدام الأدوات .

٥ - توزيع الشعر على جسم الإنسان وعدم وجود غطاء من الفرو أو الشعر مع وجود الغدد العرقية فى الجلد مما يسهل من عملية العرق والتخلص من الحرارة الزائدة وهذا نوع من التكيف لحرارة الصيف .

٦ - لاتوجد فى الإنسان شعيرات حساسة ، ولا يخدم الشعر فى حفظ الحرارة ولايمنع خدش الجلد ، ولكن توزيع الشعر فى الجسم يساعد فى التفرقة بين الجنسين فى الإنسان ، كما يؤدى إختلاف شكل الجسم نفس الغرض ، وتصبح الفروق الجنسية فى الإنسان واضحة .

٧ - الميول الجنسية فى الإنسان دائمة وليست موسمية أو عابرة ، وتكون

الرغبة الجنسية لدى أنثى القردة العليا وقت الشبق فقط ، أما فى الإنسان فتكون فى أى وقت ،

٨ ـ البلوغ البطئ ، وليست هناك علامات ظاهرة تدل على إباضة الأنثى ، وليس هناك دورة نزوية أو جنسية واضحة كالحيوان .

٩ ـ المعيشة عادة فى بيئات غير غابية أو أستوائية .

١٠ ـ يتغذى الإنسان على أى شيء ، فهو يتناول الغذاء الناتج من عمليات الصيد والقنص أو الجمع والإلتقاط وكذلك المنقول والمخزون والمعد سلفا والمشترك ، أى الذى يشترك فى تناوله مجموعة من الأفراد ، ويبحث الإنسان عن طعامه بواسطة الطواف حول مكان مركزى يبدأ بالتحرك من مكان السكن ثم العودة إليه مرة أخرى بعد إنتهاء الدورة اليومية وبذلك تصبح أماكن السكن مراكز للأنشطة الأخرى ، والقدرة على عمل ذلك ترجع إلى درجة السيطرة على البيئة المحيطة والتى نشأت من القدرة على التحكم فى النار .

١١ ـ يتميز الإنسان بأنه يمتلك سلوك ثقافى معقد ، وهذا السلوك يتميز بأنه متعلم ومكتسب ويرتكز على الرموز ، وخاصة اللغة ، واللغة خاصية إنسانية مميزة سمحت لبنوا الإنسان بأن يرتفعوا فوق القيود التى تفرضها عليهم بيئتهم وتمنعهم بها من الإنطلاق إلى ما بعدها ، وفقد ساعدت اللغة على تطوير الثقافة تطويرا سريعا بحيث تمكن البشر فى مدى عقود فقط من غزو القمر . وذلك لأن التطور الثقافى يتم من خلال نقل المعلومات من جيل لآخر ، وبهذا تعمل اللغة على نمو المعلومات وتكاثرها باستمرار وبذا يستطيع كل جيل إنسانى أن يبدأ من حيث إنتهى الجيل السابق بدلا من أن يبدأ من الصفر .

١٢ ـ يملك الإنسان تنظيم إجتماعى معقد يقوم على الزواج وشبكات القرابة ونماذج أخرى فريدة خاصة برعاية الطفل (ويشترك فيها الوالدين) والسلوك الجنسى ، وتتسم فترة رعاية الأطفال بطول المدة .

١٣ ـ صناعة الأدوات والمهارة التكنولوجية والإعتماد على المعدات والأدوات فى الحياة تعتبر من السمات الهامة المميزة للإنسان .

ـ مفهوم الجنس والنوع والسلالة :

النوع الإنسانى الحالى وهو ما يطلق عليه اسم الإنسان العاقل *Homosapiens* يمثل نوعا بيولوجيا واحدا ، بمعنى أنه يمثل مجتمعا مغلقا من حيث التكاثر ، وهذا يعنى أنه لا يتكاثر إذا تزاوج خارج نوعه ، لأن النوع البشرى يمثل وحدة بيولوجية مندلية سكانية شاملة ، وإذا ما تتبعنا الدرجات التصنيفية الخاصة بالإنسان مبتدئين من نهاية التصنيف ، أى من الصورة الحالية للإنسان الذى نحن معشر الأدميين الحاليين منها ، وهو المتعارف على تسميته بالإنسان العاقل ، فإننا نجد أنه ينقسم إلى أنماط متباينة فى بعض السمات الأنثروبولوجية، هذا التباين هو الذى دعى الباحثين إلى تقسيم المجموعة البشرية الحالية إلى المجموعات المعروفة بالقوقازية والمغولية والزنجية ، أو أى مجموعات تصنيفية أخرى ، المهم أن هذه المجموعات هى التى يمكن أن يطلق عليها لفظ سلالة ، ولفظ جنس *Genus* يقصد به الفئة التصنيفية التى تشتمل على أكثر من نوع ، فالجنس البشرى الذى نستخدم لفظ هومو *Homo* لوصفه هو تعبير يطلق على الجنس البشرى الذى يشمل أكثر من نوع إنقرض ولم يتبق منه إلا النوع الذى نحن فيه ، أما لفظ النوع *Species* فهو الفئة التصنيفية الأقل من الجنس والتى تمثل مجتمعا مغلقا من حيث التكاثر ووحدة بيولوجية شاملة ، فلفظ سابينز *Sapiens* يطلق على النوع البشرى كله الذى يشتمل على جميع السلالات الحالية، أما مفهوم التدرج السلالى فهو يمثل الإنحدار من نوع واحد وبالتالى من جنس واحد ، وبذلك يتضح الإطار العلمى لمفهوم كل من مصطلح جنس *Genus* ونوع *Species* وسلالة *Race* بحيث لايجوز أن نخلط فيما بينهما .

وعلى ذلك فإن كل الناس الحاليين على الأرض ينتمون إلى جنس *Genus* واحد هو *Homo* وإلى نوع *Species* واحد أيضا هو *Homo Sapiens* ،

ولكن نظرا لاضطرار الإنسان إلى المعيشة فى بيئات جغرافية متعددة ، وجدت بعض الفروق فى السمات الظاهرية المختلفة مما أدى إلى تعدد الإختلافات المورفولوجية الجسمية بين الشعوب المختلفة ، فظهرت لذلك كثير من السلالات المتباينة .

هذا وإن كانت السلالة مفتوحة وراثيا ، فإن النوع مقفول وراثيا ، بمعنى أنه إن كان يمكن للأفراد من السلالات المختلفة أن يتزوجوا بعضهم مع بعض ، فإن الأفراد المنتمين إلى أنواع متباينة يصعب عليهم التزاوج (والإنجاب) وذلك لأنه لايمكن أن تتوافق جينات نوع ما مع جينات نوع آخر لأن لكل نوع عدد وترتيب خاص من الكروموسومات ، ويعرف علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية السلالة *Race* بأنها مجموعة من الأفراد تنحدر من أصل واحد تتزاوج فيما بينها ولها سمات جسمية وراثية مشتركة وتختلف فى تركيبها الجينى عن غيرها من المجموعات من نفس النوع ، أما النوع *Species* فيعرف بأنه مجموعة من الكائنات البشرية قادرة على التزاوج فيما بينها ولكن ليس بين أى من أفرادها وأفراد من نوع آخر ، وتختلف السلالات البشرية بعضها عن البعض الآخر فى النمط الخارجى كلون البشرة والعيون وشكل الشعر والقامة واللغة ، كما تختلف فى النمط الداخلى كفصائل الدم والأمراض الوراثية ومورفولوجية الأسنان .

- العوامل التي تؤدي إلي ظهور الصفات السلالية :

لقد جذبت ظاهرة الإختلافات الجسمانية بين المجموعات البشرية المختلفة إهتمام الباحثين والعلماء منذ فترات طويلة من الزمن ، وذلك من أجل كشف أسباب هذا التباين البشرى وآثاره ، وكثيرا ما تساءل الأنسان ، إذا كنا جميعا ننتمى إلى أصل واحد فلماذا إذن كل هذه الفروق الملحوظة بين الجماعات البشرية ، وما معناها ؟

لماذا يتمتع سكان افريقيا وجنوب الهند وجزر ماليزيا على سبيل المثال بلون البشرة السوداء ، وسكان آسيا بشعر الرأس المستقيم الخشن ، ولماذا تتميز قبائل الباباجو *Papago* بالسمنة وقبائل النافاهو *Navajo* بالطول والضمور مع أن

الجماعتين من قبائل الهنود الحمر التى تعيش فى نفس المكان بجنوب غرب الولايات المتحدة ، ولماذا تتميز جماعة الباسك *Basque* بتوزيع غريب فى فصيلة دم *Rh* ، وماهو سبب القزامة بين قبائل حوض الكونغو البلجيكى فى إفريقيا وطول القامة لدى الماساى والنوير والدانوس الذين هم أيضا إفريقيين ، ولماذا يتسم الأسكيمو بالقصر والإكتناز ، ثم هناك أسئلة أخرى تتصل بعلم الوراثة ، مثلا لماذا يقتصر توزيع بعض الأمراض الوراثية على بعض الشعوب دون غيرها ، وماهو تفسير وجوب الخلية المنجلية فى افريقيا وأنيميا البحث المتوسط فى جنوب أوروبا ومرض الكورو فى غينيا ؟

ويرجع العلماء ظهور الصفات السلالية والإختلافات الفيزيقية إلى خمسة عوامل ، وهذه العوامل تحدث أو تسبب تغيرات فى التراكيب الوراثية للمجموعات السكانية :

١ ـ الطفرات : *Mutations*

الطفرة هى تغير فجائى فى التركيب الكيميائى للعوامل الوراثية ، وهى عملية عشوائية تحدث بدون أى إرتباط بالبيئة ، وهى المصدر الوحيد للجينات الجديدة ، والطفرة تعتبر أساس التغير وتحدث فى كل مجموعة ، ويعتقد أن طفرة واحدة على الأقل تحدث فى فترة حياة الإنسان وتحدث الطفرة فى الخلايا الجسمية للفرد أو فى الخلايا التناسلية ، والأخيرة هى التى تنتقل إلى الأجيال التالية ، وكثيرا ما تكون الطفرة قاتلة فلا تنتقل ، وقد تكون ضارة فقط ، ونظرا لأن أغلب الطفرات متنحية فإنها قد تظهر فى الأجيال التالية ، وقليل من الطفرات صالح للكائن الحى ، وتتكاثر الطفرات بنفس شكلها إلى أن يحدث فيها طفرة أخرى، وأى تغير فى تركيب الجين يسمى طفرة ، وتؤدى الطفرات إلى تغيير التركيب الفيزيقى للجينات أى تغيير شكلها ، وتوجد عوامل عديدة تسبب الطفرات، منها التعرض للإشعاع وبعض المواد الكيميائية التى تؤثر على معدل حدوث الطفرات وكذلك الأخطاء التى تحدث أثناء عملية نسخ الـ *DNA* .

وبالرغم من أن غالبية الطفرات ضارة ، فإن هذه الطفرات يمكن أن تؤدى إلى تحسينات وتكيفات للكائن الحى ، ومن المعروف أن التركيب الجينى لكل نوع مصمم ليلائم البيئة التى يعيش فيها هذا الكائن النوع ، على أن البيئة تتغير ، فمناخ أمريكا الشمالية أو أوروبا يختلف الآن عما كان عليه فى العصر الجليدى ، والبيئات التى يعيش فيها الإنسان الآن ليست كما كانت منذ ألف عام ، بل منذ جيل واحد فقط ، وليس من الضرورى فى الواقع أن تكون الجينة ، بصفة مطلقة ، جيدة أو رديئة ، نافعة أو ضارة ، متكيفة أو غير متكيفة ، فإذا تغيرت البيئة ، فإن بعض الجينات التى كانت ملائمة فى البيئات القديمة قد تصبح غير ملائمة ، وبعضها الآخر قد يصبح ملائما ، والطفرات هى المصدر الوحيد للإختلافات الوراثية الجديدة ، وفى نشأة وتثبيت خصائص وراثية جديدة قد تستمر فى البقاء وتزداد وتنتشر إذا كانت ذات فائدة للإنسان ، أو تتلاشى فى حالة عدم مقدرتها على التكيف ، والطفرة تقدم للإنتخاب الطبيعى مادته الأساسية فى خلق الخصائص المتعدد الأشكال *Polymorphism* .

٢ ـ **الإنتخاب الطبيعي : *Natural Selection***

يقوم الإنتخاب الطبيعى بعمل التغيرات التطورية من المواد الخام التى تزوده بها الطفرة ، والإنتخاب الطبيعى ، كما نراه فى الوقت الحاضر ، يحدث عندما يسهم حاملو بعض الأنماط الجينية فى الأجيال التالية بذرية أكثر من الذرية التى يسهم بها حاملوا أنماط جينية أخرى ، ففى المزرعة البكتيرية المعرضة للبنيسيللين، تتكاثر الطفرات المقاومة للبينسيللين بينما تباد البكتيريا غير المقاومة ، أما فى المزرعة الخالية من البينسيللين فإن البكتيريا غير المقاومة تتكاثر بدرجة أكبر من البكتيريا المقاومة .

لقد شبه الإنتخاب الطبيعى بشخص يبنى منزلا ، ولكن هذا التشبيه ينبغى ألا يؤخذ بمعناه الحرفى ، فالإنتخاب الطبيعى اسم يطلق على عملية لا شخصية تقوم بها الطبيعة ومن ثم فهو ليس فاعلا واعيا على أى نحو من الأنحاء ، أنه ليس

كالمهندس الذى يقوم بالعمل وفقا لخطة مرسومة ، بل إن كل مايفعله هو أنه يساعد على إستمرار الجينات الملائمة للبيئة الموجودة ، من جيل إلى جيل ، ويبطئ إنتقال الجينات الأقل ملاءمة ، إنه فى الواقع أداه تخدم البيئة ، أعنى أنه وسيلة تؤثر بها ظروف الحياة تأثيرا موجها فى تغيير الكائنات العضوية ، لقد قال " هربرت سبنسر " و" داروين " محتذيا حذوه ، أن الإنتخاب الطبيعى يؤدى إلى " بقاء الأصلح " ، والأصلح ، بل الصالح فقط ، ليس " كالسوبرمان " على الإطلاق ، بل هو فقط حامل الجبلة الوراثية التى تخلف أكبر عدد من الذرية الإحياء .

وإذا ظلت البيئة التى تعيش فيها جماعة من الأحياء ثابتة بدرجة معقولة لفترات طويلة ، فإن أغلب الطفرات النافعة تتوطد بوصفها المعيار التكيفى السوى، بينما تكون أغلب أو كل الطفرات التى تظهر ضارة . أما إذا تغيرت البيئة ، فإن بعض الطفرات قد تصبح نافعة ، وتدون بواسطة الإنتخاب الطبيعى ، وقد تحل فى نهاية الأمر محل الطفرات بشكلها الذى كانت عليه فى الأسلاف ، والانتخاب الطبيعى فى البيئة الثابتة ، يكون بصفة عامة قوة محافظة تشايع الإستقرار وتقاوم الطفرات ، أن التغيرات البيئية بشكل تحديا للنوع ، قد يستجيب لها هذا النوع بتغيير نمطه الجينى ليلائم البيئة الجديدة ، وذلك عن طريق الإنتخاب الطبيعى وبشرط أن تتوافر لديه المواد الوراثية الخام ومن وجهة نظر الإنتخاب الطبيعى يعتبر المقياس الوحيد للصلاحية داخل النوع هو عدد الذرية الناتجة ، والتى بدورها ستسهم فى إنتاج الأجيال التالية ، وهذا المنظور يمكن فهمه مباشرة على مستوى المجموعة السكانية .

٣ ـ الإنحراف الوراثي : *Genetic Drift*

يظهر أثر الإنحراف الوراثى فى المجموعات الصغيرة التى تنشق من مجموعة واحدة كبيرة فتزيد نسبة وجود جين معين فى مجموعة صغيرة عنه فى الأخرى ، وتنتقل هذه إلى الأجيال التالية ، ولكى يحدث إنحراف وراثى لابد من حدوث الهجرة ثم العزلة ، وعلى سبيل المثال مجموعة متجانسة تنقسم إلى عدد من

المجموعات الصغيرة المنعزلة عن بعضها ، وتتكاثر كل مجموعة فيما بينها ، وقد يحدث أن ينقص فى أحد المجموعات الصغيرة أو لا يوجد جين معين من الجينات الموجودة فى المجموعة المتجانسة الأصلية أو العكس وتزيد نسبة جين نادر ، وبذلك وبالصدفة المحضة قد يحدث أن تزيد نسبة جين معين فى مجموعة ناتجة بينما يوجد جين آخر أو فى مجموعة جينات أخرى بنسبة ضئيلة جدا ، وإذا لم تحدث طفرة لتعيد الجين الذى إختفى فى عملية الإنحراف الوراثى فلن يوجد هذا الجين فى المجموعة الناتجة .

ولكى نفهم المقصود من ذلك ، نفترض أن شعبا ما يسود بين ١٥٪ من أفراد نوع معين من الجينات ، ولنفترض أن ١٠٪ من هذا الشعب هاجروا وإستوطنوا مكانا آخر ، وبمحض الصدفة قد لايوجد بين هؤلاء المهاجرين شخص واحد به ذلك النوع من الجينات ، فنتيجة لذلك ينشأ الشعب الثانى مختلفا تماما عن الشعب الأول مع أنه مشتقا منه ، ومع مرور الأجيال ستزداد الفروق بين الشعبين لأن نسبة الـ ١٥٪ فى الشعب الأول ستنتشر حسب قوانين مندل للوراثة على حين أن الشعب الثانى سيظل خاليا منها ، وسبب عدم وجود مجموعة الدم B فى الهنود الأمريكيين هو أن هؤلاء الناس هاجروا فى مجموعات صغيرة من آسيا ، وحدث بالصدفة أنه لم يكن بينهم إناس يحملون الجين الخاص بمجموعة الدم B .

ويثبت الإنحراف الوراثى بعض الخواص المتعادلة التى ليس لها علاقة بالتكيف ، وقد تكون بعض الخواص الغير مرغوبة نسبيا والتى لابد وأن تؤخذ فى الإعتبار كعامل من عوامل التغير . ويعرف الإنحراف الوراثى بأنه فقد جينات بالصدفة أو تثبيتها بالصدفة أيضا ، ويتحكم حجم المجموعة السكانية فى المعدل الذى يتم به عملية الإنحراف الوراثى ، فكلما إزداد حجم المجموعة السكانية كلما قلت سرعته ، وكلما قل أو صغر حجم المجموعة كلما زادت سرعة الإنحراف الوراثى .

ويعتبر الإنحراف الوراثى من العوامل المفيدة لحل العديد من المشكلات فى

الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، فعندما تكون هناك مجموعتان سكانيتان أو أكثر ، متشابهتان على سبيل المثال فى الترددات الجينية على الرغم من بعد المسافة التى تفصل بينهما ، فإن هذا التشابه يفسر على أنه ناتج عن الإنحراف الوراثى ، أو بكلمات أخرى وليدة الصدفة ، ويعتبر الهنود الأمريكيين والبولينيزيين مثالا على تلك الحالة ، فهاتان الجماعتان يعتقد أنهما سلكتا طرقا تاريخية مختلفة تماما ، ولكن لهما أصولا بعيدة مشتركة وهى أصول آسيوية قديمة ، وبالنظر إلى الأصول سنجد أن البولينيزيين أكثر إرتباطا من حيث الأسلاف المشتركة بالميكرونيزيين من الهنود الأمريكيين ولكن من حيث تردد فصيلة الدم *B* نجد أن البولينيزيين والهنود الأمريكيين أكثر تشابها من تشابه البولينيزيين والميكرونيزيين ففصيلة الدم *B* تعتبر نادرة بين البولينيزيين والهنود الحمر ، ولكنها أكثر شيوعا بين الميكرونيزيين ، وهذا التماثل بين البولينزيين والهنود الحمر فى تردد فصيلة الدم *B* عادة يرفض تفسيره على أساس الصلات القريبة والأصول المشتركة بينهم ، ولكنه يفسر على أنه نتاج الصدفة ، أى الإنحراف الوراثى ، وعلى العكس من ذلك يمكن إستخدام الإنحراف الوراثى لتفسير الإختلافات التى توجد بين المجموعات السكانية ذات الأصول المشتركة .

فالاختلافات بين البولينيزيين والميكرونيزيين يمكن عزوها إلى الإنحراف الوراثى ، وحيث أن الإنحراف الوراثى يؤثر فى المجموعات السكانية صغيرة الحجم فقط ، فإنه يجب أن يكون قد لعب دورا فى المراحل المبكرة من تاريخ البشرية لابد وأن يكون البشر قد عاشوا فى جماعات صغيرة منعزلة ، وهذه المراحل تمثل ٩٥٪ من ماضى البشر ، وفى ظل ظروف كتلك تعاظم دور تغيرات الصدفة التى أثرت فى التركيب الوراثى للأجيال ، ومع دخول الإنسان عصر الزراعة ، وبالذات الزراعة القائمة على الرى ، إزداد حجم وكثافة المجموعات السكانية وبالتالى قل تاثير الصدفة أو الإنحراف الوراثى .

٤ ـ التدفق الجيني *Gene flow* والهجرة *Migration* :

يؤدى التدفق الجينى الذى يطلق عليه أحيانا إسم التهجين *Hybridization* إلى إنتاج خصائص وراثية جديدة ، والتركيب السكانى يمكن أن يتغير نتيجة الهجرة مثلا .

وتأثير الهجرة كميكانيزم تطورى هو تأثير واضح ، فإذا إستقبلت مجموعة سكانية ذات تركيب وراثى مميز جماعة من المهاجرين لهم ترددات جينية وأنماط وراثية مختلفة ، وحدث أن تزاوج هؤلاء المهاجرين مع المجموعة السكانية ، فإن ناتج هذا التزاوج من الذرية سيكون له تركيب وراثى مختلف عن تراكيب المجموعات السكانية للآباء ، ويعتمد التأثير الوراثى للهجرة على حجم المجموعات السكانية الأصلية والمهاجرة ، وتراكيبهم الوراثية ، ومعدل التزاوج بينهم .

وفى بعض الحالات يمكن أن تكون المجموعة السكانية متحالفة داخليا ومتباينة إلى درجة كبيرة ، وهذا يعنى أن المجموعة السكانية يمكن أن تتكون من وحدات أصغر تتزاوج فيما بينها بالاضافة إلى إمكانية تزاوج هذه الوحدات الصغرى خارجيا ، وبالتالى فإنها يمكن أن ترتبط معا ، ويختلف معدل التزاوج الخارجى من وحدة لأخرى ، وفى ضوء هذه الظروف لايتطلب الأمر حدوث هجرة حقيقية لحدوث التغيير الوراثى ، ولهذا السبب يطلق على هذه الظاهرة اسم التدفق الجينى *Gene Flow* بدلا من الهجرة، والتدفق الوراثى مسئول عن مصدر التغيرات فى المجموعات السكانية وهى التغيرات التى تظهر نتيجة إنقسام المجموعة السكانية الى وحدات متكاملة أصغر والنقطة الرئيسية التى يجب التاكيد عليها هنا هى أن التدفق الجينى يغير من التراكيب الوراثية للمجموعات السكانية الطبيعية ، ولكن من الصعب قياس حجم تأثيراته الوراثية بدون وجود نموذج ملائم عن التركيب السكانى ، ففهم التدفق الجينى فى أى مجموعة سكانية يعتمد تماما على معرفة التركيب السكانى، والتزاوج الداخلى ، والحركة السكانية داخل وخارج المجتمع محل الدراسة ، والممارسات الزواجية وكذلك العوامل الأخرى التى تؤدى

إلى تغيير التراكيب الوراثية للمجموعات السكانية ووحداتها الأصغر .

ومن نتائج التدفق الوراثي أنه يؤدي إلى إزاحة التنوع *Varialility* الموجود بين المجموعات السكانية نتيجة العزلة ، وكلما كانت عمية التدفق الوراثي شديدة وقوية بين المجموعات السكانية ولاتحدها موانع ثقافية أو إجتماعية أو سياسية أو دينية أو إقتصادية أو أيديولوجية معينة ، كلما كانت عملية الإختلاط سهلة وهذه العملية لاتتم بنفس السرعة في حالة وجود الحواجز الـ ـوية والعادات والتقاليد ، وكلما كانت عملية الاندماج والذوبان بين المجموعتين السكانيتين سريعة ، كلما زادت سرعة إختفاء هذه الحواجز ، وأدت إلى إحداث التغيرات الوراثية المتوقعة والتي تلاحظ لدى المجموعات السكانية الحالية .

وخلاصة القول أن عملية الإختلاط بين الشعوب تؤدي إلى تغيرات في التراكيب الوراثية للشعوب ، فإذا إختلط شعبان لكل منهما خصائص جينية مختلفة ، فإن التزاوج فيما بينهما ناتج نوعا ثالثا مختلفا عن كل من الشعبين في خصائصه الوراثية وفقا لقوانين الوراثة .

٥ ـ التزاوج العشوائي وغير العشوائي أو المنظم :

Random & Nonrandom Mating

قبل أن نقدم تعريفا للتزاوج العشوائي ، نجد أن من المفيد تقديم بعض الإيضاحات عن التزاوج غير العشوائي ونتائجه بالنسبة للأنماط الوراثية للمجموعات السكانية .

دعنا نتناول كمثال مجموعة سكانية لا تسمح للتزاوج إلا بين الأفراد المتشابهين في بعض الجوانب البيولوجية في داخلها ، ويجب أن نذكر هنا أنه توجد نظم تزاوج مشابهة لهذه تحدث في مجتمعنا . فمن المعروف أن الناس غالبا ما يفضلون التزاوج مع غيرهم ممن يشبهونهم في جوانب معينة مثل طول القامة ، والذكاء ، ولون البشرة وبعض سمات الشخصية الأخرى ، ولكي ندلل على تأثير مثل

هذا النوع من التزاوج غير العشوائى دعنا نفترض أن الأشخاص المتماثلين فقط هم الذين يسمح لهم بالتزاوج غير العشوائى دعنا نفترض أن الأشخاص المتماثلين فقط هم الذين يسمح لهم بالتزاوج داخل المجموعة السكانية ، والتماثل هنا يعنى التماثل فى الأنماط الجينية . وهذا الشكل من أشكال التزاوج غير العشوائى يسمى بالتزاوج المنظم الإيجابى *Positive assortative mating* وتأثيرات هذا النمط من التزاوج على توزيع الأنماط الجينية هى زيادة نسبة المتشابهين أى المتجانسين *Homozygotes* وإنخفاض نسبة المتخالفين *Heterozygotes* فى المجموعة السكانية . وإذا عكسنا هذا النمط من التزاوج وافترضنا عدم حدوث تزاوج بين الأشخاص المتماثلين فى النمط الوراثى ، وهو ما يسمى بالتزاوج المنظم السلبى *Negative assortative mating* فإن النتيجة تكون زيادة نسبة المتخالفين وخفض نسبة المتجانسين .

وهذه الأمثلة التى ذكرناها تعتبر أمثلة متطرفة بالنسبة للمجموعات السكانية البشرية ، فعندما نتحدث عن التزاوج المنظم فى الإنسان فإننا نعنى بذلك أن هناك ميلا للمتشابهين لأن يتزاوجوا من بعضهم أولا يتزاوجوا من بعضهم ، ولو افترضنا أن هذه الميول تتضمن ميولا لسمات موروثة ، فإن التأثير سيكون هو نفسه فالتزاوج المنظم الإيجابى سيعمل على إنحراف التوازن الموجود فى المجموعة السكانية عن طريق زيادة نسبة المتماثلين وبالتالى سيعمل التزاوج المنظم السلبى على إنحراف التوازن المتوقع عن طريق زيادة نسبية المتخالفين فى المجموعة السكانية ، وهناك شكل آخر من أشكال التزاوج غير العشوائى ، يعتبر ذا أهمية خاصة لعلماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، وهو التزاوج الداخلى *Inbreeding* الذى يمارس فيه زواج الأقارب البيولوجيين من بعضهم ، والذى إذا استمر لفترات زمنية طويلة يؤدى إلى خصائص وراثية جديدة فى المجموعة السكانية ، وفى العديد من المجتمعات البشرية يكون زواج أولا العمومة وأولاد الخؤولة هو الزواج المفضل ، ولهذا السبب تعتبر نسبة التزاوج بين الأشخاص الأقارب أعلى مما هو متوقع عن

طريق الصدفة .

وحيث أن الأشخاص الأقارب يكون لهم عادة أسلاف مشتركة بنسب أكبر بكثير من الأشخاص غير الأقارب ، فإن من المتوقع أن تكون نسبة تشابههم فى السمات الوراثية أعلى من غيرهم ممن لاتربطهم ببعض أية روابط ، وعلى ذلك يجب أن نتوقع أن يكون تأثير التزاوج الداخلى *Inbreeding* كتأثير التزاوج المنظم الإيجابى وهو تزايد المتماثلين ، أما التزاوج الخارجى *Outbreeding* الذى يمنع فيه الأقارب من التزاوج من بعضهم ، فهو يماثل فى تأثيره تأثير التزاوج المنظم السلبى .

من هذا العرض تتضح لنا الآن ظاهرة التزاوج العشوائى *Random Mating* التى يمكن تعريفها بأنها الإفتقار إلى أى ميل منظم فى عملية إختيار الزوج داخل المجموعة السكانية ، فالمجموعة السكانية يقال أنها تتزاوج عشوائيا بالنسبة لأى سمة معينة إذا إختيار أفراد هذه المجموعة أقرانهم بطريقة مستقلة لاترتبط بملكية هؤلاء الأقران لهذه السمة أم لا . ونتائج هذا التزاوج العشوائى هو إحداث توازن فى توزيع الأنماط الوراثية داخل المجموعة السكانية ، وبالتالى تظل المجموعة السكانية مستقرة أما التزاوج المنظم فدوره ينحصرفى تغيير ترددات الأنماط الوراثية وبالتالى التركيب الوراثى للمجموعات السكانية .

- الصفات المورفولوجية العامة للجماعات البشرية الرئيسية :

يعتمد علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية فى تصنيفهم للجماعات البشرية على سمات مورفولوجية عديدة ، وهذه السمات تختلف من باحث لآخر وتعتمد أساسا على هدف الباحث من الدراسة . فإذا أخذ الباحث لون البشرة على سبيل المثال لوجدنا أن سكان شمال أوروبا يتميزون بلون البشرة الفاتح أما سكان افريقيا الإستوائية فيتميزون بلون البشرة السوداء ، أما إذا تناول الباحث شكل ولون الشعر فى تصنيف السلالات البشرية لوجد أن معظم الشعوب الأسيوية وخاصة

المغولية منها تتميز بالشعر المستقيم الخشن ، أما فى إفريقيا فهو بين مجعد إلى مفلفل ، وفى أوروبا فهو مابين المستقيم الناعم واللولبى الشكل ويتراوح مابين الشقرة والحمرة، أما شعر الجسم فهو قليل متناثر ويكاد ينعدم تقريبا فى معظم الشعوب الآسيوية وسكان الأمريكتين الأصليين (الهنود الحمر) والغالبية العظمى من افريقيا ، أما فى أوروبا والشرق الأوسط إلى أفغانستان والباكستان فإن شعر الجسم أكثر كثافة ، وهناك بعض الشعوب المتميزة بغزارة شعر الجسم كسكان بابوا *Papua* فى غينيا الجديدة وسكان استراليا الأصليين الأينو *Ainu* فى شمال اليابان ، أما الصلع فهو من العلامات المميزة لبعض السلالات الإنسانية فهو ظاهرة نادرة بين الآسيويين وخاصة السلالة المغولية وهنود أمريكا الحمراء وإفريقيا ولكنه يوجد بنسبة عالية بين سكان حوض البحر المتوسط وأوروبا ، وتمثل العظام أيضا من حيث الحجم وتناسب الشكل وكمية المعادن صفات مميزة فى تصنيف السلالات البشرية ، فاختلاف تناسب طول العظام بين العنصر المغولى والعنصر الإفريقى واضح حيث يتسم المغوليون بقصر الأطراف بالنسبة للجذع ، أما السلالة الإفريقية فهم بعكس ذلك تتميز بطول الأرجل والضلوع بالنسبة للجذع، وخلاصة القول أن أفراد النوع الإنسانى الحالى يشتركون فى صفات كثيرة، ومع ذلك فإن هناك فروقا ظاهرة وباطنة تتفاوت فى الكم والكيف بين أفراده وبين جماعاته المختلفة من مكان إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى ، ومن الهام أن نذكر أنه ليس هناك إتفاق بين علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية فيما يتعلق بعدد السلالات الموجودة فى النوع البشرى ، فمن الممكن تصنيف الناس تبعا للون بشرتهم ، ولكن الناس يختلفون أيضا فى أنحاء أخرى كثيرة فبعضهم ذو شعر مرسل أو مموج أو مجعد أو أكرت ، وأنوف ضيقة أو عريضة ، وبعضهم طوال القامة وبعضهم الآخر قصار ، وبعضهم رؤسه مستطيلة والبعض الآخر مستدير الرأس ، وعندما بدأت الصفات التى يختلف فيها البشر فى التزايد بإطراد ، ظهر عدد من التصنيفات المختلفة يكاد يساوى عدد المصنفين . ففى عام ١٧٧٥ قام بلومنباخ *Blumenbach* وهو أنثروبولوجى رائد ، بتمييز خمسة أجناس هم : الجنس

القوقازى أو الأبيض ، والجنس المغولى أو الأصفر ، والجنس الأثيوبى أو الأسود ، والجنس الأمريكى أو الأحمر ، والجنس الملايى أو الأسمر ، وقام رتزيوس *Retzius* وهو عالم تشريح سويدى فى عام ١٨٥٦ بتقسيم الناس إلى مستطيلى الرأس ، ومستديرى الرأس ، وبارزى الفك أو الأسنان ، ومستقيمى الفك ، وشكل الرأس والفكين ولون البشرة لايلزم حتما أن يتمشى بعضها مع البعض ، فالأوروبيون بيض البشرة ومستقيمو الفكوك ، ولكن الناس فى أوروبا الشمالية وبعض دول البحر المتوسط طوال الرأس ، على حين أن غالبيتهم فى أوروبا الوسطى مستديرو الرأس ، وفى آسيا ، هناك ناس بارزو الفكوك ومستطيلوا الرؤس ، وآخرون مستقيمو الفكوك ومستطيلوا الرؤس ، وكان فى رأى "رتزيوس" أن الافريقيين داكنو البشرة ، مستطيلو الرؤس وبارزو الفك .

وفى عام ١٩٠٠ قام " جوزيف دنيكر " *Joseph Deniker* بتصنيف الناس إلى تسعة وعشرين سلالة وسلالة فرعية .

وفى عام ١٩٢٤ صنف اجون فون ايكشتت *Egon Von Eickstedt* ثلاثة أجناس هى " أوروبى الشكل أو أبيض البشرة ، وزنجى الشكل أو اسود البشرة ، ومغولى الشكل أو أصفر البشرة ، وهذه الأجناس الثلاثة تشتمل على التوالى على تسعة ، وثمانية ، واثنى عشر جنسا فرعيا ، بمجموع قدره تسعة وعشرون جنسا فرعيا ، أى نفس العدد الذى صنفه " دنيكر " ولكن ليس نفس الأجناس الفرعية .

هذه أمثلة تكفى لتوضيح إنعدام الإتفاق تماما بين مصنفى السلالات المختلفين .

وعامة فإن الرأى المستقر حاليا هو أن سلالات الإنسان المعاصر تنقسم إلى ثلاث مجموعات سلالية رئيسية هى كما يسميها علماء الأنثروبولوجيا : القوقازية *Caucasoid* والمغولية *Mongoloid* والزنجية *Negroid* .

وتوجد داخل هذه المجموعات البشرية الثلاثة الكبرى عدد من السلالات والسلالات الفرعية ، والجدير بالإشارة أن الإختلافات بين الأفراد وبالتالى بين الجماعات يصل أحيانا إلى ٦٥٪ بين بعض الجماعات .

والآن يمكن إستعراض أهم الصفات المورفولوجية للمجموعات السلالية الثلاثة الرئيسية :

أولا ـ المجموعة القوقازية :

من أكثر الفروض إحتمالا أن الموطن الأصلى للجماعات القوقازية هى المنطقة الشاسعة التى تضم جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا وجنوب أوروبا ، ومن هذه المنطقة إستطاعت هذه المجموعة أن تنتشر فى إتجاهات كثيرة إلى أن تم لهم بالتدريج إحتلال كل أوروبا وشمال افريقيا وجنوب غرب أسيا وإنتشروا مع حركة الكشوف الجغرافية فتوطنوا فى العالم الجديد خاصة فى أمريكا الشمالية وإستراليا وجنوب إفريقيا وأجزاء كثيرة من أمريكا اللاتينية ، وأول من إستخدم كلمة قوقازى فوصف هذه المجموعة هو عالم الأنثروبولوجيا الألمانى بلومنباخ ، الذى أطلق هذا الإسم بعد دراسته لجمجمة أمرأة من ولاية جورجيا القوقازية ،

هذا وتعتبر السمات التالية أهم ملامح وصفات المجموعة القوقازية :

١ ـ القامة : تتباين كثيرا بين القوقازيين من المتوسط إلى الى الطويلة ، ولكن الملاحظ أنه لاتوجد بينهم القامة القصيرة جدا .

٢ ـ الرأس : تتراوح النسبة الرأسية بين الطويلة والمتوسطة ، مع ميل نحو زيادة الرأس العريض عما كان عليه الحال فى الماضى ، وتتميز سلالة وسط وشرق وجنوب شرق أوروبا بالرأس العريض ، أما الوجه فهو طويل فى العادة .

٣ ـ العين : فتحة العين عند معظم القوقازيين طويلة وأفقية ويندر أن تكون منحرفة ولون العين فاتح أو فاتح مختلط وهذه صفة خاصة بالقوق وبالعناصر التى إختلطت بهم .

٤ ـ لون البشرية : كبير التباين حسب البيئة الجغرافية ، فهي مابين الشقرة والبياض الناصع عند السلالة الشمالية *Nordic* إلى البني الغامق في الهند وأثيوبيا ، مما يدل على أنه ليس من المستحسن إطلاق تعبير المجموعة البيضاء على القوقازيين .

٥ ـ الشعر : هناك ألوان عديدة للشعر عند القوقازيين ، فهو يتراوح بين الشقرة والحمرة في شمال أوروبا ، إلى البني بدرجاته المتعددة في وسط وجنوب أوروبا ، ثم إلى الأسود في باقي مناطق القوقازيين في آسيا وافريقيا ، أما شكل الشعر فيغلب الشعر المموج ، وإن كانت توجد بعض الجماعات القوقازية ذات شعر مرسل (الأينو) وأخرى ذات شعر مجعد (الأثيوبيين) وشعر الجسم والوجه كثيف عند القواقزيين ويميل القوقازيين إلى فقدان الشعر (الصلع المبكر) وأبيضاضة في سن مبكرة .

٦ ـ الأنف : تسود تقريبا الأنف الضيقة البارزة وتتعدد أشكال البروفيل مابين المستقيم عند الأوروبيين والبحر المتوسط والأسيويين إلى التحدب *Convex* عند السلالة الأناضولية والأرمينية ، إلى التقعر *Concove* أحيانا عند بعض الأوروبيين .

٧ ـ الشفاه : يغلب عليها الشفاه الرقيقة على الرغم من تباينها الواضح حيث أنه توجد الشفاة الرقيقة إلى المتوسطة إلى الغليظة (القرن الأفريقي) .

والملاحظ على معظم هذه الصفات عظم التباين في درجاتها ، ويرجع ذلك في الغالب إلى تباين البيئات التي تنتشر فوقها هذه السلالة كبيرة العدد .

والملاحظ أنه حيثما هاجرت عناصر من هذه المجموعة القوقازية كونت سلالات إقليمية خاصة نتيجة عزلتها الوراثية ولما قد تتعرض له من ظروف بيئية وأنثروبولوجية من إختلاطها بأوعية جينية أخرى ذات دماء زنجية أو مغولية ، وهذا ماحدث فعلا في أمريكا الجنوبية والوسطى وبعض مناطق أمريكا الشمالية وإلى

حدما فى جنوب إفريقيا واستراليا بل ونيوزيلاند حيث إختلطت العناصر القوقازية مع الأهالى الوطنيين (الماورى) .

ثانيا ـ المجموعة المغولية :

تشمل هذه السلالة التى هى أكبر المجموعات السلالية من حيث العدد سكان جنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى (اليابان والصين وكوريا وفيتنام وكمبوديا وتايلان وأندونيسيا) وسكان الأمريكتين من الهنود الحمر والاسكيمو وسكان جزيرة جرينلاند (اسكيمو) وسكان جزر الأليوشن *Aleution Islands* جنوب مضيق بيرنج *Bering Strait* الذى يفصل الإتحاد السوفيتى عن ولاية ألاسكا الأمريكية، ومع أن هذه السلالة تتفرع إلى جماعات وشعوب مختلفة إلا أنها تحتفظ بصفات مجددة تميزها عن باقى شعوب العالم ونذكر منها بعض الصفات العامة التى تنطبق على معظم أفراد هذه السلالة ولكن ليس على كل الأفراد حيث أن العزلة والعوامل البيئية والإنحراف الوراثى أدت إلى ظهور بعض الصفات التى قد لاتوجد فى كل فرد من أفراد هذه السلالة .

١ ـ البشرة : تتركز الملامح الرئيسية للسلالة المغولية فى البشرة المشربة بالإصفرار فقد تكون فاتحة أو تميل إلى الدكانة ولكنها تتخللها دائما أطياف من اللون الأصفر أو الأصفر المشرب بالحمرة ، ويعتمد لون البشرة بالدرجة الأولى على الموقع الجغرافى حيث نجد أن سكان المناطق الإستوائية (الجنوبية) من المغوليين ممن يعيشون فى أمريكا اللاتينية يميل لون بشرتهم إلى السمرة ، بينما يميل لون البشرة عند سكان منطقة الجنوب الغربى الصحراوية من الولايات المتحدة إلى الصفرة المشربة بالحمرة ويميل سكان وسط شمال الولايات المتحدة الأمريكية إلى البياض نتيجة إختلاطهم بالأوروبيين .

٢ ـ الشعر : شعر الرأس فى غالبية الحالات مستقيم وخشن وهو فى العادة أسود اللون ، ونمو الشارب واللحية (شعر الوجه) يكون ـ كقاعدة عامة ـ فى مرحلة متأخرة ودرجة نموها قليلة ، أما شعر الجسم فإنه منعدم تقريبا .

٣ ـ الوجه : يتميز الوجه المغولى فى العادة ببروز عظام الوجنتين الوجه فى العادة مسطح .

٤ ـ الأنف : إتساعه متوسط وهو ذو قنطرة منخفضة .

٥ ـ الفك : غير بارز وحجم الأسنان كبير بالمقارنة مع السلالتين القوقازية والزنجية .

٦ ـ الرأس : مستدير .

٧ ـ العيون : العيون صغيرة على شكل لوزى ومغطاه بثنية جلدية فوق الزاوية الداخلية لفتحة العين تعرف بثنية الجفن المغولية *Epicantlic Fold* وخاصة فى المغوليين الشماليين .

٨ القامة : تتباين القامة بين المغوليين ولكن معظمهم من ذوى القامة المتوسطة مع ميل إلى القصر ولاتوجد بينهم القامة الطويلة ، وتتميز هذه السلالة أيضا بقصر الأطراف كما أن حجم اليد والقدم يميل إلى الصغر بالنسبة إلى حجم الجسم ككل مما يعطى الجسم المقدرة على تخزين الحرارة وعدم تسربها خارج الجسم لأن سطح الجسم أقل مساحة وهذا من الأسباب الرئيسية التى أعطتهم المقدرة على التكيف فى المناطق الشديدة البرودة .

أما الصفة الرئيسية التى تميز هذه السلالة عن غيرها من السلالات فهى وجود تقعر فى الأسنان الأربع القاطعة *Shovel - Shaped Incisors* والعكس موجود عند السلالتين القوقازية والزنجية حيث تتميز أسنانهم بالتسطح .

ثالثا ـ المجموعة الزنجية :

تتميز هذه السلالة بصفات عامة واضحة من أهمها :

١ ـ البشرة : يتراوح لون البشرة بين البنى والبنى المشرب بالصفرة ولكن يغلب اللون الأسود .

٢ ـ الشعر : لون الشعر أسود وشعر الرأس مجعد أو مفلفل أو صوفى

وشعر الجسم خفيف ومتناثر ويكاد ينعدم فى بعض المجموعات واللحية خفيفة جدا .

٣ ـ الشفاه : غليظة وربما تكون مقلوبة إلى الخارج والفك واضح البروز فى معظم هذه السلالة والفم واسع .

٤ ـ الرأس : الرأس طويلة إلى متوسطة والوجه صغيرة وضيق وعظام الوجنتين غير بارزة وعظام الجبهة مقوسة وبارزة .

٥ ـ بنية الجسم : يتميز بناء الجسم بطول الأطراف (الأذرع والسيقان) بالنسبة لطول الجذع وكبر حجم اليد والقدم بالمقارنة مع السلالة المغولية ومن مميزات هذه السلالة أن الساعد أطول من العضد ، كما أن الساق أطول من الفخذ والكعب بارزة والقدم مسطحة ، أما بالنسبة للقامة فإن متوسط الطول يصل إلى ٦ أقدام ومنهم من يزيد طوله على ٢٠٠ سم كما هو الحال بين أفراد قبائل الواتوسى والنوير فى جنوب السودان والماساى فى كينيا وهم من أطول سكان العالم ، وهناك أقزام الكونغو البلجيكى وبعض أفراد قبائل البوشمان فى صحراء كلها رى بجنوب افريقيا الذين لايتعدى طولهم الخمسة أقدام .

ونظرا لانتشار المجموعة الزنجية فى مناطق واسعة من العالم ، فإنه قد نشأت سلالات فرعية تختلف فى بعض السمات عن السلالات الأخرى ، وتنقسم المجموعة الزنجية الرئيسية إلى مجموعتين :

١ ـ المجموعة الزنجية الإفريقية :

وتتركز فى إفريقيا ويطلق عليها أحيانا المجموعة الزنجية الاستوائية ، وتوجد داخل هذه السلالة عدة سلالات فرعية تختلف كل منها عن الأخرى فى بعض السمات ومن أهمها :

أ ـ السلالة السودانية : وهى التى تسود فى إقليم السفانا فى شمال وجنوب وشرق القارة الافريقية ، وأهم مميزتها أن القامة بينهم تتراوح بين ١٦٥ ـ

١٧٠ سم ويدخل فى هذه السلالة قسمان أثنولوجيان واضحان هما : سلالة زنوج السودان التى تقطن اقليم السفانا فى شمال القارة ، وسلالة زنوج البانتو وهى التى تقطن إقليم السفانا والحشائش فى النصف الجنوبى من القارة والفرق بينهما أساسا لغوى أى ثقافى وليس بيولوجى .

ب ـ زنوج ساحل غينيا (الزنوج الخلص) : ويتميزون بالبشرة السوداء، والشعر المفلفل والقامة الطويلة (١٧٠ سم) والرأس المتوسط ، والأنف الأفطس العريض ، والشفاه الغليظة المقلوبة ، ولافك واضح البروز .

جـ ـ الزنوج النيليين : ويتركزون فى منطقة أعالى النيل فى جنوب السودان وشمال أوغندا ، ويتميزون بالقامة المرتفعة جدا (المتوسط ١٧٨ وهناك بعض الأفراد أكبر من ٢٠٠ سم) والرأس طويلة ، ومن أهم شعوب هذه السلالة الدنكا والشيلوك والنوير والبارى والأتشولى ، واللانجو .

هذا ويلحق البعض البوشمن والهوتنتوت والأقزام الإفريقيين فى هذه المجموعة الزنجية وإن كان من الأفضل إعتبارهم سلالات مستقلة لما تتميز به كل منها من صفات خاصة .

٢ ـ مجموعة زنوج المحيط :

وتتميز بلون البشرة الداكنة وبغزارة شعر الجسم وبأن شعر الرأس مموج وأقل تجعدا من المجموعة الزنجية الإفريقية وتسود الأنوف المستقيمة والمحدبة لدى هذه السلالة ، بل قد تظهر الأنف المقعرة كما عند الميلانيزيين .

والجدير بالذكر أن هناك من العلماء من يضمون الأقزام الآسيويين *Negritos* إلى هذه المجموعة الأفريقية ، ولكن الأفضل هو وضعهم فى مجموعة خاصة بهم .وعلى هذا الأساس يفضل تجميع هذه السلالات ذات الصفات والسمات المتميزة مثل الأقزام بقسميها ، والبوشمن والهوتنتوت والاستراليين الأصليين فى مجموعة خاصة بهم تتضمن السلالات القديمة التى تحمل سمات آخذة فى الإنقراض .

ويتضح من هذا العرض أن كل سلالة من هذه السلالات شأنها شأن كل السلالات البشرية عامة ، تتميز بسمات خاصة بها ، ويبدو أن السبب الأساسى فى هذا التميز يرجع إلى التطور طويل الأمد الذى صاحبها داخل أقاليم جغرافية خاصة بكل منها .

- الاختلافات الفيزيقية بين الجماعات البشرية كسمات تكيفية :

يتفق علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية على أن الإختلافات بين المجموعات السكانية سواء على مستوى التركيب الوراثى أو من ناحية الشكل الخارجى فى المناطق البيئية المختلفة يمكن ردها إلى عمليات التكيف مع البيئات الطبيعية المختلفة . ويمكن التدليل على ذلك من خلال ملاحظة التغير فى ترددات الجينات بين مختلف المجموعات السكانية ، وكأمثلة على ذلك الإختلافات الملحوظة بين مختلف المجموعات السكانية فى تردد الجينات الخاصة بفصائل الدم *ABO* أو الجينات المسئولة عن أنيميا الخلايا المنجلية *Sickle Cell Anemia* الواسعة الإنتشار فى المناطق التى ينتشر فيها مرض الملاريا ، أما بالنسبة للإختلافات فى الشكل الخارجى بين المجموعات السكانية فهى تشمل على لون البشرة ، وشكل الأنف والبنية الجسمية والسمات المورفولجية التى تساعد بعض الشعوب كالأسكيمو على التكيف بسرعة للبرودة بصورة أكبر من الجماعات الأخرى ، وكذلك السمات التى تملكها الشعوب الإستوائية والمدارية والتى تساعدهم على تشتيت الحرارة بفاعلية عن غيرهم من الجماعات غير الإستوائية ، والسمات الخاصة التى تمتلكها الشعوب التى تقطن المرتفعات العالية والتى تعوضهم فسيولوجيا عن إنخفاض نسبة الأوكسجين فى الغلاف الجوى ، وسوف نتناول كل سمة من هذه السمات بالمناقشة .

١ - لون البشرة :

لون الجلد يعتبر مثال جيد للقيمة التكيفية للعديد من السمات المسئولة عن الإختلافات بين الأجناس البشرية ، فالجلد ذو الصبغ الداكنة له قيمة أعظم من

ناحية التكيف البيئى من الجلد ذو الصبغ الباهت ، وذلك فى المناطق التى يشتد فيها ضوء الشمس وترتفع نسبة الرطوبة ، فالأصباغ الداكنة تمتص الأشعة الضوئية التى تتحول إلى حرارة فتسبب إفراز العرق الذى يتبخر فيخلص الجسم من جزء من الحرارة ، كما أنه فى الوقت نفسه يرسب طبقة رقيقة من الملح على سطح الجسم ، وهذه الطبقة الملحية الرقيقة تعمل على إنعكاس أشعة الضوء الضارة عن سطح الجسم وعلى الحد من نفاذها الى داخله

أما فى المناطق التى تقل فيها شدة ضوء الشمس ، فإن الجسم يكون بحاجة ماسة إلى إمتصاص أقصى ما يمكنه إمتصاص من الضوء ، ولهذا فالجلد ذو الصبغ الباهت يكون له قيمة عالية من ناحية التكيف البيئى فى مثل هذه المناطق.

وهذا التفسير يلائم توزيع لون البشرة على مستوى العالم فأغلب الشعوب الأشد سوادا تعيش فى المناطق الإستوائية أو فى مناطق غنية بأشعة الشمس ، بينما الشعوب ذات البشرة الفاتحة فى العالم القديم توجد فى المنطقة المعتدلة خاصة فى المناطق التى لاتتمتع بقدر كبير من أشعة الشمس ، أما البشرة ذات اللون الأصفر أو البنى الضارب إلى الصفرة فهى موجودة لدى البوشمن والمغولانيين ، وقد بين ويزان هذا اللون يعكس ضوء الشمس فى الصحارى بكفاية ، أما فى العالم الجديد فلون البشرة يختلف من مكان إلى أخر حسب درجة العرض، فهى مثل لون جلد القوقازيين أعمق ماتكون حيث نزوج الاشعاع الشمسى ، أما داخل الغابات المظلمة فى أمريكا الجنوبية فإن لون البشرة فاتح ، ومن الواضح أن بشرة الهنود الأمريكيين أفضل مقاومة لآثار ضوء الشمس الباهر من بشرة الأوروبيين ، وذلك ظاهر جدا فى أمريكا اللاتينية ، حيث تمتاز جلود المستيزو (اللاسيين) باللون اللامع الضارب للصفرة .

ولكن مع ذلك توجد إستثناءات لتلك القاعدة ، فبعض الشعوب ذوات البشرة السوداء مثل الاسكيمو تعيش فى الدائرة القطبية الشمالية ، وشعوب أخرى ذات

بشرة فاتحة تعيش فى مناطق معتدلة ، ويبدو أن هناك عوامل أخرى بالإضافة إلى القيمة التكيفية تكون مسئولة عن التوزيع العالمي للون البشرة .

٢ ـ شكل الأنف :

شكل الأنف أيضا يعتبر من السمات التكيفية ، حيث أن الأنف العريض عظيم النفع فى المناطق الحارة ، إذ يبدو أنه يسمح لأكبر كمية من الهواء الساخن بالخروج من حركة الزفير ، أما الأنف الضيق فهو ذو قيمة عالية من ناحية التكيف البيئى فى المناطق ذات المناخ البارد حيث يحتاج الزمر إلى تدفئة الهواء قبل دخوله إلى الرئتين ، ولهذا إكتشف بكستون منذ حوالى نصف قرن العلاقة بين النسبة الأنفية والأقاليم المناخية حيث وجد أن أدنى النسب فى أكثر المناطق جفافا وبردا ، وأعلى النسب فى أكثرها حرارة ورطوبة ، كما يمكن إيجاد علاقة بين شكل الأنف والإرتفاع ، حيث أن الهواء فى المناطق المرتفعة ممثل للبرد ورقيق معا .

ويمكن أن تتغير النسبة الأنفية *Nasa Index* نتيجة لهجرة مجموعة سكانية من بيئة إلى بيئة أخرى ذات مناخ مغاير ، فقد إكتشف بينويست *Benoist* أن سكان سانت بارثيليمى *Saint Barthelemy* (جزر الهند الغربية الفرنسية) الذين من أصل فرنسى أصبح لهم بعد مرور ٣٠٠ سنة عليهم فى هذه الجزر نسبة أنفية أعلى (ناتجة عن اعرضاض الأنف) من السكان الأوروبيين الآخرين أو السكان المنحدرين من أصول أوروبية وهذا الإكتشاف يقدم إحتمالا بأن الإنتخاب الطبيعى قد عمل على إحداث تغير فى النسبة الأنفية لهذه المجموعة السكانية ، وذلك عن طريق إقتراح علاقة بين النسبة الأنفية وضغط البخار وبين فسيولوجيا التنفس والمناخ .

خلاصة القول أن الجماعات السكانية التى تقطن المناطق المناخية الحارة والرطبة تتميز بالأنوف العريضة ، بينما تمتاز الجماعات السكانية التى تقطن فى المناطق المناخية الباردة والجافة بالانوف المرتفعة والضيقة . أما الجماعات السكانية فى المناطق المرتفعة الجافة نسبيا مثل سكان شمال أوروبا وسكان التبت

والمنغوليين والهنود الحمر فيمتازون بالأنوف العريضة المسطحة ، وبالذات سكان مناطق الغابات الرطبة والمناطق الضحلة ، وبذلك يمكن تفسير الإختلافات بين الجماعات السكانية فى شكل الأنف وفقا للتفسير الذى أشرنا إليه سابقا .

٣ ـ البنية الجسمية :

عندما نتناول سمة كالبنية ونحاول تتبع توزيعها على مستوى العالم يمكن أن نرد مدى تأثير العوامل المناخية على توزيع بعض السمات الجسمية كطول القامة وحجم الجسم والوزن ، ففى عام ١٨٤٧ قام كارل برجمان *Bergmann* الفسيولوجى الألمانى بعدة دراسات عن العلاقة بين حجم الجسم ، ومساحة السطح وإنتاج الحرارة فى الحيوانات ذات الدم الدافئ ، فلاحظ أنه داخل النوع الواحد تميل الجماعات التى تسكن الأطراف الأبرد من نطاق وطنه إلى أن تكون أكبر وأثقل حجما من الجماعات التى تسكن الأطراف الأدفأ ، وهذا هو جوهر قاعدة برجمان وبعد إعلان هذه القاعدة بثلاثين عاما ، إكتشف ألن *Allen* عالم الحيوان الأمريكى الذى لم يكن قد سمع قط بقاعدة برجمان ، نفس القاعدة مستقلا ، بل وزاد عليها بأن أضخم الحيوانات لاتوجد عند الحدود الباردة لأقاليمها ، بل فى نقطة أقرب إلى المركز . كما أضاف بأن زوائد الجسم البارزة مثل الذيل ، والأذن ، والمنقار ، والأطراف ، والأجنحة تميل إلى أن تكون أقصر نسبيا فى أبرد أجزاء من الأقليم عنها فى أدفأ أجزائه وهذه الملاحظة الأخيرة تعرف بقاعدة ألن ، وهو يعرف بها أكثر مما يعرف بتعديله لقاعدة برجمان ، والقاعدتان متساويتان فى القيمة والقوة بالنسبة لتوزيع بنية الإنسان ، وتفسر قاعدة الن البناء النحيف لسكان الصحراء سواءكانوا طوارق أو تراكمانا ، والنحافة المفرطة للزنوج النيليين، والقامة القصيرة ذات الأطراف القصيرة لشعوب المناطق الباردة .

وتفسير ذلك هو أن الإنسان ـ ككل الثدييات الأخرى ـ يجب أن يحتفظ بدرجة الحرارة الداخلية لجسمه فى مستوى ثابت كثيرا أو قليلا ، وحجم الجسم والبنية يرتبطان بهذه الوظيفة ، فالطاقة الحرارية يجب أن تحفظ فى البيئة الباردة

والحرارة الزائدة يجب أن تتبدد في المناخ الدافئ ، والحرارة تنتج من الأيض *Metabolism* ومن إمتصاص أشعة الشمس ، وهي تتبدد وتفقد بواسطة البخر الذي يحدث عن طريق العرق والإشعاع ، وفاعلية الإشعاع كوسيلة لفقد الحرارة يرتبط بنسبة منطقة سطح الجسم إلى كتلته ، ولتوضيح ذلك نأتي بمثالا بسيطا ، فلو قمنا بتسخين مادتين نحاسيتين متساويتين في الوزن ، ولتكن احدهما على شكل كرة والأخرى على شكل مكعب ، بدرجة حرارة واحدة ، ثم تركناهم بعد ذلك في الهواء ، وقمنا بقياس درجة حرارة الشكلين بعد مرور فترة من الوقت ، سنجد أن المكعب يبرد بمعدل أسرع من الكرة ، وهذا يرجع إلى أن سطح المكعب الذي تشع منه الحرارة يعتبر أكبر من سطح الكرة ، فالكرة من الأشكال التي لها أصغر نسبة سطح لكل وزن في الأشكال البعدية الثلاثة ، وعلى ذلك فالأفراد نوو الأجسام المكتنزة ينتجون حرارة بنسبة أكبر من الأشخاص نحاف الجسم ، ولكن مع ذلك فإن أجسامهم لها منطقة سطح أقل من نحاف الجسم يمكن أن تشع منها الحر رة، أما الأشخاص نحاف الأجسام طوال القامة فإنهم ينتجون حرارة أقل نسبيا ، ولكن منطقة السطح التي يمكن أن تشع منها الحرارة عندهم تعتبر أكبر من نوى الأجسام المكتنزة ، ولهذا السبب يمكن أن نجد في التوزيع التدريجي للبنية أن الأفراد الذين يتميزون بالجسم النحيف نسبيا يميلون إلى التواجد في الأقاليم الإستوائية أما من يتميزون بالبدانة فإنهم يتواجدون في المناطق الشمالية والجنوبية. وفي ضوء ذلك يجب أن نتوقع أن يكون قاطنو الأقاليم الشمالية قصار القامة ، نوى أجسام مكتنزة وأطراف قصيرة لكي يقللوا من معدل فقد الحرارة ، وإذا فحصنا بنية الأسكيمو نجد أن هذا حقيقي بالمعنى العام ، أما الشعوب النيلية التي تقطن شرق افريقيا فإنها تظهر العكس ، فجزوعهم طويلة ضيقة ، وأرجلهم وأذرعهم طويلة جدا ، وهذا الشكل من الجسم يتميز بأن له منطقة سطح أكبر تسمح بالأشعاع وفقد الحرارة بسرعة ، وخاصة من الأذرع والأيدي والأصابع ، وبمعنى آخر فإن الجماعات السكانية التي تعيش في المناطق الباردة تتميز بأن أعضاء الجسم الظاهرة البعيدة عن مركز الدفء والمعرضة لخطر التجمد ، قصيرة

وصغيرة الحجم ، مما يساعد على الحد من خطر التجمد والحفاظ على حرارة الجسم من التسرب ، وهذا يفسر ثنية الجفن المنغولية لدى الأسكيمو والمنغولين ، وصغر فتحة العين لديهم لحمايتهم من وميض الشمس المنعكسة عن المنطقة الثلجية وكذلك مايحدث لمجموعات البوشمن والهوتنتوت فى نفس الصفة تقريبا نتيجة الأشعة المنعكسة من وهج الرمال الصحراوية (صحراء كالهارى) وقد تم التحقق من صحة ذلك بدراسات ميدانية على الأسكيمو واللابيين *Lapps* وسكان منطقة التبت والمنغولين الذين يعيشون فى مناطق باردة ، أما سكان المناطق الحارة فهم يتصفون بالأعضاء النحيفة والطويلة نسبيا ، ويمتلكون مساحة جسمية كبيرة نسبيا كذلك . وهذا مايمكن ملاحظته على النيلين وأيضا الماساى والنوير وسكان استراليا الأصليين .

وتلك القضية تصدق على الحيوانات ، فالحيوانات حارة الدم عموما والتى تعيش فى المناخ الإستوائى الحار تكون أصغر حجما ، وأذرعها وأرجلها وأطرافها أطول ، ولديها منطقة سطح بالنسبة لوزن الجسم أكبر من تلك الحيوانات حارة الدم التى تقطن الشمال أو الجنوب ، ولكن هذه التدرجات مع ذلك غير واضحة بالنسبة للإنسان فى العديد من المناطق ، فهناك استثناءات كثيرة لتلك القاعدة .

وإذا نظرنا إلى أقصى طول للسلالات البشرية نجد أن أقصى طول للأوروبيين يتبع بطريقة عامة خط حرارة ٢٥ ف ، أو مابين ١٤ و ٣١° وفى آسيا نجد أطول المغولانيين فى الشرق حول خط حرارة ١٠ ف . أما فى أمريكا الشمالية فأقصى طول فى القامة واحد عند الهنود الأمريكين والأمريكيين والكنديين من أصل أوروبى ، أما فى إفريقيا فالموقف معقد نتيجة الإختلاط الكبير فى السلالات وقصر قامة الأقزام والبوشمن ، وأطول القوقازيين موجودون فى الصحراء ، وأطول الزنوج موجودون فى المستنقعات الرطبة الحارة ، ويعيش أطول الناس قامة فى نيوغينيا على طول ساحلها ، ويقل طول القامة حتى يصل إلى درجة الأقزام فى المرتفعات الداخلية ، وأطول الاستراليين الأصليين يعيشون فى

الشمال ويقل طول القامة كلما إتجهنا جنوبا ، أما عن الإستراليين البيض فالعكس صحيح .

ومهما يكن أمر وجود إستثناءات لقاعدة توزيع حجم وشكل الانسان ، فإنه يمكن تفسيرها فى ضوء الهجرات التى شهدها العالم بين الشعوب المختلفة ، بالإضافة إلى إمكانية وجود خلط كبير وامتزاج بين بعض السلالات ، فهناك مناطق كثيرة جدا فى هذا العالم استقبلت أعدادا كبيرة من المستعمرين الأوروبيين والعبيد الأفارقة والعمال الصينيين ، وكل أفراد تلك الجماعات البشرية نجحوا فى الاستيطان فى العديد من أنواع البيئات وتكيفوا لها وهناك أدلة قليلة تشير إلى أن المهاجرين أقل تكيفا من الناحية البيولوجية من الجماعات السكانية المحلية ، ويرجع ذلك إلى أن التكيف البشرى قد تداخلت معه الثقافة البشرية التى إستطاعت أن تحمى الإنسان من العديد من التأثيرات المباشرة للإختلافات الجغرافية .

٤ ـ السمات الخاصة بشعوب المرتفعات :

إذا إنتقلنا إلى السمات الخاصة بالشعوب التى تقطن المرتفعات ، والتى تعوضهم فسيولوجيا عن إنخفاض نسبة الأوكسجين فى الغلاف الجوى ، نجد أنها سمات تكيفية السبيل للطعن فى صحتها ، والتكيف مع الإرتفاعات مسألة بسيطة فهى تتضمن أساسا مقدرة جسم المرأة الحامل على أن تنقل قدرا كافيا من الأوكسجين من المشيمة إلى الجنين حتى تؤمن حياته ، وهناك أدلة على وجوب حالات إجهاض تزيد بمقداريتراوح بين ٢٠ ـ ٣٠٪ فى ويومنج وكولورادو عنها فى بقية الولايات المتحدة ، ويولد الأطفال صغار الحجم فى أقليم البحيرة بكولورادو ، ويموت منهم بعد الولادة مباشرة عدد يزيد ٣٠٪ عن وفيات الأطفال حديثى الولادة فى الأجزاء المنخفضة من البلاد ، وليس إرتفاع ١٠,٠٠٠ قدم بالأمر الصعب النسبة للمغولانيين ، فبعضهم يحيا حياة عادية ويتجنب أطفالا أصحاء وهم يعيشون على إرتفاع ١٤٠٠٠ قدم ، ويفعلون ذلك فى إقليمين مرتفعين فقط فى العالم ، جبال الإنديز وهضبة التبت .

وقد حاول الأسبان ابان العصر الإستعمارى أقلمة الأوروبيين والزنوج للحياة فوق المرتفعات ولكنهم أخفقوا .. فقد مات الزنوج الذين جلبو للعمل فى المناجم المرتفعة وتمكن الأوروبيون من التكيف للحياة فوق المرتفعات ، ولكن أطفالهم ظلوا نطف قرن لايتعدون دور الطفولة ثم يموتون ، أما الخلاسيون من آباء أوروبيين وأمهات هنديات فقد كانت فرصهم فى الحياة أفضل وازدادت نسبة الإنجاب مع إزدياد الجينات الهندية ، ولذلك فإن مرتفعات الأنديز فى اكوادور وبيرو وبوليفيا لاتزال مقصورة على الهنود . وسر نجاح الهنود فى الإنجاب فوق المرتفعات العالية معروف تماما ، فصدورهم ورئاتهم وقلوبهم كبيرة الحجم ، وأذرعتهم وسيقانهم قصيرة ، وحجم الدم لديهم أكبر منه لدى الناس الآخرين ، ودمهم ثقيل القوام وأحمر غامق مع إرتفاع نسبة كرات الدم الحمراء ، ورغم أن كل كرة من كرات الدم تحمل نفس كمية الأوكسجين الذى تحمله كرات الدم فى السلالات الأخرى ، إلا أن التفوق العددى فى هذه الكرات هو المسئول عن زيادة كمية الأوكسجين فى الدم اللازم للإنجاب ، ولم تكن هناك وسيلة لمعرفة هذا السبب إلا بعد أن طرد الصينيون الشيوعيون آلاف التبتيين إلى الهند ، وهذه المسألة كانت محل دراسة قام بها عدد من العلماء على هؤلاء اللاجئين من التبت ، وقد أشارت التقارير الأولية لهذه الدراسة على أن نفس عوامل نجاح تكاثر الهنود فى الأنديز هى التى تعمل على نجاح تكاثر أهل التبت .

وعلى ذلك تعتبر السمات الخاصة بالشعوب التى تقطن المرتفعات والتى تعوضهم فسيولوجيا عن إنخفاض نسبة الأوكسجين فى الغلاف الجوى نتيجة قلة نسبة الضغط الجوى من الأمثلة الجيدة لفعل الإنتخاب الطبيعى الذى فضل السمات الملائمة للمعيشة فوق المرتفعات ، وعمل على نشر هذه السمات من خلال إنجاب الآباء الحاملين لهذه السمات لذرية إستطاعت البقاء فى هذه البيئة التى لم يقو فيها من يفتقر إلى هذه السمات من الذرية على البقاء .

وهناك العديد من السمات التى تتميز بها السلالات المختلفة مع ذلك ليست

لها أية قيمة تكيفية ، أو أن لها قيمة تكيفية ولكنها غير واضحة فى الوقت الحاضر، من أمثلتها شكل الشعر ولونه ، ولون العين ، وحجم كرة العين ، وصفة العمى اللونى وصفات الأسنان وعضلات تعبيرات الوجه ، وبصمات الأصابع والتذوق ، وعلى ذلك لانستطيع أن نرتكن إلى الإنتخاب الطبيعى وحده لتفسير ظهور كل الإختلافات الموجودة بين السلالات البشرية ، وعلى العموم هناك إتفاق بين العلماء على أن هناك خمسة عوامل مسئولة عن وجود السلالات هى الطفرة ثم الإنتخاب الطبيعى الذى يؤدى إلى وجود مجموعات متمايزة من النماذج البشرية كل منها مهيأ للمعيشة فى ظروف بيئية معينة ، والإنحراف الوراثى ، والتدفق الجينى والهجرة وأخيرا الزواج المنظم ، ومهما يكن من أمر فإن من الأشياء المؤكدة أن الإنتخاب الطبيعى لابد وأن يكون قد لعب دورا فى ظهور مايعرف بالسمات التكيفية والإختلافات المورفولوجية الموجودة بين الجماعات السكانية البشرية ، فطالما وجدت السمات التكيفية يجب أن نتوقع دور الإنتخاب الطبيعى فى تشكيلها حيث أن الإنتخاب الطبيعى يؤدى إلى تكيف الكائنات الحية مع البيئات التى تعيش فيها .

الفصل الثالث

الملاحظة فى الأنثروبولوجية والاجتماعية *

- مقدمة
- ماهية الملاحظة
- استخدامات الملاحظة
- قواعد إجراء الملاحظة فى البحوث الاجتماعية
- مزايا الملاحظة وعيوبها
- أنواع الملاحظة :

١- الملاحظة البسيطة

٢- الملاحظة المنظمة

٣- الملاحظة بالمشاركة

٤- الملاحظة التجريبية

- نماذج الملاحظة بالمشاركة فى بعض الدراسات الأنثروبولوجية
- ثبات وصدق الملاحظة
- أخلاقيات القائم بالملاحظة

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة/ مرفت العشماوى عثمان، مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

الفصل الثالث
الملاحظة في الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية

ـ تمهيد :

تعد الملاحظة وسيلة هامة من وسائل جمع المعلومات ، ويمكن القول أن كل بحث إجتماعي يستخدم الملاحظة بدرجات مختلفة من الدقة والضبط إبتداء من الملاحظة السريعة غير المضبوطة وصولا إلى الملاحظة العمنية الدقيقة . فالعنم يبدأ بالملاحظة ثم يعود إليها مرة أخرى لكى يتحقق من صحة النتائج التى توصل إليها ، وهناك فارق بين الملاحظة السريعة العابرة التى يقوم بها الإنسان فى ظروف الحياة العادية وبين الملاحظة العلمية التى تمثل محاولة منهجية يقوم بها الباحث بصبر وإناة للكشف عن تفاصيل الظواهر أو عن العلاقات التى تقوم بين عناصرها، وهى تتميز عن الملاحظة العابرة بأن الباحث يقوم بها لخدمة بحث معين، كما أنها مخططة بطريقة واعية من أجل تحقيق أهداف البحث ثم أن الملاحظات العلمية تثبت وتسجل بطريقة دقيقة بالاضافة إلى أنه يمكن تكرارها وذلك بالعودة إلى ملاحظة الظاهرة موضوع الدراسة مرة ثانية للتحقق من صحتها ، وبذلك تصبح مصدرا أساسيا من مصادر الحصول على البيانات ، بل أن البعض ذهب إلى حد إعتبارها منهجا مستقلا من مناهج البحث العلمى [١] .

والملاحظة العلمية لاتقتصر على مجرد الحواس بل تستعين بأدوات علمية دقيقة للقياس ضمانا لدقة النتائج وموضوعيتها من ناحية ، وتفاديا لقصور الحواس من ناحية أخرى [٢] .

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة مرفت العشماوى عثمان مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

(١) محمد علي محمد ، ١٩٨٣ ، علم الاجتماع والمنهج العلمي : دراسة في طرائق البحث وأساليبه ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ٤٥٢

(٢) عبد الباسط محمد حسن ، ١٩٦٦ ، أصول البحث الإجتماعي ، مطبعة لجنة البيان ، القاهرة ، ص ٤١٥

ولقد كان لعلماء الأنثروبولوجيا فى العصر الحديث الفضل فى لفت أنظار الباحثين الإجتماعيين إلى أهمية الملاحظة كوسيلة هامة من وسائل جمع البيانات ، وكان لخصوبة المادة العلمية التى جمعوها عن الشعوب البدائية أثر كبير فى توجيه أذهان الباحثين إلى إستخدام نفس الأسلوب فى البحث خاصة فى دراسة الجماعات الصغيرة[١] .

كما أن الكثير من صور السلوك اليومى مثل طرق تربية الأطفال ، وأساليب تبادل التحية ، والإحتفال بالأعياد ، وغيرها من المناسبات الإجتماعية وهى من الأمور المألوفة الطبيعية لدى أعضاء الجماعة ولكنها تسترعى إنتباه الباحث والمدرب خاصة إذا كان غريبا عن الثقافة القائمة [٢] .

ومما لاشك فيه أن الباحث يشغله منذ البداية وبمجرد إقامته فى منطقة البحث أن هناك معلومات ذات أهمية بالغة متاحة فى سهولة ويسر وبمجرد ممارسة الملاحظة ، وإن كان ثمة فروق واضحة بين الأفراد من حيث قدراتهم لأن يلاحظوا أو يتذكروا ويذكر *Pelto* فى كتابه البحث الإجتماعى أن بعض الأفراد لديهم قدرة بارعة لملاحظة دقائق الموقف ، وإن الأفراد يختلفون فى نظرتهم إلى الوحدات والوقائع التى تستأثر باهتماماتهم فالمرأة على سبيل المثال أفضل من الرجل فى ملاحظة أو إستعادة التفاصيل المتعلقة بالملابس والألوان أو تكوينات الديكور أو الزينة وما إليها ، والمزارع لديه القدرة التى تفوق غيره فى ملاحظته للأدوات والمعلومات الزراعية ، وباختصار كل فرد له مجال من الإهتمامات والخبرات الخاصة التى تؤثر فى ملاحظته وإن الباحث الميدانى لابد وأن يكون على وعى تام بمواطن القوة والضعف فى طريقته فى الملاحظة ، وأن يكتشف تحيزه لملاحظة أشياء دون أخرى ، ولكى ينمى قدراته وأسلوبه فى الملاحظة فإنه فى أمس الحاجة

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٤١٥ ، ٤١٦ .

(٢) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، تصميم وتنفيذ البحث الاجتماعي ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ٥٦ .

لأن يتعلم كيف يوجه إهتماماته للملامح أو الأشياء التى إعتاد أن يتجاهلها ، وبديهى أنه ليس هناك باحثان يستطيعان أن يقدما نفس الإنطباعات المتطابقة تماما لنفس الشئ ، أن الملاحظة هى فعل إبداعي وهى نوع من النشاط لا يشير إلى حالة من السلبية أو السكون *Passivity* ونحن حين نمارسها نمارس عملا إختياريا ، قد نلاحظ بعض الأشياء دون البعض الآخر (١) .

نخلص من ذلك أن الملاحظة هى فعل إبداعي تستخدم فى كثير من الأغراض منها إستكشاف بعض الظواهر ، الإستبصار بسلوك معين ، تلقى الضوء على البيانات الكمية فتضيف إليها بعدا كيفيا ، كما أنها تعطينا صورة واقعية للظواهر التى نتناولها حيث تصفها بدقة ، وتفيد فى الدراسات الكشفية والتجريبية ، كما أنها أداه رئيسية فى الدراسات الميدانية والأنثوجرافية والإستطلاعية ويجب أن نأخذ فى الإعتبار أن كل فرد له بعض الإهتمامات والمجالات التى تؤثر على إختياره وملاحظته ، وأن الملاحظة قد تتباين باختلاف النوع فالنساء لديهن القدرة على إعطاء بعض التفاصيل أكثر من الرجال فى بعض المجالات ، وأننا حينما نمارسها إنما نمارس عملا إختياريا حيث نلاحظ أشياء دون البعض الآخر .

ماهية الملاحظة :

الملاحظة تعنى فحص الظواهر أو تسجيلها ، وطبقا لهذا المعنى يمكن أن تكون الملاحظة مباشرة أو غير مباشرة شخصية أو غير شخصية ، كما أن أى أسلوب لجمع البيانات يعتبر ملاحظة بما فى ذلك جمع البيانات من السجلات .

كما أنها تشير إلى فحص السلوك مباشرة عن طريق باحث أو مجموعة من الأشخاص يقومون بدور الملاحظين ، وتحتاج الظواهر المعقدة إلى درجة من التحليل

---

(١) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٥ ، قراءات في علم الإنسان " الإنسان ، البيئة ، الثقافة " ، مطبعة الجمهورية ، اسكندرية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

وتفسير البيانات (١) .

كما أنها تعنى حصر الإنتباه نحو شئ ما للتعرف عليه وفهمه ، وهى وسيلة هامة من وسائل جمع البيانات (٢) .

ويستخدم أغلب الناس هذا الأسلوب فى التعرف على الظواهر المحيطة بهم، كما يستخدمه الباحثون الإجتماعيون فى الدراسات الإستطلاعية لجمع البيانات الأولية عن جماعة معينة من الناس فى بيئة معينة وتحت ظروف معينة من حيث أوجه نشاطهم وطرق معيشتهم أو دراسة حياة المهاجرين من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية ، أو ملاحظة أوجه النشاط التى يمارسها الأهالى فى حى من الأحياء(٣) .

وإذا كنا بصدد الملاحظة فإن ثمة أربع مسائل جوهرية ينبغى أن نأخذها فى الإعتبار :

أ ـ المادة التى يراد ملاحظتها .

ب ـ تسجيل هذه المادة .

جـ ـ ماذا يمكن أن نفعل لتوخى الدقة والضبط فى المعلومات التى نحصل عليها .

د ـ كيف يمكن بناء العلاقة بين الباحث الملاحظ وأفراد المجتمع أو الجماعة.

وفيما يتعلق بالإعتبار الأول نجد أن الباحث سوف يواجه منذ البداية صعوبات الإختيار لما سوف يلاحظه أو يجمع عنه المادة ، ولا شك أن صياغة موضوعات البحث والتى ترتبت على القراءات المتعددة وعلى الفروض والتساؤلات

---

(١) نخبة من أساتذة قسم الاجتماع ، ب . ت ، المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ٣٠٧ .

(٢) أحمد زكي بدوي ، ١٩٧٧ ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، ساحة رياض الصلح، بيروت ، ص ٣٠٥ .

(٣) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤١٩ .

التى أعدها الباحث لدراسته توضح نوع المادة الأكثر إتصالا به ، وبالتالى ماذا يلاحظ على وجه التحديد (١) .

فحينما كنت أقوم على سبيل المثال بدراسة الطب الشعبى في منطقة برج العرب كنت أوثق علاقاتى مع المطببين الشعبيين كالنظار وهو الشخص الذى يحدد مدى الإصابة ، والدايات ومجبرى الكسور والفقهاء والشيوخ وبائعى العطارة والقائمين بعمليات الكى والخزم والخرث والختان ، وملاحظة كيف تتم تلك الجراحات وأماكن العلاج ونوعية المرضى والمترددين وأدوات العلاج وأماكن نمو الأعشاب الطبيعية التى تستخدم فى العلاج .

أما فيما يتعلق بتسجيل المادة فمن الأفضل أن يسجل الباحث ملاحظته فى نفس الوقت الذى تجرى فيه حتى تقل إحتمالات التحيز وضمانا لعدم النسيان ، وقد يجد صعوبة فى تسجيل الملاحظات فى حينها لأن ذلك قد يضايق الأفراد أو يثير شكوكهم ، كما أن إنهماك الملاحظ فى التسجيل كفيل بأن يشتت إنتباهه بين الملاحظة والتسجيل فتضيع حقائق قد تكون على جانب من الأهمية ، ومن الممكن فى مثل هذه المواقف أن يكتفى الباحث بكتابة بعض الكلمات أو النقاط الرئيسية ، وفى بعض الأحيان قد يترك الباحث موقف الملاحظة لفترة قصيرة يسجل فيها ملاحظاته بصورة أوفى ثم يعود لإستئنافها إذا لم يكن ذلك يؤثر على النتائج (٢) .

كما أن أفضل الطرق للحصول على معلومات قيمة فى موضوع هو أن يكرر الباحث معالجة للموضوع عدة مرات مع أشخاص مختلفين (٣) .

أما فيما يتعلق بتوخى الدقة والضبط فى المعلومات فيتمثل هذا فى المشاركة الفعلية فى الحياة اليومية حيث أنها خير طريقة لفهم المجتمع ، ولتكن

---

(١) فاروق اسماعيل ، ١٩٧٥ ، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية : دراسة في التمثيل الثقافي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، اسكندرية ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

(٣) فاروق اسماعيل ، ١٩٧٥ ، المرجع السابق ، ص ٢٢ .

مشاهداتنا وملاحظاتنا نقطة بداية لإثارة العديد من التساؤلات مع الإخباريين ثم مقارنة الإجابات التى يدلون بها لنتبين الصدق والكذب فيما يدلون به من معلومات على أن نحاول دائما الحصول على معلومات وثيقة الصلة بموضوع معين من ثلاثة أو أربعة مصادر وأن نتحين الفرصة لتأكيد هذه الوقائع أو المعلومات من واقع التجربة الفعلية ، وإذا ما إتسعت منطقة البحث فيجب أن يحصل الباحث على المادة العلمية من مناطق متعددة حتى يتبين الإتجاه الواضح والعام والسائد فى منطقة الدراسة [١] .

وإذا كان الباحث الأنثروبولوجى مطالب بأن يدعم علاقته بأفراد المجتمع المحلى وكذلك الإخباريين فإن وظيفته لاتقتصر على جمع المادة وتسجيلها ، بل قد يستطيع بعد فترة من بقائه فى المجتمع أن يقدم بعض الخدمات أو المساعدات أوتقديم الهدايا الرمزية أو البسيطة فى مواقف خاصة لسكان المنطقة إذا إستطاع ذلك ، فإن هذا يساعد إلى حد كبير على مزيد من دعم العلاقات بينه وبين أفراد المجتمع الذى يدرسه ، ومع مرور الوقت ونتيجة للإقامة الطويلة سوف تتاح الفرصة للباحث للمشاركة الفعلية فى أحداث ووقائع الحياة اليومية فى محركاتهم وأسواقهم ومواسمهم الإقتصادية وفى منازعاتهم وبالتالى تصبح لدى الباحث القدرة على تفهم العلاقات الإجتماعية ، ومحتويات الثقافة المادية ، والتغيرات التى تطرأ عليها[٢] .

فدراسة المجتمع المحلى دراسة مركزة فترة تستغرق سنة كاملة وذلك حتى يتسنى للباحث دراسة كل مظاهر النشاط الإجتماعى على مدار تلك السنة ، وبذلك يتحقق الشرط الأساسى فى البحوث الأنثروبولوجية الحقلية وهو شرط المعايشة والملاحظة بالمشاركة والإتصال المباشر لخلق العلاقة الحميمة *Rappost* مع أفراد

---

(١) فاروق اسماعيل ، ١٩٧٧ ، التغير والتنمية في المجتمع الصحراوي : دراسة أنثروبولوجية في منطقة امتداد مريوط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، اسكندرية ، ص ٢٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢١ .

المجتمع[١] .

نخلص من هذا أن الملاحظة هى فحص الظواهر وتسجيلها وفحص السلوك وتسجيله وحصر الإنتباه نحو شئ ما لمحاولة فهمه ، ويمكن القول أن أى أسلوب لجمع البيانات يعتبر ملاحظة ، كما أنها هى ذاتها وسيلة هامة لجمع البيانات .

وإذا كنا بصدد الملاحظة فينبغى أن نأخذ فى الإعتبار :

المادة التي يجب ملاحظتها : وهى وثيقة الصلة بموضوع الباحث وفروضه وتساؤلاته .

تسجيل هذه المادة : يتم فى حينها وإذا تعذر هذا عليه أن يكتب بعض الكلمات أو النقاط الرئيسية ثم لا يلبث أن يقوم بكتابة المادة تفصيليا حينما يعود إلى ـ ـبة وأن يكرر الباحث ملاحظته حتى يلم بكل جوانب الموضوع ، وفى بعض الأحيان قد يترك موقف الملاحظة لفترة إذا وجد نفسه قد إعتاد على المعلومات ثم لايلبث أن يعود لاستئناف الملاحظات ، ولابد من مراعاة تكرار الملاحظة لنفس الموضوع

الدقة و لضبط في المعلومات : ولا يتأتى هذا إلا بتكرار الملاحظة ومناقشته مع دد من الإخباريين ومقارنة الإجابات لنتبين مدى الصدق وهذا لن يتم إلا بالإقامة الطويلة فى المجتمع وإقامة علاقات طيبة حميمة مع الأهالى ، وبذلك يتمكن الباحث من معايشة كل وقائع الحياة اليومية ، ومن ثم يتفهم طبيعة العلاقات الإجتماعية ومحتويات الثقافة والتغيرات التى تطرأ عليها .

وهناك أمور عامة يجب مراعاتها عند الملاحظة منها عدم التحيز ، والتعمق والحرص وإكتساب ثقة الجماعة موضوع الملاحظة ورسم خطة محددة قبل العمل ،

---

(١) أحمد أبو زيد ، ١٩٩١ ، المجتمعات الصحراوية في مصر ـ البحث الأول ـ شمال سيناء ـ دراسة إثنوجرافية للنظم والأنساق الاجتماعية ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ص ٣٦ .

وتسجيل الملاحظات وقت حدوثها والإستعانة بالوسائل المختلفة في تسجيلها ، وتدعيم الملاحظات بالصور والخرائط والجداول وغير ذلك ، ثم تصنيف الملاحظات حسب الموضوع وإستخلاص الفروض الأولية منها وأخيرا التأكد من نتائج الملاحظة عن طريق إستخدام الطرق الأخرى لجمع البيانات (١) .

- إستخدامات الملاحظة :

تخدم الملاحظة الكثير من أهداف البحوث فيمكن إستخدامها مثلا في إستكشاف بعض الظواهر أو الإستبصار بسلوك معين ، كما أنها قد تلقى الضوء على البيانات الكمية فتضيف إليها بعدا كيفيا نوعيا ليمنحها معنى خاصا ، وهى تمثل فى هذه الحالة محكا خارجيا يمكن الإحتكام إليه فى مدى التثبت من مدى صدق البيانات ، هى إن كانت تعكس لنا وجهة نظر الباحث إلى حد ما ، إلا أنها تعطينا صورة واقعية للظواهر التى تتناولها ، كما يمكن القيام بالملاحظة فى المواقف الطبيعية دون إصطناع ظروف معينة مثل الملاحظات التى قام بها الباحثون فى التنظيمات الصناعية لدراسة سلوك جماعات العمل أثناء تأدية أعمالهم وتسجيل شبكة العلاقات الإجتماعية غير الرسمية التى تنشأ بينهم فى موقف العمل وصلة ذلك بالانتاجية والقدرة على الإنجاز .

ومن الجدير بالذكر أن تشارلز كولى *C.Cooley* قد صاغ جانبا كبيرا من أفكاره حول الجماعات الأولية وما تتميز به من خصائص كالتعاون وحرية التعبير عن الشخصية والعواطف وذلك من خلال ملاحظاته الوثيقة لجماعات الأطفال ، ومن الأمثلة أيضا ملاحظة إنفعالات جمهور فى تجمع معين مثل جمهور كرة القدم ، أو سلوك الناس خلال الإحتفالات العامة (٢) .

وتفيد الملاحظة أيضا فى الدراسات الوطفية (الميدانية ، الإستطلاعية ،

---

(١) غريب سيد أحمد ، المرجع السابق ، ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٢) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

الأثنوجرافية) والكشفية والتجريبية (١) . كما أنها تستخدم أيضا فى كثير من ميادين علم النفس كعلم نفس الطفل وعلم نفس الشواذ (٢) .

- قواعد إجراء الملاحظة في البحث الاجتماعي :

هناك قواعد عامة يمكن الإسترشاد بها عند القيام بالملاحظة وتحليل المواقف الإجتماعية إلى عناصر أولية لها دلالاتها نوجزها فيما يلى :

أ - يتعين على الباحث أن يدخل ضمن مجالات ملاحظاته كل الأشياء أو الوقائع أو الظواهر ذات الصلة بموضوع بحثه ، وأن الأشياء التى تركها بدون ملاحظة ليست لها دلالة بالنسبة للدراسة .

ب - إذا شارك في القيام بالملاحظة أكثر من باحث فمن الضرورى أن يتوجه كل منهم فى جانب معين من الموضوع الذى تجرى عليه الملاحظة فإذا كنا ندرس البناء الإجتماعى فى إحدى القرى ، فمن الممكن أن يتولى باحث تحليل النظام القرابى ، واخر دراسة النظام الإقتصادى وثالث يهتم بالنظام القانونى وهكذا ، على أن يأخذ كل منهم فى إعتباره التساند والإعتماد المتبادل بين هذه النظم المختلفة .

جـ - لابد أن يتأكد القائم بالملاحظة من مدي التعارض بين ما يقوله الناس وبين ما يمارسونه بالفعل ، أو يتبين عن طريق الملاحظة صحة ما يدلى به أفراد البحث من معلومات دون إشعارهم بأنهم يخفون الحقيقة أو يتهربون منها (٣).

د - المشتركون في الموقف الإجتماعي : من هم ، نوعهم ، وضع الفرد ومكانته فى الموقف الذى يخضع للملاحظة ، الصلة التى تربط بين الأعضاء (٤)، نشاطهم ، خصائصهم المختلفة ، العلاقات المتبادلة بينهم ، كيفية ظهور جماعات

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤١٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤١٩ .

(٣) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .

(٤) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٢٤ .

صغيرة أو فرعية بينهم ، أى درجة التفاعل الاجتماعى أو العزلة [١] .

هـ ـ المكان : الموقف الإجتماعى قد يحدث فى أماكن مختلفة فى المنزل ، وفى المصنع ، أو فى مكان عام ، وبذلك تختلف المواقف باختلاف المكان ومن الضرورى أن يعرف الباحث أنماط السلوك المرغوب فيها وغير المسموح بها فى كل موقف من هذه المواقف [٢] .

و ـ الهدف : هل إجتمع الأفراد لغرض معين ، أم إجتمعوا مصادفة ، ولو كانت هناك أهداف محددة فما هى ، إشتراك فى جنازة ، إشتراك فى مناسبة دينية .. إشتراك فى حفلة .. وكيف يستجيب الأفراد بالنسبة للهدف الذى إجتمعوا من أجله ، تقبل ، اعراض .. وهل هناك أهداف أخرى بالاضافة إلى الهدف الأصلى يسعون إلى تحقيقها ، وهى تتفق أهداف ورغبات الأعضاء مع بعضها أم تتعارض .

ز ـ سلوك الأفراد الإجتماعى : ماذا يفعل المشتركون ، كيف يتصرفون ، ومع من ، وبأى الأساليب وبالنسبة للسلوك الإجتماعى يجب أن يهتم الملاحظ :

١ ـ ما هو الحادث المنبه المثير للسلوك وهى كان سلوك الأفراد عن قصد أم إستجابة لظرف طارئ .

٢ ـ ماهى الأسباب الظاهرة للسلوك * .

٣ ـ من هم الأفراد الذين كانوا هدفا للسلوك .

٤ ـ ما نوع النشاط المرتبط بالسلوك.. حديث ـ جرى ـ جلوس ـ اشارة .

٥ ـ ما هى المميزات العامة لهذا السلوك ، مدى إستمراره ، غرابته ، بعده

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤٥٤ .

(*) تم محاولة الوصول إلي الوظيفة الكامنة من خلال فهم العوامل الاجتماعية والثقافية والمثيرات والمنبهات المسببة للسلوك .

عن المألوف ، تأثيره .

٦ ـ ماهى الأثار المترتبة عليه ؟ وما نوع السلوك الذى يتطلبه من الآخرين .

جـ ـ المدة والتكرار *Frequency and Duration*

متى حدث هذا الموقف ، ماهى الفترة الزمنية التى يستغرقها ، هل هو موقف فريد غير متكرر أم أنه موقف متكرر الحدوث ، مانوع الظروف التى ساعدت على حدوثه ، هل يعتبر هذا الموقف نموذجا بالنسبة للمواقف الأخرى .

ط ـ على الباحث أن يساير العادات والتقاليد السائدة فى مجتمع البحث حتى لا يكون وجوده غير مرغوب ، كما أن عليه أن يسجل نتائج إتصالاته بالأشخاص موقف الملاحظة من حيث مدى إيجابيتهم وسلبيتهم وكذلك الفترة التى إستغرقتها الملاحظة [١] .

نخلص من هذا أنه توجد بعض القواعد التى يجب أن يراعيها الباحث عند إجراء الملاحظة وهى أن يلاحظ الباحث كل الأشياء وثيقة الصلة بموضوع بحثه ، واذا شارك فى الملاحظة أكثر من باحث فإن كل منهم يركز على جانب معين من موضوع الدراسة ، وأن يتأكد القائم بالملاحظة من مدى التعارض بين ما يقوله الناس وبين ما يمارسونه بالفعل دون إشعارهم بأنهم يخفون الحقيقة * .

كما يجب ملاحظة المشتركين فى الموقف الإجتماعى نوعهم وخصائصهم

---

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٥ .

(*) لاحظت أثناء الدراسة الميدانية في مرحلة الدكتوراه أن الأمهات في المجتمع القروي يتركن صغارهن يتبولن ويتبرزن بحرية خلف المنزل أو في الحقل ومع تقدم الصغير في السن وبتوجيه الأم يتعرف علي المكان المخصص لذلك ، وإن كانت الكثير من الأمهات قد ذكرن أنه يتم تعويد الأطفال علي الجلوس علي " القعادة " منذ الشهر الخامس ومنذ سن العام أو العام ونصف يتم تعويد الصغير علي استخدام المرحاض .

أنظر : مرفت العشماوي : دورة الحياه عند الفرد : دراسة أنثروبولوجية مقارنة للعادات والتقاليد الشعبية في المجتمع القروي والحضري برشيد .

والعلاقات والتفاعل المتبادل بينهم ، كما يتم تحديد المكان الذى تمت فيه ملاحظة التفاعل الاجتماعى منزل ، سوق ، كما نحاول أن نتعرف على الهدف من هذا التفاعل الاجتماعى وكيف يستجيب الأفراد للهدف الذى اجتمعوا من أجله وسلوك الأفراد فى موقف التفاعل هذا (مناسبة ـ زواج ـ ميلاد ـ وفاة) وخصائص هذا السلوك والإثارة المترتبة عليه ، والفترة التى يستغرقها وهل هذا السلوك فريد أم متكرر .

- مزايا الملاحظة وعيوبها :

تتميز الملاحظة عن غيرها من أدوات البحث بأنها تفيد فى جمع بيانات تتصل بسلوك الأفراد الفعلى فى بعض المواقف الواقعية فى الحياة بحيث يمكن ملاحظتها دون عناء كبير أو التى يمكن تكرارها بدون جهد (١) .

كما أنها تسجل الحدث فور وقوعه تلقائيا وتنقله إلى الشخص القائم بالملاحظة (الملاحظ أو الباحث)دون أن يتحتم عليه مقابلة الأشخاص وتسجيل إجاباتهم مما قد يجعلهم فى حرج أو تحيز* ، وهى لذلك تتميز بالمرونة التى تسمح للباحث بتغيير وتعديل خطته وفقا للظروف التى يواجهها (٢) .

كما تزداد قيمتها خاصة فى الحالات التى يزداد إحتمال مقاومة الأفراد لما يوجه إليهم من أسئلة ، أو عدم تعاونهم مع الباحث أثناء المقابلة ، وهذه المقاومة من الأمور المألوفة خاصة إذا كان التساؤل يتناول أمورا خاصة لايحب الفرد أن يتحدث عنها أو لايطمئن الإطمئنان الكافى إلى التعبير عن رأيه فيها فيمتنع عن

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤١٦ .

(*) أتاحت لي دراسة العادات والتقاليد الشعبية المرتبطة بالوفاه في مجتمع رشيد ملاحظة سلوك النساء في حالات وفاة الأقارب ، الملابس التي يتم ارتداؤها ، الأطعمة التي تقدم ، كيف يتم الإعلان عن حالة الوفاه ، مظاهر التعبير عن مشاعر الحزن ، زيادة المقابر وتوزيع الصدقات علي الفقراء وغيرها من الأنماط السلوكية .

أنظر : مرفت العشماوي ، المرجع السابق .

(٢) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٣ .

الإستجابة أو يلجأ إلى تحريفها ، وقد لايجد الأفراد فى الكثير من الحالات الوقت الكافى للإستجابة للمقابلة ، أو أنهم لايدركون شعوريا حقيقة إتجاهاتهم ودوافعهم ورغم أن الناس قد يزيفون سلوكهم إذا علموا أنهم موضع ملاحظة إلا أن تحريف السلوك الفعلى عن صورة المألوفة أصعب بكثير من تحريف الألفاظ فقد يريد الباحث مثلا أن يعرف مدى رضا الأعضاء فى جماعة عن الطريقة التى يدير بها رئيس الجماعة المناقشة ، ولكن الأعضاء يترددون فى التعبير عن حقيقة مشاعرهم[١] ، ولكن لايلبث الإنطباع أن يبدو على وجوههم ، وكثيرا ما يقوم الأفراد بأنماط من السلوك دون تقدير ، وقد لا تكون لديهم القدرة اللغوية أو الكلمات التى تساعدهم على شرح هذه الأنماط السلوكية ، بل لعلهم لايجدون الأسباب التى يعللون بها هذا السلوك ، وهناك من أنماط السلوك ما يعتبر عاديا فى نظر الفرد الذى يقوم به دون أن يسترعى إنتباهه ، بينما يتمكن الباحث من ملاحظته وتفسيره، فالغريب فى ثقافة من الثقافات كثيرا ما يلاحظ أشياء يعجز المواطنون الأصليون عن ملاحظتها لأنها أمر عادى بالنسبة لهم ، كما أن الملاحظة عادة ماتكون مستقلة وغير متأثرة برغبة الشخص الذى تجرى عليه الملاحظة أو عدم رغبته[٢] .

وهناك حالات متعددة لايتيسر فيها إستخدام طريقة أخرى غير الملاحظة مثل طرق الحل الجماعى للمشكلات ، أو التفاعل الاجتماعى بين الأطفال فى اللعب[٣] . أو دراسة السلوك التلقائى الذى يمكن أن يصيبه التشوه والتغيرات حاولنا دراسته فى المعمل مثال ذلك ما قام به " بوورز " من ملاحظات للعلاقة بين المرضات والمرضى المسجلين فى قائمة المرضى بمرض مفضى إلى الموت وذلك عن طريق قياس الفترة الزمنية بين دق المريض للجرس المجاور لسريريه وإستجابة

---

(١) غريب محمد سيد أحمد ، ١٩٨٠ ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

المرضة لهذا النداء ، فظهر أن المرضات كن يستغرقن وقتا أطول حين يستجبن لنداء هؤلاء المرضى (مرضى الموت) بالمقارنة إلى المرضى الآخرين .

كما تستخدم الملاحظة أيضا فى البحوث التى تمنعنا الضوابط الأخلاقية أن نستحضرها فى المعمل مثال ذلك ظروف الحرمان الشديد من الطعام حيث يتعلم الباحث الكثير عن طريق الملاحظة المتأنية وغير المتحيزة ، وقد يستاء الباحث مثلا لسوء معاملة الطفل ولكنه قد يستمر فى دراسة الموقف لملاحظة تأثير مثل هذه الظروف على الطفل [١] .

ومع أهمية الملاحظة إلا أن هناك بعض الحالات التى لا يتيسر فيها إستخدام هذه الوسيلة ، كالحالات التى يصعب فيها التنبؤ مقدما بحدوث السلوك موضع الدراسة ، أو الحالات التى يكون القيام بالملاحظة فيها أمرا شاقا إلى حد بعيد [٢] . كما هو الحال فى دراسة الخلافات الأسرية [٣] أو السلوك الذى لايمكن إستحضاره أو إحداثه فى المعلم مثال ذلك دراسة سلوك الزوجين وعلاقتهما أثناء عملية الولادة الفعلية لطفل لهما ، وسلوك الناس أوقات الآزمات كحالة الفيضان أو الزلازل أو الحروب [٤] .

ولقد دلت الدراسات المختلفة أن الملاحظة الدقيقة المثمرة ليست بالأمر الهين، وكما أن الحواس كثيرا ما تخدع الباحث عن رؤية الأشياء كما حدثت فعلا ، وكثيرا ما يكون العقل نفسه مصدر الخطأ فى عملية الملاحظة إذ أنه يحاول ملء الثغرات دون وعى وفقا للخبرة والمعرفة السابقة ولذا يقول جوته " أننا لانرى إلا ما نعرفه " وقد لايلاحظ الإنسان من الظواهر إلا مايتصل باهتماماته أو ما يتفق مع إتجاهاته وأغراضه . ويحدث أيضا أن يخلط العقل بين الفكرة والواقعة أو الحدث بمعنى أن

---

(١) أحمد عبد الخالق ، ١٩٨٩ ، أسس علم النفس ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ١٢٧ .

(٢) غريب محمد سيد أحمد ، المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

(٣) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤١٦ .

(٤) أحمد عبد الخالق ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

الوقائع قد لا تظهر كما هى بل يحيلها العقل إلى أفكار مجردة وهذه الأفكار قد لايكون لها أصل فى الواقع فتكون من خلقه هو [١] .

ومن عيوبها أيضا عدم تحديد السلوك الذى يريد الباحث ملاحظته ، كما أننا لايمكننا ملاحظة أشياء حدثت بالفعل ، وهى أيضا مقيدة بفترة الملاحظة فإذا أردنا دراسة تاريخ حياة أى فرد لم نتمكن من ملاحظته مدى حياته ، وقد يتحيز القائم بالملاحظة فلا يسترعى إنتباهه إلا كل غريب وشاذ ، كما أنه قد يعطى تفسيرات للسلوك بدلا من وصف السلوك نفسه ، ولهذا يجب أن يدرب الباحثون على الملاحظة والتسجيل دون تحيز أو دون إصدار أى أحكام تشوه الحقائق. [٢]

كما أن الباحث قد لا تكون لديه القدرة على إدراك حقيقة الموقف فعلى سبيل المثال أن أحد الأثنولوجيين رأى رجلا يعتدى على زوجته بالسياط فى مكان عام فظن أن هذا الرجل يمتهن زوجته ويسيئ إليها بهذا الضرب المبرح وغاب عن ظنه أن كلا من الرجل والمرأة فى هذا المجتمع يعتقد أن الضرب بالسياط *Flogging* أفضل الطرق لإبعاد المرضى وهذا يعنى أنه يجب على الباحث الميدانى ألا يأخذ كل شيء سمعه ورآه على ما هو عليه والا يسرع إلى تفسيره لأول وهلة لأنها لاتخبر شيئا عن دوافع الناس [٣] .

فالباحث يجب أن يبحث عن المغزى والدافع الحقيقى لأنماط السلوك ، كما أنه لايمكن فهم هذا السلوك إلا من خلال السياق الذى يمارس فيه .

كما يحذرنا كوك *Cook* وجاهودا من أنه مع مرور الوقت يجد الباحث نفسه مندمجا فى الثقافة المحلية وهذا يجعله يأخذ كل ما كان يحاول تفسيره ويهتم بتسجيله على أنها مور مسلم بها ، وذلك على عكس الحال فى بداية البحث حيث كان كل شئ يسمعه ويراه يجده غريبا عليه ويثير تساؤله ، فإذا أراد الباحث أن

---

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤١٦ : ٤١٨ .

(٢) غريب سيد أحمد ، المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣) فاروق إسماعيل ، ١٩٩٤ ، علم الإنسان : الأنثروبولوجيا ، مطبعة الجمهورية ، ص ٥٨ .

يتجنب ذلك عليه أن يحاول كتابة تقارير متابعة *Progress reports* على فترات متقاطعة ، وعن طريق هذه التقارير المتوالية سوف يمكنه إكتشاف مواطن الضعف أو المادة التى يحتاج إليها (١) .

كما أن الباحث إذا ما وجد أن الفتور قد أصابه من حيث إهتمامه بالملاحظة فعليه أن يسرع بترك العمل الحقلى لفترة وأن يناقش ملاحظاته مع شخص ما خارج موقف الملاحظة (باحث أو زميل آخر) وهذا الشخص لن يأخذ الأمور على علاتها وإنما سوف يناقشه ويساعده على إيجاد جوانب النقص والقصور .

أنواع الملاحظة :

١ ـ الملاحظة البسيطة : *Simple Observation*

ويقصد بها ملاحظة الظواهر كما تحدث تلقائيا فى ظروفها الطبيعية دون إخضاعها للضبط العلمى ، وبغير إستخدام أدوات دقيقة للقياس للتأكد من دقة الملاحظة وموضوعيتها (٢) .

٢ ـ الملاحظة المنظمة : *Systematic Observation*

وهى التى تخضع للضبط العلمى (سواء بالنسبة لموقف الملاحظة أو الملاحظة أو الأشخاص الذين تتم ملاحظتهم) وتنحصر فى موضوعات محددة سلفا ، وتقتصر على إجابة الأسئلة أو تحقيق الفروض التى وضعها الباحث (٣) .

ويشيع هذا الأسلوب فى الدراسات الوظفية والدراسات التى تختبر فروض سببية لما تتميز به من دقة وعمق (٤) .

كما تستخدم فى دراسة جوانب معينة بالذات من الموقف الاجتماعى بدلا

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٢) أحمد زكي بدوي ، المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٤) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٢٩ .

من أن يدرس الباحث مجموعة كبيرة من الأحداث [١] .

وتستخدم هذه الملاحظة لإختبار النظريات والأسس ***Basis*** والقوانين ، وتشرح لنا معنى الحقائق والمواقف الاجتماعية ، وتتنوع إجراءاتها ووسائلها بتنوع الظروف ، وهي تتميز بأنها أسلوب معين تتوفر له شروط الضبط ***Control*** بالنسبة لكل من الملاحظ ***Observer*** والأفراد الملاحظين ، وتعرف فيه وحدات الملاحظة وما يسجل من مادتها ، وتحدد فيه ظروف الملاحظة من زمان ومكان وأشخاص[٢] .

وتتم الملاحظة المنظمة أما في مواقف طبيعية بالنسبة لأفراد البحث وذلك بنزول الباحث بنفسه إلى حيث تجرى الظاهرة التي يدرسها على طبيعتها ، أو بملاحظة الظاهرة في جو العمل الصناعي ، وكلما كان الموقف طبيعيا كانت النتائج أدق لأن كثير من الظواهر تتغير إذا لوحظ في جو العمل [٣] .

وتتميز الملاحظة المنظمة بأن الملاحظ (الباحث) يضع خطة محددة قبل العمل ، وهذه الخطة قد تشتمل على بعض التجارب العلمية ، كما أنه قد يلجأ لاستعمال بعض الأدوات * والأجهزة السمعية والبصرية ، والعديد من السجلات والوثائق ، كما أنه يستعمل المقاييس التي تحدد نسبة الخطأ [٤] .

والقائم بالملاحظة المنظمة يعمد إلى تصنيف السلوك في فئات تساعده على أن يصنف الموقف الاجتماعي بصورة كمية ، ويبدأ الباحث عادة وفي ذهنه عدد كبير من الفئات ثم يعضها تحت الإختبار لاستبعاد بعضها وإستيفاء البعض الآخر، والفئة عبارة تصف طبقة معينة من الظواهر التي يصنف السلوك وفقا لها ،

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٦ .

(٢) غريب سيد أحمد ، المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .

(٣) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(*) المذكرات التفصيلية ، الصور الفوتوغرافية ، الخرائط ، دليل العمل ، الاستمارة ، الإحصاء ، المقابلات .

(٤) غريب سيد أحمد ، المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .

وغالبا ما يشمل النظام فئتين ، ويفيد نظام الفئات فى أنه يمد القائمين بالملاحظة بإطار مرجعي موحد للملاحظة كما يزيد من إحتمال ملاحظة الجوانب الرئيسية (العامة وذات الدلالة) فى السلوك ملاحظة تتسم بالثبات [١] . ومن أشهر الفئات المستخدمة تلك التى استعان بها روبرت بيلز *R.Bales* فى تحليل عملية التفاعل *Interaction Process Analysis* داخل الجماعات الصغيرة حيث قسم السلوك الذى يمكن ملاحظته إلى *K* فئة بناء على تصوره للمراحل التى تمر بها الجماعة حينما تسعى إلى حد مشكلة من المشكلات وهذه المراحل هى :

التعرف على المشكلة ، تقويم وجهات النظر المختلفة بصدد حلها ، والضبط أى محاولات الأعضاء التأثير بعضهم فى البعض الآخر ، وأخيرا إتخاذ القرار النهائى[٢] .

٣ ـ الملاحظة بالمشاركة :

وهى طريقة منهجية فى البحث الأنثروبولوچى ترتبط بمالينوفسكى إلى أن أصبحت عنصرا أساسيا فى الدراسة الميدانية فى الأنثروبولوچيا الثقافية والإجتماعية المعاصرة ، والواقع أن الملاحظة بالمشاركة تكاد تمثل للكثير من الباحثين مرادفا للبحث فى الأنثروبولوچيا أو الإثنوجرافيا ، والملاحظة بالمشاركة طريقة للبحث يتحتم توجيهها إلى دراسة المجتمعات المحلية الصغيرة والثابتة نسبيا والتى صارت بمثابة المجال المفضل للدراسة عند الباحث الأنثربولوچى [٣] .

ولقد إستخدم مالينوفسكى هذه الطريقة فى دراسته لسكان جزر التروبرياند *Trobriand* فى ميلانيزيا حيث أمضى أربع سنوات بين عام ١٩١٤ ، ١٩١٨ فى دراسة مجتمع بدائى واحد ، كما أنه أول أنثروبولوچى يستخدم لغة الأهالى

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٣٦ .

(٢) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٦ .

(٣) شارلوت سيمور ، سميث ، ١٩٩٨ ، موسوعة علم الإنسان ـ المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية ، ترجمة محمد الجوهري وآخرون ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ، ص ٦٤٩ ، ٦٦٥.

أنفسهم ، وكذلك أول من عاش مع الأهالي بطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة (١).

ولقد إستطاع من خلال دراسته أن يتعرف على التنظيم الكلى للمجتمع ، وتشريح ثقافته من خلال خطة دقيقة ومحكمة تسجل فيها كل أنماط السلوك والحياة ، كما عمل على تدوين كل الملاحظات الدقيقة التى تتعلق بقصصهم وأقوالهم وطرائقهم الفولكلورية وصيغهم السحرية ، وهذا لم يتأتى له إلا عن طريق الإتصال المباشر بأعضاء المجتمع وكان هدفه من هذا الوصف لكل مظاهر الحياة لدى السكان هو التعرف على وجهة نظرهم ونظرتهم إلى العالم الخارجى المحيط بهم(٢) .

وبفضل هذه الظروف أمكن له أن يتغلغل فى الحياة الاجتماعية عند سكان جزر التروبرياند وأنى فهمها فهما عميقا إستطاع معه أن يؤلف عددا من الكتب* المختلفة الآحجام تدور كلها حول وصف هذه الحياة (٣) .

فالملاحظة بالمشاركة اذا هى إشتراك الباحث فى حياة الناس الذين يقومون بملاحظتهم ، ومساهمته فى الأنشطة التى يقومون بها ، ويستلزم هذا النوع من

(١) إيفانز بريتشارد ، ١٩٧٥ ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ترجمة أحمد أبو زيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

(2) Malinowski, Bronislaw, 1960 , Argonouts of the Western Pacfic, Dultor and Company Inc., London, PP. 24 , 25 .

(*) من أشهر مؤلفات مالينوفسكي :

1 - Argonauts of the Western Pacific .
2 - The Sexual Life of Savages, 1929 .
3 - Coral Gardens and Magic, 1935 .
4 - Sex and Repression in Savage Society, 1927 .
5 - Crime and Custom in Savage Society, 1926 .

كما كتب عددا من المقالات كان يشير فيها إلي التروبرياند أهميها :

1 - Magic, Science and Religion, 1915 .
2 - Baloma , The Spirits of the Dead, 1926 .

(٣) إيفانز بريتشارد ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

الملاحظة أن يصبح الباحث عضوا فى الجماعة ، وأن يساير الجماعة ويتجاوب معها وأن يمر بنفس الظروف التى تمر بها ، ويخضع لجميع المؤثرات التى تخضع لها (١).

ولاشك أن هذه الطريقة تمكن الباحث من تسجيل الأحداث والسلوك وقت حدوثه(٢).

وإستخدام الملاحظة عن طريق المشاركة ليس عملية سهلة أو بسيطة وإنما تحتاج إلى مران وتدريب ، وقد يفوت الباحث غير المتمرس ملاحظة كثير من مظاهر السلوك الجانبية حيث يكون إنتباهه موجها إلى موقف أو مشكلة من المواقف أو المشاكل الصعبة المعقدة ، أو حين يشارك فى ذلك الموقف عدد كبير من الأشخاص الذين تصدر عنهم أفعال وأقوال متباينة فى وقت واحد ، وليس المقصود بالملاحظة عن طريق المشاركة هو مجرد ملاحظة أحداث الحياة اليومية العادية عن قرب أو كثب ، إنما المقصود بالمشاركة هنا هو الإندماج الكامل فى حياة المجتمع وهو أمر لايتحقق إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن تكفى لأن يتقبل المجتمع وجود الباحث وإعتباره جزءا منه ، أى أن العنصر المهم هنا هو تقبل المجتمع للباحث وإعتياده وجوده فى المجتمع مما يتيح له الفرصة كاملة للمشاركة فى الحياة العامة وفى كثير من أوجه النشاط الإجتماعى اليومى كما لو كان عضوا فى المجتمع (٣) * .

(١) عبد الباسط محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٢٠ .

(٢) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٥ ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٣) أحمد أبو زيد ، ١٩٩١ ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(*) أثناء دراستي الميدانية في مرحلة الدكتوراه في موضوع " دورة الحياه عند الفرد : دراسة مقارنة للعادات والتقاليد الشعبية في المجتمع الحضري والقروي برشيد كنت أحرص علي التواجد في الأماكن العامة كالسوق والنادي الاجتماعي كما كنت أحرص أيضا علي مشاركة السيدات في المناسبات الاجتماعية المختلفة كالخطبة والزواج وحفلات الختان التي تقام للأطفال الذكور ومناسبات سبوع الزواج والميلاد وكذلك مناسبات الوفاه حيث أتاحت لي الملاحظة بالمشاركة الحصول علي المادة الاثنوجرافية عن كل عادات وتقاليد دورة الحياه والتي تعكس وجهة نظر الأهالي وتصرفاتهم ازاء تصرفاتهم ، ونظرة الباحث نفسه إلي تلك الثقافة .

وهذا لايتأتى إلا بعد مرور الأيام ومحاولته المستمرة للتكيف مع الجماعة المحيطة به والإختلاط بالناس فى حياتهم العامة فى الأسواق والإحتفالات والمناسبات الدينية فضلا عن تبادل التحية أو الحديث ، أو تقويم بعض الخدمات كالمساعدة فى نقل المصابين إلى المستشفى وكل ذلك يعتبر بمثابة الفرصة لبناء علاقة طيبة (حميمة) مع المبحوثين ، (١)وفى هذا الصدد يذهب جون جونسون *John Johnson* إلى القول بأن العلاقات الشخصية القائمة على الثقة أساس جوهرى بالنسبة لموضوع البحث حيث أنها تمكن الباحث من جمع مادة موثوق فيها .. إلا أن مفاهيم العلاقات تختلف من شخص لآخر وقد يعتريها التغيير بمرور الوقت . إن بناء العلاقات مع أحد الأفراد قد ينتج عنه مشاعر سلبية بالنسبة للآخرين فضلا عن أن بعض التصرفات غير المقصودة قد تثير تساؤلات وشكوك الآخرين مثال ذلك أن دعم العلاقات مع أحد الأجاويد فى الصحراء الغربية أثار مشاعر التحامل والتحيز لدى الآخرين ممن ينتمون لنفس القبيلة وتفسير ذلك أن الخلاف على الأرض والابار إقتضى أن إستبعدت قبيلة سمالوس بيتا بأسره فيما يعرف بالبداوة ، ومن ثم فإن الدخول فى علاقة وثيقة على أولئك الذين ينتمون لهذا البيت كان كفيلا بظهور المشاعر السلبية لدى الآخرين والملاحظة بالمشاركة تمد الباحث أيضا بالإستبصارات اللازمة لتصميم الإستمارات والاختبارات السيكولوجية كما أنها أداة هامة لاختبار العلومات الحقلية التى جمعت بالوسائل الأخرى المتخصصة .(٢)

٣ ـ الملاحظة التجريبية : *Experimental Observation*

هناك صعوبتان أساسيتان تعترضان تنفيذ الملاحظة بالمشاركة والمنظمة ،

---

(١) فاروق اسماعيل ، ١٩٩٥ ، المرجع السابق ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) عبد الله عبد الغني غانم ، البحث الأنثروبولوجي ـ تطوره ووسائله وصعوباته في فاروق أحمد مصطفي وآخرون ، ١٩٩٥ ، بين النظرية ونماذج الدراسات الأنثروبولوجية : دراسات في علم الإنسان، مطبعة التوني ، اسكندرية ، ص ٧٢ .

أولهما أن الموقف الإجتماعى أو الظاهرة التى يقوم الباحث بملاحظتها لايمكن التحكم فيها والإحاطة بالظروف المحيطة بها ، وثانيهما أن الموقف أو الظواهر موضوع الملاحظة ليست من البساطة حتى يمكن الإحاطة بجميع جوانبها بسهولة ، ولكنها عادة ماتكون معقدة ولذلك فعلى القائم بالملاحظة أن يسجل ملاحظته فور حدوثها ، وكذلك يصف التفاعل الإجتماعى الذى يحدث بين الأشخاص والسلوك بين الأفراد قبل أن يتغير معالمه وهذا أمر قد يتعذر تحققه ، ومن ثم يتجه الباحث نحو السيطرة على الأوجه المختلفة من الظاهرة والتخلص من بعض العوامل التى قد تؤثر على خط سيرها فى تطورها الطبيعى وبذلك تكون ملاحظته مركزة على السلوك أو التفاعل موضوع الدراسة فقط وتحت ظروف قام الباحث باعدادها فى تجربة(١) .

والتجربة هى فحص يشتمل على معالجة مضبوطة ، يقوم به الباحث لدراسة متغيرات معينة ، كما ينطوى على ملاحظة النتائج وقياسها بدقة ، ويتدخل الباحث فى التجربة لأن الظواهر المدروسة تلاحظ فى ظل شروط مضبوطة (٢) .

وإذا تيسر للباحث أن يتحكم فى الجوانب الرئيسية لموقف الملاحظة بحيث يكون فى مأمن من تدخل عوامل مفاجئة غير متوقعة وبحيث يكون على علم بحقيقة التأثير النسبى لمختلف العوامل فإن الملاحظة فى هذه الحالة تكون أمرا يسيرا يقتصر على تسجيل حدوث أو عدم حدوث سلوك محدد فمثلا فى تجارب الأجواء الإجتماعية قام هوايت وليبيت بتكوين جماعات من الأطفال متكافئة فى معظم المتغيرات الهامة ماعدا نمط القيادة أو الجو الاجتماعى السائد سواء كان ديمقرطيا أو أوتوقراطيا أو فوضويا ، ولوحظ سلوك القادة وإستجابات الأطفال مثل عدد مرات إستخدامهم اللفظ ضمن بدلا من اللفظ انما فى كل الأجواء الاجتماعية الثلاثة ، كذلك لوحظ إستجابات الأطفال لعدوان خارجى ، كذلك

---

(١) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٢) نخبة من أساتذة قسم الاجتماع ، المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

إستجاباتهم فى حالة غياب القائد ، وواضح أن الضبط التام لكافة المتغيرات أمر ليس من السهل تحقيقه في المواقف المعقدة وفى المجتمعات أو الجماعات الكبيرة العدد ، لذلك فإن هذا النوع من الملاحظة يستخدم فى مواقف الجماعات الصغيرة حين يتجمع لدى الباحث عن طريق الملاحظة (بأنواعها المختلفة) القدر الكافى من البيانات والذى يمكنه من وضع الفروض وإختبارها إختبارا دقيقا تجريبيا فالملاحظة ضرورية قبل إجراء التجربة حيث أن التخطيط السليم للتجارب يتطلب معرفة بالسلوك العادى المألوف[١] .

- نماذج من الملاحظة بالمشاركة في بعض الدراسات الأنثروبولوجية :

إستخدمت هذه الطريقة فى دراسة المجتمع المحلى لمدينة ميدلتاون ***Middle Town*** بولاية انديانا فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويلخص الباحث روبرت ليند وهيلين ليند هدفهما من الدراسة بقولها " إنها تعتبر دراسة ديناميكية وظيفية للحياة المعاصرة بمدينة ميدلتاون فى ضوء إتجاهات السلوك المتغيرة والملحوظة خلال خمس وثلاثين عاما ، ولدراسة التغير إختار الباحثان سنة ١٨٩٠ لتكون الحد الفاصل بين فترتى الإستقرار والتغير ثم درسا التغير الذى طرأ على المدينة من سنة ١٨٩٠ ـ ١٩٢٥ ونشر النتائج التى توصلا إليها فى سنة ١٩٢٩ ولقد إستخدم الباحثان أسلوب الملاحظة بالمشاركة فى دراساتهما لمدينة ميدلتاون ، وكانا يجمعان البيانات من جميع الأفراد على إختلاف أوضاعهم الطبقية ومستوياتهم الاجتماعية وكانا يلاحظان السلوك الفعلى للأفراد فى المصانع والكنائس والمحاكم والنوادى والطرق وكانا يحضران الحفلات العامة ويستمعان إلى المحاضرات العلمية والأدبية فى الأندية الثقافية المختلفة ويتناقشان مع الأهالى فى مختلف المسائل التى تهم المجتمع[١] .

وإستخدم نلز اندرسون ***Nels Anderson*** نفس الأسلوب فى دراسته للهوبو ***Hobo*** فاختلط بهم فترة طويلة فى الأحراش خلال أوقات العمل وأوقات

---

(١) غريب سيد أحمد ، المرجع السابق ، ص٢٧٦ .

الفراغ ، وتمكن من الحصول على بيانات متعلقة بأساليب حياتهم وعاداتهم ومعتقداتهم[1] ، كذلك دراسة رادكليف براون لسكان جزر الاندمان

The Andaman Islanders : A Study in Social Anthropology

هذه الدراسة إستغرقت الفترة بين عام ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨ ، وتعتبر بحق أول محاولة لفحص النظريات الاجتماعية بالرجوع إلى مجتمع بدائى ولوصف الحياة الاجتماعية فى ذلك المجتمع بطريقة تبرز بوضوح النواحى التى تتطابق مع هذه النظريات[2] .

كذلك دراسة مالينوفسكى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ جزر التروبرياند فى ميلانيزيا ، والذى درس نظام التبادل المعروف باسم نظام الكولا ***Kula*** ، ولكنه تطرق إلى دراسة كل النظم الاجتماعية فى علاقتها بهذا النظام الذى يقوم على تبادل بعض السلع المعينة التى لا تتمتع بأية قيمة تجارية أو إقتصادية ولكن لها قيمة إجتماعية وشعائرية تضفى على من يمتلكها مكانة سامية فى المجتمع ، تتألف هذه السلع من عقوب طويلة من الأصداف الحمراء وأساور من الأصداف البيضاء ويتلخص نسق التبادل فى وجود إتفاقات شفاهية تقليلية متوارثة منذ أجيال بعيدة بين سكان جزر التروبرياند على تبادل هذه السلع بحيث تنتقل العقوب فى إتجاه معين لايتغير حول محيط الدائرة التى تنتظم هذه الجزر بينما تنتقل الأساور فى الإتجاه الآخر ، وتتوقف مكانة الفرد وعائلته فى الحياة الاجتماعية على نوع السلع التى يحصل عليها أثناء هذه المبادلات خاصة حينما يحصل على الأصداف النادرة ، ولكن يذيع صيته ويرتفع شأنه فى المجتمع أكثر حين ينزل عن هذه النفائس لشركائه فى نظام الكولا بعد أن يحتفظ بها لنفسه بعض الوقت .

ويختفى وراء هذا التبادل الشعائرى تبادل آخر للسلع الإقتصادية ،

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٤٢١ .

(٢) إيفانز برتيشارد ، المرجع السابق ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

ويخضع هذا التبادل لكل القواعد التى تخضع لها العمليات التجارية ويصاحبه كثير من المساومة على تحديد قيمة هذه السلع الاستهلاكية .

ولقد إضطر مالينوفسكى فى دراسته لنظام الكولا أن يدرس بقية النظم التى تسود فى المجتمع فعرض لوصف الجزر والعلاقات الاقتصادية والقرابية والسياسية التى تقوم بينها ، والدور الذى يلعبه نظام الكولا فى تقوية هذه العلاقات والروابط ، ووصف الرحلات البحرية ، وسير القوارب فى إتجاهين متضادين لتبادل العقود والأساور وتطرق إلى وصف بناء القوارب والسحر الذى يمارس أثناء هذه العملية باعتباره عامل أساسى فى نجاح بناء القوارب وفى نجاح الرحلة وبالتالى فى نجاح عملية التبادل والتغلب على الأخطار والمفاجآت التى قد تتعرض لها . كذلك وجد مالينوفسكى لزاما عليه فى عرضه لتبادل السلع الاستهلاكية وهى فى معظمها من درنات اليام وهو نبات يشبه البطاطس أن يشرح طريقة زراعة الحدائق ، ونوع المنافسة التى تقوم بين المزارعين للحصول على درنات كبيرة الحجم ، والعناية التى يبذلونها نحو حدائقهم وزراعاتهم للحصول على هذه الدرنات على إعتبار أنه كلما كبر حجم الدرنات التى يحصل عليها المزارع دل ذلك على مهارته بفنون الزراعة مما يضفى عليه شهرة واسعة ، كما درس أيضا السحر والتعاويذ السحرية المتعلقة بالزراعة [1] .

كما توجد دراسة أوسكار لويس *Oscar Lewis* بعنوان " لافيدا *La Vida*" وهى تعنى بحياة أسرة من بورتوريكو تعيش ثقافة الفقر فى مدينتى سان جوان ونيويورك فى الولايات المتحدة، ولقد إعتمدت الدراسة الميدانية على المزاوجه بين الطرق التقليدية التى تعتمد على الملاحظة بالمشاركة من خلال الإقامة الطويلة ، والمعيشة فى المجتمع ، وطريقة دراسة الحالة وتاريخ حياة الأفراد ، كما إعتمدوا فى تحقيق فروضهم على الدراسات الكمية .

---

(١) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، البناء الاجتماعي ــ مدخل لدراسة المجتمع ــ الجزء الأول ، المفهومات ، الطبعة الرابعة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ١٠٧ : ١٠٩ .

ولقد بدأ أوسكار لويس فى مقدمته لدراسته الحقلية بعرض للظروف الإجتماعية والإقتصادية والصحية والتعليمية التى عاشها مجتمع بورتوريكو فى مرحلة ماقبل الإنظمام إلى الولايات المتحدة ثم إنتقال إلى مظاهر التقدم الإقتصادى والصحى التى طرأت على المجتمع مع إستمرار الفقر والتأخر فى بعض الأحياء أو المناطق السكنية فيما يعرف بجيوب الفقر ، ولقد عرض لبيان مدى السهولة التى احاطت تقبل مجتمع بورتوريكو للثقافة الأمريكية وآرجع هذا إلى إفتقار المجتمع إلى الأصول الثقافية أو العرفية أو التاريخ الثقافى .

والكتاب هو تسجيل لحياة أسرة من الأسر محدودة الدخل التى يقيم البعض من أعضائها فى أحد الأحياء الفقيرة فى مدينة سان جوان فى بورتوريكو إحدى الولايات المتحدة الأمريكية ويقيم البعض الآخر فى مدينة نيويورك ، وقد حاول المؤلف أن ينقل صوت تلك الفئة من السكان الذين تمثلهم هذه الأسرة إلى أذان الفئات السكانية والإجتماعية فى المجتمع الأمريكى من الذين يندر أن يسمعوا بوجود مثل هذه الأسر بظروفها الاحتماعية السيئة ، كما صور أيضا نوع الحياة فى كثير من المناطق المحرومة والهامشية فى ذلك المجتمع والتى يجهلها الكثير من أبناء الطبقة الوسطى ، فلقد كان هدف لويس خلق نوع من الإتصال بين جماعات الفقراء فى المجتمع الأمريكى وشخصيات الطبقة الوسطى من المهنيين مثل المعلمين والباحثين الاجتماعيين والأطباء ورجال الدين وغيرهم ممن يحملون المسئولية نحو المشروعات التى تعالج الفقر وذلك من خلال فهم أفضل لطبيعة الثقافة فى المجتمع الفقير مما يؤدى فى النهاية إلى تبنى نظرة بمزيد من التعاطف مع الفقراء ومشكلاتهم فضلا عما يقوم على أساس هذا من مشروعات إنشائية فى المجالات الاجتماعية والإقتصادية والمهنية فى تلك المناطق .

ويعتبر كتاب لافيدا من البحوث التى اعتمدت على إختيار عينة مكونة من مائة أسرة تعيش فى أربعة من الأحياء الفقيرة فى مدينة سان جوان فى بورتوريكو ، وهى تهدف فى النهاية إلى دراسة مشكلة التكيف والتوافق بين

الجماعات الأسرية والتغيرات التى تطرأ على الحياة الأسرية للمهاجرين ، كما تهدف الى تقديم دراسة مقارنة تعتمد على الوحدات الأسرية فى ثقافتين متمايزتين إحداهما هى الثقافة الامريكية والأخرى هى الثقافة المكسيكية .

ولقد كان الأساس الذى قام عليه إختيار الوحدات الأسرية (العينة) هو إنخفاض الدخل ، ووجود الأقارب فى نيويورك ، والرغبة فى التعاون مع الباحث وتزويده بكل المعلومات ، وإن كان قد واجه مشكلة تمثلت فى إتساع المدى الذى يتوزع من خلاله الدخل الفردى للمقيمين فى تلك الأحياء الفقيرة ، فقد كان البعض منهم يمتلك الوسائل التكنولوجية الحديثة مثل أجهزة التبريد والتكييف والتليفزيون والسيارات ، ومن ثم فقد عمد الى أن تضم العينة المختارة أسرا تنتمى ستويات دخولها إلى كل الفئات .

ولقد إستخدم لويس طريقة الملاحظة بالمشاركة فى محاولة الاشتراك فى الأنشطة الاجتماعية التى يقوم بها أعضاء الزمر الاجتماعية بقدر ما تسمح الظروف والتقاليد ، فمن خلال المشاركة فى مناسبات الزواج والوفاة والميلاد والذهاب إلى السوق والتردد على مجلس كبار السن والزعماء المحليين ، وزيارة منتديات الشبان ووحدات الانتاج فيستطيع الباحث أن يحصل على الكثير من المعلومات الحقيقية عن العلاقات القرابية والإقتصادية والسياسية فى المجتمع .

ولقد حاول لويس القيام بدراسة كلية لحياة الأسرة من خلال الملاحظة والتسجيل التفصيلى للأحداث والمناقشات ومظاهر التفاعل للأحداث ومظاهر التفاعل الاجتماعى التى تحدث فى يوم معين فى حياة الأسرة ويتم إختيار هذا اليوم على أساس عشوائى أو متعمد فربما كان يوما عاديا من أيام الأسبوع أو يوما مميزا مثل الميلاد أو التعميد أو القيام بشعائر الدفن أو الزواج أو الإنتقال إلى مسكن جديد .

ولقد إتبع المؤلف فى دراسته طريقة المزاوجة بين المنهجين الذين يتمثل احدهما فى التسجيل الواقعى لروتين الحياة اليومية الذى يقوم على أساس

الاختيار العشوائى المتعمد ليوم معين وملاحظة مظاهر السلوك الذى يصدر عن أشخاص فى مواقف التفاعل المتنوعة ، ومايرتبط بتلك المظاهر السلوكية من أنواع العلاقات التى تقوم بينهم وبخاصة العلاقات القرابية والإقتصادية أو تلك العلاقات القائمة على أساس السلطة كالعلاقات بين الزوج والزوجة وبينهما الأبناء والأخوات وأقارب الأسرة عن طريق الأم والأب والأشخاص الذين يتفاعلون مع الأسرة فى مجال العمل والتبادل الإقتصادى والجيرة (١) .

- ثبات وصدق الملاحظة :

تعتمد بعض نظم الفئات فى إثبات صدقها على مايسمى " بالصدق الداخلى " فنحن جميعا يمكن أن نتفق على مدلول السؤال أو إعطاء المعلومات ، ومن ثم فلا حاجة إلى البحث عن محك خارجي.

وإذا كان المقصود بالصدق هو مدى قياس الملاحظة لما يفترض قياسه ، فان الملاحظة قد يلجأ فى حالة عدم وجود محك خارجى مناسب إلى تحديد مدى إتفاق الدرجات التى يقدرها مع مايمكن أن نتوقعه فى ضوء إطار نظرى محدد مثل الإفتراض بأن " إتاحة الفرصة للتعبير المباشر عن مشاعر العدوان يقلل من تكرار وتواتر الاستجابات العدوانية " فإذا كان قد ثبت صدق هذا الإفتراض بوسائل أخرى غير الملاحظة ، أمكن أن نطبق نظام الملاحظة المبنى على هذا الإفتراض .

ويسعى الباحث إلى الحصول على أعلى درجة من الدقة فى إجراءات الملاحظة وذلك بالتغلب على الصعوبات التى تعترضه وقد تؤثر على معامل ثبات مقاييسه وسنذكر أهم العوامل التى يجب على الباحث مراعاتها .

١ ـ يجب على الباحث تحديد الإطار المرجعي لمادة ملاحظته ، على أن يكون

---

(١) محمد عبده محجوب ، ١٩٨١ ، مقدمة في الإتجاه السوسيوأنثروبولوجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ١٣٨ : ١٤٥ .

هذا التحديد واضحا ولا يحتمل الشك فمثلا لو أراد الباحث ملاحظة جماعة فى موقف يجابه هذه الجماعة كحل مشكلة يجب على الباحث أن يحدد الإطار الذى سيحدد فيه فئات سلوك الجماعة ، مثل سلوك الفرد بالنسبة لاستجابات أفراد الجماعة ، أو ما يقصد الفرد نفسه من سلوكه ومن الجائز إستخدام الإثنين .

٢ ـ يجب على الباحث تحديد وحدات ملاحظته هل هو فرد أو جماعة ، كما يقوم أيضا بتحديد الوحدات الزمنية التى سيجرى فيها ملاحظته [١] .

أخلاقيات القائم بالملاحظة :

يتعين أن نشير بداءة إلى القيام بالملاحظة ليس أمرا يسيرا بل أنه يحتاج إلى تدريب ومران كافيين بحتى نضمن درجة ملائمة من الثبات والصدق خاصة إذا كنا نستخدم عددا من الباحثين الميدانيين ، كما ينبغى أيضا أن نختار القائمين بالملاحظة من بين الأشخاص الذين يتمتعون بدرجة ملحوظة من الإلتزام الأخلاقى [٢] .

وإستخدام الملاحظة بالمشاركة يقتضى من الباحث الإقامة الكاملة فى مجتمع الدراسة والاندماج وهو فى هذه الحالة يتعرف على كل ماهو تحت السطح *Beneath the surface* ومن ثم يواجه مشكلة وبخاصة عند كتابة تقرير البحث ونشره ، فهل يخضع فى سلوكه لمتطلبات العلم التى تقتضى منه التزام الصدق المطلب ، أم أنه يحذف بعض الأمور التى تمثل خصوصيات المجتمع أو الجماعة التى إستطاع إدراكها من خلال العلاقة الوثيقة التى تطورت أثناء إجراء البحث ، وربما يكون فى حذف المعلومات أو إخفائها تشويها لنتائج البحث ، ومن المؤكد أن الباحث قد التزم بأنه لن يحدث ضررا لأولئك الذين حصل منهم على المعلومات " ان مواجهة هذه المعضلة يعتمد إلى حد كبير على أخلاقيات الباحث الاجتماعى القائم بالملاحظة ، ويلجأ بعض الباحثين لمواجهة هذه المشكلات الى تعريف بعض أفراد

(١) غريب سيد أحمد ، المرجع السابق ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) محمد علي محمد ، المرجع السابق ، ص ٤٥٨ .

المجتمع المستنيرين بمهمته الأساسية ، وماسوف تنتهى إليه هذه المهمة من كتابة تقرير علمى عن مجتمعهم ، وإن هذا التقرير لن يضير بأى فرد فى المجتمع ، وإنما هو يحاول أن يكشف عن طبيعة الحياة الاجتماعية ككل ، وأنه من الممكن أن يتم الإستعانة بهذا التقرير فى بعض البرامج التى تهدف إلى صالح أعضاء هذا المجتمع .(١)

وليس ضروريا أن يتضمن التقرير أسماء أفراد المجتمع أو إتجاهاتهم الفكرية ، وإنما الهدف من هذه المعلومات معرفة الإتجاه العام السائد فى المجتمع .

(١) مصطفي عمر حماد ، إشكالية المنهج في الأنثروبولوجيا ، في نخبة من أعضاء هيئة التدريس ، ٢٠٠٠ ، الأنثروبولوجيا في المجالات الموضوعية والمنهجية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ١٢٠ .

الفصل الرابع

البناء الاجتماعى للمؤسسات الطبية *

---

* كتب هذا الفصل السيدة/الدكتورة/ فادية فؤاد حميدو، مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

الفصل الرابع
البناء الاجتماعى للمؤسسات الطبية

ـ مقدمة :

البناء الإجتماعى هو ذلك الكل المتكامل المتماسك الأجزاء ، بحيث يظهر بين هذه الإجزاء نوع من الترتيب بين الأشخاص المكونين لذلك البناء فى علاقاتهم بعضهم ببعض بطريقة منظمة ومحددة (١) .

فالأشخاص هم لبنات البناء الإجتماعى الأساسية كما يرى " رادكليف ـ براون " ـ الذى اهتدينا بنظريته فى البناء الإجتماعى كأساس نظرى لهذه الدراسة ـ والذى يؤكد على أن دراسة العلاقات الإجتماعية التى تنشأ بين هؤلاء الأشخاص داخل البناء الإجتماعى ، إنما تكتسب أهميتها من خلال ما ينشأ بينهم من تفاعل إجتماعى (٢) .

والتفاعل الإجتماعى يعنى " التأثير المتبادل لأفعال الأشخاص والجماعات الناتج عن إتصال بعضهم ببعض " (٣) كأن الإتصال هو الأساس الذى يقوم عليه التفاعل الإجتماعى ، ويأتى هذا المعنى فى تعريف البعض للعلاقات الإجتماعية ، حيث تعرف العلاقات الإجتماعية بأنها " الروابط المتبادلة بين أفراد وجماعات المجتمع التى تنشأ عن إتصال بعضهم ببعض ، وتفاعل بعضهم مع بعض ، مثل روابط القرابة والروابط التى تدرب أعضاء المؤسسات الإجتماعية ، وأفراد الطبقات الإجتماعية ، والسياسية المختلفة فى المجتمع " (٤) .

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة / فادية فؤاد حميدو مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

(1) Ed. by : Radcliffe - Brown & Forde, African Systems of Kinship and Marriage, 1950 , P. 82 .

(2) Kupar, A., Op.Cit., P. 20 .

(٣) شاكر مصطفي سليم ، قاموس الأنثروبولوجيا ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٨٩٩ مادة تفاعل اجتماعي .

(٤) نفس المرجع السابق ، ص ٩٠١ ، مادة علاقات عامة .

إنطلاقـا من هذا المعنى كان إختيـارنا لهذا الفصل والتركيـز فيـه على الدراسة التحليلية الوافية لتلك العلاقات الإجتماعية بمستوياتها المختلفة التى تظهر داخل بناء المستشفى ، وذلك من أجل الوصول إلى فهم أعمق وأدق لذلك البناء .

والعلاقة الإجتماعية فى أبسط أشكالها هى ذلك النموذج للتفاعل المتبادل الذى يستمر فترة معينة من الزمن تؤدى إلى ظهور مجموعة توقعات إجتماعية ثابتـة(١) .

وقد تكون العلاقة الإجتماعيـة طويلة الأجل *Social Relation* كتلك العلاقـة بين الزوج والزوجـة ، أو بين الرئيس والمرؤوس ، وهى التى تسـتمـر لفـتـرة طويلة ، أو قد تكون العلاقة الإجتماعية محدودة *Social Relationship*، وهى أيضا نموذج للتفاعل الاجتماعى بين شخصين أو أكثر ، ويمثل هـذا النموذج أبسط وحدة من وحدات التحليل السوسيولوجى ، كمـا أنه ينطوى على الإتصال الهادف ، والمعرفة المسبقة بسلوك الشخص الآخر ، ومثال على النوع الأخير قائد السيارة الذى يريد إقناع رجل الشرطة بأنه لم يكن مخطئا (٢) .

وسوف تركز دراستنا للبناء الإجتماعى للمستشفى على هذين النمطين من العلاقات وإن كنا نميل إلى إستخدام مصطلح " علاقة مؤقتة " لندل به على ذلك النوع المحدود من العلاقات والذى ينشأ فى أقسام إستقبال المرضى وتسجيلهم بالمستشفى ، كما نميل إلى إستخدام مصطلح " علاقة عميقة " لندل به على أنماط العلاقات الأساسية داخل بناء المستشفى الإجتماعى والتى تتسم بالدوام بمقارنتها بالنوع الأول .

أولا ـ العلاقات المؤقتة :

يحدث الإحتكاك المباشر أو التفاعل الإجتماعى فى صورته الأوليـة بين

---

(١) د. محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، مادة علاقات عامة ، ص ٤٣٧ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

المرضى والأطباء من ناحية ، ثم بين المرضى وبعض العاملين بالمستشفى لبضعة ساعات على الأكثر ، يتم بناء عليها إقامة علاقة إجتماعية تتسم بأنها سريعة أو مؤقتة ، وقد لاحظنا أن هذا النوع من العلاقات يظهر فى بعض أقسام المستشفى ـ المقصود هنا المستشفيات موضوع الدراسة ـ والتى نجملها فيما يلى :

١ ـ الإستقبال والطوارئ .
٢ ـ العيادة الخارجية .
٣ ـ قسم التسجيل الطبى .
٤ ـ قسم العلاقات العامة .
٥ ـ مكتب خدمة المواطنين .

وسوف نتناول كل قسم منها بشئ من التفصيل حتى يتسنى لنا الوقوف على معنى نوعية العلاقات التى تنشأ داخل هذه الأقسام .

١ ـ الإستقبال والطوارئ :

٢ ـ المستشفي الرئيسي :

يمثل الإستقبال بمستشفى الرئيسى احدى الطرق التى يدخل بها المريض إلى المستشفى ، ويستقبل هذا القسم نوعين من الحالات ، أولاها تتسم بالصفة العاجلة ، بينما تشمل الثانية حالات الحوادث ، والحالات الخطرة .

يقوم الإستقبال تجاه الحالات الأول ، وكلها إصابات بسيطة أوسطحية أو حالات اعماء ، باجراء اللازم نحوها حيث تجرى الإسعافات الأولية مع طرف بعض أنواع الدواء كالمسكنات أو المضادات الحيوة ، لكى يخرج صاحب الحالة بعد أن يقضى بضع الساعات أو أكثر داخل نطاق المستشفى . ومن الأمثلة على هذا النوع والتى لاحظناها وقت إجراء الدراسة فى وضع الضمادات السطحية والبسيطة لبعض الجروح الأولية ، أو الحياكة بالخيوط الطبية باليدين أو الرجلين أو احداهما ، وأيضا بالجبهة أو إجراء عمليات جزئية وبسيطة نتيجة لتهتك أحد

الأعضاء بأداة حادة وصرف العلاج اللازم من مسكنات ومضادات حيوية والخروج بعد قضاء ساعات قليلة بالمستفى .

وفى حالات النوع الثانى حيث تكون الإصابة عميقة وتحتاج إلى تدخل جراحى فإنه يتم حجز المريض بالمستشفى ويحول إلى قسم الجراحة المختص حسب نوع الإصابة التى يعانى منها المريض وقد يمكث المريض بالمستشفى فى هذه الحالة لبضعة أيام حيث يحتك بالأطباء الذين يقومون باجراء العملية الجراحية له ، كما يحتك أيضا بالمرضات ، بالاضافة إلى بعض العاملين بقسم شئون المرضى وقسم التسجيل الطبى ويقوم المريض الذى تم حجزه بالمستشفى بتسجيل اسمه بالمستشفى ويكتب له وقت الدخول وعدد الأيام التى قضاها بالمستشفى ثم وقت الخروج من المستشفى وهذا المريض ينشأ بينه وبين الأطباء من جهة والعاملين بتلك الأقسام من جهة أخرى نوع من العلاقة التى سرعان ما تنتهى بانتهاء الحالة وخروج المريض من المستشفى .وتميل الباحثة إلى أن تطلق على مثل هذه العلاقات " علاقات مؤقتة أو سطحية " ، فى مقابل تلك العلاقات العميقة أو التى تستمر فترة طويلة وهى موضوع القسم الثانى من هذا الفصل.

وفى بعض الأحيان يستقبل قسم الطوارئ بعض الحالات المريضة التى يفترض أن تمر بخطوات ادارية معينة حتى يتسنى تقديم العلاج لها ، إلا أنها تتطلب تدخلا طبيا سريعا مثل حالات " التهاب الزائدة الدودية " هنا يتم التدخل الطبى السريع ، مع تخطى الخطوات التقليدية المعمول بها فى المستشفى بحيث يدخل المريض على وجه السرعة إلى حجرةالعمليات ويتم إجراء اللازم له . ثم يسجل بعد ذلك إسمه بقسم التسجيل الطبى ، ومن ثم نجد تخطيا وعدم تقيد بالقواعد واللوائح الإدارية المعمول بها بالمستشفى أمام مثل هذه الحالة ، كأن هناك تغليب للنواحى الإنسانية أمام اللوائح الرسمية المعمول بها بالمستشفى .

ويعمل قسم الإستقبال والطوارئ بالمستشفى الرئيسى طوال الأربع والعشرين ساعة ، ويوجد به وحدة للعلاج المركز مجهزة بواسطة حديثة للعناية

والرعاية الطبية ، ويحول إليه حالات الحوادث الخطيرة أو الحالات التى يتطلب علاجها رعاية مركزة .

وقد كشفت لنا الدراسة أن هناك بعض الحالات التى تحتاج لدخول قسم العلاج المركز بالإستقبال ولكنها لا تستطيع أن تتحمل نفقات العلاج المرتفعة بذلك القسم هنا يظهر عمل الخدمة الإجتماعية بالمستشفى حيث توجد أخصائية إجتماعية بقسم الإستقبال ، يتلخص علمها فى تحرير إستمارات خاصة ببحث الحالة الإجتماعية لمريض ، وغالبا ما ينتهى هذا البحث بتوفير نفقات العلاج لغير القادرين عليها * .

ب - مستشفي الشاطبي :

تتمثل الحالات التى تدخل المستشفى عن طريق الإستقبال فى حالات النزيف والولادة ، ويستقبل هذا القسم تلك الحالات طوال ساعات اليوم كاملة ، فالعمل به طوال الأربع والعشرين ساعة لا يتوقف ، ويعمل به الأطباء المقيمون بالاضافة إلى المرضات ، ويتم حجز المريضة عن طريق الإستقبلا إذا كانت تعانى من نزيف حاد وشديد ، ثم تحول إلى أحد أقسام المستشفى لإجراء عملية . وهناك تقسيم للعمل داخل هذه الأقسام ، حيث يخصص لكل قسم أسبوع للحوادث ليشرف على الحالات التى تأتى إليه وقد تدخل بعض حالات الحوادث عن طريق الإستقبال ، والبعض الأخر عن طريق العيادة الخارجية . ويحدد مستشفى الشاطبى لكل قسم من أقسامه يوما فى الأسبوع أيضا لإجراء عملياته ، وتجهز الحالات التى سوف تجرى لها العملية فى اليوم السابق على العملية ، ويمر

(*) ينتشر الإخصائيون الاجتماعيون علي مستوي الأقسام بالمستشفي ، ويكون جزءا من عملهم الأساسي هو استقبال بعض الحالات التي تتردد علي المستشفي عن طريق العيادة الخارجية أو الاستقبال والطوارئ ويعانون من مشاكل معينة تتمثل في عدم وجود أسرة خالية وحالاتهم تستدعي الحجز بالمستشفي هنا يحاول الأخصائي الاجتماعي أن يجد حلا لمثل تلك المشاكل وأن يوازن بين رغبة المرضي وإمكانية المستشفي . ويقوم أيضا بإقناع المريض بكفاءة العلاج الذي صرف له .

الأساتذة المتخصصين للإشراف على تلك الحالات ثم تجرى لهم العمليات .

أما عن حالات الولادة فهى تدخل أيضا عن طريق الإستقبال ، وإذا لم تكن السيدة الحامل على إستعداد سريع لعملية الولادة فانها تغادر المستشفى ، على أن تعود مرة أخرى حسب قرار الأطباء الذين يقومون بالكشف على هذه الحالات بقسم الاستقبال ، إلا أن الفترة التى تقضيها المريضة بهذا القسم قصيرة للغاية ولاتوجد وحدة رعاية مركزة قسم الإستقبال بمستشفى الشاطبى على غرار الموجودة بالمستشفى الرئيسى ، بل أن هناك توسعات رأسية بمستشفى الشاطبى، وسوف ينشأ بأحد الأقسام الجديدة مركز للعناية المركزة * .

٢ ـ العيادة الخارجية :

أ ـ المستشفي الرئيسي :

تمثل العيادة الخارجية الطريقة الثانية لدخول المريض إلى المستشفى ، وتعمل العيادة الخارجية فترتين ، الفترة الأولى صباحية من الساعة الثامنة صباحا إلى الثانية بعد الظهر ، وغالبا ما يكون العلاج فى هذه الفترة مجانيا .

ويقوم بالكشف على الحالات المترددة فى هذه الفترة الأطباء المقيمون بالمستشفى أما الفترة الثانية فهى مسائية من الساعة الثانية بعد الظهر حتى الخامسة وتمثل هذه الفترة مشروع العلاج بالأجر الرمزى ، أو ما يسمى بمشروع العلاج الإقتصادى ، حيث يدفع المريض جنيها قيمة الحصول على بطاقة الدخول (تذكرة) التى تحتوى على بيانات أولية عن المريض ، وبعد أن يستوفيها ، يتم عمل اللازم تجاهه ، ثم تحفظ تذكرته بقسم شئون المرضى ، فإذا كانت حالة المريض عادية بحيث لاتتطلب تحويله إلى أحد الأقسام التخصصية ، إكتفى الطبيب المسئول بتشخيص حالته ووصف علاجه ، وبعدها يخرج المريض بحيث

(*) هذا ماصرح به مدير المستشفي وبعض الأطباء المقيمين للباحثة وقت إقامتها بالمستشفي في الفترة مابين ٢٢ يوليو حتي ١٩٨٧/٨/٣ وهي فترة المعايشة لمجتمع الدراسة .

تتوقف علاقته بالمستشفى عند حدود العيادة الخارجية والعاملين بها ، وتكون علاقته بهم علاقة سريعة ومؤقتة ، أما إذا أظهر فحص الطبيب الأولى أن حالة المريض لاتحتمل عودته إلى منزله دون مباشرة علاجه بمعرفة المختصين (اجراء عملية ـ مرض مزمن ظهرت مضاعفاته ـ إجراء اتحليلات بهدف التشخيص الدقيق .. الخ) ويحتاج إلى مدة رعاية أطول ، بأمر الطبيب المختص بدخوله المستشفى ، ويتم حجز المريض بعد أن يدفع ١٥ جنيها شاملة الرعاية والعلاج والإقامة وإجراء عملية إذا لزم الأمر * .

(*) توزع حصيلة هذا المشروع بنسبة ٥٠٪ ، ٥٠٪ للأطباء المعالجين ومن ثم فإن هذا المشروع يوفر إمكانيات جديدة لزيادة الاستقلال المالي للمستشفيات وإيجاد الوسيلة اللازمة لرفع مستوي الخدمة الطبية .

هذا عن العلاج الاقتصادي بالمستشفي الرئيسي وقد كانت المستشفيات الجامعية في الاسكندرية سباقه في هذا المجال ثم تبعتها الجامعات الأخري

وقد كشفت الدراسة أن هناك نوعا من العلاج بالمستشفي الرئيسي يعرف بالعلاج الخاص أو بالأجر الكامل ، يدفع المريض بموجبه حوالي ٦ جنيهات في اليوم كمقابل للإقامة . مضافا إليها قيمة التغذية ، وأيضا كمقابل لزيادة الطبيب للمريض ، بالإضافة إلي قيمة العلاج ، والعملية في حالة إجراء عملية . ويتحدد ثمن العملية علي حسب نوعيتها فهناك نوعان :

أ ـ عملية صغري .   ب ـ عملية كبري .

يتراوح تكلفة العملية الصغري مابين ١٥٠ ـ ٤٠٠ جنيه ، وقد تصل العملية الكبري إلي أكثر من ألف جنيه . وبالرغم من هذا فقد صرح بعض العاملين بالإدارة المالية للباحثة بأن هذا المشروع لم يحقق الهدف منه وهو خدمة المواطنين بقدر مايحقق مصدرا طيبا للدخل للأطباء .

فالهدف الأساسي من العلاج الاقتصادي هو توفير الخدمة الطبية الجيدة التي أقيمت أساسا من أجلها المستشفيات الحكومية ـ كالجامعية موضوع هذه الدراسة إلا أنه مع الأسف لم يتحقق هذا الغرض ، حيث وحد نظام العلاج بالأجر الكامل وتحول الموقف إلي تجارة رابحة للأطباء . وقد لاحظت ـ بهذا الصدد ـ أن مستشفي الشاطبي يحتوي فقط علي قسم مجاني وآخر اقتصادي ، وليس به نظام العلاج بالأجر الكامل باهظ التكاليف .

هكذا تفاقمت مشكلة ارتفاع سعر تقدير الخدمة الطبية الجيدة حتي جدران المستشفي الجامعي . وتناشد الدراسة أن يكون لنقابة الأطباء دور قوي وفعال في السيطرة علي أجور الأطباء خارج المستشفي وداخله بحيث تقوم بالإشراف الفني علي كافة الأعضاء بما فيهم أعضاء هيئة التدريس ، وبهذا تكون النقابة هي الحكم بين فئة الأطباء والشعب .

ويحدد عدد الأسر الشاغرة بالمستشفى عدد المرضى الذين يحولون من العيادة الخارجية إلى داخل أقسام المستشفى ، على أن تكون الأولوية دائما للحالات العاجلة أو الملحة . وغالبا ما يحول مرضى الفترة الصباحية لأقسام العلاج المجاني ، ومرضى الفترة المسائية للعلاج بأجر إقتصادى ، أو أجر كامل .

وإن كنا لاحظنا ـ إعتمادا على منهج دراسة الحالة ـ إرتباط الحالة الإقتصادية للمريض بنوع العلاج الذى يتلقاه (مجانى ، إقتصادى ، أجر كامل)* .

ويقع على قسم شئون المرضى بالمستشفى ـ وصلته وثيقة بالعيادة الخارجية ـ عب ء تصنيف المرضى من خلال البيانات الأولية لهم ، بالاضافة إلى ما لاحظناه من دوره فى إعداد تقارير الأطباء الخاصة بحالات الحوادث والكوارث وتوجيهها للجهات المعنية (الشرطة ، النيابة ، القضاء) .

ب ـ مستشفى الشاطبي :

بينما تقوم العيادة الخارجية بالمستشفى الرئيسى بنشاط وافر ومتعدد الإتجاهات ، لاحظنا أن العيادة الخارجية بمستشفى الشاطبى يقتصر عملها على فترة صباحية فقط وتتعلق بالمريضات ـ دون حالات الوضع التى يتلقاها قسم الإستقبال ـ وفى العادة يشخص المرض ويحدد ويوصف له العلاج اللازم ، وتخرج المريضة بعد أن تكون قد كونت علاقة بسيطة ومؤقتة بالأطباء والممرضات بقسم العيادة الخارجية ، وتتعمق هذه العلاقة بدرجة أكثر عندما تحجز بعض هذه الحالات بالمستشفى لإجراء جراحة عاجلة ، حيث تحول المريضة إلى القسم الذى

(*) لاحظت أيضا الباحثة تفاوتا في درجة الرعاية وتكوين علاقات اجتماعية بين الأطباء والمرضي بين الأقسام المجانية والأقسام مدفوعة الأجر اقتصاديا كان أو كاملا : ففي الأقسام الأولي حشد للمرضي بحيث تضيق بهم الغرف والعنابر مع تواضع الرعاية والخدمات التي تقدم لهم ، بينما في الأقسام الأخري ـ وهي أقسام العلاج بالأجر الكامل خاصة ـ تتعدد ألوان الرعاية من خدمة تمريضية عالية واهتمام من جانب الطبيب المعالج وظهور علاقات اجتماعية بين الأطباء ومرضي هذه الأقسام ، هذا بالإضافة إلي عدم تكدس المرضي بهذه الأقسام بحجرة واحدة ، فالحجرة الواحدة يكون بها مريضان أو ثلاث فقط .

يعدها ويجرى لها التحاليل ، ومن ثم تكون مستعدة لإجراء العملية ومن أمثلة العمليات التى تجرى لمثل هذه الحالات : إستئصال الرحم ، وانتزاع أورام ليفية أو سرطانية من الرحم ، أو إنتزاع أورام فى المبيض ، الإجهاض ، وإجراء عملية لرفع الرحم عند سقوطه ، (وتعانى السيدة من سقوط الرحم نتيجة لتكرار الحمل والولادة أو نتيجة للولادة الخاطئة التى تتم على أيد القابلات بالمنازل) إذا أجرت المريضة احدى هذه العمليات فلابد أن تمكث بالمستشفى بضعة أيام ، وهنا تنشأ بينها وبين الفريق الطبى المعالج ـ الأطباء والممرضات ـ علاقة أقوى من تلك التى نشأت بين المريضات اللائى غادرن المستشفى بعد قضاء عدة ساعات فيه .

كما أن هناك نوعا آخر من العمليات التى تجرى للمريضة داخل العيادة الخارجية وتستطيع أن تخرج بعد قضاء ساعات من إجرائها ولايتم حجزها بالمستشفى ، ومن هذه العمليات كى للرحم ، أو علاج الإلتهابات فى عنق الرحم ، والإلتهابات المهبلية .

ويرتبط بالعيادة قسم شئون المرضى الذى يحتفظ ببطاقات لكافة المترددات تحمل بياناتهم الأولية وحالاتهم المرضية بحيث يمكن العودة اليها عند الطلب ، حيث يطلبها بعض الأطباء للرجوع إليها فى إجراء بحوثهم ، أو أن المريضة نفسها قد تعود مرة أخرى وتطلبها لإثبات مدة مكوثها بالمستشفى ، حتى تثبت فترة المرض إذا كانت تعمل فى إحدى قطاعات الحكومة أو القطاع العام لاحتساب أجازة مرضية لها ، هذا عن قسم العيادة الخارجية بالمستشفى موضوع الدراسة .

٣ ـ قسم التسجيل الطبي :

يعتبر قسم التسجيل الطبى من الأقسام التى يحتك فيها المريض ببعض العاملين بالمستشفى ويستطيع أن يكون معهم نوعا من العلاقات المؤقتة ، يعد هذا القسم حديثا نسبيا فهو لايزيد عن عشر سنوات ، وغالبا ما يرأس هذا القسم أحد الأطباء *.

(*) ترأس قسم التسجيل الطبي بالمستشفي الرئيسي المركزي طبيبة .

ويقع مكتب التسجيل الطبى فى المدخل بالمستشفى الرئيسى ، حيث يتجه إليه المريض فى بداية دخوله المستشفى ، ويسمى بمكتب الدخول والخروج ، وبمجرد دخول المريض المستشفى يسجل بعض البيانات الأولية داخل إستمارة خاصة به .

ـ إسم المريض رباعيا ، السن ، النوع ، الحالة الزواجية ، رقم المستشفى الموحد ، محل الإقامة الدائم ، الجنسية ، الديانة ، محل الميلاد ، المهنة .

ـ ثم يسجل تاريخ الدخول بالساعة ، وتاريخ الخروج بالساعة ، كيفية الدخول ثم مدة الإقامة ، نوع العلاج (مجانى ، علاج إقتصادى ، بالأجر الكامل، تأمين صحى) .

ـ الحالةعند الخروج (شفى ـ تحسن ـ لم يتحسن ـ توفى قبل ٤٨ ساعة ، توفى بعد ٤٨ ساعة) .

تفرغ محتويات الاستمارة فى سجلات خاصة ، بحيث تتحول إلى أرقام فى سجل التحليل اليومى لخدمة المستشفى ، يكون لهذه الأرقام دلالات إحصائية معينة تشمل بيانات اجمالية عن الأقسام المختلفة للمستشفى .

ومن خلال الإطلاع على هذه السجلات توصلنا إلى أن متوسط الحالات المترددة على المستشفى يبلغ يوميا فى فصل الصيف ما يقرب من ٢٠٠ حالة تقريبا ، وتقل تلك النسبة عنها فى الشتاء ، كما رأينا أن معظم الحالات تدخل عن طريق العلاج المجانى .

وبعد أن يتم التسجيل فى سجل التحليل اليومى يحفظ ملف المريض بقسم التسجيل الطبى نظرا لحاجة بعض الأقسام الأخرى إليه ، كقسم شئون المرضى (لاستيفاء أوراق معينة أو إعطاء نوع التشخيص لجهة العمل التى يعمل فيها المريض مثلا) أو قد تجرى بعض الأبحاث التى يود أصحابها الإطلاع على تلك الملفات ، لذا تحتفظ بمخزن تابع لقسم التسجيل الطبى للرجوع لها وقت الحاجة

ومن فحصنا لمضمون التسجيل الطبى ، إكتشفنا أن التسجيل مقصور فقط على هؤلاء المرضى الذى يقضون بالمستشفى أكثر من٢٤ ساعة أما هولاء الذين يعالجون بالإستقبال أو بالعيادة الخارجية فان إسمه أو حالته لا تدخل فى نطاق التسجيل الطبى عن قسم شئون المرضى الذى يسجل كل من يتردد على المستشفى دون إستثناء .

ويتتبع قسم التسجيل الطبى حالة المريض بدءا من التشخيص المبدئى ، حتى التشخسيص النهائى ثم خطوات العلاج ، دون أن يدرك المريض هذا التتبع بالضرورة إلا أن المريض بعد شفائه لابد له من أن يعود إلى ذات القسم لتسجيل بيانات قريبة من تلك التى سجلها ساعة دخوله ، والعلاقة فى هذا القسم ـ فيما لاحظنا ـ قد تكون علاقة من جانب واحد ، حيث أن المريض فى معظم الأحيان يكون ذهنه منصرفا لمعرفة دقائق حالته من خلال تشخيص الأطباء ومساعديهم ولا ينتبه كثيرا لتلك البيانات التى يسجلها عنه بعض العاملين بالمستشفى ، وقد تنشأ علاقة ـ وأن كانت مؤقتة ـ عندما يعود نفس المريض للمستشفى مرة ثانية فيبحث عن ذات الرقم الموحد الخاص به الذى يشير إلى ملفه الخاص بحالته المرضية .

وفى مستشفى الشاطبى يوجد بنفس القسم وأن كان نشاطه محدودا بالنسبة للمشتشفى الرئيسى ، وبخاصة أن معظم الحالات المترددة هى حالات ولادة تسجل معظم بياناتها أثناء أو بعد الوضع ، بعد أن تكون قد نشأت علاقات أخرى أعمق بين المريضة والطبيب ، أو بينها والممرضة ، كما تسجل به أيضا بعض الحالات التى دخلت المستشفى إما للعلاج أو لإجراء عملية ومكثت بالمستشفى ما يزيد عن ٢٤ ساعة وتحفظ هذه السجلات جميعا بقسم التسجيل الطبى بالمستشفى .

٤ ـ قسم العلاقات العامة :

يؤدى هذا القسم من خدمات إجتماعية تظهر فى أنشطته اليومية والموسمية، فمن هذه الأنشطة التى تبرز فيها العلاقات الإجتماعية :

إقامة حفلات ترفيهية للمرضى ، جمع التبرعات فى المناسبات المختلفة إقامة حفلات دينية مثل حفلات الافطار في رمضان والتى قد تجمع بين المريض والطبيب والممرضة والعاملين فى المستشفى فى موقف واحد بعيدا عن إجراء العلاج التقليدية ، الإحتفال بمن يحالون إلى المعاش من العاملين ، بل ويمتد نشاط هذا القسم إلى إقامة جنازات رسمية للمتوفى من العاملين بالمستشفى سواء كان من أعضاء هيئة التدريس أو غيرهم .

هذا بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من الإشراف على إقامة الندوات العلمية وإستضافة الأساتذة الأجانب للإستفادة من خبراتهم ويعتبر قسم العلاقات العامة بمستشفى الشاطبى صورة مصغرة لقسم العلاقات العامة بالمستشفى الرئيسى ، فهو تابع له من الناحية الرسمية ، ويختص بنفس الاهتمامات التى يقدمها قسم العلاقات العامة بالمستشفى الرئيسى ، كما يتمثل دور العلاقات العامة الإيجابى بالمستشفيات فى عقد المؤتمرات العلمية الطبية والتمهيد لها ، والإعداد والمتابعة من الناحية العلمية والتنظيمية ثم النتائج أو التوصيات التى يخرج بها المتخصصون من مثل هذه المؤتمرات ومدى الإستفادة بها * .

٥ ـ مكتب خدمة المواطنين (المستشفي الرئيسي) :

أنشئ هذا المكتب بقرار رئيس الجامعة فى ١٩٨٢/٢/١٤ وبناء على قرار جمهورى رقم ٧٠ لسنة ١٩٨١ بانشاء مكاتب خدمة المواطنين بالمصالح الحكومية ، وهو يتبع قسم العلاقات العامة الذى سبق الإشارة إليه .

وتنحصر الخدمات الإجتماعية التى يقدمها هذا المكتب فى ثلاثة إتجاهات رئيسية هى .

(*) يوجد بمستشفى الشاطبى قاعة كبيرة مجهزة لعقد المؤتمرات ، وبالفعل عقدت بهذه القاعة عدة مؤتمرات علمية خاصة بها .

١ ـ مكاتب لتلقي شكاوي المواطنين :

أ ـ شفاهة ب ـ كتابة جـ ـ بالبريد .

وغالبا ما يعتبر مضمون هذه الشكاوى مؤشرا يدعو لتحسين الخدمات فى جانب ، أوتطويرها فى جانب أخر ، أو الحصول على مستحقات خاصة بأحد المواطنين .

كما يقوم المكتب بالرد على إستفسارات العاملين من خلال موظفين نوى تخصصات متعددة ، ويتلقى المكتب شكاوى العاملين بالمستشفى على كافة درجاتهم وتخصصاتهم أيضا ويوجهها لجهات الاختصاص أو الأقسام الإدارية المختلفة بالمستشفى ، ويتابع حلها .

وهناك عشرات الأمثلة التى عشناها خلال الدراسة منها ما لاحظته الباحثة من دخول طبيب إلى مدير هذا المكتب يريد مساعدته فى إسترداد مبلغ دفعه أحد مرضاه لدخول المستشفى عن طريق مشروع العلاج الإقتصادى لإجراء عملية جراحية وقد حالت ظروف هذا المريض دون دخوله المستشفى فى الوقت المحدد لها ، ومن ثم يود المريض إسترداد ما دفعه ، إلا أن (الروتين) والتعقيدات الوظيفية يؤخر الإجراء ، وفعلا حسم المدير هذا الموقف مع الطبيب ووعده باسترداد المبلغ .

٢ ـ الاستعلامات :

ثانى الخدمات التى يقدمها هذا المكتب يتمثل فى الإستعلام عن أى شئ بالنسبة للمرضى ، أو إستعلام المترددين يوميا على المستشفى عن الأقسام أو موعد الزيارات أو أى شئ آخر ، ويحتك المريض بالعاملين فى هذه القسم إذا كان يريد أن يعالج بقسم معين ، كقسم العلاج بالكوبالت مثلا أو الذرة ، فإنه يتقدم لمكاتب الاستعلامات التى توفر له معلومات كاملة عن مثل هذه الأقسام ، وترشده عن الأوراق المطلوبة أو ما ينبغى أن يقوم به .

٣ ـ الرد على الصحف :

بالإضافة إلى إعداد دليل مبسط عن مواعيد العمل في العيادة الخارجية ، وعن مواعيد الزيارة وغير ذلك .

كما يبحث هذا المكتب المعوقات التى تقابل العمل التنفيذى داخل المستشفى والعمل على تحقيق مصلحة الجماهير .

وقد لاحظنا أنه رغم ما يتمتع به العاملون بهذا المكتب من نشاط ، إلا أنه يحول دون تلبية رغبات المواطنين أو حتى العاملين بالمستشفى من خلاله عوامل كثيرة ، منها طبيعة التدرج الوظيفى والتى تجعل القرار النهائى فى بعض الأمور للمديرين المتخصصين أو لرؤساء الأقسام وهؤلاء لا يرضخون فى كل الحالات لرغبات مدير المكتب أو أصحاب الشكاوى ، كما لاحظنا أن تردد بعض المواطنين وبعض العاملين على المكتب بانتظام يكون وراء قيام نوع من العلاقات يوصف بأنه أكثر من مؤقت ، ويوجد لهذا المكتب ثلاثة مكاتب فرعية تابعة له وجدنا احدها بمستشفى الشاطبى ، بالاضافة إلى مكتب آخر بمستشفى الأطفال الجامعى ومكتب رابع بمستشفى الحضرة الجامعى ومن ثم يكون المكتب الأساسى والرئيسى هو الموجود بالمستشفى الرئيسى الجامعى والذى عرضناه آنفا ، والمكاتب الأخرى صورة منه ، وقد تلجأ إليها فى بعض الأحيان ، ولذا آثرنا عدم الحديث عن هذا المكتب داخل مستشفى الشاطبى لأنه صورة مصغرة من ذلك المكتب الأساسى بالمستشفى الرئيسى والذى تحدثنا عنه وهو يقوم بنفس الدور .

ثانيا ـ العلاقات العميقة :

استطعنا من خلال دراستنا المكثفة والمركزة للبناء الاجتماعى للمستشفى أن نصل إلى حقيقة هامة مؤداها * .

أن بناء المستشفى يشتمل على شبكة واسعة ومعقدة من العلاقات

(*) تنطبق هذه الحقيقة على المستشفيين موضوع الدراسة .

الاجتماعية ، تلك التى لاتخرج فى أساسها عن كونها مجموعة من العلاقات الثنائية الأولية المتغيرة . وتظهر هذه العلاقة الثنائية بصورة واضحة بين شخصين داخل هذا البناء ومن مجموعها يتكون ذلك الكل ، وقد أفادت الدراسة من تلك العلاقات الثنائية التى أشار إليها " رادكليف ـ براون " فى معرض حديثه عن نظرية البناء الاجتماعى وأكد على أنها هى لبنات البناء الإجتماعى ، أيضا ظهرت لنا بكل وضوح أنماط عديدة من تلك العلاقات داخل بناء المستشفيين موضوع الدراسة وبالتالى أعطينا معظم إهتمامنا لمثل هذه العلاقات داخل بناء المستشفى والتى تؤدى فى النهاية إلى تماسك وتكامل البناء الكلى للمستشفى .

كما أفدنا من قول " رادكليف ـ براون " أن الملاحظة المباشرة تدلنا على أن الكائنات البشرية ترتبط بعضها ببعض بشبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية واستخدم لفظ البناء الإجتماعى لأعبر عن هذه العلاقة بالفعل ، وهذا البناء الإجتماعى هو ما اعتبره موضوعا لدراستى [١] .

ومن هنا كان إعتمادنا على أداة الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة التى ساعدتنا على كشف تلك الأنماط المحددة للعلاقات الثنائية الموجودة داخل بناء المستشفى وسوف نعالجها بشئ من التفصيل فى هذا الجزء .

ومما يدعم الأساس النظرى الذى إنطلقنا منه أيضا عند " رادكليف ـ براون" أن هناك بعض الدراسات الميدانية التى أكدت أن العلاقة بين الطبيب والمريض *Doctor Patient Relationship* على وجه الخصوص ، هى علاقة ثنائية فى المحل الأول ، وتمثل مثل هذه العلاقات فى العيادات أو فى المستشفيات الكبرى جزء من كل مركب أوسع .

ومن ثم أصبحت تلك العلاقة ـ علاقة الطبيب بالمريض ـ ميدانا هاما للبحث والدراسة[٢] .

---

(1) Radcliffe - Brown, A.A., Structure and Function in Primitive Society , London, 1956 , P. 190 .
(2) Aneeta Ahluwalia, Sociology of Medicine, Op.Cit., P. 415 .

وحددنا العلاقات العميقة التى تتمثل فى البناء الإجتماعى للمستشفى فى الأنماط الثنائية الآتية :

١ ـ العلاقة بين الطبيب والطبيب (الأطباء) .

٢ ـ العلاقة بين الطبيب والمريض .

٣ ـ العلاقة بين الطبيب والمرضة (الأطباء والمرضات) .

٤ ـ العلاقة بين المرضة والمريض .

٥ ـ العلاقة بين المرضة والمرضة (هيئة التمريض) .

٦ ـ العلاقة بين المريض والمريض (المرضى بعضهم وبعض) .

وسوف نعرض لكل نمط من هذه الأنماط بشئ من التفصيل :

أولا ـ العلاقة بين الطبيب والطبيب :

ذهب بعض علماء الاجتماع الطبى والمهتمين بدراسة المستشفى إلى أنه يمكن النظر إلى المستشفى باعتباره تنظيما بلا قائد أو زعيم [1] .

وهذه الحقيقة تصلح لأن تكون مدخلا لحديثنا عن علاقة الطبيب بالطبيب داخل المستشفى ، ونظرا لأن البناء الإدارى للمستشفى يتسم بالثنائية أوبناء السلطة داخل المستشفى يتسم بالازدواجية ، كل هذا جعل من المستشفى كما لاحظت من خلال الدراسة الميدانية وخاصة فترة الإقامة والمعايشة لمجتمع المستشفى ، لاحظت أن الطبيب المدير لايستطيع أن يمارس سلطته على الطبيب المعالج ، وإنما يكون الأمر شورى بينهم وخاصة فى الأمور المتعلقة بالتشخيص* ، ورعاية المرضى حيث يكون للطبيب المعالج الرأى الحاسم بخصوص القرارات العلاجية للمرضى ، على هذا يظهر أمامنا المستشفى على أنه تنظيم بلا قائد أو

(1) Susser, M.W., & Watson, W., Op.Cit., P. 251 .

(*) ظهر هذا الأمر واضحا أمامنا بصفة خاصة بمستشفي الشاطبي لأن مديره غير متخصص في أمراض النساء والولادة ومن ثم كان يرجع في الأمور الفنية إلي المشرف الفني لمستشفي وهو أحد أعضاء هيئة التدريس به

زعيم حسب المقولة التى إنطلقنا منها ونحن نؤيدها حيث كشف لنا بناء المستشفى ذلك جليا وواضحا ، كما لاحظنا أيضا أن الطبيب المتخصص هو الذى يقترح على الطبيب المدير ما يحتاجه المستشفى من أدوات ومعدات فنية ، ويقترح شراءها فى حين أن المدير هو الذى يدبر عملية الشراء نفسها وموازنة الأمور المالية .

ومثالا على ذلك موقفا حدث أمامنا بمستشفى الشاطبى عندما إقترح الطبيب المشرف الفنى للمستشفى ـ أحد أعضاء هيئة التدريس والمتخصصين فى أمراض النساء والولادة على مدير المستشفى شراء مجموعة مناظير جديدة تفيد فى التشخيص وتسهل العملية العلاجية على الطبيب المعالج ، ينظر المدير هنا إلى الطبيب المعالج على أنه يقف معه جنبا إلى جنب ، ويرجع إليه فى بعض الأمور الخاصة بالنواحى العلاجية وبهذا يشارك الأطباء فى صنع القرارات الخاصة بالتشخيص وعلاج المرضى ، فالتعليم الذى يتلقاه الأطباء ، والتدريب الذى يحصلون عليه ، بالإضافة إلى أخلاق المهنة ذاتها [١] . كل هذا يجعل الأطباء يقفون جميعا على قدم المساواه ، وهذا ما لاحظناه بالمستشفيين موضوع الدراسة، فالطبيب رئيس القسم العلاجى ـ على ما رأينا ـ ينظر إلى الطبيب المقيم باعتباره زميل المهنة بحيث يمكن القول بأن علاقة الطبيب بالطبيب هى بصفة عامة علاقة الند للند ، وإذا ما قدم الطبيب الرئيس بعض النصائح والارشادات للطبيب المرؤوس ، تلقاها الأخير برحابه صدر ، محترما خبرة وكفاءة رئيسه فى المجال الطبى ، ويحضرنا فى هذا الصدد ما لاحظته فى مواقف عديدة ، حين كان الأستاذ يلقى دروسه الأكلينيكية على مستمعيه وكانوا طلابا بكلية الطب ، وأطباء امتياز وأطباء مقيمين ، وكانت العلاقة التى تجمع الجميع هى تحقيق أكبر قدر من الاستفادة بخبرة الأستاذ من جانب الأطباء ، ومزيد من العطاء من جانب الأستاذ ، هذا الموقف الذى يتكرر كثيرا فى مستشفى تعليمى ، يؤكد أن للخبرة الطبية التى يتمتع بها الطبيب دورا فى إقامة علاقات عميقة ومتصلة مع غيره من الأطباء سواء

(1) Freidson, E., Medicial Personnel : Physicians, In : International Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 9 - 10, PP. 105 - 113 .

كانوا زملاء أم طلابا .

وفى حالات أخرى يتقبل الطبيب المقيم نفسه نصائح وإرشادات من الطبيب المقيم زميله ، صاحب الخبرة والأقدمية ، يتقبلها أيضا بصدر رحب ولايكون فيها شئ من التعالى من جانب الطبيب المقيم الأكثر خبرة وإنما العلاقة بينهم تقوم على التشاور دائما * ومما يدعم هذا القول وفى حضور الباحثة لبعض حالات الكشف والتواجد بمستشفى الشاطبى ـ على سبيل المثال ـ أنه بمجرد الكشف على مريضة جاءت إلى المستشفى عن طريق الحوادث بالعيادة الخارجية ، وكانت تعانى من حالة نزيف حاد قرر أحد الأطباء المقيمين أنها ليست فى حاجة إلى تدخل جراحى ، وإنما يكفى العلاج الموضعى لها ، وبعد تشاور هذا الطبيب مع زملائه الأكثر خبرة بالاضافة إلى رجوعهم جميعا لأستاذهم المشرف ، قرروا إجراء عملية جراحية أجريت فى الحال بنجاح وتم إستئصال الرحم لوقف النزيف .

هنا أبدى الأستاذ رضاه عن تلامذته وأبدى الأطباء إرتياحهم وأظهر الطبيب الأقل خبرة امتنانه لبقية زملائه الذين أفاد من خبرتهم .

وقد لاحظنا أن كل قسم من أقسام مستشفى الشاطبى يوجد به من اثنين إلى ثلاثة من الأطباء المقيمين ، والذى يكون من بينهم واحد أو إثنان من الأطباء المقيمين القدامى أو الأكثر خبرة ، وهؤلاء الأطباء يقع عليهم عبء عمليتى التشخيص والعلاج وإجراء الجراحات ويقوم دور تعليمى لزميله المقيم الأحدث .

كأن العلاقة بين الطبيب والطبيب إذن ـ كما لاحظنا ـ تقوم على أساس نوع من التعاون والتشاور وتبادل الرأى ويؤكد هذا الملاحظات التى رصدتها الدراسة

(*) لقد صرح معظم الأطباء المقيمين للباحثة ـ بالمستشفيين موضوع الدراسة ـ أن العلاقة بينهم تقوم علي أساس نوع من التشاور وأخذ الرأي وخاصة عند إجراء بعض العمليات ، فالطبيب المقيم الـ Junior ـ علي حسب تعبيرهم للباحثة ـ دائما يستشير ويتعلم من الطبيب المقيم الـ Senior ويعكس هذا الوضع أيضا التدرج الهرمي للمراكز داخل بناء المستشفي وداخل فئة الأطباء المقيمين علي وجه الخصوص .

سواء بمستشفى الشاطبى ، أو بالمستشفى الرئيسى حيث تكرر نفس هذا الموقف أمامنا ببعض أقسام الأمراض الباطنية به .

وقد لاحظنا ظاهرة عامة بين معظم أقسام المستشفى وهى أن الأطباء أصحاب التخصص الواحد يرتبطون معا برباط قوى أكثر من أصحاب التخصصات المختلفة ، ومن ثم ظهر لنا ترابط أصحاب التخصص الواحد .

وعلي سبيل المثال :

تظهر علاقة الأطباء بعضهم ببعض ـ على ما لاحظنا ـ داخل أقسام الأمراض الباطنية كأسرة واحدة يجمعهم ذلك التخصص الواحد ، ومن مظاهر هذه العلاقة التعاون العلمى الملحوظ بينهم بصدد الحالات التى يقومون بعلاجها ، وتبادل المشورة فى الحالات التى تتطلب علاجا مكثفا على ما لاحظنا خصوصا ع مرضى السرطان ، هذاويجمع أصحاب التخصص الواحد التواجد فى مكان واحد ـ وهو القسم الذى يعملون به ـ وقضاء معظم الوقت معا ، ومن مظاهر هذه العلاقة أيضا الرجوع إلى بعضهم البعض بصدد العملية التعليمية داخل المستشفى ، وما هى النواحى الملحة الجديرة بزن يركز عليها طلاب الدراسات العليا ، ونوعية الأمراض التى تكون موضوعات لبحوثهم العلمية .

هذا هو الترابط بين أصحاب التخصص الواحد الذى لمسناه أيضا داخل أيضا داخل أقسام الجراحة والرمد وغيره من أقسام المستشفى الرئيسى ، وقلما توجد علاقة عميقة بين طبيبين من قسمين مختلفين إلا إذا كان مصدر هذه العلاقة من خارج أسوار المستشفى ، كعمل مشترك بكلية الطب أو إشتراكهما فى نادى واحد .. الخ هذا دليل عليب رابطة التخصص الواحد التى وجدناها بصورة واضحة ، إذا صح لنا إستخدام هذا التعبير .

ويمثل مستشفى الشاطبى تخصصا واحدا ولذا ظهرت رابطة التخصص الواحد بين أعضائه واضحة وخاصة بين كل قسم من أقسامة الفرعية ، حيث تنشأ

علاقة قوية بين الأطباء المقيمين بالقسم الواحد أقوى مما هي بين أعضاء قسم وقسم أخر أيضا نجد علاقة الأطباء المقيمين قوية بأساتذتهم في نفس التخصص وتقوم تلك العلاقة على التوجيه والإرشاد من قبل الأستاذ ، والطاعة من قبل الطبيب المقيم ، تقوم العلاقة أيضا على الناحية التعليمية التي يحاول المقيم فيها أن يستفيد من علم وخبرة الأستاذ في الناحية الإكلينيكية ويحضر معه العمليات الكبرى حتى يتنسى له القيام بمثلها بمفرده وحتى ينال رضا الأستاذ وهو يسعى في هذه الفترة ـ فترة الإقامة ـ إلى تكوين علاقة قوية باستاذه حتى ينال درجة علمية ويتم تعيينه ضمن أعضاء هيئة التدريس .

ومن مظاهر تعمق العلاقات ما يكون إيجابيا ويتخطى حدود التعاون العلمي وتقديم الخبرة إلى بعض صور المشاركة الوجدانية ، وقد لمسنا هذه الناحية في قطاعات غير قليلة بالمستشفيين .

نضيف إلى كل ما سبق أن مهنة الطب تشتمل على مجموعة من المعايير والقيم التي تحكم بالتالي القائم بهذه المهنة وتضبط سلوكه وتصرفاته تجاه زملاء المهنة ، ومن ناحية أخرى يضبط السلوك المهني للأطباء داخل المستشفى من خلال نظام مركب من الجزاءات الاجتماعية أو الرمزية ، فالطبيب المقيم مثلا يكتسب باقامته بالمستشفى إتجاهات فنية وأخلاقية تجاه ممارسة الطب من شأنهاأن تنمى لديه الإحساس بالمسئولية وتكوين معايير وقيم المهنة ، والتي يتعرض من يخرج عليها للجزاءات ، تلك المعايير التي يحترمها كل طبيب ويعمل بمفرده دون حاجتَه إلى إشراف ممن هم أعلى منه في المهنة و أي ما نطلق عليه الضمير المهني ، ولهذا يمارس كل طبيب مهنته في نوع من الحرية من الإشراف أو المراقبة المهنية المباشرة سواء من داخل المهنة أو من خارجها ، فالطبيب يعتبر أكثر العاملين بالمستشفى تمتعا بالاستقلال الذاتي والحرية في رعاية مرضاه .

ومن ثم يمد قانون المهنة الطبيب بالرضا الحقيقي عن عمله وقيامه به كاملا، وما نخلص به من هذه العبارة هو أن إحساسه بقيمة الضمير المهني وإحساسه

بالرضا والإستقلال يدفعه إلى إقامة علاقات متوازنة مع زملائه وأساتذته ، بحيث لاتقوم علاقته بأنداده ـ كما صرح معظم الأطباء العاملين ـ على الترغيب والترهيب، وإنما تقوم على الإحترام المتبادل ، وإحترام الرأى والرأى الآخر ، وتقبل مشورة الآخرين .

ثانيا ـ العلاقة بين الطبيب والمريض :

تعتبر العلاقة بين الطبيب والمريض من أعمق العلاقات الثنائية الموجودة داخل المستشفى على ما كشفت لنا الدراسات الرائدة فى هذا المجال بالاضافة إلى ما يؤكده ما لاحظناه وعايشناه من مظاهر هذه العلاقة داخل بناء المستشفين حتى أن هذه العلاقة الخاصة والعميقة كانت محور بقية العلاقات الكائنة بالمستشفى كما أن قدر التفاعلات فيها والمشاعر يطغى على مثيله فى أى علاقة أخرى ، وقد لاقت هذه العلاقة إهتماما خاصا من قبل الباحثين سواء من علماء الإجتماع أو الأنثروبولوجيا . فراحوا يرسون أبعاد هذه العلاقة ، ونستطيع أن نصنف معظم دراسات علماء الإجتماع التى تناولت العلاقة بين الطبيب والمريض فى مدخلين أساسيين هما : [١]

١ـ يتمثل الإتجاه الأول فى محاولة " تالكوت بارسونز *Talcott Parsons* " لفحص وفهم تلك العلاقة فى كتابة النسق الإجتماعى ١٩٥١ *The Social System* ، وعلماء الإجتماع الذين صاروا على نهجه كل منهم إلى أنه لفهم العلاقة بين الطبيب والمريض يجب أن ننظر إلى أن كلا منهما يقوم بأدوار معينة وممثل لأنماط معينة من السلوك .

٢ ـ ويمثل الإتجاه الثانى " اليوت فريدسون (١٩٧٠) *Eliot Freidson* وأتباعه من علماء الإجتماع ، حيث يركز كل منهم على الصراع الكامن فى تلك

(1) Morgan, M., The Doctor - Patient Relationship , in Sociology as Applied to Medicine, Ed. by. Patrick & G. Scambler, London. 1982, P. 57 .

العلاقة ، والإهتمام بالطرق التى يستخدمها كل من الأطباء والمرضى لكى ينجز كل منهم أغراضه الخاصة .

وبالرغم من أن هذين المدخلين يؤكدان على مظاهر مختلفة لتلك العلاقةالتى تنشأ بين الطبيب والمريض ، إلا أن كلا منهما يساعد فى فهم وتوضيح طبيعة المقابلة والمواجهة الإجتماعية بينهما ، ويساهم كل مدخل منهما فى إضفاء المزيد من الفهم والتوضيح لتلك العلاقة .

أما عن المدخل الأول ومدخل الأدوار ، فإن أصحابه يؤكدون على أن كلا من الطبيب والمريض يلعب عدة أدوار وله حقوق وعليه إلتزامات ، هذا بالاضافة إلى السلوك المتوقع أو توقعات كل منهما تجاه الأخر أو ما يسمى بتوقعات الدور ، ومن ثم هناك علاقة متبادلة بين كل من الطبيب والمريض تظهر فى موقف الممارسة الطبية ، يمكن من خلالها التنبؤ بسلوك الطبيب وكيفية معاملته للمريض ، وقد توصل " بارسونز " بهذا الصدد إلى أن رعاية المريض هى فى الدرجة الأولى نشاط مهنى متخصص ، وعلى هذا فإن مكانة الطبيب تعتمد على الخبرة الفنية والكفاءة أو المهارة فى ممارسة الطب (١) . كما قدم بارسونز تحليلا وافيا للعلاقة الطبيب بالمريض عن طريق تفحصه لأدوار كل منهما . وأكد على أن دور الطبيب يتسم بالمكانة العالية والضبط والإشراف على المريض . ويرى أن الطبيب قد إستمد قوته وضبطه للمواقف من تلك الخبرة الفنية التى إكتسبها خلال سنوات تعليمه وتدريبه وممارسته لمهنة الطب (٢) .

هذا عن المدخل الأول لدراسة العلاقة بين الطبيب والمريض ، أما عن المدخل الثانى فهو الذى يركز على دراسة الصراع ***Conflict*** الذى يكمن فى تلك العلاقة ويمثل هذا الإتجاه " فريدسون " فى كتابيه :

---

(1) Parsons, T., Op.Cit., PP. 428, 479 .

(2) Stiles, W.B. & Others, Dimensions of Patient and Physician Roles in Medical Screening Interviews, in Social Science and Medicine, Vol. 13 A, N. 3 May, 1979, PP. 335 - 340, 1979, PP. 335 - 340 .

١ ـ مهنة الطب *Profession of Medicine* (١٩٧٠) .

٢ ـ والسيادة أو السيطرة المهنية *Professional Dominance* (١٩٧٠).

وسوف نتناول آراء " فريدسون " بالتحليل والدراسة إجمالا من خلال النقاط التالية "

١ ـ يرى " فريدسون " أن [١] : السب الأساسي في الصراع الذى تتميز به العلاقة بين الطبيب والمريض يرجع في المحل الأول إلى التعرض والتناقض بين وجهات نظر كل منهما . ومن ثم فإن المريض يركز على حالته ويريد الحصول على الشفاء والخروج من حالة المرض بأقصى سرعة ، أما بالنسبة للطبيب فعليه أن يعدل بين الحاجات المتعددة للأعداد الكبيرة من المرضى الذين يشرف عليهم وأن يوازن بين تلك الحاجات ، وأن يوزع وقته وخبرته عليهم بالتساوى و وكل مريض يشرف عليه الطبيب يريد أن يتفرغ له ذلك الطبيب ويناقشه على حدة ، هنا يحدث الصراع حيث لا يستطيع الطبيب أن يرضى كل مرضاه .

٢ ـ يظهر الصراع أيضا فى العلاقة بين الطبيب والمريض ـ على ما يرى فريدسون ـ فى موضوعات خاصة بالتشخيص والعلاج ، وبالرغم من موافقة المرضى على أن الأطباء يتمتعون بخبرة فنية فى مجال الخدمات الطبية ، إلا أنه يحاولون من وقت لآخر تقييم العملية الطبية من وجهة نظرهم ، وهنا يحدث الإختلاف الهائل بين تقييم كل من الطبيب والمريض للحالة ، وهذا راجع إلى الإختلاف فى نوع المعرفة الطبية والتجربة الشخصية لكل منهما مع المرض .

٣ ـ يتمثل الصراع أيضا فى العلاقة بين الطبيب والمريض ـ كما أشار فريدسون ـ كما فى التوقعات المتناقضة (المخالفة) التى يجدها الطبيب فى سلوك المريض ، فالطبيب ينتظر أن يكون المريض مطيعا لنصائحه وإرشاداته ،

---

(1) Morgan , M. Op.Cit., P. 62 .

وأن ينفذ تعليماته الطبية نظرا لتلك المعرفة والتدريب والمهارة التى إكتسبها الطبيب خلال فترة الدراسة ثم الممارسة لمهنة الطب ، إلا أن الطبيب قد يصاب بالإحباط عندما يجد مريضه غير مطيع ـ وغير منفذ ـ لتعليماته هنا ينشأ أيضا الصراع[1] .

ورغم هذا الصراع الذى يميز العلاقة بين الطبيب والمريض ، إلا أنه من المؤكد أن الطبيب يشغل وضعا مسيطرا فى موقع الإستشارة .

وبصدد تعرضنا بالدراسة بالتحليل للعلاقة بين الطبيب والمريض لا ننسى أن نشير إلى دراسة هامة قام بها إثنان من الأطباء لتحليل تلك العلاقة ، وأقصد بها دراسة ساز وهولندر ***Szasz and Hollender*** [2] . وخلصنا من تحليلهما للعلاقة بين الطبيب والمريض إلى أن هناك ثلاثة أنماط من العلاقات نتجت عن التفاعل بينهم وقد أجملا رأيهما فى الجدول الآتى :

(1) Ibid., P. 63 .
(2) Szazs, T., & Hollender, M., " A Contribution to the Philosophy of Medicine : The Basic Models of the Doctor - Patient, Relationship, 1956 , PP. 585 - 592 .

نوع العلاقة الأولية	التشخيص	دور المريض	دور الطبيب	النمط
علاقة والد بطفل	تخدير (خدر) غيبوبة ـ إصابة شديدة ... إلخ	غير قادر علي الاستجابة	يؤدي شيئا ما للمريض	من حيث الإيجابية والسلبية
والد ـ صبي	إصابة بعدوي حادة ، أحد الأمراض .. إلخ	متعاون (مطيع)	يرشد المريض عما يجب عمله	الإرشاد والتعاون
ناضج يناضج	أمراض مزمنة تحليل نفسي ... إلخ	مشارك	يعين المريض علي مساعدة نفسه	المشاركة المتبادلة

ـ الأنماط الثلاثة الرئيسية لعلاقة الطبيب بالمريض من وضع :

Hollender Szazs (١)

يتضح لنا من تحليل هذا الجدول أن النمط الأول عن العلاقة بين الطبيب والمريض من حيث الإيجابية من قبل الطبيب ، والسلبية من قبل المريض ، إنما يعنى أن الطبيب يستطيع أن يساعد المريض ويقدم لها الرعاية الممكنة ، فى حين أن المريض يكون غير قادر على الإستجابة لما يقدم إليه ، ولذا تتم خطوات العلاج له دون أى مساهمة أو مشاركة من المريض ومثل هذه الحالات تلك التى تنتفى فيها إرادة المريض : وهى حالات الغيبوبة والإصابات الشديدة ، أو حالات إجراء

(1) Morgan , M. Op.Cit., P. 61 .

العمليات الجراحية ، ووقوع المرضى تحت تأثير التخدير ، ولذك يشبه " ساز وهولندر " علاقة الطبيب بالمريض فى هذا النمط بعلاقة الوالد بطفله ، الوالد الذى يعلم جيدا ما يجب عليه تجاه كائن سلبى لا يملك من أمر نفسه شيئا ويفتقر إلى ما يحميه ويحفظ حياته .

أما النمط الثانى وهو الإرشاد والتعاون ***Guidance - Cooperation*** يقوم فيه الطبيب بدور المرشد الذى يقدم للمريض نصائحه وتعليماته وإرشاداته عما يجب عمله ، وما على المريض إلا تقبل هذه النصائح وإتباع التعاليم ، وينطبق هذا النمط على حالات الإصابة بعدوى حادة ، والإصابة بأحد الأمراض ، ويكون المريض فى مثل هذه الحالات على وعى كامل بما يقدم إليه إلا أنه يفتقر إلى الخبرة فى مواجهة الموقف ، ونمط العلاقة الأولية التى تظهر بين الطبيب والمريض كعلاقة والد ـ بصبى ، يتقمص الأول دور الموجه والمرشد ويمتثل الثانى لتوجيهات الأول كالإبن تجاه أبيه .

ويطلق على النمط الثالث المشاركة المتبادلة ***Mutual {articipation*** بمعنى مشاركة كل من الطبيب والمريض فى عملية العلاج ، فالطبيب يعين المريض على مساعدة نفسه ، ويتوقف نجاح العلاج على مساعدة المريض لنفسه ، الذى يكون بالفعل مشاركا فعليا لتفهمه تعليمات الطبيب ولأن جانبا كبيرا من التقدم نحو الشفاء يتطلب فعالية من جانب المريض وحسن تقدير للموقف ، ويظهر هذا النمط من العلاقة فى حالات الأمراض المزمنة . وحالات التحليل النفسى .. الخ ، ويتمثل نوع العلاقة الأولية بين الطبيب والمريض علاقة ناضج بناضج ، أو راشد براشد .

وفى الحقيقة فإن هذا الإطار النظرى لأنماط العلاقة بين الطبيب والمريض قد تمثل لنا واضحا من خلال صوره الثلاثة فى حقل الدراسة ، لاحظنا فى المستشفى الرئيسى الصور الثلاثة مجتمعة وتمثل النمط الأول منها فى الحالات التى تتركز فى الإستقبال والطوارئ من جهة وفى حجرة العمليات من جهة ثانية ، تلك الحالات التى يغيب فيها المريض عن الوعى ، بحيث تكون العلاقة من طرف

واحد هو لطبيب أو مجموعة الأطباء الذين يبذلون قصارى جهدهم لإنقاذ المريض ، وأشد ما لاحظناه وضوحا ف مثل هذا النوع من العلاقات المبتسرة أن الطبيب لايتراخى لحظة فى أداء واجبه تجاه مريضه بصرف النظر عن نوعية الإستجابة التى قد يبديها المريض أو أحد أقربائه ، فالمريض سلبى تحت تأثير حادث أو مخدر لايملك قدرة على إبداء أى نوع من التفاعل ، ومن الأمور الطريفة أن الأمر يختلف تقريبا بعد إفاقة المريض الذى يبادر بالسؤال عمن أنقذه أو أجرى له جراحة معينة أبقت له حياته ، ويزداد تعلقه بالطبيب كلما قطع شوطا نحو الشفاء .

أما النمط الثانى للعلاقة فقط لاحظناه واضحا فى قسم الأمراض الصدرية حيث تغلب خاصية الإرشاد من جانب الطبيب وإبداء التعاون والطاعة من جانب المريض ، يدرك المرضى فى هذا القسم عن وعى كامل مدى حاجتهم الملحة إلى مساعدة الطبيب . وقد لاحظنا أن مرضى هذا القسم على تفاوت مستوياتهم الثقافية على وعى كامل بقدرة الطبيب وأهمية إتباع تعليماته لما يلمسونه فى أنفسهم ـ كماصرحوا مرات عديدة ـ أن أى مخالفة لتعليمات الطبيب العلاجية لا تعود عليهم إلا بمزيد من الآلام الحادة ، ومن ثم فإنهم ـ كما لاحظنا ـ يتبارون فى إبداء أقصى درجات التعاون مع الطبيب ، وإن كان الطابع السائد لهذه العلاقة هى أن المبادرة دائما فى يد الطبيب .

وظهر النمط الثالث من هذه العلاقات والذى يقوم على المشاركة المتبادلة فى بعض أقسام الأمراض الباطنية ، متمثلا على وجه الخصوص فى أصحاب الأمراض المزمنة (القلب ـ السكر ـ الروماتيزم) فمعظم مرضى هذه الأقسام يكتسبون معارف ومعلومات حول طبيعة المرض وأعراضه وكيفية مواجهتها ، والسبب فى ذلك هو طول المدة التى يقضونها بالمستشفى بالاضافة إلى إعتماد الأطباء على المرضى ـ فى كثير من الأحيان ـ فى مواجهة الأعراض الأولية للمرض حتى يتم إبلاغ الطبيب قبل تفاقم الحالة ، ومن الملاحظات الجديرة بالإعتبار هى عمق العلاقة بين مرضى هذه الأقسام وأطبائهم فثمة علاقات

إجتماعية قوية ، وتزايد فى عملية الإتصال الإيجابى بين طرفى هذه العلاقة التى تمتد لتشمل المريض وأبناءه ومهنهم وشئون المريض الخاصة ، والباعث وراء ذلك فيما لاحظناه هو محاولة الطبيب مساعدة المريض على حل المشاكل الناتجة عن طول المرض والعمل على تكيفه مع ذلك الوضع ، وثمة بعد آخر لهذه العلاقة العميقة ظهر لنا فى إلمام المرضى أو معظمهم بأسماء الأدوية ومقدار الجرعات وموعدها ممايدل على مشاركته الفعالة فى إتمام العلاج .

أما عن مستشفى الشاطبى فلم نلحظ فيها مثل هذا النمط الأخير للعلاقة بين الطبيب والمريض ، نمط المشاركة المتبادلة ، نظرا لأن معظم الحالات التى تدخل هذا المستشفى هى حالات ولادة ، والمعروف أن الحالات الطبيعية للولادة تمكث من يومين إلى ثلاثة على الأكثر بالمستشفى ، وكما لاحظنا أن أكثر من ٧٥٪ أسرة المستشفى مخصصة للولادة ، فى حين أن النسبة الباقية هى حالة العلاج أو حالات إجراء عمليات وقد تكون حالات إجهاض تجهز للعمليات وحالات نزيف حادة أيضا علاجها العمليات أو حالات العقم التى تأتى للعلاج * وعلى كل حال فإن هؤلاء المريضات لايمكثن بالمستشفى نفس المدة التى يقضيها المريض بالمرض المزمن كما لاحظنا بالمستشفى الرئيسى .

أما النمط الأول من العلاقة (من حيث الإيجابية والسلبية بين الطبيب والمريض) فهو موجود بمستشفى الشاطبى ـ على ما كشفت الدراسة ـ إلا أن حالاته بسيطة لو قورنت بالحالات المترددة على المستشفى الرئيسى ، ويتمثل هذا النمط بمستشفى الشاطبى فى حالات النزيف الحاد التى تؤدى إلى إصابة المريضة بحالة غيبوبة ومن ثم إجراء عملية ، ويتمثل أيضا فى حالات عمليات الإجهاض ، وأيضا حالات الولادة القيصيرية مثل هذه الحالات تكون فيها المريضة

(*) رغم أن العقم يعد من الأمراض المزمنة ويتطلب علاجه أجلا طويلا إلا أنه ضرورة لبقاء المريضة بالمستشفي ، بل أنها تتردد وفي فترات متباعدة علي المستشفي . كما أن حالات العقم ـ فيما لاحظنا ـ حالات نادرة بالقياس إلي حالات الإجهاض والنزيف .

غير قادرة على الاستجابة لما يقدم إليها ومن ثم تتم خطوات العلاج لها دون أن تساهم أو تشارك فى تنفيذ تعليمات الطبيب كما فى حالة الولادة الطبيعية ـ على سبيل المثال ـ والتى تكون فيها المريضة على وعى كامل بما يجرى حولها وتريد أن تساعد الطبيب فى كل ما يأمر به حتى تتم الولادة .

هذا هو نمط العلاقة الذى يوصف بالإرشاد والتعاون ، وهو النمط السائد فى الغالب بمستشفى الشاطبى ، فمعظم النسوة اللاتى يأتين للولادة يكن مطيعات لتعليمات الأطباء ، حيث يلزمهن الأطباء بإتباع بعض التعليمات الطبية مثل : (تناول أقراص معينة ـ السير على الأقدام فى مراحل محددة ـ الإسترخاء على الظهر) ولا تملك السيدة هنا إلا طاعة الطبيب وتنفيذ تعليماته كاملة .

هذا بالاضافة إلى التعليمات التى يصدرها الطبيب أثناء عملية الولادة ذاتها وتشارك فيها السيدة بكل مشاعرها وإحساسها .

وقد تميز مستشفى الشاطبى بنوع خاص من العلاقة بين الطبيب والمريضة التى قد تكون طارئة إلا أنها تتميز بالعمق ، ونقصد بها تلك العلاقة التى تنشأ عقب عملية الولادة مباشرة ، حيث تغطى فرحة الأم على مشاعرها تجاه كل من حولها ، وبخاصة الطبيب ، فتكثر من الثناء عليه ، وتسمى وليدها فى بعض الأحيان بإسم الطبيب الذى أشرف على عمىية الولادة ، ولذا فإن اللوادة الطبيعية تدخل الرضا والسعادة ولفرحة على السيدة وعلى أقاربها ومن يأتى لزيارتها .

وينشأ أيضا نوع من العلاقة بين الطبيب والمريضة وتتسم هذه العلاقة بالعمق وتتمثل فى حالة السيدة الحامل التى تعانى من إرتفاع فى ضغط الدم مثال أو إرتفاع فى نسبة السكر فى الدم ، أو التى تعانى من آلام فى القلب ، ومثل هذه الحالات يتم حجزها بالمستشفى من شهر الحمل السابع أو الثامن وتستمر تحت رعاية الطبيب حتى تتم عملية الولادة ، حيث يكون هناك متابعة دائمة لحالتها من قياس للضغط ، إلى عمل التحاليل اللازمة وإعطائها العلاج المحدد ، ونظرا لطول المدة التى تقضيها المريضة بالمستشفى ، تنشأ بينها وبين الطبيب المعالج علاقة

قوية ، وتظهر درجة التفاعل فى مثل هذه العلاقة واضحة وقوية ، حيث تسأل المريضة الطبيب عن مدى تقدم حالتها ، ويجيبها الطبيب باتباع إرشادات معينة ، وهى تنفذ . هذا جعلنا نرى أن درجة التفاعل فى مثل هذه العلاقة أقوى مما يظهر فى حالة الولادة الطبيعية التى لا تستغرق سوى وقت بسيط إلا أنها توصف بأنها علاقة عميقة كما سبق أن ذكرنا .

وللمعاملة الطبية من جانب الطبيب للمريضة أثر طيب على الحالة الصحية لها وعلى العملية العلاجية ، مثال ذلك : كانت إحدى المريضات وقت إجراء المقابلة تعانى من آلام مبرحة وتتألم بشكل واضح بعد إجراء عملية فى الرحم ، وفى هذه اللحظة مر الطبيب للكشف على حالات العنبر ، ووقف مدة طويلة أمام هذه المريضة وأخذ يحادثها بلطف ويستفسر عما يؤلمها ، وأخذ يهدأ من روعها ، فجأة وجدت المريضة تقول للطبيب أننى شفيت ولا أشعر بأى ألم الآن . هكذا يكون للمعاملةالطيبة الحسنة من جانب الطبيب لمرضاه أثرطيب على نفس المريض ولا يشعر بأنه عب ء على الأطباء .

وعن العلاقة بين الطبيبة والمريضة لاحظنا أنها قوية فى جانب منها ومبتسرة فى جانب آخر ، فالمريضة تحاول أن تتقرب من الطبيبة وتحاول أن تحكى لها تفاصيل مرضها والآلام التى تعانى منها وقد تميل إلى المبالغة فى وصف حالتها ، على ما لاحظت ـ ومن جانب الطبيبة ، تقوم بالتشخيص ومن ثم وصف العلاج . إلا أن المريضة لا ترضخ لحكم الطبيبة فى التشخيص وبداخلها نوع من عدم الإقتناع وتريد أن يصف حالتها الطبيب الموجود بالقسم وليست الطبيبة ، لاحظنا عديدا من الحالات اللائى صرحن بأن الطبيب الرجل لديه الخبرة أكثر فى هذا المجال ، ومن ثم الإطمئنان والثقة فيه أكثر من الطبيبة ـ وبالرغم من أن التخصص نفسه يوافق طبيعة المرأة أكثر .

هذا عن العلاقة بين الطبيب والمريض كما تمثلت فى حقل الدراسة .

ويمكن دراسة علاقة الطبيب بالمريض من خلال منظور آخر يكشف عن

أهمية هذه العلاقة ، وتعدد محولات دراستها من جوانبها المختلفة ، ونعنى به دراسة عملية الإتصال *Communication* بين المريض والطبيب ، حيث تلعب علمية الإتصال دورا قويا وفعالا فى مجال الممارسة الطبية بصفة عامة ، وهناك وجوه عديدة للإتصال أهمها ذلك النوع الذى ينشأ بين الأطباء والمرضى والذى من شأنه أن يؤثر على علمية التشخيص *Diagnosis* والعلاج *Treatment* (١) .

وقد أجريت عدة دراسات لقياس جدوى أو عدم جدوى عملية الإتصال بين الطبيب والمريض وأرجعت معظم هذه الدراسات فشل عملية الإتصال الجيدة ، أن نقل المعلومات بين الطبيب والمريض إلى ثلاثة أسباب رئيسية هى : (٢)

١ ـ الإتجاهات المهنية :

تعزو بعض الدراسات فشل عملية الإتصال بين الطبيب والمريض إلى الإختلاف بينهما فى درجة التعليم ، وقد إنقسم الأطباء بهذا الصدد إلى مجموعتين ، تؤكد الأولى على مركزهم المهنى وتخصصهم المتميز ، بالإضافة إلى وجود الفجوة الكبيرة فى الخبرة بينهم وبين المرضى . مما يكفل لهم ممارسة الضبط فى موقف الإستشارة . بينما ترى المجموعة الثانية أن العلاقة بينهم وبين المرضى هى فى جوهرها متبادلة ، مؤكدين على ذلك الجزء الذى يلعبه المريض فى الممارسة الطبية (الإستشارة) .

٢ ـ مسألة الخلط أو الإلتباس :

ينشأ الإلتباط فى تفسير أو شرح أعراض المرض من جانب المريض ، أو ينشأ الإلتباس عن خطأ فى عملية التشخيص من جانب المريض ، وفى الحالتين يؤدى ذلك إلى فشل العلاقة وضعف الإتصال .

٣ ـ حياء أو خجل المريض :

ثالث الأسباب المؤدية إلى عدم جدوى الإتصال بين الطبيب والمريض ترجع

(1) David Locker, Communication in Medical Practice, in Sociology as Applied to Medicine. PP. 98 - 109 .
(2) Ibid., PP. 99 - 101 .

إلى تلك الإختلافات التى تظهر فى الطبقة والمركز بينهما ، ومن ثم تؤثر مثل هذه الإختلافات فى كمية ونوعية المعلومات التى يصرح بها المرضى للأطباء بخصوص مرضهم، وتؤثر بالتالى على قدرتهم فى الحصول على مثيلتها من الأطباء [١] .

ومن أهم الدراسات التى اجريت فى هذا الشأن دراسة *Cartwright* بالإشتراك مع *O'Brien* (١٩٧٦) [٢] . وقد ركزت هذه الدراسة على الاستشارات الطبية العامة للمرضى كبار السن ، وقد إختارت الدراسة مجموعتين من المرضى تمثل الأولى مرضى الطبقة المتوسطة والثانية مرضى الطبقة العاملة ، وقد أفصحت النتائج عما يلى :

(الاستشارات المرضية للطبقة المتوسطة والطبقة العاملة من سن ٦٥ وما فوق يوضحها الجدول الآتى) [٣]

	الطبقة المتوسطة	الطبقة العاملة
ـ متوسط مدة الاستشارة بالدقيقة	٦,٢	٤,٧
ـ متوسط عدد الأسئلة التي يسألها المريض	٣,٧	٣,٠
ـ متوسط عدد المشكلات التي يناقشها مع الطبيب	٤,١	٢,٨
ـ متوسط عدد الأعراض التي يصرح بها للاستقبال قبل الاستشارة	٢,٢	٣,٠

يتضح لنا من الجدول السابق أن الطبقة المتوسطة إستغرقت وقتا فى الكشف أطول من الطبقة العاملة ، حيث قضت الطبقة الأولى وقتا أطول فى الحديث مع الأطباء ، بالاضافة إلى أن تساؤلاتهم أكثر من مرضى الطبقة العاملة ، ويميلون إلى مناقشة مشكلاتهم بصورة أوضح مع الأطباء عن الآخرين .

(1) Ibid., PP. 101 .
(2) Ibid., PP. 101 - 102 .
(3) Ibid.m P. 102 .

وبالرغم من زيادة شكاوى مرضى الطبقة العاملة إلا أن الوقت الذى يستغرقه الواحد منهم فى الإستشارة أقل من الطبقة المتوسطة ، وهذا يرجع إلى أن مرضى الطبقة العاملة يشعرن بأن هناك مسافة إجتماعية واسعة بينهم وبين الأطباء، ويكتفى هؤلاء المرضى فى العادة بذكر القليل من المشاكل ويتجنبون إضافة أية مشاكل أخرى فى موقف الإستشارة . مخالفة ألا يكون الطبيب غير مستعد لذلك [١] ويرجع الأطباء ذلك الخجل أو الحياء الذى يبدو على المرضى ويظهر واضحا من خلال طريقتهم فى الإجابة على ما يوجه إليهم من أسئلة .

ولقد توصل كل من Cartwright و O'Brien إلى أن الأطباء يشعرون بالرضا من الإستشارة التى لاتزيد عن خمس دقائق ، والتى لاتزيد عن خمس دقائق ، والتى يسأل فيها المريض سؤالا واحدا فقط .

وبالنسبة لهذا البعد النظرى ومدى إنطباقه عى مجال دراستنا ، فقد لاحظنا أن مرضى الطبقة المتوسطة كما أظهرت لنا الدراسة هم المثقفون أو الحاصلون على قدر مناسب من التعليم فى العادة ، ويميل هؤلاء إلى تناول أمراضهم بالدراسة والتحليل مع الأطباء ، ومن ثم تتم مناقشتهم مع الأطباء بخصوص المرض وما يتم صرفه من علاج . ويلعب هؤلاء المرضى دورا واضحا فى عملية تنفيذ مراحل العلاج حيث يكون معظمهم على دراية بأسماء العقاقير التى يكتبها الأطباء فى تذكرة الدواء ومدى فاعليتها إتضح لنا فى أكثر من موقف عدم ترحيب الأطباء لتدخل المرضى فى التشخيص ، فهم يقبلون للمريض دورا محددا يتمثل فى شرح ما يعانيه من أغراض دون تشخيص للمرض أول درجة خطورته ، وقد صرح لنا أكثر م طبيب أن الخبرة والدراية يجب أن تكون محل إحترام من جانب المرضى ، وإن كان هذا لاينفى ناحية ثانية ما سبق أن أكدناه من تعاون المريض والطبيب بصدد الأمراض المزمنة وبخاصة ما يتعلق بإجراءات العلاج .

---

(1) Ibid., P. 99 .

ثالثا ـ العلاقة بين الطبيب والممرضة :

يكتسب البعد العلمي لرسالة التمريض أهمية خاصة في المجتمع المعاصر بعد أن حقق الطب تقدما هائلا عن طريق التطور العلمي ودخول مجالات جديدة على قدر كبير من الدقة والتعقيد بما يتطلب تطوير مهنة التمريض على نفس الأسس العلمية ليكون مواكبا للتقدم الطبي .

وقد إنعكس هذا التقدم على العلاقة بين الطبيب والممرضة ، فبعد أن كان يمثل في الماضي لهذه العلاقة على أنها علاقة السيد بالمسود ، ينظر إليها الان على أنها أكثر قوة وعمقا وصداقة (١) . وبالرغم من قوة هذه العلاقة إلا أن هذا لا يعني أن الممرضة تتمتع بنفس الهيبة والمكانة والإمتيازات التي يتمتع بها الطبيب ، ومن ثم فهي تحتل مكانة أقل شأنا ، بالرغم من حيوية الدور الذي تؤديه في عملية الرعاية الطبية ، والذي إتضح لنا أنه دور مركب ومعقد إلى حد كبير نظرا لأنه يجمع بين العناصر الفنية والعناصر السوسيونفسية في نفس الوقت .

كما لايدفعنا ذلك إلى تصور قيام علاقة ند بند بينهما ، ذلك أن دور كل منهما ـ رغم إشتراكهما في الفريق الطبي المعالج ـ دور متمايز . فدور الطبيب إستشاري وتنفيذي معا ، بينما لا يتعدى دور الممرضة جانب تنفيذ تعليمات وتوجيهات الطبيب . يؤكد ذلك أنه رغم حصول الممرضة على قسط أوفر من التعليم التمريضي ، وتطوير المناهج الدراسية بما يتفق مع التقدم العلمي في هذا المجال ، وزيادة التدريبات العلمية التمريضية التي تحصل عيها فإننا نجد من بين العلماء من يرى أن علاقة الممرضة بالطبيب مازالت علاقة تابعة (٢) . ذلك لأن مهنة الممرضة تنتمي إلى المهن شبه الطبية حسب تعبر " فريدسون " وقد تأكد لنا هذا المفهوم من خلال المقابلات التي أجريناها مع الأطباء من جهة ، ومع الممرضات من جهة أخرى، حيث أكد الأطباء على أن الممرضة تعتبر موظفة تنفيذية ، بمعنى أنها تقوم

(1) Foster, G., Op.Cit., P. 194 .
(2) Freidson, E., Parmedical Personnel, in International Encylopedia of the Social Sciences, Vol. 9, 10, PP 114 - 119 .

بتنفيذ كل ما يوجهه إليها الأطباء من توجيهات أمور خاصة بالمريض مثل : قياس درجات حرارته ، قياس معدلات النبض والضغط والإشراف على غذائه : من حيث النوعية والمقدار ، الإشراف على نظافة المريض ، وأخذ عينات التحاليل إذ لزم الأمر ، وإعداد المريض وتهيئته لتوقيع الكشف الطبى الدورى عليه ، ومن ناحية ثانية أكدت الممرضات والحكيمات على أنهن يلتزمن إلى حد كبير بأوامر الطبيب وتنفيذ برامج العلاج كما يحددها لهن وليس لديهن الحق فى صرف أى عقار للمريض دون إستشارة الطبيب .

يظهر لنا من خلال هذه العلاقة ما يسمى بالتخصص المهنى ، حيث يعمل كل منهما فى مجال تخصصه ولا يشارك الأخر فى تخصصه إلا فى أضيق نطاق وفى حالات الطوارئ .

وإن كنا قد لاحظنا تعاظما فى دور الممرضة يثير إحترام الأطباء فى حالة عملها فى بعض الأقسام المتخصصة مثل : قسم الرعاية المركزية ، وقسم الأطفال المبتسرين كما أشرنا فى موضوع سابق ، بل إن البعض منهن حاصلات على درجات تخصصية عالية مثل درجة الماجستير كل فى تخصصها .

وفى المقابل ــ فإننا قد لاحظنا ــ أن السواد الأعظم من الممرضات يفتقدن ذلك التقدير من جانب الأطباء ، ويتحدد مجال العلاقة عند تنفيذ التوجيهات فقط ، أو خدمة المريض .

رابعا ـ العلاقة بين الممرضة والمريض :

تعتبر العلاقة بين الممرضة والمريض ذات أهمية خاصة ، لما للممرضة من دور حيوى وفعال فى عملية الرعاية الطبية . حيث تقوم بالدور التنفيذى لبرنامج العلاج ، كما يتوقف نجاح تلك العملية على نجاح علاقة الممرضة بالمريض ، فإذا إرتاح المريض للممرضة التى تقوم بالأعمال التمريضية له يصل بسرعة إلى رحلة الشفاء .

كذلك فإن عمل المرضة من الناحية الفنية معقد ، عندما يكون من الضرورى أن تلازم المريض وتستمر بجواره لإعطاء مثلا عقارا عن طريق الوريد قد ينقذ حياته ، فى حين أنها إذا أجلت إعطاء هذا العقار أو إذا لم تكن تعرف مفعوله فقد يؤدى ذلك إلى فقدان المريض لحياته . إذن لابد أن تكون دائما يقظة بجوار المريض فى الحالات الحرجة ، وأن تقوم بعمل اللازم له ، ومن ثم يتوقف على يقظتها ووعيها ـ إلى حد بعيد ـ حياة المرضى أو موتهم فى بعض الأحيان .

وتختلط المرضة بالمرضى أكثر من الأطباء نظرا لأنها تلازمه طول اليوم وتمر عليه أكثر من مرة ، لذا لأنها تصادف كل أنوا ع الإنفعالات البشرية تقريبا ، ومن ثم فإن تمتعها بقدر من المهارات والخبرات فى مجال العلاقات الإنسانية يساعد فى أداء رسالتها ، وهكذا فإننا نجد ان المرضة تستطيع عادة بفضل معرفتها وخبرتها أن تجد الكلمة أو الإيماءة المناسبة التى تدخل الطمأنينة والسكينة على النفس فى أوقات الشدة (١) .

وعلاقة المرضة بالمريض متعددة الوجوه بتعدد أوجه نشاطها ، فهناك ممرضة الرعاية المباشرة للمرضى ، وممرضة العمليات ، وممرضة العيادة الخارجية ، وممرضة الإستقبال ، وممرضة الرعاية المركزة .. الخ ، ويختص عمل كل منهن برعاية المرضى سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، ولهذا يكون لها تأثير كبير على حالة المريض النفسية ، فإذا كانت بشوشة ، رقيقة تستطيع أن تعامل مرضاها برفق ، وتواسيهم فى مرضهم وتناقشهم عن قصة هذا المرض ، وتحاول أن تخفف من آلامهم بابتسامة متطرفة إلى معرفة مسببات المرض الجسمانى والإجتماعى والنفسى ، ومن ثم تحاول أن تقيم علاقة مع مرضاها يتوخاها الإخلاص والتفانى فى العمل .

وقد كشفت لنا الدراسة الميدانية فى المستشفيين عن عدم وجود مثل هذا

---

(١) أديث باتون ، المرضة ، ص ص ٨٦ ، ٨٧ .

العمق فى العلاقة * نظرا لكثرة أعداد المرضى من ناحية ، والعجز الهائل فى أعداد الممرضات من ناحية أخرى ، حيث يضم العنبر الواحد بالمستشفى الرئيسى مثلا وخاصة بالقسم المجانى من ٦إلى ١٠ من المرضى ، ويضم القسم من ٤ إلى ٥ عنابر ويوجد بكل قسم من ٢ إلى ٤ ممرضة ، وعلى هذا يكون نصيب كل ممرضة ١٠ من المرضى أو أكثر تقومب رعايتهم داخل القسم ** . فمن الصعب إذن أن تنشأ بين الممرضة وبين المرضى وعلاقة قوية وطيدة كتلك التى نقصدها ، وفى مستشفى الشاطبى وجدنا أيضا قلة عدد الممرضات بالنسبة لأعداد المريضات حيث تتراوح عدد الأسرة بكل قسم من ٣٠ ـ ٣٥ سرير فى حين أن بالقسم الواحد توجد مشرفة تمريض بالاضافة إلى إثنتين من الحكيمات يساعدانها فى رعاية المرضى ، ونظرا لكثرة أعداد المرضى لاتستطيع الممرضة تلبية كل ما يطلبه منها المريض ، فهناك كثير من المرضى يحتاجون إلى من تناول العلاج ، وتناول الطعام، والبعض الآخر فى حاجة إلى من " يأخذ بيدهم " للوصول إلى دورة المياه ، ويحاول هؤلاء المرضى الإستعانة فى قضاء هذه الحاجات بغيرهم من المرضى الذين يستطيعون الوقوف والمشى ، وفى مستشفى الشاطبى وجدت بعض المريضات اللائى أجرين عمليات ولا يقدرون على الحركة ـ كعمليات الولادة القيصرية وإستئصال الرحم مثلا ـ وقد حاولن الإستعانة بالممرضة دون جدوى ، وقد لبت الباحثة مطالب بعض هؤلاء المرضى وساعدتهم فى تناول غذائهم ، وإحضار العلاج لهم ، ومساعدتهم على قضاد بعض حاجتهن وهن راقدان على الأسرة ، وظهرت مثل هذه المساعدات بشكل أوضح فى الفترة المسائية ، مما يدعونا إلى

(*) باستثناء حالات قليلة عن استعداد شخصي وضعف بالعملية التمريضية في ذاتها ، وتوجد هذه الحالات بأقسام العناية المركزة وقد لاحظنا أن عددا منهن يعملن في المستشفيات أو العيادات الخاصة في غير أوقات العمل ، كما لاحظنا أن بعضهن قد عملن في مستشفيات بعض الدول العربية ـ علي سبيل الإعارة ـ مما وفر لهن خبرة الاحتكاك بنسق تمريضي وطبي متقدم .

(**) المقصود بالقسم هنا هو الجناح داخل القسم التخصصي ، حيث يشتمل قسم الأمراض الباطنة ـ علي سبيل المثال ـ علي عدة أجنحة فرعية ، وهذا ينطبق علي الأقسام الأخري بالمستشفي

القول بأن التمريض الليلى ليس فى قوة التمريض النهارى ، بل أن الممرضات أنفسهن يشتكين من إرهاق وملل العمل الليلى ، وقد يظهر التمريض الليلى فى حالة واحدة فقط فى المستشفى وهى حالة الولادة فى ساعة متأخرة من الليل ، أو وصول حالة عن طريق الإستقبال أيضا جاءت للولادة ، هنا نجد الممرضة داخل حجرة الولادة مع الطبيب ، وتقوم بالتمريض اللازم لمثل هذه الحالات .

ولقد لاحظنا فى بعض الأحيان ـ فى الأقسام الإقتصادية أو المجانية ـ تطورا ينشأ على علاقة الممرضة بالمريض ، من جانب واحد (المريض) ، حين يتعلق بممرضة بعينها ، فيكون دائم السؤال عنها ويتوقع حضورها ، ويفضل تناول العقاقير تحت إشرافها .. ومعظم هذه الحالات تكثر بين أصحاب الأمراض المزمنة من الشيوخ والطبية على وجه الخصوص ، وإن كانت العلاقة السائدة بالمستشفيين بين الممرضة والمريض بصفة عامة ـ وباستثناء الحالات المشار إليها ـ علاقة تتسم بالبساطة ، وسبب ذلك كثرة المرضى بالنسبة لهيئة التمريض بالمستشفى الرئيسى ، وإلى جانب هذا قلة عدد الأيام التى تمكثها المريضة بمستشفى الشاطبى .

خامسا ـ العلاقة بين الممرضة والممرضة :

تمثل علاقة الممرضة بالممرضة احدى اللعاقات التى تنشأ بين أعضاء المهنة الواحدة ، أو التخصص الواحد ، هذه العلاقات التى تتضح فيها مظاهر التعاون والعطاء المتبادل بقدر ما يتضح فيها وبنفس القوة مظاهر للحقد والغيرة والصراع، فقد لاحظنا ما لاحظه قبلنا المتخصصون ـ وجود ميل عام داخل كل جماعة مهنية ـ الأطباء ، هيئة التمريض الفنيين ـ إلى تكوين علاقات إيجابية بناءة قوية بين أفرادها ، إلا أننا لمسنا فى نفس الوقت مظاهر لعلاقات هدامة تنشأ داخل الجماعة الواحدة .

وإذا كنا قد تحدثنا فى أكثر من موضع سابق عن مظاهر للتعاون ، فقد لاحظنا أن العلاقة بين الممرضات لها وجهها غير المشرق أيضا

ذلك بعض المقابلات التى اجرتها الباحثة مع المرضات بالمستشفيين كل عام على حده ، والتى أفصحت فيها بعض المرضات عن ما تضمده تجاه الأخريات ، فقد صرحت بعض المرضات القدامى بالمستشفى الرئيسى أنه يوجد ممرضات أكثر منهن حداثة فى التعيين إلا أنهن حصلن على إمتيازات أكثر منهن وإجتزن درجات أعلى ، وهذا ما دعى احداهن إلى القول بأن ليس هناك أدنى إعتبار للأقدمية ، وقد لاحظت أن شمرفات التمرين حديثى التخرج اللائى على مستوى مرتفع من التفوق يتم تعيينهن بوحدات العناية المركزة تلك الوحدات التى يتطلب العمل فيها نوع من الخبرة والدراية التمريضية التى تقوم على العلم ، وهذا بالتالى يثير الحساسية والحقد لدى المرضات القدامى اللائى يجدن المرضات الصغيرات فى مركز أفضل منهن .

هذا بالإضافة إلى الحساسية التى تنشأ بين رئيسة التمريض والمرضات اللائى يعملن معها عندما توجه إليهن أمرا ، ومما يخفف من هذه الحساسية ومظاهر التوتر التقاء المرضات وإجتماعهن فى رحاب نقابة التمريض أو فروعها ، والتى تعمل على تعضيد وتوثيق الصلات بينهن ، حيث تناقش مشكلاتهن وتحاول قدر الإمكان الوصول إلى حلول لهذه المشكلات ، كما أن إختفاء المجتمع بهن يجعلهن يقبلن على الحياة واثقين من دورهن ولينعكس ذلك بالتالى على العلاقات السائدة بينهن ، ولقد لاحظت أن قطاعا عريضا بين أعضاء هيئة التمريض بالمستشفيين يكون للكلمة الطيبة أو للثناء والتقدير فعل السحر فيهن سواء كانت الكلمة بين ممرضة وزميلة ، أو بين رئيسة التمرين ومرؤوساتها ، نهيك عن إحتفاء المجتمع بهن * .

(*) يحتفل مجتمعنا بيوم المرضة المصرية الذي تنظمه نقابة مهن التمريض ووزارة الصحة ، وهذا دليل علي الاعتراف بأن التمريض يعد رسالة قبل أن يكون مهنة ، ويتميز عن كثير من مجالات الخدمة العامة ، نظرا لأنه عمل تتوافر فيه الأبعاد الإنسانية والأخلاقية والعلمية والوطنية .

سادسا ـ العلاقة بين المريض والمريض :

يظهر داخل بناء المستشفى نمط آخر من العلاقة الثنائية تلك التى تظهر بين المريض والمريض ، وتبدو تلك العلاقة قوية خاصة فى الأقسام التى يعانى فيها أصحاب الأمراض المزمنة والتى يتطلب علاجها وقتا طويلا بالمستشفى ، بالإضافة إلى ميل المرضى أنفسهم إلى تكوين علاقات إجتماعية بين بعضهم البعض ، وقد ظهر هذا واضحا بالأقسام المجانية ببعض أقسام الأمراض الباطنية بالمستشفى الرئيسى ، ووجدنا بعض المرضى الذين يعرفون بعضهم معرفة جيدة ، وتمتد هذه الصلة إلى إقامة علاقة قوية بين المرضى وذويهم ، وفى بعض الحالات وجدنا بعض المرضى قد عقدوا صلات مصاهرة بين أبنائهم وبين مرضى آخرين تعرفوا عليهم من خلال إقامتهم معا بالمستشفى ، وقد وجدنا تماثلا لنفس هذه العلاقة بمستشفى الشاطبى ، حيث يستطيع مرضى " الأقسام المجانية إقامة علاقات قوية مع بعضهن البعض وجدنا بكل قسم سيدة من بين المريضات تقوم على خدمة الآخريات اللائى لا يستطعن الحركة كما فى حالات العمليات ، وقد تمتد هذه العلاقة بينهن بعد خروجهن من المستشفى ، ويتزاورن ، أما فى أقسام العلاج بأجر فقد لاحظنا أن علاقات مريضاته بعضهن البعض يغلب عليها الفتور فى معظم الأحيان وخاصة عندما تقيم المريضة وحدها فى الحجرة أو تقطن معها أخرى فقط .

ـ خاتمة :

عرضنا بذلك لأنماط العلاقات الإجتماعية الهامة التى تمثلت داخل البناء الإجتماعى للمستشفيين موضوع الدراسة ، وبالرغم من أن كلا منهما يبدو كأنه يشتمل على شبكة واسعة ومعقدة من العلاقات الإجتماعية ، إلا أنها لاتخرج فى النهاية عن كونها مجموعة من العلاقات الثنائية الأولية المتغيرة ، تلك التى تظهر بين شخصين داخل هذا البناء الأكبر سواء أكانت علاقة بين طبيبين ، أو بين طبيب ومريض ، طبيب وممرضة ، ممرضة ومريض أو بين المرضى أنفسهم ..الخ ومن

الفصل الخامس
الأنثروبولوجيا ودراسات التنمية الاجتماعية

ـ مقدمة :

إرتبطت الأنثروبولوجيا منذ القرن التاسع عشر بتنمية المجتمعات الإنسانية التى تم دراستها ويرجع ذلك إلى أن دراسة مايعرف فى التاريخ الأنثروبولوجى بالمجتمعات البدائية والتى نفضل تسميتها بالمجتمعات البسيطة أو التقليدية ، حيث كان الهدف الأساسى هو السيطرة على تلك المجتمعات وقد إتخذت التنمية الإجتماعية كأحد الأساليب التى إستخدمتها الحكومات لتحقيق هذا الهدف وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر وفى بداية القرن العشرين

ولكن مع العقود الأولى من القرن الماضى بدأت تظهر الحاجة إلى التعرف على مشاكل المجتمع الحالية وقد لجأت كثير من الحكومات إلى أخذ الرأى والإستعانة بعلماء الأنثروبولوجيا لأنهم أكثر قدرة على تفهم مشكلات المجتمع ووضع الحلول لها .

وبدأ التفكير بطريقة علمية لوضع السياسات العلمية وإتخاذ القرارات الإدارية فى كافة مشكلات الحياة ، وعندما ظهرت الأنثروبولوجيا التطبيقية *Applied Anthropology* كأحد الفروع العامة للأنثروبولوجيا والتى تهدف إلى الإستعانة بالدراسات الأنثروبولوجية النظرية فى ضبط التغير الإجتماعى وتوجيهه فى المجتمعات التقليدية .وتجدر الإشارة إلى وجود فروق بين الأنثروبولوجيا التطبيقية وفروع الأنثروبولوجيا الأخرى أهمها :

١ ـ أن الأنثروبولوجيا التطبيقية تدرس الثقافات المعاصرة حاليا وكذا الشعوب الحالية ودراستها لكيفية مواجهة الجماعات المختلفة للمشكلات

---

* كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور / فاروق أحمد مصطفى أستاذ الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

الإجتماعية.

٢ ـ تهتم الأنثروبولوچيا التطبيقية بالبحوث التى تعالج المشكلات والتى تنبع من حاجات أساسية لدى أعضاء المجتمعات المختلفة .

٣ ـ الأنثروبولوچيا التطبيقية تبحث وتستخدم نفس الأساليب والمناهج العلمية للأنثروبولوچيا إلا أنها تتخطى حدود علم الأنثروبولوچيا وقد تستعين بالعلوم الإنسانية فى حل المشكلات التى تواجه الإنسان .

وقد حددت الأنثروبولوچيا منذ ظهورها مجالات رئيسية من أهمها مجال الإدارة ، ومجال التنمية ، والمجال الطبى ، ويهمنا فى هذا الفصل التركيز على المجال الهام للأنثروبولوچيا التطبيقية وهو مجال التنمية حيث أن تنمية المجتمعات عملية يقصد بها تهيئة عوامل التقدم الإجتماعى والإقتصادى للمجتمع عن طريق مساهمة أفراده وجماعاته وإستغلال إمكانياته وهذه العملية ليست عملية حديثة فى نوعها فمنذ زمن بعيد يتعاون أفراد المجتمعات الإنسانية فى مواجهة إحتياجات مجتمعاتهم ، فكثيرا ما تعاون أبناء القرية الواحدة فى بناء السدود لمواجهة الفيضانات أو حفر الآبار أو الترع والمصارف أو بناء وإنشاء دور العبادة والمدارس. والأمثلة على ذلك كثيرة ومن بلدان شتى فى الهند وباكستان ومصر فالأهالى فى أغلب بقاع العالم يساهمون فى تحديد مشاكلهم وإحتياجاتهم ويعملون متعاونين على تنمية مجتمعاتهم .

وقد شاركت فى دراسات كثيرة للتنمية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تنمية القرية المصرية " قرية أبى صير " بالاشتراك مع وزارة الشئون الإجتماعية ، وكذلك دراسة لتنمية النوبة بعد إقامة مشروع السد العالى والمشكلات التى تواجه التنمية كما قمت بدراسة للتنمية فى المجتمعات الحدودية فى مجتمعات (حلايب ـ أبى رماد ـ شلاتين) ثم أخيرا تنمية مجتمعات شمال سيناء وجنوبها وفى هذا الفصل نعرض لإحدى تجارب ومشروعات التنمية الاجتماعية وهى النوبة والتنمية والتغير .

- الأنثروبولوچيا والتكنولوجيا :

يشير *R.Bernard* ، وبلتو *P.Pelto* فى كتابهما القيم " التكنولوجيا والتغير الإجتماعى : إلى أن البحوث الأنثروبولوچية إلى عهد قريب قد أهملت الإهتمام بالإبتكارات والإختراعات التكنولوجية وتأثيرها على الأنساق الإجتماعية والثقافية نظرا لأن قليل من الدراسات هى التى قد ركزت على تحليل أثر الإختراعات والإبتكارات والتغيرات من خلال الأعمال الحقلية التى تركز على معرفة وإدراك أهمية الجوانب المادية كالطرق ، والسدود ، ووسائل السفر بالطائرات ، والأنماط الجديدة من السيارات ، والنظم الطبية ، وتكنولوجيا الزراعات الحديثة ، والوسائل والأساليب التكنولوجية الأخرى وتأثيرها فى مناطق ومجتمعات لم يسبق دراستها(١) .

وقد يرجع إهمال المعلومات التكنولوجية إلى الإفراط الزائد من قبل الأنثروبولوچيين والإثنولوچيين بالإهتمام بالقيم الإجتماعية ، والأبنية الإجتماعية وكل ماهو متعلق بالجوانب المعنوية أكثر من الإهتمام بالجوانب المادية فى الحياة الاجتماعية والثقافية وهو تحيز مثالى لدى الأنثروبولوچيين على حد تبير مارفن هاريس(٢) .

ومما لاشك فيه أن التكنولوجيا تحدث تغيرات إجتماعية كثيرة أهمها التغيرات الكبيرة وهذه هى المصاحبة لإقامة السدود ، وإنشاء المصانع ، والمدن الجديدة وغيرها وقد يكون للمخططين الحكوميين دور كبير عند تصميم هذه المشروعات والإشراف على تنفيذها ، أما التغيرات التكنولوجية الأخرى فهى تغيرات صغيرة تشمل إحداث تغيرات فى أنماط الإستهلاك المختلفة بإدخال سلع جديدة وإنشاء قنوات تجارية قد لايهتم بها المخططون الحكوميون .

ومن التغيرات التكنولوجية الكبيرة إقامة السدود على الأنهار فى العالم ، وهذه تحدث تغيرات كبيرة على الإنسان الذى يعيش فى منطقة إقامة السدود فنجد أن إقامة سد الكاريبا *Karibe / Dam* فى زامبيا الذى أنشئ على نهر

الزامبيزي) *Z mbezi* فى إقليم (كاريبا جورج) وإضطر مع إنشائه إلى أن يتم نقل ٥٧٠٠٠ نسمة من قبائل الجويمب تونجا *Gwemb Yonga* تاركين أرض الأجداد ليقيموا فى مناطق جديدة مواجهين مجموعة كبيرة من الصعوبات والمشكلات رغم ما أحدثه السد من تغيرات بنائية كثيرة [٣] .

ويمكن أن نستنتج من دراسة السدود أنه يجب أن نهتم ليس فحسب بالجوانب التكنولوجية والفنية لمشروعات تنمية الموارد المائية وبناء السدود بصفة خاصة وإنما يجب أيضا النظر إلى التاثيرات المصاحبة فى البيئة وعلى الشعوب والجماعات الإنسانية التى تبنى هذه السدود من أجل تحقيق الرفاهية لهم ، وهذا يؤكد فكرة النظرة التكاملية عند الأنثروبولوجيين فإنهم يهتمون بكل الجوانب المتعددة فى المشروعات التكنولوجية الضخمة سواء أكانت هندسية أو فنية وبيئية واجتماعية وإقتصادية وإنسانية وغيرها وذلك فى إطار الإحتياجات القومية وخطط التنمية لأن بناء السدود فى الحقيقة يؤدى إلى تغيرات جذرية فى جوانب عديدة من الحياة الإقتصادية والإجتماعية لعدد كبير من الناس على أساس ما تتيحه من طاقة وتخزنه من مياه الشرب والرى مما يؤدى إلى زيادة الإنتاج الزراعى والصناعى .

ويرى حسين فهيم ـ فى دراسته عن السد العالى ـ أن السدود تبنى من أجل تحقيق هدف من أهداف التنمية فى المنطقة ، وهذه الأهداف تتضمن : توليد الطاقة الكهربائية ، وتخزين المياه للرى ، أو للصناعة ، أو للإستخدام الإنسانى اليومى مع العناية بالسيطرة على الفيضانات العالية وضبطها وتنظيم انسياب المياه من أجل الملاحة النهرية ، وفوائد أخرى كثيرة منها إنشاء وإقامة مراكز حضرية جديدة ، وتنمية صناعة الأسماك ، والصناعات الأخرى ، والزراعة حول شواطئ البحيرة وزيادة الدخل القومى من المشروعات السياحية والترويحية وقد تظهر كثير من الفوائد بعد التنفيذ كما قد تظهر أيضا بعض التأثيرات على البيئة وعلى الإنسان وهذا يؤكد فكرة أن السدود تمثل ضرورة أيكولوجية ، وإقتصادية من

أجل خدمة الأهداف الإجتماعية والقومية خاصة فى بلاد العالم الثالث والتى تعتمد إقتصادياتها على إستخدام التكنولوچيا الحديثة (٤) .

ومهما قيل بالنسبة للسد العالى من إيجابيات أو سلبيات فإن أى دراسة تحليلية منصفة تستطيع أن تستنتج الحقائق التالية :

ـ إن السد العالى عمل هندسى رائع يهدف إلى تحقيق إحتياجات ومتطلبات شعب يتزايد عدده باستمرار (حوالى ٥٥ مليون نسمة الآن) .

ـ إن كل السدود لها مشاكلها الخاصة والتى قد يدركها بعض المخططين أو قد يغفلون عن ادراك بعضها الآخر .

إن الدرس المستفاد من السد العالى هو أن السدود تبنى من أجل تحقيق أهداف قومية تحظى بحماس كبير ولكن قد ينقصها التخطيط المتكامل والمتابعة العملية .

ـ لمعالجة شئون السد أجريت ولاتزال تجرى الدولة مجموعة من الدراسات لمواجهة الآثار الجانبية لبناء السد (٥) . (وسنشير فى هذه الدراسة إلى بعض جوانب هذه الجهود) .

إن السد العالى كان ضرورة قومية وإن علاج المشاكل التى صاحبت الإنشاء ونتجت عن إقامته يجب النظر إليها على أنها ضرورة قومية أيضا يجب المشاركة فيها من جانب كل المتخصصين الإجتماعيين الأنثروبولوچيين وغيرهم ، وليست الآثار الجانبية للسد العالى هى الآثار الجانبية الوحية فإن كل السدود الأخرى لها آثارها الجانبية التى تؤثر على الأفراد والجماعات نظرا لتكوين المسطحات المائية الهائلة خلفها فتغمر الأراضى وتجبر سكان هذه الأراضى على الرحيل إلى أماكن أخرى كما حدث بالنسبة للنوبيين فقد تم تهجيرهم إلى منطقة كوم أمبو سنة ١٩٦٤ فى مصر وأما بالنسبة للنوبيين السودانيين فقد تم توطينهم فى منطقة " خشم الجربة " فى شرق السودان .

واعتبرت الحكومة المصرية أن عملية إعادة التوطين للنوبيين مناسبة لتحسين أوضاعهم الإجتماعية وإحداث تغيرات إقتصادية جذرية للمجتمعات النوبية المحلية التى كانت تعانى من العزلة والحرمان من الخدمات التعليمية والصحية .

وقد ظهرت فكرة هذه الدراسة " النوبة ، والتنمية ، والتغير " فى عام ١٩٨٨ فقد تم دعوتى للمشاركة فى الإحتفالات النوبية باليوبيل الفضى لتهجير أبناء النوبة وذلك عن طريق الأندية النوبية بالاسكندرية وعلى وجه الخصوص نادى توشكى الرياضى ، وقد إستمرت هذه الإحتفالات حتى نهاية شهر اغسطس ١٩٨٨ ، وفى هذه الإحتفالات واللقاءات والندوات تم تبادل الآراء حول السد العالى وحول النوبة الجديدة ومستقبل النوبة القديم والتنمية و[illegible]رجت من هذه المقابلات واللقاءات والاجتماعات بقناعة تامة بضرورة القيام بدراسة حقلية تشمل مجتمعى النوبة الجديد ، والقديم بعد التحولات التى أحدثها السد العالى .

- بعض الإعتبارات المنهجية :

يرى الدكتور أحمد أبوزيد أن المدرسة البريطانية فى الأثروبولوجيا البنائية قامت منذ البداية على أساس إجراء الدراسات الحقلية فى المجتمعات التى أصطلح على تسميتها بالمجتمعات البدائية ، وقد وضع الأنثروبولوجيون [illegible]البنائيون لأنفسهم تقاليد وشروطا لاتزال تحكم هذه الدراسات والبحوث الحقلية وتتحكم فيها وتعتبر الآن من أهم العلامات التى تميزها عن غيرها من المدارس وهذه التقاليد والشروط تتعلق بحجم المجتمع موضوع الدراسة اذ لا يتعدى سكانه فى الأغلب بضعة ألوف قليلة والمدة الزمنية التى يجب أن يمضيها الباحث فى ذلك المجتمع مهما صغر حجمه حتى يمكن تنفيذ الدراسات المتعمقة ويحيط بكل جوانب ومظاهر الحياة الإجتماعية وكل الأنساق والنظم التى تؤلف بناء ذلك المجتمع كما تشترط ان يقوم الباحث بنفسه بجمع المعلومات الإثنوجرافية عن طريق معايشة الناس وملاحظة أنشطتهم المختلفة بل والمشاركة فى كثير من هذه الأنشطة حتى يمكـ[illegible] المجتمع من الداخل وعن طريق التجربة الشخصية والممارسة الفعلية .

وقد يمضى الباحث الأنثروبولوچى المتأثر بتعاليم المدرسة البنائية البريطانية سنة واحدة كاملة على الأقل فى مجتمع محلى صغير[٦] .

إلا أنه قد حدث تطور فى المناهج الأنثروبولوچية فى العقود الأخيرة من هذا القرن نظرا لصعوبة وجود باحث أنثروبولوجى واحد يمضى فترات طويلة ينقطع فيها لدراسته الحقلية فى مجتمع واحد صغير ويترك كل أنشطته العلمية الأخرى من تدريس وإشراف وغيرها من أعباء علمية كثيرة ، لذلك ولكى تحافظ الدراسات الأنثروبولوچية على تقليد الإلمام التام بالمجتمع محل الدراسة فقد لجأ الأنثروبولوچيون إلى إحداث تطويرا جديدا هو الإعتماد على فريق البحث الذى يتعاون أعضاؤه معا حتى يستطيع أن يغطى تغطية تامة وكاملة وفعالة كل العلاقات الإجتماعية والنظم والأنساق والقيم والعادات والتقاليد والأعراف الخاصة بالمجتمع محل الدراسة.

ويعمل هذا الفريق تحت قيادة باحث أنثروبولوچى آخر لديه الخبرة الكافية والإلمام التام بمجتمع الدراسة أو الثقافة محل الدراسة ، ويتعاون الفريق فيما بينهم بعد تقسيم العمل وبعد التعرف على دائل العمل المستخدمة والمناهج والأساليب الأنثروبولوچية الأخرى فى جمع المادة الحقلية بعد إقامتهم فترة مناسبة يتم خلالها الإتصال فيما بينهم لمناقشة الصعوبات التى تواجههم أو المشكلات المختلفة والإتفاق على الحلول التى يتم التوصل إليها فى وجود الباحث الأنثروبولوچى الذى يتولى الإشراف على الدراسة .

وقد لاحظ بلتو *Pelto* فى كتابه البحث الأنثروبولوچى *Anthropological Research* أن وجود فريق البحث فى مجتمع واحد أو ثقافة واحدة له أهمية فى التأكد من صحة الملاحظات الحقلية ليس فقط من حيث الكيف وإنما أيضا من حيث الكم كما أنه عن طريق فريق العمل نستطيع أن نصل إلى تعميمات تكون إلى حد ما بعيدة عن التحيزات الشخصية ، كما وأن الفريق فضلا عن تغطيته لكل الوقائع الموجودة فى المجتمع فإنه عن طريق تعاون أعضائه

يستطيعون الإلمام بكل الأفعال الإجتماعية الكبيرة فى فترة زمنية قصيرة (٧) .

ويقوم فريق البحث الجماعى بتقديم التفسيرات المختلفة لبعض الظواهر الثقافية وهذه التفسيرات قد تكون إسهاما منهجيا فى البحث عن العوامل والأسباب التى أدت إلى هذا الإختلاف ويرى أوسكار لويس *Lewis* أن فريق البحث الجماعى يكون مفيدا فى الإسهام وتحقيق الأغراض المنهجية لوجود شخصيات مختلفة ولكل منهم خلفية ثقافية مختلفة عن الآخر كما يختلفون أيضا فى أنساق القيم وفى علاقاتهم الشخصية أثناء العمل الحقلى ، ولأهمية فريق البحث الجماعى إهتمت الأقسام العلمية للأنثروبولوجيا فى جامعات الولايات المتحدة بالتدريب الجماعى (٨) .

وقد قام كثير من علماء الأنثربولوجيا بالاشتراك فى فريق البحث الحقلى ونعطى بعض الأمثلة على ذلك كالدراسة التى أجريت فى الولايات المتحدة عن الإقتصاديات الزراعية وكان فريق البحث يضم فضلا عن الأنثروبولوجيين بعض السوسيولوجيين والسيكولوجيين وقد عمل هؤلاء العلماء تحت إشراف الدكتور كارل تايلور *Carl Tylor* وذلك عند التخطيط للبحث وأثناء مراحل البحث الحقلى كما إستخدمت جامعة هارفارد نمط البحث عن طريق الفريق فى الدراسات التى اجريت عن دراسات مقارنة عن القيم فى خمس ثقافات " وكذلك الدراسة التى أجريت عن النافاهو *Navaho* تحت اشراف وتوجيه كلاكهون *Kluckhohn* وقد اشترك فى هذه الدراسة فريق البحث المكون من عدد من الباحثين يمثلون الفروع المختلفة من التخصصات العلمية (٩) .

وقد قام قسم الأنثروبولوچيا منذ إنشائه بمجموعة كبيرة من الدراسات الحقلية فى المجتمعات المحلية المصرية بالتعاون مع بعض الهيئات العلمية المصرية والأجنبية وقد إعتمد على الفرق البحثية الحقلية المدربة حيث يتكون الفريق من باحث مسئول يساعده بعض الباحثين الحقليين المدربين ، ويقيم الفريق فى مجتمع الدراسة فترة مناسبة يتم خلالها جمع المادة الحقلية ونشير هنا إلى بعض هذه

الدراسات التى تمت مع الجهاز الإقليمى لتخطيط أسوان ، وإلى دراسة إعادة بناء الإنسان المصرى حيث كانت تنتشر الفرق البحثية فى كل المجتمعات المحلية للمجتمع المصرى وغيرها فضلا عن دراسة العمل اليدوى الذى تم بواسطة فرق البحث الحقلى التى إنضم إليها بعض السوسيولوجيين والتخصصات الأخرى .

وهذا يؤكد أنه بالرغم من التقاليد الأنثروبولوجية الراسخة فقد إستطاع قسم الأنثروبولوچيا أن يطورها ويستخدم نمط فرق العمل البحثية حتى يستطيع أن يختصر فترة الإقامة الطويلة فى المجتمع الصغير والذى كان يحتاج إلى أن يقيم فيه باحث واحد لمدة عام أو يزيد ، فقد كان يقوم بالعمل فريق الباحثين الأنثروبولوچيين المكون من أربعة باحثين بدراسة هذا المجتمع لمدة ثلاثة شهور وكلما زاد عدد أعضاء الفريق وتضافرت جهودهم أمكن إختصار هذه الفترة مع توفير العدد المدرب من الباحثين .

وهذا النمط من الدراسة الحقلية تم عند دراستنا عن " النوبة والتنمية والتغير " فقد اخترنا موضوعا واحدا لمجتمع واحد صغير نسبيا لايزيد عدد سكانه عن ٧٤٠٠٠ نسمة وذلك حسب الإحصاءات الرسمية التى قدمت من مركز مدينة نصر فى النوبة الجديدة (١٠) .

- خطة البحث وإجراءاته :

فى ضوء مجموعة اللقاءات والمقابلات مع القيادة الرسمية النوبية التى وفدت إلى الإسكندرية خلال شهر اغسطس ١٩٨٨ لحضور الإحتفالات واللقاءات التى أقامتها الأندية النوبية بمناسبة مرور ربع قرن على التهجير وبالرغم من المعرفة الوثيقة لى بمجتمع النوب الجديدة إلا إننى قمت بزيارة إستطاعية خلال شهر اكتوبر ١٩٨٨ عن الجوانب الإجتماعية والعناصر الثقافية الأخرى المتعلقة بالحياة اليومية والإستفادة من خبرة فريق الباحثين الحقليين المقيمين بالفعل فى النوبة منذ أوائل شهر يناير ١٩٨٩ لوضع الترتيبات الخاصة بالدراسة الحقلية وللوقوف على أهم المشروعات التنموية التى تمت فى قرى النوبة الجديدة فزرت مركز مدينة نصر

النوبة وبعض القرى النوبية القريبة ، وفي ضوء هذه الدراسة الاستطلاعية تم وضع دليل عمل وتدريب الفريق على هذا الدليل وعلى المقابلات المختلفة كما تضمن تدريب فريق البحث على شرح الخصائص السيكولوجية والإجتماعية والثقافية لمجتمع الدراسة والتعريف بأهم السمات المميزة للنوبة وكيفية تحقيق أهداف المقابلة العملية والحصول على المعلومات والتأكد من صحتها وإعطاء أكبر قدر من الدقة العلمية (١١) . مع مراعاة إستخدام المناهج والأساليب الأنثروبولوجية الأخرى كالملاحظة والملاحظة بالمشاركة وغيرها ، وعندما تكونت لدى فريق البحث فكرة واضحة عن النوبة الجديدة " المجتمع محل الدراسة " وبعد الإختيار الجيد لفريق الباحثين المدربين تدريبا أنثروبولوجيا تحت إشرافي في القسم والذين سيتولون القيام بجمع المادة الحقلية تم إختيار الفريق من المعيدين والمدرسين المساعدين وطلاب المنح والدراسات العليا والباحثين .

وقد وصل الفريق أول يناير ١٩٨٩! وقد انضم الى هذا الفريق في النصف الثاني من شهر يناير ١٩٨٩ طلاب السنة الرابعة بالقسم تحت إشراف كل من الدكتورة لبيبة محمد مرسي والدكتور مصطفى عوض لتدريبهم على الدراسة الحقلية في المجتمعات وكان عددهم أربعين طالبا وطالبة وإنحصرت مهمتهم في التدريب على الدراسة الحقلية في المجتمعات وكان عددهم أربعين طالبا وطالبة وإنحصرت مهمتهم في التدريب على جمع المعلومات وكان كل إهتمام أعضاء الفريق منصبا على جمع المعلومات عن التنمية ومشروعاتها ومدى المشاركة فيها والمعوقات المجتمعية التي تواجه النوبيين أنفسهم مع التركيز بصفة خاصة على النظرة المستقلية لدى النوبيين في العودة إلى النوبة القديمة .

وكان الفريق يقوم بجمع المادة تحت إشرافي المباشر كما كنت أقوم بنفسي بجمع المادة المتعلقة بالتنمية والتغير ولم أكتف بمجرد التوجيه والإرشاد والمراجعة اليومية للمادة التي جمعت والتي كانت تأخذ فترة من الليل سواء في عملية التسجيل بالنسبة لي وللباحثين والحقليين أو المراجعة اليومية لي لكل ما سجله

الباحثون من معلومات .

وبعد عودة الفريق إلى الإسكندرية فى نهاية شهر يناير ١٩٨٩ تم مراجعة المادة العلمية التى رجع بها الفريق بحثا عن أى فجوات تكون قد ظهرت حتى يمكن إستكمالها فى المرحلة التالية .

وضعت خطة المرحلة التالية من الدراسة على أساس التركيز على دراسة النوبة القديمة (أبو سمبل) والوقوف على المشروعات الجديدة وقام الفريق فور وصوله يوم ١٩٨٩/٢/١٨ وإقامته فى أبى سمبل فى النوبة القديمة حيث أقاموا فى ضيافة النوبيين الذين عادوا إلى النوبة القديمة ، وزار الفريق هذه القرى وتمت عدة مقابلات مع النوبيين أنفسهم فى القرى التى أنشئت حديثا على ضفاف بحيرة السد العالى ، كما تمت عدة مقابلات مع المسئولين بهيئة تنمية بحيرة السد العالى بمعرفتى وبعض أعضاء الفريق .

وإستمرت الدراسة فى منطقة النوبة القديمة حتى يوم ١٩٨٩/٢/٢٤ قمت بعدها والفريق بالتوجه إلى مركز مدينة نصر النوبة لدراسة المعلومات الناقصة فى المرحلة السابقة وإستكمال دراسة الفريق فى منطقة قرى الكنوز والقرى الجنوبية وقد إستمرت إقامة الفريق فى النوبة الجديدة خلال هذه المرحلة حتى ١٩٨٩/٣/٢ . وبدأ الفريق فى العودة مرة أخرى إلى الإسكندرية .

ونظرا لحجم المادة الحقلية وكثافتها فقد تم الإستعانة بباحثين من القسم فى تفريغ المادة التى جمعت فى ضوء المعلومات الأساسية لدليل العمل سواء أكانت هذه المعلومات ملاحظات ميدانية أو المقابلات المسجلة بطريقة تقليدية أو المقابلات التى سجلت على شرائط وإستمرا فى العمل ما يزيد عن شهرين .

وقد إهتمت الدراسة الحالية " النوبة والتنمية والتغير " بنقطة مركزية أساسية ركزت على معالجتها وهى أن التنمية تحدث تغيرا إجتماعيا وثقافيا يمتد أثره إلى القيم الراسخة التى يظن خطأ بأنها جامدة وغير قابلة للتغير

فالسد العالى كمشروع تنموى ضخم صاحبته مشروعات تنموية أخرى أحثت تغيرا إجتماعيا جذريا فى مصر لكها ولابد أنه قد أحدثت مشروعات التنمية فى النوبة الجديدة (مركز مدينة نصر وقراه) والمشروعات التى تقوم بها هيئة تنمية بحيرة السد العالى والمشروعات التى يقيمها المواطنون أنفسهم لابد وأنها أحدثت وتحدث تغيرات إجتماعية وثقافية على النوبيين أنفسهم باعتبارهم جماعات عرقية لها مميزاتها الخاصة والتى توضحها هذه الدراسة ، ووجهة نظرهم فيما يحدث من تغيرات إجتماعية وثقافية ومدى مشاركتهم فيها .

وهذا ما توضحه دراسة " النوبة والتنمية والتغير " .

- الدراسات السابقة :

مما يجدر الإشارة إليه أن هناك دراسات إجتماعية وأنثروبولوجية كثيرة قد تمت على مجتمع النوبة الجديدة وقد يكون من الصعب فى هذه الدراسة حصرها كلها وإنما نشير إلى بعضها بإيجاز شديد باعتبارها أمثلة ونماذج لما تم من دراسات سابقة وهى :

- الدراسة التى قام بها مركز البحوث الإجتماعية بالجامعة الأمريكية بمساهمة مالية من مؤسسة فورد لمجموعة من الوثائق عن الثقافة النوبية المعاصرة وتنظيمها الإجتماعى وقد عرف المشروع باسم المسح الإثنوجرافى للنوبة عام ١٩٦١ والذى تم فى عام ١٩٦٥ .

- الدراسات التى قامت بها وزارة الشئون الإجتماعية عن النوبة القديمة والحديثة ولكن نتائج هذه الدراسة ظهرت فى شكل تقارير رسمية تنقصها الدقة العلمية .

- الدراسات التى أقامها المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية والتى لم تطبع أو تنشر أو حتى تكتب فى صورتها الأخيرة .

- الدراسة القيمة التى قام بها الدكتور / السيد حامد لمجتمع النوبة

الجديدة والتى نشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب فى عام ١٩٧٣ وعنوانها النوبة الجديدة دراسة فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية " وهذه الدراسة سدت نقصا فى المكتبة العربية بالاضافة إلى أهميتها العلمية والمنهجية على السواء .

ـ قام قسم الأنثروبولوجيا منذ إنشائه فى عام ١٩٧٤ / ١٩٧٥ بالإهتمام بالمجتمعات النائية ومنها مجتمع النوبة وقام طلاب الدراسات العليا بعدة دراسات عن النوبة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر دراسة الدكتور محمد عباس عن الثقافات الفرعية وقد إهتمت الدراسة بالنوبيين المهاجرين والمقيمين بالاسكندرية والإهتمام بثقافاتهم .

كما قام القسم بدراسة مشتركة مع مشروع التخطيط الإقليمى بمحافظة أسوان عن النوبة لم تنشر بعد .

ـ دراسة الدكتور حسين فهيم عن السدود والناس والتنمية باللغة الإنجليزية والذى تناول فيها النوبة القديمة فضلا عن مقالاته المختلفة عن النوبيين

Fahim, H.M. Dams, People and Development The Aswan High Dam Case, Berjamon Press New York 1981 .

ـ الدراسة التى قام بها د. محمد الجوهرى مصطحبا فريق من الباحثين والمشرفين و ٢٠ طالبا وطالبة من كلية الآداب جامعة القاهرة والتى تناولت بعض مظاهر التغير فى مجتمع غرب أسوان دراسة أنثروبولوجية لأحد المجتمعات النوبية والتى نشرتها جامعة القاهرة عام ١٩٧٥ .

ـ دراسة بيتر جيزر *P.Geiser* وعنوانها : " النوبى المصرى دراسة فى " التكافل الإجتماعى " باللغة الإنجليزية ونشرتها مطبعة الجامعة الأمريكية بمصر سنة ١٩٨٦ .

Geiser P. The Egyptian Nubian, A Study in Social Symbiosis, The American Un. in Cairo Press 1986 .

فضلا عن دراسات أخرى باللغة الإنجليزية .

وإذا كنت قد أشرت فى عجالة إلى بعض الدراسات عن النوبة الجديدة والنوبة القديمة فلم يكن الهدف هو الحصر الشامل لهذه الدراسة أو التعليق عليها الأمر الذى لايتسع له مقام هذه الدراسة وإنما كان الهدف فقط هو مجرد إلقاء الضوء على بعض هذه الدراسات .

وتشتمل الدراسة الحالية فضلا عن المقدمة التى أوضحت بعض الإعتبارات المنهجية الأجزاء التالية :

١ ـ مجتمع الدراسة بين العلاقات العرقية ومشاعر الأقلية .
٢ ـ النوبة والتنمية .
٣ ـ الجهد الحكومى فى تنمية بحيرة السد العالى (النوبة القديمة) .
٤ ـ إشارة إلى الجهود الفردية النوبية لتنمية النوبة القديمة .
٥ ـ النوبة والتغير .
٦ ـ الخاتمة وإشتملت على أهم نتائج الدراسة الحقلية وبعض التوصيات .
٧ ـ ثبت بمراجع الدراسة والهوامش .

ـ مجتمع الدراسة بين العلاقات العرقية ومشاعر الأقلية :

إمتدت منطقة النوبة تاريخيا إلى الجنوب من مدينة أسوان ولمسافة تبلغ حوالى ٣٢٠ كيلو مترا حتى الحدود المصرية السودانية [١٢] . وتقع منطقة النوبة أو " نوب " أو " نوبو" القديمة أو " أرض الذهب " كما كان يسميها القدماء [١٣] شمال خط عرض ٢٢ شمالا .

ومنطقة النوبة جزء من الصحراء الكبرى تلاصق الأجزاء المأهولة منها نهر النيل قبل التهجير وتحدها شرقا وغربا الصحراء بمرتفعاتها الصخرية التى يتخللها بعض المناطق الرملية والحجرية المتموجة . والنوبة القديمة تبعا لموقعها وطبيعتها منطقة جبلية جرداء ليس بها طرق برية صالحة للإنتقال ، وقد تسبب ذلك فى عزلة النوبة القديمة النسبية حيث توزع السكان على ٦٠٠ نجع على مسافة

طولها ٣٢٠ كم تقريبا (١٤) .

وكانت النوبة القديمة تضم ٣٨ قرية وكل قرية تحتوى على مجموعة من النجوع وقد تباعدت المسافات بين هذه القرى ونجوعها وإنقسمت القرى السابقة إلى ثلاثة جماعات عرقية هى الكنوز فى الشمال ، والعرب فى الوسط ، والنوبيين فى الجنوب .

ونجد قرى الكنوز تشمل دابود ، دهميت ، الأمبركاب ، كلابشة ، أبو هرر ، مرواو ، ماريا ، جرف حسين ، قرشة ، كشتمنة غرب ، كشتمنة شرق ، الدكة ، قورتة ، العلاقى ، السيالة ، المحرقة ، المضيق وعددها سبعة عشر قرية .

أما قرى العرب فشملت السبوع ، وادى العرب ، شاترمة ، السنقارى ، المالكى وعددها خمسة قرى ، أما قرى النوبة (الفاديجا) فقد اشتملت على كروسكو ، والريقة ، الديوان ، الدورونقالة ، توماس وعافية ، قتة ، ابريم والجزيرة والشباك ، عنيبة ، مصمص ، توشكى غرب ، تشوكى شرق ، ارمنا ، أبو سنبل ، قسطل ، بلانة ، ادندان وعددها سبعة عشر قرية (١٥) .

وقد إختار النوبيون عند التهجير فى عام ١٩٦٣ منطقة أراضى الإستصلاح الزراعى الجديدة بمنطقة كوم امبو فى محافظة أسوان ، وتقع على بعد حوالى ٥٠ كيلو مترا إلى الشمال من مدينة أسوان وتمتد على طول المنطقة شمال وشرق مدينة كوم أمبو ويتخللها طريق ممهد للمواصلات يربط جميع القرى النوبية بعضها ببعض وبمدينة أسوان وكوم امبو ، وطريق آخر من مدينة نصر النوبة ومدينة كوم امبو ، وذلك على عكس ماكانت عليه النوبة القديمة فلم يكن هناك إلا النيل كطريق للمواصفات وكانت حالة الملاحة ترتبط إرتباطا وثيقا بنظام وفترات الخزين بسد أسوان وكانت تتوقف تماما لمدة شهر ونصف إبتداء من منتصف شهر يونيو إلى أوائل شهر أغسطس ولم تكن هناك إلا فترة خمسة شهور تصلح فيها الملاحة وتبدأ من شهر ديسمبر وفيما عدا ذلك فالملاحة صالحة فى وسط النهر مع صعوبة الوصول إلى الشاطئ ، وهذا يؤكد فكرة عزلة القرى عن بعضها نظرا لصعوبة

الإنتقال بين القرى التى كانت ممتدة على طول ضـتفى النيل شمـالا وجنوبا وقد كانت وسيلة الإنتقال الوحيدة بين القرى والنجوع القريبة الدواب (١٦) .

وفى النوبة الجديدة يقيم الكنوز فى القسم الشمـالى من المنطقة ويشمل ١٧ قرية ، ويقيم العرب فى القسم الأوسط ويشمل ٥ قرى ، ويقيم النوبيين فى القسم الجنوبى ويضم ١٨ قرية فـالإقليم النوبى ينقسم إلى ثلاث مناطق وفقـا للتـقسـيم الأصلى فى النوبة القديمة تتوسط مدينة نصر العاصمة الجديدة التى تضم ست قرى هى : كروسكو والريقة وأبوحنضل والدر والديوان وقتة ، ولم تكن نصر موجودة فى النوبة الأصلية حيث كانت عنيبة هى العاصمة وتحمل القرى أسمـاء نظائرها نفسها فى النوبة الأصلية وقد بلغ عدد القرى فى النوبة الجديدة ٤٣ قرية .

ويتكلم الكنوز اللغة الماتوكية ، أما النوبيون فيتكلمون اللغة النوبية وتسمى " الفيديكية" والقليل من الكنوز ومن النوبيين يعرف لغة الأخر وتسمى اللغتان" الرطان " وتنتميـان إلى اللغة النوبيـة القديمة ولا يعرف العرب اللغتين حيث يتكلمـون اللغة العربية .

ومصطلح النوبة *Nouba* يطلق أيضـا علـى السكان الزنوج الذين يقطنون الجزء الجنوبى الشرقى من كردفان الحالية (١٧) .

وعلى الرغم مما يبديه النوبيون المقيمون بالنوبة الجديدة من إعتراضهم على المساكن التى أنشئت عند التهجير وكذلك الأراضى الزراعية إلا أننا نجدهم راضين كل الرضـا عن الخـدمـات الكثـيـرة التى تقـام فى المجـتـمع المحلى وذلك نظرا لضخامتها ولنوعيتها المتميزة عن ذى قبل .

ففي مجال الاتصـالات والنقل نجد خدمات البريد ، والتلغراف ، والتليفون التي تربط القري النوبية بعضـها ببعض فضـلا عن ربط النوبة الجديدة كلها بمصر ودول الخـارج أمـا بـالنسـبـة للنقل فنجـد الطرق المعـبـدة وخـدمـات النقل العـام (الأتوبيس) المنظمة فضلا عن خطوط السكك الحديدية .

أما فى مجال خدمات التموين والأسواق فلم تكن موجودة فى النوبة القديمة وقد أقيمت فى النوبة الجديدة كثير من الأسواق الكبيرة فى المدن لتمد النوبيين بكل ما يحتاجون إليه وكذلك المجمعات الإستهلاكية والمخابز الآلية حيث كان النوبيون يعتمدون من قبل على خبز الخبز التقليدى فى بيوت النوبة القديمة . فضلا عن مد القرى النوبية بالمياه النقية عن طريق مايزيد عن ٢٠٠ صنبور ، وأصبحت الكهرباء متوفرة وتضئ الطرق فى المدن والقرى والمصالح الحكومية كما تم توصيلها إلى كثير من المنازل فى القرى .

وبالنسبة للخدمات الأمنية فقد توفرت خدمة فى مدينة نصر فأنشئ مركز للشرطة وأربعة مراكز أخرى لخدمة القرى النوبية ، وفى مجال التعليم توجد مدارس فى مثل المستويات المختلفة الموجودة فى المدن الرئيسية والكبيرة فى مصر ولكنها تتميز بالأداء الطيب ، ويحرص النوبيون على إقامة المدارس المختلفة بجهودهم الذاتية وعن طريق التبرعات التى تجمع من المهاجرين .

كما توفرت فى النوبة الجديدة مجموعة من الخدمات الإجتماعية والصحية التى تمثلت فى المراكز الإجتماعية والأندية الشبابية ومراكز التنمية الإجتماعية ، وهذه الوحدات الإجتماعية لاتقوم بحسب بالأنشطة الإجتماعية وإنما لها دور نشط فى تقوية الروابط الإجتماعية بين النوبيين داخل القرى المختلفة وبين النوبيين المهاجرين إلى مدن مصر وإلى خارجها .

وإذا كانت النوبة القديمة تفتقر إلى الخدمات الصحية حيث كانت توجد وحدة صحية للخدمات الصحية السريعة ومركزطبى ومستشفى لعلاج البلهارسيا دون وجود الأطباء المتخصصين والمرضين . فإن الخدمات الصحية فى النوبة الجديدة شهدت تطورا ملحوظا حيث أنشئت عشرة وحدات صحية صغيرة وأربعة وحدات صحية كبيرة تقوم بالعلاج وإجراء المهام الأخرى التى تؤديها المستشفيات وفى مركز نصر نجد المستشفى العام (٢٠٠ سرير) وكلها خدمات صحية مجانية، كما تقوم العيادات الصغيرة تقديم الخدمات الصحية للأسر وتستفيد المرأة النوبية

من الخدمات الطبية المقدمة فى هذه العيادات إلا أنها ترفض خدمات تنظيم الأسرة لأنها تهتم بزيادة النسل [١٨] .

- الجماعات العرقية : *Ethnic Groups*

تعد الجماعات العرقية تصنيفا محدودا إجتماعيا وسط مجموع السكان وهى تختلف ثقافيا عن المجتمع الكبير نظرا لأن أعضاء الجماعة العرقية يظنون ويشعرون بأنهم مرتبطون مع بعضهم البعض بروابط عامة من السلالة القومية أو الثقافة . وتعد علاقة الجماعات العرقية بالمجتمع الكبير ومع الجماعات الإجتماعية الأخرى واحدة من المشكلات الرئيسية عند وصف الجماعات العرقية وتحليلها .

وعلى حد قول روث بندكت عند حديثها عن الصراع السلالى إننا فى حاجة إلى فهم أسباب الصراع وليست السلالة نفسها وذلك حتى نستطيع فهم الجماعات العرقية ودورها فى البناء الإجتماعى لأنه ليست الإختلافات الثقافية أو العرقية التى تحتاج إلى التركيز عليها وفهمها عند الدراسة وإنما العلاقات الإجتماعية لهذه الجماعة [١٩] .

ويرى موريس *H.S.Morris* أن الجماعة العرقية يمكن النظر إليها على أنها طبقة إجتماعية لأن الثقافات الفرعية أساس التقسيم الطبقى نظرا لأن أعضاء الجماعة العرقية والطبقة تتميز بما يلى :

- قوة إنتماء الأفراد إلى الطبقة أو الجماعة العرقية بمعنى أن كل واحد منهم يشارك فى بعض الإلتزامات الخاصة بهذه الجماعة والتى تختلف عن الطبقات الأخرى .

- تتصف الطبقة بالشمول بحيث ينضم إليها كل أعضائها فى المجتمع وكذلك الجماعة العرقية .

- يجب أن يكون فى الطبقة نظام للتمايز الإجتماعى وللمكانات الإجتماعية وللدرجات الإجتماعية وقد نجد ذلك فى بعض الجماعات العرقية .

إذن يمكن النظر إلى الجماعة العرقية بإعتبارها طبقة إجتماعية فهى تجمع من الناس وهم يختلفون عن الناس الذين ينتمون إلى طبقات أخرى [٢٠] .

وعند دراسة الجماعات العرقية يجب الإهتمام أيضا بالمتطلبات الإقتصادية والسياسية والدينية لهذه الجماعات وهذه نتيجة طبيعية نظرا للإهتمام بالإتجاه البنائى عند دراسة الجماعة وأيضا نظرا للأدوار الخاصة التى تقوم بها الجماعات العرقية ، فقد إهتم الأوروبيون بدراسة الهنود عندما حكموا افريقيا بإعتبارهم جماعات عرقية غير الجماعات الإفريقية والجماعات العربية نظرا للإختلافات والتباين العرقى والثقافى ، وقد حدث ـ رغم تعاليم الإسلام ـ الصراع بين الجماعات العرقية والجماعات الوطنية وتهدف هذه الصراعات غالبا إلى السعى لدى إتحاد هذه الجماعات وتؤكد استمرار ترابطها [٢١] .

وقد تسيطر على الجماعات العرقية فكرة الإعتداد بالجنس *Ethnocentrism* فتبالغ الجماعة العرقية فى تقدير مكانتها داخل المجتمع وذلك مع الحط من شأن النظم السائدة فى المجتمعات ، فالإعتداد بالجنس هو الإعجاب بمظاهر الحياة الإجتماعية أو الثقافة السائدة عند الشعب الذى تنتمى إليه هذه الجماعات العرقية والإشادة بتلك الثقافة بشكل مبالغ فيه مما يؤدى فى الغالب إلى الحط من ثقافة السلالات الأخرى [٢٢] .

ومما يجدر الإشارة إليه ضرورة التمييز بإيجاز بين الجماعة القومية والجماعة الثقافية ، والجماعة السلالية ، فالجماعة القومية تشير إلى مجموعة من الناس يعيشون فى منطقة جغرافية محددة ويخضعون لحكومة مشتركة كل فرد فيها يحتفظ بحق المواطنة *Citizenship* وأن الأفراد فى ظل الجماعة القومية يظلهم لواء سلطة حكومية ، وبمعنى آخر فإن الجماعة القومية تتميز بالعضوية السياسية وليس بمعيار آخر ولذا نجد فى نطاق مثل هذه الجماعة أنماط فيزيقية متعددة ، أما الجماعة الثقافية فإنها تتميز بالمشابهة فى طرق التفكير وعلى نطاق ما أو أكثر من نطاقات الحياة الأساسية ، فإذا استخدمنا ما أسماه *Wissler*

بالنمط الثقافى العام *Universal Cultural Pattern* فإن الجماعة الثقافية تتميز بالمتشابهات فى واحد أو أكثر من الميادين الأساسية فى الحياة كاللغة والحياة الأسرية والمعرفة العلمية والسمات المادية والميثولوچيا والحكومة والملكية ، وإن إعتبار الفرد نفسه عضوا فى جماعة ثقافية يعتمد على الدرجة التى يكتسب فيها السمات الثقافية المشاعة لدى أعضاء جماعته ، ومن هنا فإن الجماعة الثقافية قد تشتمل على أعضاء ينتمون فى الأصل إلى جماعات سلالية أو قومية مختلفة ، أما الجماعة السلالية فهى تشير إلى جماعة من الناس يمتلكون فى غالبيتهم ملامح فيزيقية ، أو هى جماعة من الناس لهم ملامح فيزيقية متوارثة مثل لون الجلد ، شكل الرأس ، ملامح الوجه ، إرتفاع القامة .. الخ حيث المشابهة يمكن ملاحظتها بين أفراد الجماعة الواحدة والتى تميزهم عما عداهم من أفراد الجماعات السلالية الأخرى .

ويمكن أن ينطبق مفهوم السلالة على الجماعة العرقية والتى تتكون من أشخاص يرتبطون معا بملامح وخصائص ثقافية وفيزيقية تحدد لهم مراكز أو وصف مختلف عن الجماعة الغالبة التى تعيش فى نطاقها الجماعة العرقية .

وباختصار فإن للجماعة العرقية بناءها ، وإن ثمة عوامل مشتركة كالأصل الواحد أو السلالة الواحدة أو الثقافة المشتركة وكذلك لدين أو اللغة تحدد الإطار الثقافى وطريقة التفاعل ومظاهر التأقلم للعمليات الإجتماعية ، وجميعها تؤثر تأثيرا بالغا فى السلوك وتجعل الجماعة العرقية لها حدودها الإجتماعية . وهذا يساعدها على أداء وظيفتها كوحدة فى تعاملها مع الغرباء أو أولئك الذين ينتمون إلى جماعات أخرى [٢٣] .

ونجد أن الملامح الأساسية للجماعات العرقية يمكن أن تنطبق على النوبيين فهم ينتمون إلى ثلاث سلالات بشرية هى (الكنوز ، العرب ، النوبيين (الناويجا) رغم أن السكان جميعا يطلق عليهم مصطلح النوبيين ، ووجود التشابه الكبير فى الملامح الخاصة بالوجه رغم إختلاف درجة " دكانة " لون البشرة ، ونجدهم

يحافظون على القيم والعادات والتقاليد الخاصة بهم ويعتزون بتراثهم المتوارث .

- جماعات الأقلية : *Minority groups*

يرى ينجر *J.M Yinge* أن ظهور الأقليات *Minorities* يرجع إلى خمسة آلاف سنة نتيجة ظهور إقتصاديات الزراعة ووجود وفرة الغذاء التى سمحت بعد ذلك بنمو المدن والتخصص والتجارة مما أدى إلى الإحتكاك المكثف بين أعضاء من مختلف الجماعات كما أدى إلى الهجرات الجماعية أو الحروب . والهجرة إلى الوحدات الساسية الأكبر والأكثر نموا وإلى المجتمعات ذات الجماعات العديدة كما ساعدت الحروب أيضا على ظهور الأقليات نظرا لوجود جماعة إنسانية كانت أقل قدرة وقوة من الجماعات الأخرى فى المجتمع كما أنها أصبحت أقل حماية لنفسها أيضا وبالتالى فى الحصول على المساواة فى المعاملة مع الجماعات الأخرى فأصبحت من جماعات الأقلية (٢٤) .

ويصف علماء الإجتماع المعاصرين الأقلية بأنها جماعة من الناس تختلف عن الجماعات الأخرى باختلاف العرق ، أو السلالة ، أو القومية ، أو الدين أو اللغة وهى جماعة مختلفة ينقصها القوة ومن ثم فهى فى حاجة إلى الإستثناء والمعاملة المختلفة أما الذين لايدرسون جماعة الأقلية فى البناء الإجتماعى فيرون أن معنى مصطلح (الأقلية *minority*) هو من الناحية اللغوية مجرد جماعة صغيرة من الناس تعيش فى وسط جماعة كبيرة ونجد صعوبة هذا التعريف تتمثل فى الإختلافات الثقافية بالنسبة للأغلبية *Majority* والأقلية وإلى السلالات المختلفة ، والقوميات والديانات ، واللغات التى يمكن أن تستمر عبر الأجيال المختلفة (٢٥) .

إن الجماعات الصغيرة تتميز بمجموعة من الإتجاهات والسلوك ، وإن أعضاء هذه الجماعات ليست لهم أهمية عند تحديد المكانة الإجتماعية التى تعتمد على القوة ومهما كان عدد أعضاء الجماعات الصغرى كبيرا فإن الأمر ليس بالعدد ، فقد يكون عدد أعضاء الجماعات الصغرى كبيرا كما هو الحال فى جنوب افريقيا حيث أن الجماعة الصغرى هم (السكان الأصليون) وهم أكثر عددا من

الجماعة المسيطرة التى تمثل الحكام البيض ويقسم *Yinger* الجماعات كما يلى

ـ جماعات يتشابه أعضاؤها فى الوظائف والمكانة الإجتماعية الواحدة مثل جماعات الأصدقاء .

ـ جماعات تتميز بالإختلاف فى المراكز الإجتماعية إما أن تكون مؤقتة (علاقة التلاميذ بالأساتذة) أو أن تكون دائمة مثل (أنساق الطبقات) الجماعات ذات الأغلبية ، أو أنساق الطوائف (٢٦) .

أمـا مـارفن هاريس *M.Harris* فـإنه يرى بالاضـافـة إلى الطبـقـات الإجتماعية يمكن أن تقسم معظم الجماعات وتصنف تصنيفا آخر هذا التصنيف هو الجماعات السلالية *Racial Groups* . والجماعات العرقية ، والجماعات الثقافية وقد تسمى فى بعض الأحيان جماعات الأقلية أو جماعات الأغلبية وقد أوضح وجود إختلاف بين الجماعات العرقية والطبقات فيما يلى :

ـ طريقة الحياة المتميزة والنابعة من تقاليد ثقافية ربما تكون مستمدة من مجتمع آخر .

ـ قد ينتمى أعضاؤها إلى طبقات عدة .

ـ شعور أعضائها بتمايزهم كجماعة مختلفة عن بقية سكان المجتمع (٢٧) .

وتتميز الأقلية السلالية *Racial minority* التى ترجع إلى سلالة واحدة بأنها تملك ملامح فيزيقية موروثة نتيجة الحرص والإصرار على الزواج الاندواجى الذى إستمر فترات طويلة وقد توضع بعض المعايير البيولوجية الدقيقة من أجل تحديد اندماج الشخص إلى سلالة معينة وقد يكون هذا الشرط هو النقاء السلالى(٢٨) ، وفى رأينا أن حد النقاء السلالى أكذوبة فى العصر الحديث نظرا لاختلاط السلالات والأجناس كما هو الحال بالنسبة للهنود والصينيين والفلبينيين الذين يعيشون فى الولايات المتحدة نظرا لقبولهم الزواج من البيض حتى أن هناك خلط بين زنوج افريقيا والبيض فى الوقت الحاضر نتيجة الزواج المتبادل بينهما .

ويحدد *A. M. Rose* وظيفة الأقليات فى المجتمع *The function of minorities* فى أن الأقليات تتضمن الهيمنة على المراكز الاجتماعية الدنيا فى مجال أو أكثر من مجالات الحياة الإقتصادية أو السياسية أو القانونية أو الإجتماعية مما أدى إلى إرتباط الأقلية بالمراكز الإجتماعية الدنيا والوظائف المرتبطة بهذه المراكز فقد تمنع الأقلية من ممارسة الحقوق الممنوحة للأغلبية وقد لاتعطى مكانة إجتماعية مساوية للأغلبية فى الوظائف الخاصة بالقانون والعدل وقد تمنع الأقلية هى نفسها عن طريق التنبيه بين أعضائها من المشاركة فى مجالات الحياة السابقة جزئيا أو كليا وذلك نظرا للتباين الثقافى بين الأقلية والأغلبية فضلا عن العداء المتبادل بين الأغلبية والأقلية وقد يكون هذا العداء مجرد مظهر غير حقيقى ، ومما لاشك فيه أن علاقات الأغلبية والأقلية تتضمن وجود بعض الصراع الذى قد يأخذ أشكالا مختلفة مثل الإتجاهات العدائية أو الإجحاف وغيرها ويمكن أن نميز ثلاثة إتجاهات رئيسية فى هذا الصدد :

الإتجاه الأول : هو محاولة الجماعة المسيطرة ـ نظرا لما تتمتع به من قوة (عامل القوة) ـ فى السيطرة وإستغلال الأقلية لأغراض إقتصادية أو سياسية أو إجتماعية .

الإتجاه الثانى : وهو يتعلق بالجانب الأيديولوجى فالجماعة المسيطرة تعتقد أنها تسيطر نتيجة لإحتكارها بعض الحقائق الأيديولوجية ـ وتحاول أن تقنع جماعات الأقلية بوجهة نظرها ، وقد تستخدم وسائل وأساليب العنف وتنزل بجماعة الأقلية العقوبات البدنية .

الإتجاه الثالث : هو الإتجاه العنصرى .. فالجماعة المسيطرة تؤمن بأنها أكثر تفوقا من الناحية البيولوجية من جماعة الأقلية ، وبالتالى فإنها تضع الأقلية فى مرتبة أقل أو تصفها دائما بكثير من الصفات السلبية مثل : (الكسل ، عدم القدرة على العمل .. الخ)[٢٩].

ويركز مارفن هاريس على الفكرة التى سبق الإشارة إليها وهى أن الأقلية

والأغلبية فى المجتمع لا ترتبط باعداد الجماعات التى تنتمى إليها ، فقد تكون الأقلية ذات أعداد كبيرة كسكان جنوب افريقيا بينما تكون الأغلبية ذات السلطة والنفوذ وتمثل الأقلية العددية ، وهذا ما جعل ديسبرس *Leo Des pres* يرى أن النقطة المهمة التى يجب أن تؤخذ فى الإعتبار هى أن الأقليات والأغلبيات تتباين فى المكانة السياسية والإجتماعية والإقتصادية وفى درجة الحماية والكفاح من أجل الحصول على مكانة أفضل فى النسق الإجتماعى [٣٠].

ويحدد هاريس أن الزواج الاندوجامى داخل جماعة الأقلية إما أن يكون ضمن قيم الجماعة وممارستها ويعطى أمثلة على ذلك من الهيود والصينيين واليونانيين الذين يعيشون فى الولايات المتحدة ، والمسلمين فى الهند ، واليابانيين فى البرازيل حيث أن الاندوجامية لها قيمة ممارسة عن طريق جماعات الأقلية وقد يحترم بقية السكان هذه القيم فى جماعات الأقلية .

وقد تفرض الاندوجامية على الأقلية ويعطى أمثلة على ذلك من الزنوج فى الولايات المتحدة والملونين فى جنوب افريقيا حيث أن الزواج المختلط مغلق عليهم بصفة عامة بسبب العداد بينهم وبين بقية السكان وبذلك فليس لهم دوافع قوية فى أن يكونوا إندوجاميين ، وهناك أقليات أخرى تعيش فى الولايات المتحدة لاتملك قيم المحافظة على الزواج الداخلى أو أن تجد مقاومة خارجية من أجل الزواج بالآخرين، هذه الأقلية هى جماعة الألمان وجماعة الاسكتلنديين *Scots* الذين يعيشون فى الولايات المتحدة وكذلك جماعة الإيطاليين الذين يعيشون فى البرازيل فإنهم يسيرون دائما نحو التماثل وفقد الذاتية الإجتماعية كجماعة أولية . [٣١]

فاستمرار التماثل والزواج المختلط يؤدى إلى وجود ذرية مختلطة لكن يجدر الإشارة أن نسبة الزواج المشترك غير مرتفعة بالقياس بالزيادة الكبيرة فى عدد السكان الأصليين ، ولكل جماعة أقلية وسائلها الخاصة والمختلفة فى التكيف ، وأيضا قدرتها على التكيف حتى تستطيع أن تبقى وتعيش وتوفق فى الوضع الاجتماعى الخاص الذى تجد نفسها فيه وهذه المقدرة ترتبط بخبرتها الأولية ،

وبالتاريخ ، واللغة ، والثقافة فتعدد القدرات على التكيف يرتبط أيضا إلى حد كبير بالمجتمع الكبير الذى تعيش فيه هذه الأقلية فقد إستطاع اليهود تحقيق مكانة كبيرة فى الولايات المتحدة بعد سيطرتهم الإقتصادية ، كما وأن اليابانيين المهاجرين إلى البرازيل إحتلوا مكانة أيضا لأنهم قد ادخلوا المهارة الزراعية ونمط الزراعة المكثفة ، والزراعة عن طريق " العقل " فى البرازيل .

وإن التركيز على الفروق والإختلافات فى اللغة والدين والجوانب الفيزيقية الأخرى يزيد من إحساس الأقلية بالتضامن ويجعل أعضائها يستمرن فى البناء الإجتماعى ويتنافسون مع الجماعات الأخرى من أجل الوصول إلى المكانة الإجتماعية الأعلى (٣٢) .

وقد خلص روجر سانجك ***R.Sanjek*** بعد دراسته لـ ٢٣ قبيلة فى أكرا بغانا أن مصطلحات مثل اللغة ، والسلوك ، والملابس ، الإقامة العلامات المميزة للوجه قد لا تكون أساس للتمييز بين جماعات الأقلية والأغلبية وأن الدور الذى يلعبه السياسيون وتركيزهم على الذاتية الاجتماعية القبلية هو الأساس فى الحصول على المنافسة السياسية وإحتلال المراكز الإجتماعية (٣٣) .

وإذا كنا قد تعرضنا لجماعة الأقلية بالدراسة فإن ذلك يقودنا إلى السؤال عن : إلى أى حد تنطبق مميزات جماعة الأقلية على الجماعات النوبية ؟

فى ضوء الدراسة الحقلية للنوبة الجديدة والإحتكاك المستمر مع النوبة بمدينة الاسكندرية ، قد خلصنا إلى أنه لايمكن إنكار أن هناك إتجاهات وسلوك وتقاليد وعادات ثقافية بين النوبيين وشعور بالتمايز كجماعة مختلفة عن بقية السكان من حيث القيم والمعايير والمحافظة عليها .

كما يسيطر على النوبيين دائما المشاعر المرتبطة بجماعات الأقلية فنجد مشاعر الخوف ، والإحساس بالتضحية ، وضرورة المحافظة على القيم الخاصة المتمثلة فى التراث الاجتماعى ، فضلا عن المطالبة المستمرة بالحماية من جانب

الدولة وضرورة قيامها بالتعويض عما قدمه النوبيين من تضحيات منذ بناء خزان أسوان وحتى إتمام موضوع السد العالى .

وهذا كله قد ساعد الجماعات النوبية على المحافظة على الذاتية الاجتماعية التى قد ترجع إلى الزواج الإندوجامى والتمسك به .

وإذا كان *Fernea* يرى أن التحامل المصرى على النوبيين قد شجعهم على العمل والتعاون فيما بينهم للتكيف والعيش مع تجنب الإتصال بمعظم المصريين إلا عند الضرورة (٣٤) .

ولكنا نرى أن أى باحث منصف لن يجد أى تحامل بين الشعب المصرى وبين النوبيين المصريين بل نجد كل تشجيع لهم على لاعمل ولاعيش معا وقد نلاحظ ذلك فى المجتمعات الحضرية حيث لاتوجد مشاعر التحيز إلا نادرا ولا يؤثر لون البشرة فى العلاقات بين المصريين جميعا .

بل استطاع النوبيون عن طريق الأندية النوبية والتجمعات المختلفة أن يتولون المناصب السياسية التنفيذية فضلا على أن معظم المناصب الإدارية فى مدينة نصر النوبية يتولاها النوبيون أنفسهم كما يتولون مع إخوانهم من المصريين الأعمال الإجتماعية ذا المكانة العالية فى المجتمع المصرى .

- النوبة والتنمية :

تعرف لوسى مير *Lucy Mair* التنمية بقولها : إن التنمية فى معناها الأساسى عملية .. ويقصد بالعملية فى السياق المعاصر أنها حركة تجاه حالة أو وضع إجتماعى يفترض أنه قد وصلت إليه بعض الدول فى العالم ، أما تلك الدول التى لم تصل إلى هذا الوضع يطلق عليها البلاد المتخلفة ***Under developed*** وهذه التسمية لاتفضلها وتفضل أن يطلق عليها ***Less developed Countries (L.d.c)*** وتضيف لوسى مير بقولها : أن التنمية هى زيادة الناتج القومى ومن ثم زيادة فى الدخل الفردى ، وأن معدلات النمو هى المقياس الذى

يمكن إستخدامه فى مجال التنمية وكلما كانت معدلات النمو مرتفعة كلما سارت التنمية بخطى أسرع ، وأن أهداف التنمية تتلخص فى تحسين أوضاع المعيشة بالنسبة لكل الناس فى مجتمع ما وتخفيف حدة الفرق والجهل والمرض [٣٥] .

وتعد الستينات من هذا القرن عقد التنمية ، وقد عرفت دول بهذا الأسم نظرا لإستقلال معظم دول العالم الثالث والدور الذى لعبته مؤسسات الأمم المتحدة المتخصصة والحكومات القومية فى تحسين الظروف الإقتصادية والاجتماعية لبلادهم ، وتنفيذ كثير من مشروعات التنمية وسياساتها فى أجزاء العالم الثالث ، فقد أوضحت السبعينات كثيرا من النتائج السلبية حيث بدأت تظهر من جراء تنفيذ المشروعات الهندسية الكبيرة وإستخدام التكنولوجيا الحديثة دون دراسات تخطيطية وبدون الأخذ فى الإعتبار إحتمال حدوث آثار عكسية أو خسارة ، لذلك فقد تعرض مفهوم التنمية لوجهات نظر أكاديمية وسياسية متضاربة خاصة من حيث منظور كل من المخططين والمؤسسات الدولية والحكومات القومية ، كما نجد أيضا للجماعات الإنسانية التى توضح مشروعات التنمية من أجلهم منظورهم الخاص وتوقعاتهم التى كثيرا ما تتعارض مع مخططات الدولة وإمكانياتها ، وقد بدأ الإختلاف فى مفهوم التنمية واضحا ، وهذا ما أوضحه مؤتمر الأمم المتحدة عن العلم والتكنولوجيا والتنمية والذى عقد فى فيينا عام ١٩٧٩ وفى هذا المؤتمر أعلن سكرتيره العام إثنى عشر خاصة للتنمية ، وأشار إلى أن كل دولة تقوم بعمليات للتنمية من خلال مصالحها التى تتضمن العلاقات الإجتماعية والثقافية والإقتصادية والروحية ، كذلك أوضح أن كل من الواجب أن يكون لكل شعب من الشعوب إختيار قرارات التنمية التى تؤدى فعلا إلى التقدم والتغير ، وفى هذا الصدد نجد أن التنمية تعد عملية للتغير المباشر إنها ذات جوانب متعددة متداخلة وتهدف إلى إحداث تقدم لايقتصر على المجال الإقتصادى فحسب وإنما يؤدى إلى تحسين نوعية الحياة *Quality of Life* وهذا أمر يختلف تقديره وأولوياته من مجتمع إلى آخر ومن فترة زمنية إلى أخرى ومن ثم يمكن أن نميز بين التنمية

كمفهوم وكونها استراتيجية ويجب الإهتمام بتحليل الأنماط والعلاقات المتبادلة من البيئة والثقافة (٣٦).

ومنذ مايزيد عن ثلاثين عاما فإن عمليات التنمية التى شهدتها الدول المختلفة كانت تهتم بالنظم وبالتغير الذى يحدث لها مع الإهتمام بالجهد المطلوب لإجراء التغير داخل هذه النظم وقد أسفرت كثير من البحوث المتعلقة بالتنمية عن ضرورة الإهتمام بالعلاقات الأساسية وفهمها الأمر الذى سيؤدى فى النهاية إلى تنمية الأنساق الإجتماعية نفسها (٣٧) .

وتنمية المجتمع عملية يقصد بها تهيئة عوامل التقدم الإجتماعى والإقتصادى للمجتمع عن طريق مساهمة أفراده وجماعاته وإستغلال إمكانياته ، وهذه العملية ليست علمية حديثة فى نوعها ، فقد أثبتت الدرسات الأنثروبولوچية أن أفراد المجتمعات المحلية منذ زمن بعيد يتعاونون فيما بينهم فى مواجهة إحتياجات مجتمعاتهم فقد تعاون أبناء القرية الواحدة فىبناء السدود لمواجهة خطر الفيضانات ، كما تعاونوا فى حفر الآبار والترع والمصارف أو إنشاء دور العبادة والمدارس والأمثلة على ذلك كثيرة ومن بلدان شتى من الهند وباكستان ومصر ، فالأهالى فى أغلب بقاع العالم يساهمون فى تحديد مشاكلهم وإحتياجاتهم ويعملون متعاونين على تنمية مجتمعاتهم (٣٨) .

وتعرف الأمم المتحدة تنمية المجتمع بأنها تدعيم المجهودات الأهلية للمجتمع المحلى وربطها بالمجهودات الحكومية وذلك لتحسين الحالة الإقتصادية والإجتماعية والحضارية لهذا المجتمع على أن تكون خطط الإصلاح بهذه المجتمعات المحلية متمشية ومنسجمة مع خطط الإصلاح التامة للدولة .

ويرى أحمد أبو زيد إن هذا التعريف يتضمن ثلاثة مبادئ هامة تعد بمثابة الأركان الأساسية لعملية التنمية والتى يجب أن تتوفر فى أى مشروع من مشروعات التنمية حتى يمكن إعتبار ذلك المشروع داخلا فى نطاق فلسفة التنمية بالمعنى الدقيق للكلمة .

المبدأ الأول : وهو ضرورة إشتراك الأهالى والحكومة معا فى مشروعات التنمية وفى كل المراحل التى تمر بها عملية التنمية ، سواء فى ذلك التخطيط أو التنفيذ وعلى الرغم من أن هذا المبدأ يعتبر فى نظر العلماء مبدأ جوهريا لايمكن إغفاله ، فإن الحكومات المختلفة تحاول ـ فى الأغلب ـ وتقوم بتنفيذ مشروعات التنمية بنفسها وبدون الرجوع إلى أفراد المجتمع الذين سوف يفيدون من ذلك المشروع لإستطلاع رأيهم ومعرفة وجهات نظرهم قبل الإقدام على التنفيذ ، وكثيرا مايؤدى ذلك الإغفال إلى إرتكاب أخطاء فادحة تتمثل بأحلى صورها فى التعارض بين هذه المشروعات والقيم الإجتماعية والثقافية بل والأوضاع العامة التى تسود فى المجتمع مما يؤدى إلى وقوف الأهالى من المشروع موقفا عدائيا ولذا يهتم معظم علماء التنمية بضرورة توعية الأهالى بأهمية المشروع وفوائده بل إن البعض ذهب إلى حد القول بضرورة أن تأتى المبادأة من الأهالى أنفسهم وليست الحكومة وهذا ما يحدث فى معظم الأحوال ، وقد وجدنا فى دراستنا الحقلية فى النوبة الجديدة أن الدولة إهتمت بإقامة المساكن الجديدة التى تختلف عن نمط البيت لانوبى وبدون أن تستشير أو تأخذ رأى الأهالى أنفسهم مما أثار غضبهم وأحدث تعديلات داخل مساكنهم وهذا ما ستوضحه الدراسة .

أما المبدأ الثانى : فهو أن مشروعات التنمية يجب أن تؤدى فى آخر الأمر إلى تحقيق التكامل القومى ، بمعنى أن يهدف المشروع إلى ربط المجتمع المحلى الذى ينفذ فيه ذلك المشروع بالمجتمع القومى الكبير بل وإلى ادماجه فيه بحيث يؤلف معه وحدة عضوية متماسكة ويتمثل ذلك على وجه الخصوص فى المشروعات التى تنفذ فى المنطاق البعيدة المنعزلة التى تؤلف مجتمعات مغلقة لها نظمها وقيمها وثقافتها وقوانينها الخاصة كما هو الحال مثلا بين القبائل الصحراوية فى مختلف أنحاء العالم العربى ، ووسيلة مشروعات التنمية فى تحقيق هذه الوحدة القومية هى نقل القيم الإجتماعية وأنماط السلوك والعادات والتقاليد والتراث الإجتماعى والثقافى الذى يسود فى المجتمع الكبير إلى ذلك المجتمع المنعزل .

المبدأ الثالث : هو أن عملية التنمية هى بالضرورة عملية شاملة ومتكاملة

يمتزج فيها الجوانب الإقتصادية والجوانب الإجتماعية .. صحيح أن الأساس الأول الذى ترتكز عليه معظم - إن لم يكن كل - المشروعات التنموية هو الوضع الإقتصادى إلا أن الغاية الأخيرة من المشروع هو الإنسان والعمل على إعلاء شأنه بإعتبار أن الإنسان هو الذى يستفيد فى آخر الأمر من تلك المشروعات ومن الضرورى الأخذ فى الإعتبار إحتياجات أفراد المجتمع ومحاولة تحقيقها بقدر الإمكان ، ويرتبط هذا المبدأ بما سبق ذكره فى المبدأ الثانى من ضرورة أن يراعى مشروع التنمية القيم الإجتماعية والثقافية السائدة فى المجتمع (٣٦) .

ويشير آلان ادوار ، ودورثى جونس ***A.Edwards & Jones*** فى كتابهما المجتمع المحلى وتنميته ***Community and Community Development*** إن تعريف تنمية المجتمع يشير دائما إلى العمليات التى يحاول أعضاء المجتمع نتيجة بذل مجهوادتهم المكثفة للرقى بالمجتمع ، وهذه المجهودات التى يقومون بها ترجع إلى الفعل المجتمعى ***Community action*** وهى تسعى إلى إحداث التغير فى المجتمع المحلى عن طريق الرأى والإقناع أو عن طريق الصراع ويجب أن يكون التغير مرتبطا بالوحدة الإجتماعية المحلية ككل ، وإن الناس الذين يتأثرون به يرتبطون بهذه الوحدة الإجتماعية كما أن هؤلاء الذين يسهمون فى إحداث التغير مرتبطون أيضا بالمجتمع المحلى (٣٧) .

وإن الهدف من تنمية المجتمع هو وضع البرامج التى تنظم اشتراك الناس أنفسهم وهذه البرامج تساعد على إحداث التنمية وى ذلك ترى جين لاجاس ***Jean Lagasse*** أن هناك أربعة إعتقادات يجب أن نضعها نصب أعيننا من القيام بعملية تنمية المجتمعات المحلية وهى :

- إن كل الناس لديهم الرغبة فى تحسين ظروفهم المعيشية وأن لديهم أسباب شخصية وحاجات إجتماعية وأنهم عندما لا تشبع هذه الحاجات، يشعرون بالتعاسة والرغبة فى ضرورة أن يتم شيئا ما من أجلهم .

- إن الذى يمنع إشباع وتحقيق هذه الحاجات قد تكون قلة المصادر أو

الكسل أو ضعف مستويات الطموح أما إذا ما جاءت الفرصة لإظهار هذه الحاجات وإشباعها فإن الناس سيكونو أكثر نشاطا وتقدما .

ـ إن كل الجماعات الإنسانية تستطيع أن تساعد نفسها عندما تعطى الفرصة لذلك .

ـ لكى نحقق التغير المطلوب يجب أن تؤثر فى الجوانب المختلفة للسلوك الإنسانى وفى الحياة الإجتماعية والإقتصادية لأن التغير جانب سيؤثر فى الجوانب الأخرى وبالتالى فإن رفض التغير فى أحد الجوانب يكون رفضا للجوانب الأخرى (٤١) .

وإن مهمة إعادة التوافق مهمة صعبة وتحتاج إلى مهارات إجتماعية ونفسية وإقتصادية وتعليمية حتى يمكن تنفيذها وحتى يمكن حدوث التغير لذلك فإن جوردن ماكجريجور *G Macgregor* فى دراسته عن تنمية المجتمع والتوافق الإجتماعى *Community Development and S.Adapation* يرى أنه يجب الإهتمام باستخدام المنهج الكلى *Holistic* الذى يشتمل على الجوانب الصحيحة ، والنمو النفسى ، والإجتماعى ، والإقتصادى ولأفعال الديموقراطية وحتى تتحقق الحياة الإجتماعية الكريمة للإنسان يجب أن تشتمل عمليات التنمية على :

ـ مناقشة الحاجات والمشكلات عن طريق أعضاء المجتمع نفسه مع بعض المستشارين .

ـ شرح الأسباب الداخلية والخارجية المسببة للحاجات والمشاكل حتى يمكن التعرف على مصادر الصعوبات الاجتماعية والنفسية والإقتصادية .

ـ التخطيط وإتخاذ القرارات يجب أن يتم بمعرفة المجتمع نفسه .

ـ الحاجة إلى المساعدة التكتيكية والإستشارات .

ـ يجب أن نأخذ فى الإعتبار أن أى دور نشط وفعال يبذل سيؤدى إلى النمو الإجتماعى والإقتصادى (٤٢) .

مما لاشك فيه أن التنمية عملية إجتماعية .. تراكمية .. تكاملية تتم فى إطار نسيج من الروابط بالغ التعقيد بسبب تكامل وتبادل مستمر بين العديد من العوامل

الإقتصاديةوالإجتماعية والسياسية والإدارية والإنسانية هو هدفها النهائى ووسيلتها الرئيسية والمحصلة النهائية لهدف العلمية ليس مجرد حاصل جمع التغيرات التى تطرأ على الجوانب الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والإدارية وإنما هى حصيلة نسيج التفاعلات المتبادلة بينهما والتى تشكل كل منها عاملا مستقلا . وتتوقف درجة أثر وتأثير وبالتالى أهمية كل من جوانب هذه العملية المجتمعية على الظروف التى تتم فى ظلها عملية التنمية من جهة وعلى الشروط التى تتطلبها مسيرة التنمية من جهة أخرى (٤٣) .

ويرى د . محمد الجوهرى بأن عملية تعبئة موارد المجتمع من أجل التنمية تنطوى فى جوهرها على نمو سريع فى ظاهرة تقسيم العمل ومعنى هذا أنه سوف يترتب على المزيد من التخصص والتعقيد سواء فى عدد العلاقات الإنسانية الجديدة التى تنشأ أو فى نوعية تلك العلاقات وذلك فى عدد ونوعيات الوحدات الإجتماعية الجديدة التى يشارك فيها أفراد المجتمع كما يمتد التنوع والتعقيد إلى الأدوار الإجتماعية التى يلعبها أولئك الأفراد وإلى المستويات التعليمية والأداء المهنى والمصالح الإقتصادية والظروف العائلية وأساليب الحياة والفلسفات الهامة فى الحياة والإتجاهات السياسية .. الخ كما يعنى المزيد من التنمية والإنتقال من دوائر العلاقات الإجتماعية الضيقة والمحدودة ذات الطابع الشخصى غالبا إلى دوائر أرحب لامتصاص من اصطباغها بالطابع الرسمى تصبح بذلك ذات طبيعة عامة تخضع لمعايير عامة لا تتأثر بالأشخاص ولذلك ينتقل الهيكل الاجتماعى العامُ للجماعات الصغيرة الى الكيانات الجماعية المجردة الكبيرة ذات الأجهزة التنظيمية المعقدة بالمجتمع يتحول من النظام الإجتماعى البسيط الساكن نسبيا إلى نظام إجتماعى متميز بالتعدد والحركية بل ويتميز والمرونة كذلك (٤٤) . نستنتج أن المشكلات البنائية تتمثل فى تعبئة الموارد ، التخصص ، وتعقد العلاقات الاجتماعية ، وتنوع الأدوار الإجتماعية ، الأدوار المهنية ، والمستويات التعليمية ، والمصالح الإقتصادية والإنتقال من دائرة العلاقات الإجتماعية الضيقة إلى العلاقات الرسمية .

وإذا كان الهدف من برامج التنمية الإجتماعية والإقتصادية فى أوسع معانيها هو تحسين الظروف الإقتصادية والإجتماعية والصحية والثقافية للمجتمعات ولا يمكن أن يتم ذلك دون تخطيط شامل متكامل مبنى على الحقائق والوقائع وعلى الدراسة العلمية الموضوعية وهنا يظهر الدور الذى يقوم به المتخصص فى الأنثروبولوچيا سواء من حيث القيام بإعداد الدراسات والوصول إلى المجتمعات أو استشارة الناس أنفسهم لبرامج التنمية ومشاركتهم فيها كما أن التغير السريع الذى نعيشه الآن وبعد وفاق الدول المتصارعة وسرعة إصدار القرارات وكما ترى لورا طومسون *Loura Thomson* أن العامل الثقافى عامل مهم عند إتخاذ القرارات لأن أى تغير يحدث يتمشى مع وجهة نظرنا وإلا فشلنا فى كل المشروعات لذلك يجب أن نراعى ثقافة الجماعات وإن مهمة الأنثروبولوچى الأساسية هى الثقافة التى تتضمن تحليل التغيير الثقافى والإهتمام بتحديد مسئولية الجماعة لمواجهة المشكلات (٤٥) .

وتشير لوسى مير إلى دور الأنثروبولوچى بالنسبة للتنمية أو ماذا يقوم الأنثروبولوچى ؟ وترى أن كل مشروعات التنمية تتطلب معرفة تكنولوجية من مصادر مختلفة عديدة مثل علماء التربة ، المهندسون الزراعيون ، والرى وهى تخصصات قد نحتاج إليها فى عملية التنمية لكن نظرا لمعرفة الأنثروبولوچيين بالمجتمعات الإنسانية الصغير فإنهم يستطيعون أن يقدموا الحقائق عن هذه المجتمعات كما يستطيعوا أن يقدموا التحذيرات أكثر من النصائح عند تقييم المشروعات التنموية ، ودور الأنثروبولوچى هو الفاعل الموجه *Actor - oriented* يرى سياسات عملية للتنمية ليس من أعلى من خلال أفكار صانعى السياسات ولكن من أسفل من خلال المستفيدين الفعليين من التنمية ومشروعاتها وتؤكد لوسى مير أن كثيرا من التحذيرات التى تقدم لرجال السلطة والإدارة تذهب سدى (٤٦) .

هناك أمثلة كبيرة توضح أن الأنثروبولوچى له دورا هاما فى برامج التنمية فقد ساهم الأنثروبولوچيون فى مشروعات محلية بتجاربهم وتعاونهم مع

المتخصصين فى العلوم الأخرى كما قاموا بدور قيادى فى كثير من برامج التنمية التى تناولت الجماعات العرقية وكذلك المجتمعات الفردية والدور الذى قام به المعهد الهندسى القومى للمكسيك واضح تماما وقد إشترك الأنثروبولوچيون فى رسم البرامج وتنفيذها ومواجهة المشكلات الناجمة (٤٧) .

فالأنثروبولوچيون لم يخصصوا ويوجهوا إلا مشروعات محلية فقط كمشروع فيكرس وهى مشروعات تتطلب بطبيعة الحال تعاون المتخصصين فى العلوم الأخرى وفى حالات قليلة نجد علماء الأنثروبولوچيا يقومون بدور قيادى فى تلك الجوانب من برامج التنمية التى تتناول الجماعات العرقية المحلية أو الفردية ، وتحظى بعض وجهات النظر الأنثروبولوچية بتطبيق واسع النطاق فهناك إعترافا متزايدا بالتنمية بوصفها عملية تضم النسق الاجتماعى الثقافى الكلى وهذا ينطبق على أى برنامج قومى للتنمية كما ينطبق على المشروعات أو البرامج المحلية فعلى المستوى المحلى أسهم الأنثروبولوچيون إسهاما كبيرا فى فهم مشكلات تقبل أو ترفض التغير كما أسهموا إلى حد ما فى عمليات التخطيط والتغيير والتقويم (٤٨) .

إن نظرة علماء الأنثروبولوچيا إلى التنمية بوصفها تغيرات تدريجية فى الأساليب التكنولوجية والإقتصادية بل بوصفها عملية شاملة تهتم بالنسق الإجتماعى والثقافى فى كليته ، ولقد ركزت معظم المحاولات المبكرة التى سعت إلى دفع عملية التنمية إهتمامها بالعوامل التكنولوجية والإقتصادية (٤٩) .

ويشير رالف بيلز وزملاؤه فى كتابهم مقدمة الأنثروبولوچيا مجموعة التساؤلات الخاصة بالتنمية وأهميتها وهل التنمية تتمثل ببساطة فى إتاحة الفرصة لإستغلال أفضل للموارد حتى يمكن مواجهة إحتياجات مزيد من السكان أم يجب أن تركز التنمية على النهوض بنوعية أو طبيعة الحياة بالنسبة لعدد محدود من السكان ؟ كيف يحدد الناس ما يعنونه بنوعية الحياة ؟

مما لاشك فيه أن عمليات التنمية تتطلب مزيدا من الإستفادة والإستغلال الواسع والمركز للموارد الطبيعية فكيف يمكن إحداث هذا التغير .. وغيرها من

التساؤلات الهامة فى مجال الأنثروبولوچيا وخصوصا فى جانبها التطبيقى (٥٠) .

وفى دراستنا الحالية عن النوبة الجديدة نبرز بعض العناصر العامة بالنسبة لعملية التنمية منها وجهة نظر النوبيين أنفسهم فى مشروعات التنمية وماهى المعوقات المجتمعية التى صادفت التنمية فى النوبة الجديدة كما نتناول أيضا الإشارة إلى بعض المشروعات التنموية التى تمت بالعفل وأيضا المشروعات الأخرى المقترحة بالنسبة لمجتمع الدراسة فى النوبة الجديدة .

وجهة نظر النوبيين فى النوبة الجديدة فى فوائد التنمية ومدى المشاركة فى مشروعاتها

ووجهة نظر النوبيين الجديدة أن التنمية التى تمت فيها قد رفعت من مستويات الحياة وأحدثت تطورا فى المنطقة كما أن مشروعات التنمية تسير فى شتى المجالات فساعدت فى تحسين مستوى الحياة الإقتصادية والتعليمية والصحية والسياسية فالتنمية غيرت وجهة الحياة فى النوبة الجديدة ورغم المشروعات التنموية الكثيرة والتى يحس بها النوبيون ويذكرونها إلا أنهم يطالبون بمزيد منها .

وبالنسبة لإسهام التنمية فى حل المشكلات فى القرى النوبية فقد أثار الكثيرون من النوبيين أن جمعيات النوبة قامت بإقامة المشاغل وإهتمت بالصناعات الأولية ووفرت الحاجات الأساسية للقرية ولكن مازالت هناك مشاكل لم تحلها مثل مشكلة المهجرين وتوفير المسكن الملائم لهم .

كما وأنه مع التنمية ظهرت مشكلات لم تكن موجودة فى النوبة من قبل مثل السرقات والبطالة بين المتعلمين ومشكلات تتعلق بالزراعة كالتربة والرى .

وقد حرص الشباب على الاشتراك فى جمعيات التنمية وكذلك المعلمون الذين يعطون هذه الجمعية التنموية جهدهم وعرقهم وقد بدأ تحمس الشباب واضحا فى الاشتراك بالجهد والعمل التطوعى ، ولكن النوبيين المهاجرين الذين يعملون فى مدن مصر أو فى دول الخليج كانت مساهمتهم مادية وبمبالغ كبيرة .

وبالنسبة لتحديد المسئول عن التنمية رأينا أن الأغلبية العظمى ترى أن الحكومة هى المسئولة عن التنمية مسئولية تامة لأن مشروعات التنمية الضخمة لا تستطيع إلا الحكومة القيام بها وهذا يدل على إتكالية واضحة وإلقاء المسئولية على الحكومية فى كل شئ .

إلا أن البعض يرى أن التنمية مسئولية مشتركة بين الحكومة والأهالي، ويرون أن الحكومة تقدم الأجهزة والإمكانيات والخدمات الأساسية بينما يقوم الأهالى بالمشاركة فى المراحل التالية وعليه فإن البداية يجب أن تكون جهدا حكوميا ورغم ذلك فقد قام الأهالى بإقامة بعض المشروعات الصغيرة بالجهود الذاتية كالأندية وبناء الفصول وعمارة المساجد وإقامة المصليات .

ويبدو من الدراسة الحقلية للنوبة الجديدة حرص الجميع على الإشتراك فى الأنشطة التنموية عن طريق الإشتراك فى جمعياتها وحضور إنتخاباتها وتحديد عضوية الأعضاء .

أما بالنسبة لمعوقات التنمية المجتمعية فى مجتمع الدراسة فقد تمثلت فى الدور التى تقوم به المرأة ومدى مشاركتها ، وبالرغم من إشتراك المرأة النوبية فى كثير من الأنشطة النسائية كالأندية وخروجها للعمل فى الحقول وفى تربية الماشية والدواجن وقد تميزت المرأة النوبية بالقدرة على التحمل وعلى الصمود أمام الأعمال الشاقة التى قد يعجز الرجال فى مجتمع الدراسة عن القيام بها ، إلا أن القرى العربية النوبية رأت أن دورها الأساسى يجب أن يكون الإهتمام بالتنشئة الإجتماعية للأجيال القادمة وتترك الإشتراك فى الأنشطة التنموية للرجال .

أما بالنسبة للنوبيين والكنوز فإنهم لايمانعون من إشتراك المرأة نظرا لأنه لاتوجد قيادات نسائية بصفة رسمية وهم يرون أن تعليم المرأة كان من نتائجه حرصها على الإشتراك فى الأنشطة الإنتاجية فى الصناعات الأولية كصناعة الكليم والمشغولات الخرزية وغيرها ، وقد حدد المجتمعان المحليان السابقان أولويات المرأة منها أندية السيدات ، مشاغل البنات ، دور الحضانة ، محو الأمية ـ صناعة

الأطباق والسلال والمشغولات النوبية .

ويرى بعض النوبيين أن البرامج والمشروعات التنموية يجب أن تخصص برامج خاصة للمرأة نظرا لأن بعض مشروعات الوحدات التنموية لاتتناسب واشتراك المرأة .

ـ أما بالنسبة للعلاقات الطيبة التى تربط القبائل النوبية وأثرها فى تنفيذ مشروعات التنمية فبالرغم من وجود إختلافات فى اللهجة بين الأجناس النوبية مثل الكنوز والعرب والفاديجة إلا أن الجميع يشعر بولائه النوبى الذى يعتبرونه وحدة واحدة رغم الإختلافات ويمكن الإستفادة من العلاقات القوية فى الإعتماد على الأهالى أنفسهم فى مشروعات التنمية وهذا ما سنوضحه عند الحديث عن النوبة القديمة ومستقبل التنمية .

وبالنسبة لأثر التنافس فى مشروعات التنمية نجد أن المنافسة الموجودة بين العائلات النوبية والقبائل لاتؤدى إلى الصراع وهذا ما أكده وما يؤكده مشروع إقامة قرية السلام الذى سنتناوله بالتفصيل عند الحديث عن النظرة المستقبلية للنوبة ومما يجدر الإشارة إليه أن أى خلافات حادة تظهر يتصدى لها القيادات النوبية المحلية سواء أكانت على المستوى الرسمي أو القيادات الشعبية النوبية الممثلة فى المشايخ وكبار السن . وبالنسبة للقيادات النسائية داخل أنشطة الجمعيات التنموية وجدنا هذه القيادات فى قرية دابود والدكة ولم نجدها فى بقية القرى التى تم دراستها .

ـ مشروعات التنمية ورأي النوبيين فيها :

ويعترف مجتمع الدراسة بالمشروعات التنموية الكبيرة التى تمثلت فى مشروعات الكهرباء والمياه والمواصلات والطرق وجمعيات التنمية ومشاغل الفتيات ومشروعات الأمن الغذائى وإقامة المساكن رغم إعتراض النوبيين على المساكن المقامة لأنها تختلف عن نمط السكن (البيت) النوبى وأيضا مشروعات الخدمات الصحية وإقامة بعض الصناعات الأولية ومد النوبيين بالآلات الزراعية الحديثة .

ويرون أن إسهاماتهم تمثلت فى القيام ببعض المشروعات المحلية مثل التشجير وبعض الأعمال اليدوية التى تتطلب فضلا على إقامة مشروع سياحى هو البيت النوبى كمزار سياحى فى أسوان وفى أبى سمبل .

ويتوقع مجتمع الدراسة من الحكومة الإستمرار فى دورها فى إقامة المساكن الخاصة بالمغتربين (رغم إعتراضهم على هذه التسمية) ويفضلون تسميتهم بالنوبيين الذين يعملون خارج النوبة أو المهاجرين ، وأيضا إنشاء المصانع الكبيرة مثل مصنع للسكر وإستصلاح الأراضى وتوزيعها والقيام بمشروعات الصرف الصحى وتوفير المزيد من الخدمات مع إعفاء المشرعات الخاصة من الضرائب .

أما بالنسبة للمشروعات التنموية التى يمكن أن يقوم بها الأهالى أنفسهم فقد تمثلت فى مشروع " للحصير البلاستيك " ومشروع الأمن الغذائى ، والصناعات اليدوية كالأكلمة ، والخرز والمقاطف والتطريز وأندية الشباب وأندية النساء وإقامة بعض الصناعات الحرفية كالمنتجات الأولية ، وتربية المواشى وتربية الدواجن .

ويؤكد الجميع حرصه على مزيد من المشروعات التنموية فى النوبة الجديدة ومشاركتهم فى مشروعات تسمين الأبقار والجاموس فى ابريم وإقامة ورش لإصلاح السيارات وورش للحدادة وللبرادة ، كما أنهم إقاموا بالجهود الذاتية مكاتب البريد وأنشأوا المساجد والمصليات وأقاموا فصول للحضانة وأقاموا المدارس ومراكز الشباب .

وهم يرون أنه كلما أتت المشروعات التى يشتركون فيها بالنتائج الإيجابية فإن ذلك سيكون حافزا لهم على بذل الجهد من أجل زيادة الدخل وتحقيق مستوى إقتصادى أفضل .

ـ الدور الحكومي في تنمية بحيرة السد العالي (النوبة القديمة) :

عندما إتخذت حكومة زامبيا قرارهابإعادة إقامة شعب جومب تونجا *Gwembe Tonga* بعد إنشاء سد الكاريبا *Cariba* على نهر الزمبيرى : تم ذلك تحت ظروف خاصة فقد كانوا مواطنين من نفس المجتمع ، كما أن المنطقة التى استقر فيها الناس ذات إنتاج كبير نظرا لوجود مساحة من الأراضى الكبيرة خلف السد وقد إرتبط هؤلاء المواطنين بمشروعات الدولة للتنمية الإقتصادية (٥١) .

وقد أشار كل من *Th. Scudder* واليزابيت كولسون *El-Colson* فى دراستهما القيمة عن مشروع سد الكاريبا بأن تنمية البحيرة شملت الصيد من البحيرة والعمل على زيادة كمية ، وتربية الحيوانات ، وزراعة المحصول النقدى الهام وهو القطن (٥٢) .

إذن فهناك أبعاد ثلاثة للتنمية عند إنشاء البحيرات هى " فرص الصيد المتاحة ، وتربية الحيوانات ، والزراعة . ومما لاشك فيه أن التغيرات البيئية المرتبطة ببناء السدود وما يصنعه الإنسان من بحيرات صناعية لم تكن موجودة من قبل ليؤكد وجود تحول وتغير طبيعى تحدثه السدود ، ويمكن ملاحظة ذلك فى السد العالى لأسوان فقد حدثت تغير فى مجرى النيل وظهور الأراضى الجديدة وراء السد وقد حقق أهداف الدولة فى تخزين المياه للرى ، وللصناعات وللإستخدام الإنسانى والتحكم فى الفيضانات العالية وتنظيم إنسياب المياه للأغراض الملاحية وغيرها وأهمها توليد الطاقة الكهربائية ، والتوسع فى النمو الإقتصادى على شواطئ البحيرة سواء فى مصر أو السودان (٥٣) .

لذلك فإن الأمر إقتضى بعد بناء السد ضرورة وضع خطط التنمية ليس فى بحيرة السد فحسب وإنما أيضا فى محافظة أسوان فأنشئ الجهاز الإقليمى لتخطيط أسوان عام ١٩٦٣ وفى سنة ١٩٦٦ قامت برامج الأمم المتحدة للتنمية *UNDP* بدراسات عن البحيرات الصناعية فى افريقيا ووافقت على طلب مصر التمويل لإنشاء هيئة تتولى تنمية بحيرة ناصر ضمن مشروعات مركز التخطيط

الإقليمى لأسوان .

وقد تمت الخطة العملية للدراسة عام ١٩٦٨ واستمرت لمدة سبعة سنوات وتكلفت الدراسة الخاصة بمشروعات لاتنمية ٣,٠٦٤٠٥٦٩ مليون دولارا وإهتمت بالمشروعات فى ميادين الزراعة ، والصيد ، والنقل والسياحة .

ومع بداية السبعينات من هذا القرن أنشئت هيئة تنمية بحيرة السد العالى التى لا تخضع لسيطرة الأجهزة المحلية وإنما تتبع وزارة التعمير مباشرة وكان الهدف من إنشائها :

- دراسة وحصر إمكانيات بحيرة السد العالى وشواطئها وإجراء البحوث اللازمة .

- تنمية المنطقة إقتصاديا وإجتماعيا وسياحيا وزراعيا وصناعيا .

- تنفيذ ومتابعة هذه المشروعات (٥٤) .

والمنطقة طولها حوالى ٣٥٠ كم تقريبا وهى تمثل حوالى من ٢٥٪ إلى ٣٠٪ من طول مصر .

وبدأت الفكرة فى عام ١٩٧٤ وهى إنشاء مجتمعات جيدة إسوة بما تم فى مصر مثل المدن الجديدة كالعاشر من رمضان ، العامرية الجديدة ، النوبارية وغيرها ، وكان من الصعب إقامة مجتمعات جديدة على هذه الأراضى الشاسعة التى تبلغ مساحات شاسعة ولأن تكون جيل جديد فى مجتمع يستلزم مرور ٢٥ على الأقل .

فبدأت تطبيق فلسفة الإمكانيات المتاحة وفتحت كليات حصر هذه الإمكانيات فى الفترة من (٧٤ - ٧٧) مثل الموارد المائية ، التربة ، التصوير الجوى لعمل خرائط جديدة للمنطقة ، فكانت الثروة السمكية مستعملة بجهود فردية غير منظمة مع وجود جمعية للصيادين والذين كانوا يقيمون فى عشش ، وكان إنتاج البحيرة لايزيد عن ١١,٠٠٠ طن من السمك .

- في مجال الثروة السمكية :

وضع خطط لتحديد الأسطول ، والإهتمام بطرق نقل السمك ، وإنشاء مصنع ثلج بطاقة ١٦٠٠ طن يوميا ، ووصل الإنتاج من الثروة السمكية إلى ٣٣,٠٠٠ طن سنة ١٩٧٨ إنشاء لنشات ثلاجة جديدة ، وتوفير الصنادل اللازمة لنقل الأسماك المملحة ، إنشاء وحدة علاجية عائمة لعلاج الصيادين المستوطنين ، إنشاء قرى للصيادين على طول ضفاف البحيرة بنظام وحدة السكن المفككة والتى يمكن تركيبها وتدريب الصيادين على فكها وتركيبها وإذا ما إقتضت الظروف نقلهم إلى منطقة أخرى ، إنشاء وحدة للبحوث السمكية مع الجانب اليابان كان من نتيجة دراساتها إنشاء المزارع السمكية لإضافة أصناف جديدة كالمبروك ، والإهتمام بالأصناف الجيدة من البلطى وهى البلطى النيلى الذى بدأ يقل المخزون السمكى فى البحيرة منه وبدأ مع إنشاء مشرع المفرخات السمكية والذى تكلف ٣,٥ مليون جنية وتصل طاقته إلى ٢٠ مليون زريعة سنويا ، إعادة تربية السمك البلطى النيلى داخل هذه المفرخات .

كما تم تطوير ميناء الصيد ورافع السفن وقد تكلف ٧ مليون جنية وكان الهدف منه هو تحويل ميناء السد العالى إلى ميناءخاص لعمليات الصيد وحركة الوحدات النهرية .

كما أنشئت الورش العائمة التى تكلفت ٥٢٥,٠٠٠ جنية وهى عبارة عن ورش عائمة ذاتية الحركة وذلك لإصلاح وصيانة الوحدات العائمة ، والقيام أيضا بعمليات الإنقاذ والإطفاء .

كما أمكن أيضا إنشاء مشروع وحدات إنتاج ثلجى متنقلة بطاقة ٥,٢ طن مكعب يوميا وذلك لحفظ الأسماك فور صيدها وقد كان هذا المشروع نتيجة خسارة الصيادين من فساد الأسماك عندما يصطادون على مسافات بعيدة من مناطق التجمع .

ونتيجة للدراسات التى قامت بها الهيئة أمكن إنشاء شركة مصر / اسوان لصيد وتصنيع الأسماك برأس مال قدره ١٢ مليون جنية ، والهدف من قيام هذه الشركة هو تصنيع وتعليب سماك البحيرة مع الإستفادة من مخلفات تصنيع الأسماك فى إنتاج العلف .

- الزراعة :

بدأت الهيئة تنفذ فلسفتها فى ضرورة الإنتشار السريع فى أراضى البحيرة وبدأت الإستفادة من آمال النوبية فى ضرورة العودة فى إنشاء مجموعة من المزارع على مساحة قدرها ١٥٠ الف فدان صالحة للزراعة تضم المزرعة حوالى من مائة فدان إلى ٦٠٠ فدان .

- وبدأ بالفعل إنشاء مزرعة كركر التجريبية بمساحة تبلغ ١٥٠ فدان وبها قرية مكونة من ٢٠ منزلا .

- مزرعة كلابشة الشاطئية ومساحتها ٦٧ فدانا .
- مزرعة كلابشة فى المناطق المرتفعة بلغت ٣٠ فدان .
- مزرعة إسلام مساحتها ١٥٠ فدان وبها قرية مكونة من ٤٤ منزل .
- مزرعة السادات مساحتها ٥٠٠ فدان وبها قرية مكونة من ٢٠ منزل .
- مزرعة قسطل مساحتها ٣٠ فدان تروى بنظام الرى السطحى .
- مزرعة جرف حسين مساحتها ١٢٠ فدان .
- مزرعة أبو سمبل مساحتها ١٥ فدان تمد أبو سمبل باحتياجاتها من الخضر .

وقد نجح النوبيون فى بعض هذه المزارع وبدأ النشاط الزراعى والإنتاج الزرعى يزيد إلا أن إنخفضت المياه مع بداية الثمانينات وحتى عام ١٩٨٢ والذى ظهر أثره الواضح فى عام ١٩٨٣ أدى إلى جفاف هذه المزارع .

ومن المعروف أن أقل منسوب للمياه فوق سطح البحر هو ١٤٧ ـ ١٨٢ مترا

والمشروعات الزراعية تقام على منسوب ١٨٢ مترا وبالتالى عندما تنخفض المياه فى البحيرة فإن تكلفة رفع المياه لإرتفاع قدره ٣٥ مترا تكن رهيبة جدا بحيث يرفض الإقتصاديون الموافقة على مشروعاتها فإذا كان الفدان يكلف إصلاحا ٢٠٠٠ جنية فإن تكلفة رفع المياه تصل إلى ٥٠٠ جنية لريه .

لكن هذا لم يمنع الهيئة من القيام بمشروعات الرى فبدأ مشروع رى مزرعة قسطل وتوسعت فى مساحتها لتصل إلى ٣٠٠ فدان عن طريق خط مواسير عائم وثابت يقوم بنقل المياه من أدنى مستوى إلى أعلى مساتوى وهى مسافة قد تصل فى بعض الأحيان إلى ٢٠ كم ، كما تم حفر الآبار الجديدة نظرا لأن الآبار الموجودة كانت لشرب الحيوان أو لزراعة مساحات صغيرة وقد يكلف البئر الواحد ١٠,٠٠٠ جنيه (ونظرا لتركيب وحدة كهربائية طلمبات ومواسير) والبئر يمكن أن يزرع ١٠ فدادين وتم حفر خمسة آبار لرى مزرعة كركر وستة آبار بمنطقة كلابشة ويثرين بوادى الأمل وسبعة آبار على الضفة الشرقية فى مناطق دهميت ، حيمور ، الترجمى .

كما وأن الحيوانات (الجمال) الآتية من السودان تشرب من مناطق بها الآبار وتستريح حولها .

- **الزراعة الشاطئية** : هى الزراعة القريبة من شواطئ البحيرة ولكن نظرا لوجود مساحة كبيرة بينها وبين القرى فقد لا يقبل عليها النوبيون لأنها تحتاج إلى بذل الجهد والإنتقال ومعظمهم موظفين وغير متفرغين .

- **الثروة الحيوانية** : إهتمت الهيئة بالثروة الحيوانية والمراعى وبدأ التوسع فى زراعة الأعلاف والمراعى الخضراء لمشروعات الإنتاج الحيوانى الأبقار ، الماعز ، والأغنام ، والجمال . مع إدخال السلالات الجديدة عن طريق التهجين مع الأصناف المحلية وإنشاء مزارع بحوث تربية الأرانب بوادى كركر وهو عبارة عن ٢٥ بطارية بملحقاتة ويتم التهجين بين الإناث النيوزيلندى والذكور من كاليفورنيا ويتم بيعها حاليا فى أسواق أسوان نظرا لقلة عدد السكان الموجودين بالبحيرة.

- **إنشاء التبانات :** التبانة من التبن وهى عبارة عن سياج خشبى يوضع بداخله التبن والمياه وذلك لإقامة الجمال داخلها أثناء رحلتها من السودان إلى مصر، ونظرا لأن مسطح أراضى البحيرة يصل إلى ٧٠٠ كم ومع وجود حشائش وأشجار يعيش عليها الجمال فيمكن تحويل البحيرة إلى منتجة للجمال .

وبدأت التجربة بمائة جمل بالإضافة إلى وجود وحدة رعاية بيطرية للقوافل ومكان إستراحة " تبانة " للجمال القادمة من السودان ففى رحلات الجمال نجد الناقة الحامل كانت تترك حتى تلد ويترك وليدها ليموت ، وأيضا كانت بعض الجمال تصاب أثناء الرحلة وتترك أيضا لتموت وإن وجود " التبانة" والوحدة البيطرية سيمكن من إتمام علاج هذه الجمال فضلا على أنها قد تشجع بعض المصريين إلى التواجد فى المنطقة بصفة مستمرة لتربية الجمال نظرا لتحسين المراعى وإدخال ثلاث أنواع رئيسية من النباتات تعيش عليها الجمال ويمكن إقامة غابات رعوية تعيش عليها الحيوانات الأخرى كالأبقار والماعز والأغنام وبالفعل قامت قرية السلام بتربية الأغنام وقامت قرية قسطل ووادندان بتربية الأبقار التى توحشت بالفعل وكانت تسهم الهيئة بقرض بين ٣٠٠٠ـ ٥٠٠٠ يرد بعد التربية وبدون فوائد .

- **الثروة التعدينية :**

تتميز المنطقة أيضا بوجود خامات الرخام ، والجرانيت بكميات كبيرة وقد قامت بعض شركات القطاع الخاص بقطعها من المحاجر ، كما أنشئت شركة مصر أسوان للرخام والجرانيت برأسمال قدره مليون جنيه وتقوم باستغلال الرخام والجرانيت والثروة المعدنية بمنطقة البحيرة وتسويق إنتاجها ، وتمت مجموعة من الدراسات الخاصة بالجدوى من الإستفادة من بعض لخامات كالذهب الموجود فى منطقة ام جرايات وحيمور بالعلاقى وكذلك صناعة الزجاج من الرمال والكوارتز التلك بمنطقة عرب ام سليمان وإمكانية عمل قوالب الطوب لأغراض البناء من الحجر الجيرى بمنطقة سن الكداب ، كما أنشئت شركة لمنتجات الخزف ومواد

البناء فى وادى كركر فى إنتاج الطوب الطفلى والبرابخ والسراميك ، والخزف والصينى .

- التنمية السياحية :

تتميز المنطقة بوجود معابر أبى سمبل ، ذات الشهرة العالمية كما أنها تتميز بجو معتدل وتعد مشتى عالميا لدفئها فى الشتاء ، وأنشئ بها مطار لخدمة الطيران والسياحة بأسوان وأبو سمبل ، كما قامت شركة مصر أسوان للسياحة بالتنمية السياحية على ضفاف البحيرة فأقامت قرى سياحية " توت آمون " على الشاطئ الغربى للبحيرة ، وتم تطوير فندق نفرتارتى لإضافة غرف جديدة وحمام سباحة ، وإنشاء السوق السياحى ويجرى الآن إنشاء قرية (فربالية) السياحية ومخيم سياحى وفندق على الطراز المعمارى النوبى ، وفى مدينة أبى سمبل نجد بيتا نوبيا سياحيا يستقبل الزوار والسائحين ويباع داخله المنتجات النوبية اليدوية وتتميز المدينة بالحدائق الجميلة وخصوصا حديقة رمسيس وحديقة نفرتارى .

- النظرة المستقبلية للنوبة القديمة :

ينظر المسئولون بجهاز تنمية بحيرة السد العالى الذى يتبع مباشرة وزارة التعمير أنه يجب أن تنمى المنطقة لتكون آهلة بالسكان بسرعة لأنها من الناحية الإستراتيجية لاتقل أهمية عن سيناء ولذلك يجب أن تتكاتف الجهود من أجل إنشاء المجتمعات الجديدة ومع المقارنة البسيطة لما كانت عليه مديرية التحرير والمقومات الأساسية الموجودة فى المنطقة نجد أنه يجب توعية الشباب إلى تعمير المنطقة وتملك الأراضى بها ، وإن الوقت كفيل بتنمية المنطقة والإستفادة منها وبالنسبة لعودة النوبيين فالهيئة من جانبها لا تعترض على وجودهم مطلقا بل تشجعهم وتجد فى تنظيماتهم وجمعياتهم المسئولة مجالا طيبا للبداية ولكن هذه البداية ضعيفة جدا ولا يمكن الإعتماد عليها ومن الضرورى أن تكون مشروعات التنمية المقامة فى الهيئة وفى البحيرة ليست قاصرة على فئة أو شريحة من المجتمع المصرى وإنما لكل السكان ، ومن الطبيعى أن يكون النوبيون على رأس هؤلاء السكان نظرا لقرب

إقامتهم فى النوبة الجديدة وحسن تنظيمهم ، ولكن لكى يتم التعمير على الوجه الأكمل من الضرورى أن يكون الدافع القوى والقدرة على العمل والعطاء وبذل الجهد العضلى لكى يتم إستصلاح الأراضى والتحمل والتفرغ الكامل والإقامة الدائمة وكلها لايمكن أن تتم إلا فى ضوء إقامة البنية الأساسية فى المنطقة (الكهرباء ، المياه ، الخدمات الأساسية للإتصال ، مشروعات توفير الغذاء ... الخ).

- القروض والمنح :

تتعاون الهيئة مع عدد من الهيئات الدولية العالمية من مساهمة فى تنمية موارد البحيرة الطبيعية وقد عقدت إتفاقات أهمها الإتفاق مع هيئة التعاون اليابان (J.I.C.A.) بهدف حصر الموارد الطبيعية للمنطقة وعمل مشروع تنمية متكاملة لجذب الإستثمار الأجنبى للإشتراك فى مشروعات تنمية الثروة السمكية والزراعية والصناعية والسياحية والتعدينية والتخطيط العمرانى والمواصلات.

وكما سبق أن ذكرت تم بالفعل إنشاء مركز للبحوث السمكية لتنمية مصايد الأسماك بالبحيرة وذلك تنفيذا لما جاء بالتقرير النهائى لمشروع التنمية للبحيرة .

كما ساهمت الحكومة النرويجية بمبلغ خمسة ملايين كرونة بهدف تحديد المخزون السمكى وتطوير معدات الصيد ووحدات تجميع ونقل الأسماك .

وأيضا تقوم هيئة كير بالمساعدة فى مجالات إستيطان الصيادين حول البحيرة وتكثيف عمليات التشجير وإعداد نظام رعاية صحية وإجراء تجاربُ وإستخدام الطاقة الشمسية للرى والكهرباء بالمنطقة .

أما الهيئة فلا تقوم بعقد أى قروض وإن ميزانيتها ميزانية حكومية ولا تستطيع الهيئة الإعتماد على القروض نظرا لأن الحكومة تلزم الهيئات والشركات المقترضة برد الدين وفوائده ولما كانت الهيئة لا تهدف إلى الربح وإنما مشروعاتها كلها خدمات وعندما تنتهى من المشروعات تسلمها للمحليات وهى ترفض القروض أما بالنسبة للمنح فنجد أنها إتفاقات لمساعدة الناس على الإستقرار والإقامة وقد ..

تتمثل فى شكل أدوات تدريب ، أجهزة تنمية المجتمع ، خبراء لوضع الخطط والدراسات الإقتصادية لإنشاء بعض الصناعات ، تساهم الحكومة بميزانية مماثلة من النقد المصرى .

والهيئة اليابانية قدمت مركز أبحاث الثروة السمكية ، وهيئة كير CARE قدمت خدمات المأوى للصيادين ومواسير المياه وبعض أدوات رفع المياه ، وقد يقوم الصيادين بزراعة شاطئية بسيطة للخضروات كى لا يعتمدون فى غذائهم على البقوليات وتقوم منظمة الغذاء العالمية (FAO) بتقديم معونة من الدقيق ، والسكر وغيرها تقدر بمبلغ ١١,٠٠٠ مليون دولار وهذه المعونة توزع على النوبيين المقيمين بصفة دائمة ولكنها مرتبطة بالزراعة وقد خصص خمسة فدادين لكل أسرة فإذا كان تم زراعتها حصل المزارع النوبى على حصته الغذائية كاملة ، أما إذا تراخى ولم يقم بزراعة المساحة كاملة فلا يعطى كمية الغذاء كاملة ، ويتم التفتيش بواسطة مندوبين من المنظمة على حسن سير العمل وعلى التوزيعات وعلى المخازن وطرق الحفظ .

إلقاء الضوء على بعض الجهود الفردية لتنمية النوبة القديمة في قرية السلام

تعد قرية السلام من أقدم القرى التى قدم إليها النوبيون وقد تحمسوا لفكرة تعمير شواطئ بحيرة السد من خلال نداء الحزب الوطنى بأسوان ومن وزارة التعمير ، شكلت لجنة من نادى النوبة العام بالقاهرة ، وضمت بعض الوزراء منهم وزيرى التعمير والأشغال العامة وطرحت على النوبيين الفكرة وهى تعمير القرية أو " العودة إلى النوبة القديمة " فانطلقت مجموعة قرية السلام دون إنتظار وكان السبب هو الحنين لأرض الأجداد أولا كما وأن فترة ربع قرن مضت على الهجرة إلى النوبة الجديدة زادت فيها أفراد الأسرة وبدأت أسر جديدة تخرج إلى الوجود فلم تجد لها مكانا ، وأيضا بالنسبة لكثير من المهاجرين (ويفضل هذا المصطلح

على مصطلح المغتربين) الذين لم ينالوا حظا فى النوبة الجديدة فى تملك الأراضى أو المساكن وجدوها فرصة سانحة لإنشاء وتكوين مجتمع نوبى جديد حول بحيرة السد العالى وتم دراسة جدوى زراعة الشواطئ وذلك فى عام ١٩٧٨ وساعدت وزارة التعمير من أجل التوطين بإقامة ٤٤ منزلا ، ومسجد ، ونادى إجتماعى وثقافى ووحدة صحية ومدرسية .

وبدأ النوبيون وكلهم من الموظفين الذين حصلوا على أجازات بدون مرتب والذين بلغ عددهم ٦٠ فى الزراعة الشاطئية فقاموا بزراعة ٢٥ فدان وقام بعض المسئولين بزيارتهم للتأكد من جديتهم وتم تخصيص مساحة بالقرية بلغت ١٥٠ فدانا مع تقديم المساعدات الغذائية المقدمة لهم بمعرفة منظمة الغذاء العالمى " الفاو " FAO ونظرا لإرتباط النوبيين بأعمالهم الأصلية نقصت جماعتهم إلى (ثلاثين) فردا نظرا لظروف المعيشة الصعبة .

وخلال الفترة السابقة تمت زراعة جميع المحاصيل الحقلية والخضر والفواكه مع زراعة شتلات الفاكهة والنخيل إما بمساعدة هيئة تنمية بحيرة السد العالى وإما بالجهود الذاتية .

وبعد إنحسار المياه وأصبحت المياه لا تصل إلى الأرض التى تم زراعتها وفى هذه الحالة تم تحرك المجموعة مرة أخرى خلف المنسوب للزراعة وهذه هى المشكلة الرئيسية التى تواجه أهالى قرية السلام ويقترحون حلا لها فى مد الأراضى المرتفعة بالمواسير المائية التى يجب أن تقوم بها هيئة تنمية بحيرة السد العالى نظرا للتكاليف الكبيرة التى لايستطيعون أن يتحملوها ، كما وأن تحركهم المستمر إلى الشاطئ من القرية لزراعته أصبحت المسافة بينه وبين القرية مسافة كبيرة جدا وبالتالى فقد فقدوا الخدمات التى تقدم إليهم من القرية مثل التعليم ، الصحة ، والترفيه وغيرها .

وبذلك فإن الأمر يحتاج إلى إقامة عوامات للمياه لرفع المياه بعد إنحسار المياه والوصول بها إلى الأراضى المرتفعة .

وبالنسبة للمشاركة فى إقامة بعض المشروعات الزراعية أبدوا أن الزراعة أصبحت الآن حرفتهم وأنهم قد زرعوا فسائل النخيل مرة ثانية وإذا ما تم إنشاء مشروعات الطلمبات العائمة بمعرفة هيئة تنمية بحيرة السد العالى فإنهم سيتمكنون من زراعة الحبوب والفواكه ويمكن زراعة المزيد من الأراضى ، الأمر الذى يمكن أن يساعد النوبيين الآخرين فى العودة وإعادة توطينهم مرة أخرى فى النوبة القديمة .

وقد ظهرت فى الفترة الأخيرة مجموعة من الجمعيات الزراعية النوبية مثل جمعية السادات ، والتكافل بقسطل وأدندان ، جمعية تلانة ، جمعية أبوسمبل التعاونية الزراعية وجمعية أرمنا وجمعية توماس وعافية وجمعية الديوان وجمعية كرسكو وجماعة مبارك الزراعية وهذه المجموعة تكونت على بعد ١٩١ كيلو بالضفة الغربية بالبحيرة حيث يوجد وادى عافية وهى مكونة من ٥٠ عضوا حيث ترك رئيسها الوظيفة فى إجازة وإستطاعت الجماعة زراعة ٢٠ فدانا من الذرة الشامية واللوبيا والكوسة والسبانخ والخيار والملوخية وغيرها من الخضروات .

إن الرغبة والحنين إلى أرض الأجداد دفع هذه المجموعات إلى التوجه إلى النوبة القديمة ولكن لكى يتم التعمير وإستصلاح الأراضى فلا بد من إتمام البنية الأساسية وهذه لايستطيع الأهالى أنفسهم القيام بها ، كما وأن هيئة تنمية بحيرة السد العالى لاتستطيع القيام بها إلا فى ضوء توفير الإعتمادات المالية الكبيرة.

ـ النوبة والتغير :

إذا كنا قد عالجنا فى الجزء الماضى ما أحدثته التنمية من أثر واضح على النوبيين سواء فى النوبة الجديدة أو الجماعات الصغرى النوبية التى بدأت فى الإستيطان على ضفاف البحيرة وتكوين قرى جديدة تعيش على الزراعة الشاطئية والزراعة فى المناطق المرتفعة مع إستغلال الموارد المتاحة الأخرى كالصيد أو السياحة وغيرها ، فهل تم تغير إجتماعى وثقافى على النوبيين إزاء ماحدث من عمليات التنمية المختلفة ؟

مما لاشك فيه أن التغير الإجتماعى نوع من التطورات التى تحدث تأثيرا فى النظام الإجتماعى أى تؤثر فى بناء المجتمع ووظائفه وهو جزء من عملية أكبر وأوسع من عمليات التطور فى المجتمع وهى تلك التى يطلق عليها إسم " التغير الثقافى " والتغير صفة أساسية من صفات المجتمع ويخضع هذا التغير لتيارات وعوامل ثقافية وإقتصادية وسياسية يتداخل بعضها فى بعض (٥٥).

ويختلف التغير الثقافى بإعتباره عملية أكبر وأوسع من عملية التغير الإجتماعى لأن التغير الثقافى قد يشمل العناصر الثقافية الموجودة فى المجتمع فضلا على التغيرات التى تحدث فى أشكال وقواعد النظام الإجتماعى (٥٦).

ولقد زاد الإهتمام بدراسة التغير فى المجتمع إزديادا كبيرا فى السنوات الخمسين الأخيرة وبخاصة فى ميدان الأبحاث والدراسات الأنثروبولوجية نتيجة لإتصال الشعوب التقليدية بالثقافات الغربية.

ويرى الدكتور أحمد أبو زيد أن إهتمام علماء الأنثروبولوجيا بموضوع التغير يعد إنقلابا فى مجال الدراسات التى كانت تقتصر فى الأصل على دراسة النظم الإجتماعية أو الثقافية فى حالتها الإستاتيكية بحيث تكتفى بوصف مكونات البنا . الإجتماعى أو مكونات الثقافة فى مجتمع محلى معين بالذات وفى فترة معينة بالذات أيضا بقصد إبراز الخصائص الأساسية والمميزات الجوهرية لذلك البناء أو الثقافة (٥٧).

وقد يهتم كثير من الإجتماعيين والأنثروبولوجيين بدراسة التغير فى البناء الإجتماعى والذى يتم على مستويين :

ـ إحتمالات الاختراعات التكنولوجية البسيطة التى لا تخلق روح التحدى فى البيئة .

ـ التأثيرات التكنولوجية الكبيرة فى المجتمع والتى تحدث التحول الذى يمكن ملاحظته بسهولة مثل إستئناس الحيوان ، إختراع الزراعة ، إستخدام الرى ،

إكتشاف البخار ، إختراع الآلة البخارية .

ويرى ولبرت مور *W.Moore* أن الإكتشافات التكنولوجية البسيطة تحدث بعض التحسينات بينما التغيرات المصاحبة للإختراعات تكون لها آثار كبيرة (٥٨) .

ويرى *M.Park* أن التغير الثقافى يحدث نتيجة التفاعل بين الإختراع والإنتشار فى أشكاله المختلفة كما وأن التغير الثقافى مثل التغير البيولوجى فى أساسه تفاعل بين التحول والصفات الوراثية .

ويعترف بأن البحث عن إتجاه التغير الثقافى قد أدى إلى إدراك أن الثقافة والتغيرات الثقافية أمور معقدة ، هذه الأنساق الثقافية العقدة تجعل المجتمع يتواءم مع البيئات الطبيعية المعقدة ومع البيئة الثقافية نفسها ويجب عند دراستنا للتغير الثقافى أن نبحث عن الأشياء المنظمة مثل الإتصال بين النمط المادى والتنظيم الإقتصادى والقرابة والدين ، أفكار الناس ، دوائر الإنتاج، مواقف الأفراد وغيرها(٥٩) .

ويشير هوبل *E.Hoebel* إلى أهمية عملية الإنتشار *Diffusion* التى تساعد على الإكتساب الثقافى نتيجة للتغير الثقافى الذى يكون عنيفا تحت تأثير سيطرة وهيمنة أكثر ثقافية ومجتمعية وذلك فى حالة الإعتماد على الإتصال الثقافى، إنها صيغة خاصة من التغير الثقافى داخل المجتمع وتجرى عملية الإكتساب الثقافى على مستويات مختلفة وقد تحدث الأزمات الثقافية عندما لا تتحقق القيم ، ويشير إلى ضرورة التعاون بين الجوانب المادية والحيوية نتيجة الإحتكاك الثقافى فى ضوء الأنماط الأيديولوجية الموجودة (٦٠) .

ويرى الدكتور محمد الجوهرى أن التغير الثقافى يمكن أن يتم بشكل متناغم أو بشكل مختل ويتميز التغير الثقافى المختل بوجود فروق كبيرة واضحة فى السرعة التى يتم بها والمدى الزمنى الذى تستغرقه مجالات التنمية ، أو فى مجالات الثقافة المختلفة ، كما قد يتميز التغير الثقافى المختل بعمليات الإندفاع إلى الأمام والتقهقر والتمدد والجمود والدينامية والإستاتيكية .

ويصف الأنثروبولوچيون الثقافيون المحدثون هذا الموقف بأن الفرد يتعرض في مثل هذه الحالة لإخلال بمبدأ التعامل الوظيفي الداخلي ، كما يختل التوازن الذي ينبغي أن يتحقق بين العناصر الثقافية المختلفة في داخله ، ومن الممكن أن يترتب على هذا أن تشهد الثقافة في المرحلة الإنتقالية ظهور ثقافات فرعية متباينة مزدوجة بحيث نجد داخل المجتمع قطاعا أكثر تقدما من الآخر أو قطاعا أكثر إرتباطا بالتراث من الآخر ، والواقع الذي حدث بالفعل أن التغير الثقافي الدينامي الذي تم حتى الآن قد حدث بشكل يختلف أو غير متوازن ، وإن مشكلات التغير المختل أو غير المتوازن سوف يتأكد لنا في النهاية أنها هي المسئولة عن المشكلات الأساسية التي تعترض التنمية وتُحد منها (٦١) .

وقد يتبادر إلى الذهن تساؤل مؤداه هل من الممكن إحداث تغير في أنساق القيم عن طريق تنمية هذه الأنساق نظرا لأن قيم المجتمع إنما تعكس طبيعة العلاقات الإجتماعية المختلفة الموجودة داخل المجتمع (٦٢) . وهذا ما لاحظناه في مجتمع الدراسة بالنوبة خصوصا بين الشبان وما سنوضحه فيما بعد .

وإذا كنا قد أوضحنا من قبل أن السدود تحدث تغيرا في المجتمعات الإنسانية المختلفة فإن السدود أيضا ـ كنوع من التغير التكنولوجي الكبير ـ يصاحبها عمليات تنموية تحدث تغيرا إجتماعيا وثقافيا كبيرا قد يصل ليس إلى الأنماط الثقافية التي يعيشها المجتمع وإنما قد يشمل أيضا القيم الإجتماعية والثقافية في هذه المجتمعات .

ولقد أثبتت البحوث الأنثروبولوچية أنه من المتعذر إلغاء عوامل التغير وعملياته ويقوم الأنثروبولوچيون بدراسة التكيف الإنساني لهذه التغيرا التكنولوجية في الشعوب ومن ثم كما يرى كل من بيرنارد ***H.Bernard*** وبلتو ***P.Pelto*** أن التكنولوجيا لم تعد هدف الدراسات الأنثروبولوچية في حد ذاتها وإنما هدفها يجب أن ينصب على الإنسان وكيف يتكيف معها ، وقد يرجع إبعاد الأنثروبولوچيين عن دراسة التنمية التكنولوجية إلى التغيرات التي تحدث وإلى خوفهم أن هذه البحوث

والدراسات تركز على الجوانب المادية والتكنولوجية وتبعدهم عن الجوانب الإنسانية . كما أن الإهتمام بالدراسات التكنولوجية والعمليات التكنولوجية المصاحبة ستركز على التأثيرات التكنولوجية والإقتصادية وستبتعد عن الدراسات التكاملية والكلية التى نحتاجها حتى نستطيع أن نلقى الضوء على أزمنة البنية الإنسانية (٦٣) .

وفى الدراسة الحقلية وجدنا تغيرا كبيرا قد أحدثته التنمية فى النوبة الجديدة هذا التغير دفع بعض كبار السن إلى التنازل عن القيم المتعلقة بالعودة إلى أرض الآباد والأجداد نظرا لاستقرارهم وأسرهم فى النوبة الجديدة فى عام ١٩٦٤ أما الأجيال الجديدة التى ولدت فى النوبة الجديدة ـ وفى رأينا نتيجة المشرعات التنمية الكبيرة التى تمت فى النوبة الجديدة واشتملت على جميع جوانب الحياة المادية والفكرية ـ فيرفضون رفضا باتا فكرة العودة إلى أرض الأجداد كقيمة من القيم النوبية ، ويرى بعضهم أن هذه مجرد تلميحات أو اشارات من بعض كبار السن الذين مازالوا يتذكرون أرض الأجداد ولم يروا ماحدث فيها من تغيرات ، وأن السد العالى قد غمر هذه الأرض وتحولت تحولا أيكولوجيا كبيرا .

وقد ساعد على تغير هذه القيم الهجرات المختلفة من النوبة فدعا هؤلاء النوبيون الذين يطلق عليهم مصطلح " المغتربين " وهذا المصطلح مرفوض من الناحية القيمية فى مجتمع الدراسة فمازالت الروابط الإجتماعية والثقافية قائمة بينهم وبين أقاربهم فى النوبة الجديدة ، وهو كثيرا ما يمثل مقياسا حقيقيا لما يشاهدونه عند عودتهم فى كل عام فى أجازات يشهدون ما أحدثته التنمية من تغيرات إجتماعية كبيرة ، وما يتمتع به أقاربهم من إستقرار يدفعهم إلى التقدم لمركز نصر النوبة بطلبات للإسكان سواء عن طريق الوحدات التى يبنيها المركز أو عن طريق تملكهم لبعض الوحدات الصغيرة وإحداث تغييرات بها هؤلاء يعدون سببا مباشرا أمام الشباب فى عدم العودة إلى النوبة القديمة ، فإذا كان كبار السن من المهاجرين ينادون بالعودة إلى أرض النوبة ويتمسكون بأرض الأجداد فلماذا يتكالبون على إمتلاك الوحدات السكنية فى النوبة الجديدة إذن ؟

ـ الخاتمة :

يرى بيتر جيزر P.Geiser بأن الزراعة كانت بعيدة بعدا تاما عن إختيار النوبيين لها كمهنة فى البداية وكان من الطبيعى أن يهاجروا إلى المدن الكبيرة والمدن الصغيرة يبحثون عن العمل حتى فى الوظائف والأعمال التى تتعلق بالخدمة فى المنازل ، وكانوا ولا يزالون يستأجرون الفلاحين المصريين لزراعة الأراضى النوبية الضئيلة وأن النوبيين يتبادلون أسطورة فحواها أنه لولا بناء السد ما ترك نوبى النوبة وهذه الصيغة تعد صيغة ثقافية للحفاظ بها على الماضى ، وإذا كانت العودة بالنسبة لكبار السن من النوبيين تعد حلما ورغبة [١] . فإننا نجد أن الشباب ممن تربوا فى النوبة الجديدة لايرون فى العودة أملا لهم وإنما أملهم فى الإستمرار على أرض النوبة الجديدة حيث تتوفر سبل الحياة اليومية والخدمات الكثيرة .

ونعرض فيما يلى أهم النتائج التى أسفرت عنها الدراسة وبعض التوصيات :

ـ أثبتت الدراسة أن هناك تغيرات فى أفكار النوبيين نحو العودة وإذا كان بعض كبار السن الذين لهم ذكريات فى النوبة القديمة فقد حدثت تغيرات إيكولوجية كثيرة فظهور البحيرة والأراضى المغمورة ، وإنشاء الطرق كلها غيرت من شكل النوبة القديمة .

ـ أما بالنسبة للشباب فقد رأى أن مستقبله فى النوبة الجديدة لما يقدم من خدمات تعليمية وصحية وإجتماعية وتموينية ووسائل الرفاهية المتاحة بها .

ـ قيام الأندية النوبية والتنظيمات النوبية الأخرى بدور كبير فى التنمية داخل النوبة الجديدة والمساهمة فى مشروعات أقيمت بالجهود الذاتية كبناء المصليات ، وإصلاح المساجد ، وبناء الفصول المدرسية ، مكاتب البريد والتليفون وغيرها .

ـ وإستطاعت هذه الأندية تكثيف الجهود وإثارة الحماس من أجل العودة

إلى النوبة وإستطاعت تكوين جمعيات مختلفة مثل جمعية السلام وغيرها وذلك لإرسال فرق للعودة .

ـ المساحة الكبيرة للبحيرة تحتاج إلى جهد حكومى ضخم لتنميتها لا تستطيع الجماعات المختلفة القيام به .

ـ ضرورة الإهتمام بتعمير الحدود الجنوبية من الناحية الإستراتيجية .

ـ إعطاء أولويات الإقامة وتملك الأراضى المستصلحة للنوبيين الراغبين فى العودة بشرط وجود رغبة حقيقية فى التنمية والتفرغ الكامل لعملية الإنتاج الزراعى وليس تملك الأرض من أجل أن يقوم الآخرون بزراعتها كما حدث فى معظم أراضى النوبة الجديدة بنظام المشاركة فى المحاصيل الزراعية المنتجة .

ـ ضرورة إنشاء شركات زراعية كبيرة ليس هدفها مجرد إستصلاح الأراضى وإنما زراعتها وتنميتها وخلق مجتمعات جديدة عليها .

ـ إن عملية تكوين مجتمعات جديدة على أراضى البحيرة ستتطلب فترة طويلة لا تقل عن ٢٥ سنة والموجود الآن مجرد تجمعات أو جماعات صغرى من النوبيين وغيرهم .

ـ ضررة تضافر جهود المتخصصين فى المجالات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية لوضع خطط المستقبل للبحيرة .

ـ الحاجة إلى مزيد من الدراسات المكثفة الأنثروبولوجية والإجتماعية بالنسبة للتجمعات العمرانية الجديدة ، النوبة القديمة للوقوف على طبيعة هذه التجمعات وعلاقاتها الإجتماعية ونظمها وأبنيتها .

ـ الإهتمام ببذل المزيد من الجهد لتوطين بدو العلاقى فى المنطقة ومحاولة إيجاد المستوطنة كمركز تجمع بدوى على أن تطور حرفة الرعى لمشروعات الإكثار من مشروعات الثروة الحيوانية عن طريق إدخال عناصر جديدة أما بالنسبة للزراعة يمكن أن تبدأ بزراعة البساتين حتى يتعود البدو على نمط الزراعة المكثفة فيما بعد.

ـ الإهتمام بتنمية النوبة الجديدة (كوم امبو) كمجتمع نوبى متكامل وإقامة المشروعات التنموية الجديدة فى ضوء السياسات التنموية الحديثة التى تعتمد على المشاركة الناس أنفسهم ليس فقط فى المشروعات التى تنفذ وإنما أخذ رأيهم فى هذه المشروعات قبل بدايتها وهذا يبلور فلسفة الجهد المشترك بين الحكومة والأهالى كما أنه يكون حافزا على مزيد من المشاركة سواء من الأهالى فى منطقة النوبة الجديدة وقراها أو فى مناطق أخرى كثيرة .

ـ توافق أفكار كثير من الشباب فى النوبة عن التنمية بالنسبة للنوبة القديمة عن مجموعة المشروعات الضخمة التى تتناول موضوع الزراعة والثروة الحيوانية ، والصيد ، والسياحة ، والتعدين .

ـ ضرورة إنشاء وحدات للخدمات السريعة على الطرق الجديدة التى أنشأت حتى تشجع على إستخدامها .

ـ نقل ميناء أسوان إلى أبى سمبل وجعله البوابة الجنوبية لمصر كوسيلة لتعمير وتنمية المنطقة وللتخفيف عن مدينة أسوان .

ـ الإهتمام بالمشروعات السياحية التى تجذب السائحين نظرا لتوفر المنطقة الأثرية والجو اللطيف وتقديم خدمات تجذب السائحين ليس فقط فى أيام محدودة من السنة كإقامة سياحة الإستشفاء وغيرها .

ـ الإستفادة من مميزات الجماعات العرقية بالنسبة لسيطرة نسق القيمُ والعادات والتقاليد والتشابه الثقافى عند إختيار سكان القرى الحديثة وضرورة عدم الخلط والمزج بين النوبيين كجماعة عرقية وبين بقية الجماعات المصرية وضرورة المحافظة على التركيب السلالى داخل كل جماعة عرقية (الكنوز ، النوبيون ، العرب) .

ـ يحرص النوبيون على إقامة المدارس بالجهود الذاتية وهذا يؤكد فكرة أن الجماعات العرقية أو جماعات الأقلية تبحث دائما عن مجالات أخرى للتفوق ، ..

فبينما تبحث الأغلبية عن عوامل الثراء ـ على حد قول هاريس ـ فقد تحرص الجماعات العرقية على الحصول على المركز الإجتماعى عن طريق التعليم .

ـ الإعتداد النوبى بالجنس إعتدادا شديدا وحديثهم الدائم عن التراث النوبى والعادات والتقاليد النوبية والقيم المتمثلة فى الأمانة والصدق وحسن الخلق .

ـ الحاجةالدائمة فى مجتمع الدراسة إلى وجود الإستثناءات الخاصة ومعاملة متميزة للنوبيين لما قدموه من تضحيات منذ بناء سد أسوان فى بداية هذا القرن وهذا يؤكد وجود مشاعر الأقلية .

ـ إن حجم الأراضى الصالحة للزراعة فى البحيرة تحتاج إلى حملة قومية مصرية يشترك فيها الجميع من أجل تنمية النوبة القديمة بإعتبارها البوابة الجنوبية لمصر ولأسباب إستراتيجية يجب ألا تترك خالية من السكان إلا الأعداد القليلة التى وفدت سواء من النوبة أو من صعيد مصر لتجد مكانا لها على أرض مصر .

- الهوامش والمراجع :

(1) Bernard. H.R. & Pelto, P.J. Technology and Social Change, The Macmillan Company, New York, 1972, PP. 1 - 2 .

(2) Harris, M., The Rise of Anthropological Theory, Thomas Y. Crowell Company, New York, 1968, P. 2 .

(٣) قام الأنثروبولوجيان سكودرTh.Scudder واليزابث كولسون بدراسة تأثيرها مشروع سد الكاريبا وأشارا إلي أهمية المشروع في إحداث تغير ثقافي وتأثير كبير علي الشخصية في مجتمع الدراسة بزامبيا أنظر :

Scudder, Th. & Colson EL. F., " The Kariba Dam Project : Resettlement and Loca.ion and Local Initiative " in Technology and Social Change, Op.Cit.

(4) Fahim, M., Dams, People and Development the Aswan High Dam Case, Pergamon Press, New York, 1981, P.4 .

(5) Ibid., PP. 39 - 40 .

(٦) أحمد أبو زيد : " البناء والبنائية دراسة في المفهومات " المجلة الاجتماعية القومية ، المجلد السابع والعشرون ، العدد الثاني مايو ١٩٩٠ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٦، ص ١٢٧ .

(7) Pelto, P.J., Anthropological Research, the Structure of Inquiry Harper & Row Publishers, New York, 1970, PP.264 - 265 .

(٨) أنظر :

- Kroeber in Anthrpology Today , Chicago, 1953 ,

ويقوم قسم الأنثروبولوجيا منذ إنشائه في عام ١٩٧٤/١٩٧٥ بتدريب الطلاب تدريبا حقليا مكثفا من خلال القيام بدراسة لأحد المجتمعات المحلية القريبة مثل مجتمع رشيد ، مجتمع البرج ، مجتمع الحمام ، وفي مجتمعات بعيدة مثل مرسي مطروح وسيوه والوادي الجديد وغيرها ويستخدم أسلوب فريق العمل أو التدريب الجماعي فيقسم الطلاب إلي مجموعات عمل صغيرة تكون كل مجموعة مسئولة عن تغطية المعلومات الحقلية عن أحد النظم الاجتماعية أو عن عنصر واحد ثقافي .

(9) Kluckhohn, C., : A Comparative Study of Values in Five Cultures, American Archaelogy and Ethnology, Vol. 4/No.l.

أنظر : محمد غامري ، المناهج الأنثروبولوجية ، المركز العربي للنشر والتوزيع ، ١٩٨٢ ، ص ٤٣ : ٤٩ . .

(١٠) الوحدة المحلية لمركز مدينة نصر النوبة ، وقد تم حصر السكان المقيمين في النوبة عام ١٩٧٦ فبلغ عددهم ٥٧٠٦٧ نسمة ومع حساب نسبة زيادة سنوية قدرها ٢,٨٪ فإن عدد السكان يبلغ ٧٤٢٤٢ نسمة .

(١١) عبد الباسط محمد حسن ، أصول البحث الاجتماعي ، مكتبة وهبة ، القاهرة، الطبعة الثامنة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٧٠ .

(12) Fernea, R.A., & Kennedy, J.G., Initial Adaptations to Resettlement : A New Life for Egyptian Nubians , In Current Anthropology, Vol. 7, No. 3, June, 1966, P.349 .

(١٣) محمد عوض ، السودان الشمالي ، سكانه وقبائله ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ ، ص ٣٠٠ .

(14) Fahim, H.M., Op.Cit., P. 59 .

(١٥) وزارة الشئون الاجتماعية ، تهجير أهالي النوبة ، دار ومطابع الشعب ، (بدون تاريخ نشر) ، ص ٢٠ .

(١٦) السيد حامد ، النوبة الجديدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ، ص ٢.

(١٧) فاروق إسماعيل ، إثنوجرافيا كارلنجا ، دراسة في التغير الثقافي في جبال تلس جنوب كردفان ، السودان ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٢ ، ص ٦ .

(18) Fahim, H.M., Op.Cit., PP. 63 - 65 .

أنظر أيضا : عز الدين محمد يس (سكوري) أضواء علي المجتمع النوبي شماله وجنوبه مطبعة السلام الجديدة ، ١٩٨٨ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٥ .

(19) Morris, Ethnic Groups , in I.E.S.S., Vol. 5 and 6, David L. Sills editor the Macmillan Comp. & The Free Press, New York, 1969. P. 167 .

(20) Ibid., P. 169 .

(21) Ibid., P. 171 .

(٢٢) حسن شحاتة سعفان : (اعتداد بالجنس) معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ ، ص ٤٩ .

(٢٣) فاروق اسماعيل : العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية ، دراسة في التكيف والتمثيل الثقافي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٤٢ ـ ٤٩ .

(24) Yinger, J., M., Aminority Group in Society, A Berkley Medallion Student Edition Published by Berkley Publishing Corporation, New York, 1966, P.xiii

(25) Rose A.M., Minorities, in I.E.S.S., Vol. 9 - 10, P. 356.

(26) Yinger, Op.Cit., PP. 27 - 28 .

(27) Harris, M., Cultural Anthropology, Harper & Row Publishers , Second Edition, New York, 1987, PP. 245 - 246 .

(28) Rose , A.M., Op.Cit., P. 366 .

(29) Ibid., PP. 367 - 368 .

(30) Despres, Leo, Ethnicity and Resource Competition in Plural Societies, L. Despres ed. PP. 87 - 117 The Hangue Mouton, 1975 .

أنظر :

- Schermerhorn, R.A., Comparative Ethnic Relations, Random House, New York, 1960 .

- Wagley, Charles, and M. Harris, Minorities in the New World, Columbia University Press, New York, 1958 .

(31) Harris, M., Op.Cit., P. 246 .

(32) Ibid., PP. 246 - 247 .

(33) Sanjer, R., Cognitive Maps of Ethnic Domain in Urban Ghana : REflections on Variability and Change, American Ethndogist 4. PP. 603 - 622 .

(34) Fernea, R., & Gerste, G., Nubian in Egypt, Austin University of Texas, 1973, P. 37 .

(35) Mair, L., Anthropology and Development, Macmillan Press, London, 1984 , PP. 1 - 4 .

(36) Fahim, H., Op.Cit., PP. 117 - 118 .

(37) Evans, D.D., & Adler, N., Appropriate Technology of Development, West View, Press Boulder, Colardo, 1979, P. 10 .

(٣٨) فاروق أحمد مصطفي وأخر ، دراسات في الأنثروبولوجيا التطبيقية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٩ ، ص ٣٤ .

(٣٩) أحمد أبو زيد : التقديم لكتاب د علية حسين ، التنمية نظريا وتطبيقيا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ . ص ز ، ص ل

(40) Edward, A.D., & Jones, D.G., Community and Community Development, Mouton the Hague, Paris, 1975, P. 138 .

(41) Lagass, T.H., Community Development in Manitaba, in Human Organization Vol. 24 Winter 1965 , No. 4, P.234 .

(42) Macgregor, G., Community Development and Social Adaptation , in Human Organization, Vol. 24, Winter 1968 , P. 245 .

(٤٣) محمد توفيق صادق ، التنمية في دول مجلس التعاون ، دروس السبعينات وآفاق المستقبل ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ١٢٢ ، ١٩٨٦ ، ص ٥٦ .

(٤٤) محمد الجوهري ، علم الاجتماع وقضايا التنمية في العالم الثالث ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠ ، ص ١٦١ .

(45) Thomson, L., Is Applied Anthropology Helping to Develop a Science of Man, in Human Organization , Vol. 24 Winter 1965, No. 4, P. 283 .

(46) Mair, L., Op.Cit., P. 10 .

(٤٧) فاروق أحمد مصطفى وآخر ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٤٨) محمد الجوهري وآخرون (المترجمون) مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ، جـ ٢، تأليف رالف بيلز ، هاري هويجر ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٧ .

(٤٩) المرجع السابق ، ص ٨٣٧ .

(50) Beals, R. & Hoijer H., Peals, A., An Introduction to Anthrpology, Macmillan Publishing Co., New York, 1967, P. 658 .

(51) Bernard H.R., and Pelto, P., Technology and Social Change , Op.Cit., P. 71 .

(52) Scudder, Th., and Colson E.F., The Kariba Dam Project Resettlement and Local Initiative, in Technology and Social Change , Op.Cit., PP. 40 - 69 .

(53) Fahim, H., Op.Cit., P. 121 .

(٥٤) قمت وفريق البحث بعقد عدة مقابلات للوقوف علي ماقامت به الهيئة من مشروعات في مجال التنمية وللبحث عن مجموعة من التساؤلات التي يثيرها مجتمع الدراسة تتعلق بالإعانات الأجنبية حيث ذكر مجتمع الدراسة أرقاما فلكية في هذا المجال وأيضا أن هيئة تنمية بحيرة السد تضع العراقيل أمام الهجرة المنظمة للنوبيين إلي منطقة البحيرة أرض الأجداد ، والمادة الإثنوجرافية مصدرها المهندس حامد طلبة نائب رئيس الهيئة وقد تم تسجيل مجموعة المقابلات علي شرائط كاسيت .

(٥٥) السيد بدوي تغير اجتماعي ، معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٦٥ .

(٥٦) السيد بدوي تغير ثقافي ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

(٥٧) أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعية ، جـ ١ ، المفهومات ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٠ .

(58) Moore, W., E., Social Change, Prentice-Hall of India . New Delhi, 1965 . P. 77 .

(59) Park, M., A., Anthropology An Introduction , Harper and Row Publishers, New York, 1986, PP. 363 - 364 .

(60) Hoebel E.A., Anthropology : The Study of Man, McGraw Hill Book Comp., Fourth Edition, New York, 1972, PP. 667 - 668 .

(٦١) محمد الجوهري ، مرجع سابق ، ص ١٨١ ــ ١٨٩ .

(٦٢) أنظر الدراسة الخاصة بالوعي الثقافي في التنمية من الداخل للمرحوم محمد علي محمد ، مطبعة جامعة الاسكندرية ، ١٩٨١ ، ص ١٨٦ وما بعدها .

(63) Bernard H.R. and Pelto P.J., Technology and Social Change. Op.Cit., PP. 319 - 331 .

(64) Geiser, P., The Egyptian Nubian, A Study in Social Symbiosis, The American University in Cairo Press, 1987 , PP. 319 - 220 .

الفصل السادس

الأنثروبولوجيا الطبية ودراسة المرض *

- مقدمة
- مفهوم المرض
- مداخل دراسة المرض
- نظرية المرض
- مراحل المرض
- الأدوار الاجتماعية للمرض
- تطور استراتيجيات المرض
- المرض والتطور والتحولات الاجتماعية
- المرض والفئات العمرية والنوعية والمهنية
- تصنيف المرض
- أهم المراجع

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة/ هندومة محمد أنور حامد، أستـ مساعد الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الاسكندرية .

الفصل السادس
الأنثروبولوجيا الطبية ودراسة المرض

ـ مقدمة :

يعد موضوع المرض من الموضوعات التى تجذب إهتمام كل من الأطباء وعلماء الإجتماع من ناحية والأنثروبولوجيين من ناحية أخرى وذلك لأن المرض حالة من الإضطراب أو إختلال للنواحى الوظيفية فى الجسم أو لأسباب حيوية "بيولوجية" تجعل عدم قدرة أعضاء الجسم على أداء وظائفها على الوجه الأكمل كما أنه يتعلق بطبيعة الفرد نفسه من حيث سلوكه فى الحياة . وفى الوقت نفسه هناك علاقة وطيدة بين المرض والعوامل المجتمعية فهناك العديد من المتغيرات الطبيعية والإجتماعية والثقافية التى تساعد على الإصابة بالمرض وأن حالة الإنسان الصحية هى فى الواقع نتاج تفاعل البيئة الإجتماعية والثقافية والطبيعية إذ أن تدنى الحالة الصحية للكثير من الأفراد وإنتشار الأمراض يعد نتاجا لأسلوب الحياة والعديد من المتغيرات كالجهل والأمية والمعتقدات والممارسات الشعبية والسحرية والعادات الخاصة بالصحة والمرض فهذه المعتقدات متمكنة من أعماق النفس الإنسانية وموجودة فى كل مكان سواء عند الريفيين أو الحضر ، عند غير المثقفين والذين بلغوا مرتبة عالية من العلم والثقافة فالمعتقدات الشعبية موجودة وفى كافة الطبقات وعلى كل المستويات وإن ميدان الطب الشعبى يضم العديد من المعتقدات والمأثورات الخاصة بالصحة والمرض كما أن أنماط التفاعل الأسرى والتنشئة الإجتماعية والمشاكل الأسرية ومايتبعها من مشاكل وأمراض نفسية يضاف إلى ذلك التغير الإجتماعى والتحضر وما يصاحبها من مشكلات إجتماعية وصحية ومن هنا بدأ إهتمام الأطباء فى السنوات الأخيرة يتجه إلى العلوم السلوكية وبالأخص العوامل الثقافية والإجتماعية والسيكولوجية المؤثرة فى المرض

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة/ هندومة محمد أنور حامد، أستاذ مساعد الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الاسكندرية .

وأدركوا أن هناك تداخلا إلى حد ما بين العوامل العضوية وغير العضوية كمحددات حقيقية للمرض [١] . وهكذا نجد أن المرض أصبح يعرف تعريفا بيولوجيا وإجتماعيا وثقافيا يختلف باختلاف المجتمعات والثقافات وعلى هذا حاولت إلقاء الضوء على مفهوم المرض فى المجتمعات التقليدية والغربية حيث يذهب العديد من الباحثين والعلماء الأنثروبولوجيين أنه فى نطاق المجتمعات الغربية يؤمن السكان بالعلم كما يظهر لديهم نمط التفكير العلمى المنطقى فى تحليل الأشياء والنظرة للعالم كما يميلون إلى البحث عن الأسباب المنطقية العقلانية المادية وراء حدوث الظاهرة بينما تميل الشعوب البدائية وبعض المجتمعات التقليدية الى الإعتقاد بأن القوى فوق الطبيعية وراء حدوث مختلف الظواهر الطبيعية والأحداث اليومية والكونية كالمرض تسببه الأشباح والأرواح الشريرة وإيمانهم بوجود كائنات إنسانية تسبب المرض كالسحرة والمشعوذين الذين يستخدمون السحر الأسود وعدم قدرتهم على إدراك الأسباب المنطقية المباشرة المسببة للمرض وذلك لعدم مقدرتهم على فهم وإدراك مفهوم الحادث [٢] . كما سأوضح لمفاهيم المرض البيولوجية والثقافية والإجتماعية والمراحل التى يمر بها المرض وأدواره والقاء الضوء على تطور المرض ونظريته والأسباب المؤدية له وتصنيفه وذلك لأن مشكلات المرض والصحة فى واقع الأمر مشكلات إجتماعية إلى الحد الذى تهدد فيه تحقيق الأهداف المجتمعية ، ولاشك أن محاربة المرض ومكافحة كل مايهدد صحة الإنسان وتوضيح سبل العلاج والوقاية تعد هدفا أساسيا يساعد بدور فعال فى المحافظة على سلامة أفراد المجتمع وتوفير السعادة ، فالصحة هدف من أهداف التنمية الإجتماعية والإقتصادية حيث إعتبر الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين أن احتراف الطب من أجل الشفاء من المرض يعتبر فرض كفاية وهو أمر لايحتاج الى بيان فإن حاجة الإنسان إلى الطب حاجة أصيلة وليس حاجة لاحقة يحتاجه الإنسان فى صميم ذاته وكيانه فإن الإنسان إذا إشتد به المرض أو الألم لم يعد يلتذ بشئ فى الحياة سواء من رزق أو متعة أو طعام وشراب [٣] . كما أن النشاط

الطبى يتطلب فهما واعيا للظروف الاجتماعية والثقافية التى تؤثر على إدراك الفرد لدى حاجته للمساعدة الطبيعة وقراره بالبحث عنها وإستجابته لها ، فالمجتمع يرفض الأمراض أو يستجيب لها ، يثير العلل أو يمتصها حسب نمط بنائه الإجتماعى والثقافى ونظامه الإقتصادى ، وحسب تنوع جماعاته وتفاوت طبقاته الاجتماعية علاوة على دور البيئة الاجتماعية والأسرة فى إتخاذ دور القرار الطبى بالتماس الخدمة عند الحاجة .

ـ مفاهيم المرض :

يعد المرض ظاهرة عامة تشترك فيها كل الثقافات والمجتمعات باختلاف درجات تقدمها التكنولوجى ولايخلو منه أى نمط من الأنماط الإجتماعية لكن الإختلاف هنا يكمن فى أسلوب إستجابة السكان للمرض فما يعد مرضا فى مجتمع ما لايعتبر كذلك فى مجتمع آخر ومايعتبره السكان أعراضا مرضية فى أحد الثقافات لايعد كذلك فى ثقافة أخرى كما أن أسباب المرض تختلف باختلاف الثقافات الإنسانية وكذلك طرق العلاج ونوعية المعالجين وعلى هذا فيعرف المرض ثقافيا وبيولوجيا وإجتماعيا .

أولا ـ المفهوم الثقافي للمرض :

يشير اكركنشت ***Ackerknecht*** أن لكل ثقافة منظورها وتصورها الخاص بها من " المرض " بل وذهب إلى أبعد من ذلك فذكر أن المرض وعلاجه على الرغم من أنهما عمليتان بيولوجيتان من الناحية المجردة إلا أن بعض الحقائق المرتبطة بهما تعتمد على تحديدات المجتمعات والحقائق الإجتماعية أكثر من إعتمادها على الحقائق الموضوعية ، وبهذا المعنى نجد أن المرض مفهوم ثقافى فى المرتبة الأولى ويختلف من مجتمع لآخر ومن ثقافة لأخرى وهى الفكرة التى أكدها العديد من العلماء من أمثال ***Foster*** الذى ذهب إلى أن الصحة والمرض ظواهر ثقافية مثل ماهى ظواهر بيولوجية وأننا إذا أردنا دراسة الممارسات الطبية الموجودة فى نطاق المجتمعات التقليدية لابد أن ندرسها فى إطار الثقافة كما أنه

مفهوم نسبى يختلف من ثقافة لأخرى فلكل ثقافة تفسيراتها ومعتقداتها الخاصة بها ، ولقد حاول الإنسان منذ القدم تفسير الظواهر والأحداث التى تحيط به ويتعرض لها فى الإطار البيئى والإجتماعى والمرضى كحالة إجتماعية يضم تغيرا فى السلوك وهى ظاهرة اجتماعية إنسانية ومما لاشك فيه أذن أن للثقافة تأثير ودور كبير على تصور وإدراك السكان لظاهرة المرض وفى أجزاء عديدة من العالم مازال السكان متمسكين بالتغيرات الثقافية للمرض ، وبهذا المعنى نجد أن الثقافة هى التى تحدد للمريض تقييمه وتصوره لحالته المرضية وردود أفعاله التالية تجاه المرض فهو إما يذهب للطبيب أو يذهب للمعالج المحلى أو الساحر أو يتجاهل تماما أعراض مرضه ويؤكد فوستر أن تقييم المريض وسلوكه تجاه مرضه أمر يختلف باختلاف الخلفية الثقافية والإجتماعية (٤).

ويذهب ليتون *Leighton* إلى أن مفهوم المرض مفهوم نسبى يختلف من ثقافة لأخرى ففى نطاق المجتمعات التقليدية يرتبط بالثقافة وبالنسق الثقافى السائد بينما نجد أن مفهوم المرض يرتبط بالعلم فى نطاق المجتمعات الغربية الحديثة (٥) ، ونفس الفكرة أكدت على الباحثة *Scott* التى ذهبت إلى أن المرض مفهوم وتصور خاص فى نطاق المجتمعات التقليدية ويتعامل السكان مع المرض كظاهرة إعجازية تعلو عن مستوى الطبيعة حيث يرتبط لديهم بالسحر والممارسات السحرية وبالدين والممارسات الدينية . وفى إختيارهم لأنماط المعالجين حيث يثقون فى قدرات الطبيب الشعبى والساحر أكثر من قدرات الطبيب الأكاديمى وذلك لتمسكهم بالمعتقدات والممارسات الصحية التقليدية النابعة من ثقافتهم المحلية بالمقارنة بالمفاهيم الطبية الحديثة ، وتؤكد الباحثة أيضا أنه فى نطاق المجتمعات الغربية الحديثة نجد العكس تماما فمفهوم المرض لا يرتبط بالثقافة بل بالعلم (٦) .

كما يشير *Risse* إلى أن الصحة والمرض مفهومان مرتبطان بموضوعات مثل القيم الثقافية والدينية والبناء الإجتماعى والمعرفية والبيولوجيا وخاصة فى نطاق المجتمعات المحلية والتقليدية (٧) .

كذلك يذهب فوستر إلى أن لكل مجتمع نظرية خاصة به عن المرض وهى مشتقة أساسا من نظرية الحالة الطبيعية التى من المفترض أن يكون عليها الإنسان ولكنه يؤكد أن هذه النظرية نسبية تختلف من ثقافة لأخرى بل ومن زمان لآخر لأن تعريف تلك الحالة السوية الطبيعية لجسم وعقل الإنسان ليس واحدا فى كل زمان ومكان فما تعتبره طبيعى فى ثقافة ما قد يعد عرضا من الأعراض المرضية فى ثقافة أخرى (٨) .

كما أشار محمد حسن غامرى إلى أن أنماط الثقافة الطبية لابد وأن تتكامل مع الشبكة الكلية التى تشتمل على المعتقدات والقيم التى تشكل جزءا من ثقافة كل مجتمع كما أن كل نسق من أنساق العلاج يتضمن بداخله ذلك الكل المعقد الذى يشتمل على معتقدات الناس وإتجاهاتهم وممارستهم للأدوار المصاحبة لمفهومات الصحة والمرض كما أن كل نسق من أنساق الرعاية الصحية فلسفة محددة تتركز على الإجابة على التساؤلات الآتية :

١ ـ ماهو مفهوم السكان للصحة ؟

٢ ـ ماهو مفهومهم للمرض ؟

٣ ـ ماهى أسباب المرض ؟

٤ ـ كيف تكون الوقاية من المرض ؟

٥ ـ كيف يتم معالجتهم للمرض ؟

وتذهب *Bauwens* إلى أن الإجابة على هذه التساؤلات تشكل مايعرف " بالنظرية الطبية " للجماعة وهى نظرية نسبية تختلف من ثقافة لأخرى (٩). ونفس الفكرة أكدها *Glaser* الذى ذهب إلى أن لكل مجتمع من المجتمعات نظريته الخاصة به وهى نابعة من التصورات والأفكار الأساسية التى يكونها السكان عن الكون والعالم والحياة ، كما يؤكد الباحث إختلاف هذه النظريات الطبية باختلاف الثقافات والحضارات الإنسانية إلا أن السمة الغالبة على الحضارات الأوروبية

والإسلامية والهندية هى إرتباط النظرية الطبية بالدين والإنطولوجيا (علم الوجود)[١٠] .

أما الباحث *Akinsola* فقد ذهب إلى أنه من الصعب تعريف المرض تعريفا واحدا محددا وذلك لأن ما يعتبر مرضا فى مجتمع ما لايعد كذلك فى مجتمع آخر وكذلك فإن مفهوم سكان المجتمع للمرض والمرتبط بالثقافة يختلف عن المفهوم العلمى له وذلك لأن الثقافة تعد مسئولة عن تحديد وتشكيل إدراك السكان لمفهوم المرض وأسبابه وطرق العلاج فمما لا شك فيه أن المعتقدات الثقافية والأيديولوجية لها أعمق التأثير على الطريقة التى يدرك بها السكان المرض . فهناك العديد من الأفعال والسلوكيات التى تبدو لنا غير مألوفة بل وقد تسبب المرض لكن نجد أنها تبدو فى ثقافات أخرى أفعالا مادية تماما لأصحاب الثقافة ويعطى مثالا على ذلك لدى قبائل *Yoraba* (اليوربا) حيث يعتقد الأهالى أن للوقاية ولعلاج مرضى الجدرى لابد وأن يقوموا باستشارة إله الجدرى لكى يخبرهم عن كيفية علاج هذا الوباء عن طريق إقامة بعض الطقوس والشعائر الخاصة لعلاجه كما أنهم يؤمنون بعدم جدوى أو فاعلية الرعاية الطبية الحديثة فى علاج أمراض الجدرى والحصبة ، واليرقان والجديرى لذلك نجد أ للعلاج التقليدى أهمية كبيرة فى هذه الحالات وذلك لأن المرضى الذين يفقدون الوعى يعاملهم السكان كما لو كانوا واقعين تحت سحر الأرواح الشريرة ويرجع ذلك إلى مسئولية الثقافة عن تشكيل تصورات السكان عن المرض وأسبابه وطرق العلاج[١١] .

وبهذا المعنى نجد أن السياق الثقافى يلعب دورا هاما فى تحديد الحالات والظروف التى نتعرف عليها وندركها كأمراض والأشخاص ذوى السلطة الشرعية فى تقييمها ، وتعبر مفاهيم المرض عن إتجاهات عديدة فى الثقافات المختلفة فمنها ما يعبر عن الوصف العام للمرض ومظاهره وأعراضه وتصنيفه وأسبابه والأحكام الأخلاقية للمرض ويشهد مجتمعنا المصرى أمثلة كثيرة على هذه الأحكام الأخلاقية . فنحن نقول عن المرض بأنه إبتلاء من الله لعباده الأخيار وأنه نقمة

إلهية تنصب على الفجر والعصيان وهى أحكام تهم الفرد والمجتمع وتتصل بأسباب المرض ومظاهره ومعناه ونتائجه فالمرض إذن ظاهرة من صنع المجتمع وسيظل دائما كذلك علاوة على رسوخ حقيقة الخلفية الثقافية وراء المرض (١٢) .

ثانيا ـ المفهوم البيولوجي للمرض :

وللمرض معانى بيولوجية عديدة منها " أنه فقدان للإحساس الجسمى والعقلى العادى " وذلك على حد تعبير باتريك ***Patrick*** وسكامبلر ***Scambler*** ونظر إليه أوبرى ***Aubrey*** على أنه " حالة تكيف الجسم مع الظروف الداخلية والخارجية القاسية وغير العادية ، كما عرفه ***Snow*** " بأنه يحدث من قصور عضو أو أكثر من أعضاء الجسم عند القيام بوظيفته خير قيام أو أكثر من أعضاء الجسم فى أداء وظائفها .

ومما يذكر أن وجهة النظر الطبية ـ قديما ـ كانت ترد كل الأمراض إلى الأسباب الفسيولوجية والبيولوجية وكان مبحث أسباب المرض فى كليهما يرد كل الأمراض إلى هاتين الطائفتين من الأسباب غير أن تلك النظرة أصبحت مرفوضة بصفة عامة من قبل علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا المعاصرين نظرا لإهمالها الجانب الإجتماعى حيث نجد أن بارسونز ***Parsons*** يرى مشكلة الصحة تكمن أساسا فى اللزوميات الوظيفية للنسق الإجتماعى وأن المرض يعتبر خللا وظيفيا فى النسق ، فغالبا ما يصحبه عجز فى القدرة على الأداء للأدوار الإجتماعية كما يرى بارسونز أن الإنسان المريض لا يعانى فقط من الإضطراب فى حالته البيولوجية وإنما أيضا فى تصرفه الإجتماعى وطريقة حياته ولا سيما أدواره الإجتماعية ، ولقد إستخدم مفهوم المرض بطرق مختلفة حيث أنه يشير فى أضيق معانيه إلى إفتراض طبى بأن هناك عمليات مرضية معينة متضمنة فى مجموعة أعراض مرضية متزامنة لها أبعادها العلاجية الخاصة ويطبق مفهوم المرض بصفة أعم ليشير إلى الإنحرافات الفيزيقية أو السلوكية التى تمثل مشكلات إجتماعية للأفراد أو للمجتمع كله (١٣) .

وفى التعريف البيولوجى للمرض يجب التفرقة بين داء المرض بمعنى *Disease* وحالة المرض بمعنى *Illness* فالأول يؤكد على دراسة المرض كعمليات فسيولوجية بحتة خاصة بوظائف الأعضاء ، والمرض هو ذلك الإختلال فى وظائف الأعضاء فهو مصطلح يشير للحالة المرضية للجسم الإنسانى أو جزء منه . أما المفهوم الثانى فهو مفهوم ثقافى يعنى أن المرض هو إنحراف عن الحالة الصحية الطبيعية ومع هذا فهو مفهوم يهتم بالمعتقدات الثقافية المتعلقة بالمرض وذلك لأن مدى حدوث المرض وتأثيره ظاهرة ثقافية وإجتماعية وعلى هذا الأساس نجد أنه بينما يؤكد المفهوم الأول على الحالة الفسيولوجية إلا أنه نجد أن المفهوم الثانى واسع المدى يشير إلى إدراك السكان فى ثقافة معينة لإنحراف الحالة الفيزيقية والعقلية للجسم [١٤] . كما يذهب فوستر إلى أننا لابد وأن نفرق بين مفهومين أساسيين عندما نتناول بالدراسة علاقة الثقافة بالمرض وهما داء المرض والمتمثل فى مفهوم باثولوجى خاص بعلم دراسة خصائص الأمراض وهذا المصطلح يستخدم فى الحديث من أمراض النبات والحيوان أما عندما يكون الحديث دائر عن أمراض الإنسان فيستخدم مفهوم حالة المرض بمعنى *Illness* وهو مفهوم ثقافى وذلك لأن المرض يحمل بعدا إجتماعيا وثقافيا [١٥] .

ويشير محمد حسن غامرى إلى ضرورة التمييز بين مفهومى المرض بمعنى داء المرض " والذى يعنى إجراء تشخيص سبب المرض ووصفة وتعريفه بطريقة موضوعية بينما إصطلاح " حالة المرض " فتتمثل فى إدراك المريض لمشكلته الصحية التى يشعر بها ووصفه لها بطريقة ذاتية والتى تتشكل تبعا لمكونات ثقافته [١٦] .

وعلى هذا فالمرض فى أحد معانيه " يمثل تكيف بيولوجى إذ أنه تعبير عن تكيف الجسم مع الضغوط الداخلية والظروف الخارجية الخطيرة " وفى هذا الصدد وضع لويس *Lewis* ثلاث محكات طبية تقليدية فى تحديد المرض وهى خبرة المريض وإكتشافه لبعض الإضطرابات فى وظيفة الجسم والأعراض ...

مع النمط الإكلينكى . ومن هذا المنطلق نجد أن المرض مفهوم يشير إلى الحالة الباثولوجية الشاذة التى تشخص فى ضوء العلاقات والأمراض الواردة فى التصنيف الدولى للأمراض .

ثالثا ـ المفهوم الإجتماعي لنمرض :

إن مفهوم المرض من المنظور السياسى يتمثل فى أنه " إنحراف " سواء كان فيزيقيا أو نفسيا أو إجتماعيا ـ عن الأداء الوظيفى السليم والسوى وقد يكون لهذا الإنحراف نتائج غير مرغوبة حيث يتسبب ازعاج للشخص المريض من ناحية ـ وقد يخلق مشكلات إجتماعية للأفراد والمجتمع ككل .

كما أن فهمنا للصحة والمرض لن يكتمل إلا بعد إدراجها فى " السياق الإجتماعى " والذى يعد بحق الإطار الأشمل الذى تندرج منه الصحة والمرض فيضفى عليها الطبقة الإجتماعية . فإذا كانت مهام الطب ـ مثلا ـ هى فهم كيفية وقوع المرض ومعالجتها وتعزيز الظروف المعيشية التى تقلل من خطرها ما يهدد صحة السكان . فإن هذه المهام تصبح غير ذات بال مالم نرا ع أهمية العوامل الإجتماعية والنفسية للأفراد مثلما نراعى العوامل البيولوجية فالتشريح الإجتماعى للمرض أو الوباء المتعلق بالعوامل الإجتماعية المساعدة وسلسلة ردود الفعل الإجتماعى وإنتشار الوعى وأسلوب التناول الإجتماعى دراسة وتشخيصا وعلاجا تعطى بعدالة أهميته فى فهم العوامل المختلفة المساعدة على إنتشار الأمراض إذ تساعد الظروف الاجتماعية السيئة كالفقر والبطالة والجهل وإنخفاض مستوى المعيشة وسوء التغذية والتمزق الإجتماعى والازدحام والتلوث وغيرها فى الإصابة بالأمراض وإنتشار الأوبئة (١٧) .

وفى النظرة لمصطلح المرض ومدى خطورته قد تعرف مشكلات شخصية معينة بأنها أمراض على الرغم من أنها لا تنطوى على خصائص مرضية كامنة أو تشكل مشكلات خطيرة للمجتمع ، ومثال ذلك أن تسميات المرض تطلق أحيانا على بعض نماذج الجماعات أو الأشخاص فى المجتمع كالمتطرفين دينيا أو سياسيا .

وأن المرض فى طب السلالات يفهم على أنه نتيجة لممارسات إجتماعية معينة تدل على الإنحراف وبالتالى هذا يؤثر على النظام الإجتماعى عند هذه القبائل ومن ثم فهناك رد فعل من المجتمع نحو الشخص المريض إنطلاقا من رؤية المرض على هذا النحو .

وعلى ذلك فإن الصحة والمرض وتعريفاتهما هى جميعا أمور تتشكل من خلال السياق الإجتماعى الذى تحدث فيه ولقد عبر " رينيه ديبو " ***Rene Dubos*** عن ذلك تعبيرا أكثر وضوحا عندما قال " أن النضال الدائب للإنسان من أجل أهداف جديدة وبعيدة المدى ، يجعل مصيره دائما أكثر إبتعادا عن نطاق التنبؤ من مصير الكائنات الحية الأخرى ولهذا السبب لايمكن أن تمثل الصحة والسعادة قيما مطلقة ودائمة مهما بلغ مستوى التخطيط الطبى والاجتماعى من نضج وإكتمال ويعتبر لانجاح البيولوجى فى كل مظاهره وجدانية مسألة ملاءمة تخضع للقياس الدقيق والملاءمة تتطلب بدورها جهودا مستمرة وغير متناهية من أجل التوافق مع ظروف البيئة الكلية التى لاتتوقف عن التغير " هذا وعلى الرغم من أننا غالبا مالانجد أية صعوبة فى الإعتراف بالأمراض الخطيرة ، إلا أن تعريفات المرض تنطوى عادة على مجموعة دعاوى متصلة بطبيعة تلك الأوضاع الصحية للكائن الفيزيقى التى تكون مرغوبة أو غير مرعوبة خطيرة أو غير خطيرة ومثال ذلك أن المرأة البدينة تعتبر من وجهة نظر بعض الثقافات موضوع رغبة وتحبيذ بينما هناك جماعات أخرى تعرف البدانة باعتبراها مرضا جسميا ونفسيا والأمثلة كثيرة ومتنوعة فى هذا المجال وكلها تشير إلى أن تعريفات الصحة والمرض وتقديراتهما تعتمد إعتمادا ضمنيا على التوجيهات الصحية فى المجتمع وعلى مواقف الحياة لدى أعضائه ومن ثم لاتمثل " الصحة والمرض " وحدات ذات كيان مستقل وإنما هى مفاهيم تستخدم لتشير دائما إلى عملية التوافق المستمرة ازاء متطلبات الحيه المتغيرة والمعانى المختلفة التى نضفيها على حياتنا ومن الملاحظ أن المسار الإجتماعى للمرض يتأثر إلى حد كبير بالمضمون الثقافى فى المجتمع . وإن

الإثنوجوافيين الذين كتبوا فى هذا المجال يميلون للتأكيد على النواحى الاجتماعية والرمزية للمرض حيث يركز يونج *Young* على الخاصيات أو التفاصيل الإجتماعية والتجريبية للمرض والشفاء كا طور ما يطلق عليه بشبكة دلالات المرض التى عرفها تشبكسى من الكلمات والمواقف والأعراض والمشاعر المصاحبة للمرض وتعطيه معنى المعاناة ويشير أيضا إلى أن تعريف كل من المرض والأنماط العلاجية والمؤثرات الإجتماعية ليست تتأثر فقط بالتشخيص ولكن أيضا بالوصول لأنواع مختلفة من الأساليب العلاجية لقطاعات مختلفة من السكان ويفسر المرض فى مناطق ثقافية مختلفة بطريقة فوق طبيعية (خارقة للطبيعة) حيث يشير إلى فعل أو هدف للسلوك الإجتماعى الممزق خاصة فى المجتمعات التى تفتقر للنظم السسيوسياسية المركزية القوية ، فحدوث المرض مع المعتقد أن تقديم العقوبة للضال أو المنحرف فالدافع اللا اجتماعى أو الفعل يمكن أن يكون نو أهمية وظيفية فى إستمرار تماسك الجماعة وتقييد الميول التمزيقية كما أن المحتوى العلاجى يكون عادة مفسرا فى محتوى إجتماعى وأثناء مجرى العلاج فالتضمين السيكو اجتماعى للمريض مع أقاربه ترسم شعائريا [١٨] . فالمرض ليس مجرد إضطراب بيولوجى لنظام الفرد ككائن حيث ولكن يمثل أزمة إجتماعية وفترة لإعادة التوافق أو التنظيم للجماعة ككل ، وعلى هذا فالإطار الإجتماعى والثقافى هو فى حقيقة الأمر إنعكاس صادق لمعرفة كيف يعيش الناس وماذا يأكلون وما هى معتقداتهم وقيمهم وأن فهمنا للصحة والمرض لن يكتمل إلا بعد إدراجها فى السياق الإجتماعى ليضفى عليهما الصبغة الإجتماعية فإذا كانت مهام الطب هى فهم كيفية وقوع المرض ومعالجتها وتعزيز الظروف المعيشية التى تقلل من خطر ما يهدد صحة السكان ، فإن هذه المهام تصبح غير ذات بال مالم تراع أهمية العوامل الإجتماعية والنفسية للأفراد مثلما نراعى العوامل البيولوجية وذلك لأن المرض أصبح يعرف تعريفا بيولوجيا وإجتماعيا وثقافيا وينظر إليه على أنه حالة إضطراب أو خلل فى الأداء السوى لجسم الإنسان ككل بما فيها التكيف الشخصى والاجتماعى جنبا إلى جنب مع الكيان البيولوجى فالمرض يعد أحد

العوائق أو المشكلات التى تعوق الأداء الوظيفى للدور المنوط به أداؤه للمريض والتى قد تكون ناتجة ليست عن عوامل عضوية فحسب وإنما عن عوامل إجتماعية وثقافية.

ـ مداخل دراسة المرض :

أولا ـ المدخل الثقافي :

يؤكد *Mechanic* إهتمام هذا المدخل للتركيز على علاقة كل من الثقافة بالمرض وذلك لأن لكل ثقافة مفهومها وإدراكها الخاص بها من المرض وأسبابه وطرق الوقاية وأساليب العلاج كما أشار إلى أن كل محتوى ثقافى يتعامل مع المرض بصورة تختلف عن المحتوى الثقافى الآخر وذلك لتأثير المعتقدات الثقافية على إدراك السكان للمرض ولأسبابه ولإختيارهم لنوع الرعاية الصحية وتفضيلهم لنمط معين من أنماط المعالجين دون آخر (١٩) . وأن المحتوى الثقافى هو الذى يحدد أى من أعراض المرض يعتبر أعراضا مرضية وتتطلب رعاية طبية خاصة كما يحدد مسئولية الثقافة عن تحديد الأشخاص الذين يمتلكون السلطة الشرعية لتحديد وعلاج هذه الأعراض المرضية (٢٠) .

ويذهب *Freeman* إلى أن المدخل الثقافى لدراسة المرض يهتم بالتأكيد على تأثير المحتوى الثقافى السائد على الطريقة التى يدرك بها المريض حالته الصحية وهذا الإدراك يتشكل وفقا للمكونات الثقافية التى تشتمل عليها ثقافة المريض أى وفقا للقيم وللمعتقدات وللمعايير الثقافية كما يشير لنقطة هامة وهى أن إدراك المريض لمرضه يكون واحدا فى نطاق المجتمعات التى تنتمى لنفس النمط الثقافى وذلك على العكس من المجتمعات المنتمية لأنماط ثقافية مختلفة ويضرب الباحث مثالا على ذلك من خلال دراسته للمستوطنين المكسيك فى أمريكا حيث أكدت نتائج الدراسة أن للسكان مفهوما محددا للمرض وهذا المفهوم يرتبط بنسيج ثقافتهم المحلية كما أن المرض فى نطاق هذه الثقافة يرتبط بمجموعة من المفاهيم الثقافية مثل السحر الأسود والحسد حيث يؤمنون أن هذه المفاهيم تعد من أسباب

المرض لديهم لذا فلايؤمنون بدور الإطباء الرسميين الغير منتمين لثقافتهم الأصلية وذلك لعدم مقدرتهم على فهم وإستيعاب هذه الظروف والعوامل الثقافية المحيطة بمفهومهم للمرض وأسبابه لذا يلجأ السكان للمعالجين الشعبيين والمحليين بسبب مقدرتهم على علاج هذه الأمراض لإنتمائهم لنفس الثقافة الأصلية ويشير أيضا لنقطة هامة هى أنه بينما يؤمن الأهالى وأصحاب الثقافة بأهمية وفاعلية هذه العوامل الثقافية نجد أن الأمريكيين ينظرون إليها على أنهما نوع من الخرافات وهكذا نرى أن كل محتوى ثقافى له إدراكه وتصوره الخاص به عن المرض يختلف عن تصور السكان له فى نطاق محتويات ثقافية أخرى وهذا ما يركز عليه الإتجاه الثقافى فى دراسة المرض [٢١] . كذلك يهتم المدخل الثقافى بدراسة كافة المعتقدات والممارسات السحرية والدينية المرتبطة بالمرض والتى تعد نتاج الثقافات التقليدية التى لاتنتمى إلى الطب الغربى الحديث ويرجع الفضل إلى ***Rivers*** فى إشارته إلى أن كل من الدين والسحر والطب كلها مفهومات متداخلة ومترابطة معا إلى الحد الذى يمكننا من دراسة أحد المفهومات فى إطار مفهومات الموضوعين الآخرين ففى المجتمعات القبلية نجد أن المعتقدات والممارسات الطبية هى معتقدات وممارسات سحرية فى المقام الأول حيث يستخدم السحر لتفسير كافة المحن والمصاعب التى يتعرض لها الإنسان وتستخدم أيضا لإحكاك السيطرة على البيئة الإجتماعية المحلية وعلى النقيض من ذلك فى المجتمعات الغربية الحديثة حيث ينبع الطب وفنون العلاج من نظريات علميـة تعكس الأسلوب العلمى الذى يميـز هذه المجتمعات خلال الثلاثة قرون الأخيرة [٢٢] . فمع غياب التفسيرات العلمية المتصلة بالمرض وأسبابه يكون الإعتماد دائما على التفسيرات الثقافية المتصلة بالسحر والدين والقوى والكائنات فوق الطبيعية كمفسرات لأسباب المرض ولأساليب علاجه ، والإعتماد على القوى فوق الطبيعية لتفسيرحدوث المرض أمر يتلاءم وثقافة المجتمعات التى يسود فيها هذا الإعتقاد [٢٣] .

ويذهب ***Foster*** إلى أن المرض بمثابة " كائنات ثقافية " تعمل على تطوير

نظريات تبحث فى علم " أسباب المرض " لذلك تطور أساليب فنية للعلاج وذلك بفرض التغلب على كافة المشكلات الإجتماعية الناجمة عن الخلل العقلى والجسدى الذى يسببه المرض ويطلق على هذه العملية مفهوم " إستراتيجيات التكيف الاجتماعى والثقافى " التى تقوم بمهمة تشكيل الأساس الثقافى للسلوك وللمعتقدات ذلك الأساس الذى ينشأ من إستجابة الإنسان للمخاوف والتهديدات الناجمة عن حدوث المرض ومن هذا المنطلق فإن الأنثربولوجى حين يقوم بدراسة المرض فإنه يعنى بدراسة تصورات الشعوب حول أسباب المرض ودور العوامل الثقافية فى إدراك المريض لأساليب العلاج المستخدم وكذلك الدور الذى يلعبه المعالج التقليدى فى علاج الأمراض ومدى إيمان السكان بأهمية وفاعلية هذا الدور

وعموما فإن المعتقدات والممارسات الثقافية والإجتماعية تلعب دورا هاما فى الجوانب الصحية التى تقدم للجماعات ويتطلب ذلك النظر إلى المريض على أنه فرد كما ينظر إليه على أنه وحدة شخصية وله نسق من المعتقدات وأن أى معرفة عن المعايير الثقافية تعزز قدرة المعالجين على فهم مشكلات المريض (٢٤) .

وعلى هذا فالثقافة هى التى تزود أفرادها بمجموعة من المفاهيم والآراء المدركة والمقبولة والمتسقة مع نسقهم المعرفى .

فالدنكاوى مثلا ينظر إلى إضطراب المعدة على أنه ناتج عن تأثير ألهة العشيرة المؤذية منها بوجه خاص والتى لديها القدرة على أن تحل بالانسان وتستحوذ عليه وتبتليه بالألم والمرض فى حين أن قبائل ***Nyakusan*** الافريقية ترد إضطراب المعدة إلى فعل أو تأثير الروح الشريرة أما قبال التيف ***Tif*** فى شمال نيجيريا فإنهم يرجعون إضطراب المعدة إلى نوع من القوى السحرية .

ومن هنا نجد أن كل ثقافة من الثقافات المشار إليها أنما تزود افرادها نسق من المعرفة لاستعادة الإتساق بين الإنسان ورغباته فى الشفاء ومن ثم تتباين الممارسات وتختلف من ثقافة لأخرى من أجل إستعادة التوازن الفيزيقى والسيكولوجى لدى الإنسان (٢٥) .

ويؤكد *Foster* أن المادة العلمية التى جمعها الأنثروبولوچيون الثقافيون عن القيم والمعايير الثقافية والمعتقدات والممارسات الطبية فى العديد من المجتمعات البدائية والريفية ودراستهم لديناميكية الثبات والتغير الإجتماعى فى هذه المجتمعات قد ساهمت فى توضيح أن الصحة والمرض ظواهر ثقافية وإجتماعية بمثل ماهى ظواهر بيولوجية وأن المجتمعات النامية لاتفضل بسهولة الخدمات الطبية الحديثة التى تقدمها لها الأم الغربية وذلك لاختلاف ثقافات هذه المجتمعات التقليدية عن ثقافات المجتمعات الغربية الحديثة ، وكذلك كان على هؤلاء الباحثين القيام بتوضيح كيف أن هذه المعتقدات والممارسات الثقافية التقليدية تتعارض مع الطب الغربى الحديث ، ومن المسلم به الآن أن الوقاية من الأمراض لايمكن أن تتحقق فقط بالتعرف على أسباب المرض البيوكيميائية ولكن أيضا بالمقدرة على تغيير السلوك الثقافى المألوف لذا لابد وأن يساعد الأنثروبولوچى الاجتماعى فى التعليم فى أقسام الطب الوقائى والطب الإجتماعى وكليات الصحة العامة والتمريض وكذلك فى برامج البحوث فى هذه الهيئات [٢٦] .

ثانيا ـ المدخل الأيكولوجي :

ينظر إلى المدخل الأيكولوجى الآن على أنه مدخل شامل يهتم بالروابط المشتركة بين الكائنات وبيئتها ومن ثم فأنه يؤدى بالطب والصحة العامة إلى الإهتمام بالأسباب المتعددة للأمراض ويلفت أيضا النظر إلى الآثار المتعددة للأفعال الإنسانية التى تحدد العلاقات بين الناس وبيئتهم وفى السنوات الأخيرة أصبح العديد من علماء الأنثروبولوچيا مهتمين بمسائل الصحة البيئية والبيو ثقافية ***Biocultural - Environemental Health*** وقاموا بدراسة هذه المسائل من منظور أيكولوجى وهناك العديد من المصطلحات التى إستخدمت لوصف الموضوعات الأيكولوجية التى إهتم بها علماء الأنثروبولوچيا الطبية وغيرهم المتخصصين فى فروع أخرى وثيقة الصلة بالأنثروبولوچيا مثل علم الأمراض وعلم الأوبئة والإجتماع فهناك الأيكولوجيا البشرية والأيكولوجية الطبية والأيكولوجيا

الإجتماعية وأيكولوجيا المرض وعلم الأوبئة الاجتماعية وعلماء الأنثروبولوجيا الطبية من حيث التعريف يعتبروا إتجاههم أيكولوجى لأنهم يهتمون بالعلاقات المتبادلة بين البيئات الطبيعية والإجتماعية للإنسان وبين سلوكه وأمراضه والطرق التى أثر بها سلوكه وأثرت بها أمراضه فى تطوره وثقافته من خلال عمليات التغذية المرتدة فالأمراض القديمة وهى دراسة أمراض الإنسان المبكر تمدنا بمعلومات عن كيفية تأثر أسلافنا بالبيئات التى عاشوا فيها وطريقتهم فى الحياة ومعرفة نوعية الأمراض التى أصابت أسلافنا تساعدنا بدورها على فهم التطور البشرى والوسائل التى تكيفت بها الأجيال المتعاقبة من البشر بيولوجيا لتهديدات الصحة التى واجهونها ، وفى الوقت الحاضر يعتبر المدخل الأيكولوجى أساسيا فى دراسة مشكلات الأمراض الوبائية والوسائل التى يؤثر ، بـا السلوك الفردى والجماعى فى مستويات الصحة وحدوث الأمراض المختلفة فى المجموعات السكانية المختلفة وعلى هذا فالمدخل الأيكولوجى يعتبر مفيد خاصة فى دراسة مشكلات الصحة فى برامج التنمية والتحديث فهناك العديد من مشروعات التغير التكنولوجى التى نشأت بدون وعى بالتغيرات التى يمكن أن يتحدثها مثل تلك المشروعات فى التأثير على الصحة، وكذلك البحث فى المجتمع الصناعى المعاصر حيث يشكل التعديل والتغير فى البيئة تهديدا خطيرا بهذه المجتمعات تحت وطأة الصناعة أو بعض مشروعات التنمية فى البلاد النامية فمثلا يمثل تقدير القيمة الإقتصادية لمشروع ما فى مجتمع من المجتمعات معيارا هاما إلا أنه قد يحمل مخاطر أكبر من العائد الإقتصادى فانتشار طرق جديدة لرى الأراضى الزراعية الجافة قد يزيد من المنتجات الغذائية هذه حقيقة ولكنها قد تزيد أيضا من عدد إصابات مرض البلهارسيا الذى عرف كوباء منتشر فى وادى النيل بمصر منذ قرون عديدة على مايقول فان واير سشيلى عام ١٩٦٦ أن الصحة تشكل معيارا هاما لهيكل الفاعلية فى ممارسة الثقافة وتكيف المجتمع فى بيئته وقيمة التكيف لايمكن أن تقدر بسهولة بواسطة تقدير الفوائد التى تعود على الناس فى علاقاتهم ببيئتهم ولكن يجب أن تقدر هذه القيمة عن طريق المحصلة النهائية مع الأخذ فى الإعتبار المكسب والخسارة .

كما ثبت أن الشعوب المزدحمة أكثر قابلية من حيث إنتشار الوباء بالمقارنة بالشعوب الأقل كثافة سكانية وقليلة التجمعات بل وتتباعد كل جماعة عن الأخرى حيث لايوجد ناقل أو حامل للمرض فى حين أنه بزيادة التنمية الزراعية والتوسع فى التجارة وغيرها من مسببات الإتصال زاد عدد ضحايا الأوبئة .

فعلى سبيل المثال فى المناطق الحارة فى غرب افريقيا وعلى أثر الغزو الزراعى بها بعد إبادة الغابات وظهور مستنقعات فهذا ساعد على توالد ناموس الملاريا وزيادة عدد المصابين بهذا المرض فمن هنا فالمرض يعتبر جزءا من البيئة البشرية كما أثر فى التطور البشرى لأن نوعية الأمراض والإصابات التى أثرت على أى جماعة من الناس ليست بمحض الصدفة ولكنها بالتأكيد تعبير عن المخاطر والضغوط المحيطة بهم وبيئاتهم وسلوكياتهم والمناخ الذى عاشوا فيه والتربة التى أمدتهم بالغذاء والحيوانات والنباتات التى شاركتهم موطنهم وكذلك بمناشطهم اليومية وعاداتهم الغذائية وإختيارهم للسكن والملبس وبناهم الاجتماعى وكذلك بالفولكلور والأساطير وتلك الأفكار تتفق مع وجهة نظر ***Virchow*** المبنية على الميكروبيولجى (علم الجراثيم) حيث يذكر أن المرض ليس بالضرورة شيئا غير طبيعى أو غير مادى ولكنه تعبير عن ظروف الحياة الآخذة فى التغير (٢٧) .

ثالثا ـ مدخل علم الأوبئة :

يهتم علم الأوبئة بالتوزيع المكانى وإنتشار الأمراض المتأثرة بالبيئات الطبيعية والصناعية التى من صنع الإنسان وكذلك المتأثرة بالسلوك البشرى وأى الجماعات والفئات الاجتماعية أكثر عرضه للإصابة به وفى أى بيئة يكون ذلك وإن المتغيرات التى كثيرا مايهتم بها علماء الإجتماع الطبى وعلماء الأوبئة تتمثل فى الإختلافات العمرية والجنسية والحالة الزواجية والإنتماء العرقى والطبقة الإجتماعية والسلوك الفردى والبيئة الطبيعية ، وكل هذه المتغيرات من العوامل التى تلعب دورا هاما فى توزيع وإنتشار مختلف الأمراض فالشباب الأمريكى من الذكور يموتون من الحوادث بمعدلات أكبر من الشابات الإناث أو كبار السن من كلا الجنسين

والعاملين فى صناعات الأسبستوس يتعرضون لمخاطر مرض الاسبستوس الرئوى وسرطان الرئة ومدخنى السجائر من المحتمل أن يموتوا من سرطان الرئة أو أمراض القلب أكثر من غير المدخنين كما أن المجموعات السكانية التى تعيش فى المناطق الداخلية وخاصة المرتفعات حدث لهم تضخم للغدة الدرقية بمعدلات أعلى من المجموعات السكانية التى تعيش بالقرب من البحار ويتناولون أطعمة بحرية غنية باليود .

وهناك العديد من الدراسات التى استعانت بهذا المدخل فى دراسة إنتشار بعض الأمراض منها على سبيل المثال دراسة *Snow* حول إنتشار وباء مرض الكوليرا فى مناطق عديدة من لندن وكشفت الدراسة عن أن المياه الملوثة تعد مصدر هذا المرض وكذلك مابين الذى حلل الأمراض من حيث مسبباتها وربط هذه المسببات بالظروف الاجتماعية السائدة فى عصره ، وأيضا دراسة سيملويس *Semmelwi* للكشف عن أسباب إرتفاع معدل الوفيات بين نساء أحدى المستشفيات فى الوحدات القريبة من جناح المشرحة وتوصل إلى أن حمى النفاس هى مصدر الوفاة إذ تنتقل من حيث الموتى إلى النساء عن طريق الطبيب الذى يقوم بفحص السيدات المرضى ، كما أجرى جراهام دراسته عن العلاقة بين المتغيرات الإجتماعية (كالمهنة والتعليم وخصائص الاسرة إلى جانب العوامل البيولوجية والعبريقية) ومختلف الأمراض وإنتهى إلى أن معظم الامراض تكون نتيجة للعامل البيئى

ومهمة عالم الأوبئة هى إيجاد متلازمات حدوث المرض لكى يتوصل إلى حلول للأنماط المركبة لأسباب المرض أو التوصل إلى إمكانات التحكم فى المرض ولكى يتوصل عالم الأوبئة إلى متلازمات المرض فإن عليه أن يقوم بمسوح سكانية لكى يكتشف العلاقة بين حدوث المرض وبين وجود عوامل بيولوجية وفيزيقية وإجتماعية ومن أهداف علم الأوبئة العمل على رفع مستويات الصحة وخفض حدوث كل ما يهدد الصحة ـ وقد أثبت هذا العلم نجاحا ملحوظا خلال تاريخه فتضخم

الغدة الدرقية على سبيل المثال تم تحديده على أنه ينتج من نقص اليود فى الغذاء وهذا النقص يتم علاجه عن طريق تناول ملح تجارى مشبع باليود ، وحادثة مضخة شارع برود ***Broud Street*** الشهيرة التى حدث عام ١٨٥٠ فى لندن ودلل عليها جون سنو ***John Snow*** على أن الحمى التيفودية ***Typhoud Fever*** إنتشرت بواسطة المياه الملوثة وأن أولئك الناس الذين كانوا يشربون مياه نظيفة لم يصابوا بالمرض ، كما أثبتت البحوث الحالية أن نسبة عالية من السرطانات تسببها عوامل بيئية وإن تغيير هذه العوامل أو التحكم فيها يؤدى إلى خفض حالات الإصابة بهذه الأمراض الخطيرة .

وعلى العكس من علماء الإجتماع إهتم علماء الأنثروبولوجيا بالخواص الوبائية لأمراض الشعوب غير الغربية التى تشتمل غالبا على ماتسمى بأعراض خاصة بالثقافة مثل هيستريا القطب الشمالى والسعار المصحوب بنزعة إلى القتل أو الهجوم ويستخلص علماء الأنثروبولوجيا نتائجهم من ملاحظة السلوك ومن معرفة الأشكال الثقافية وقد يتطلب البحث كما هو الحال بالنسبة لمرضى كورو ـ الذى تم إكتشافه فى منتصف الخمسينيات من هذا القرن ولم يكن معروفا للطب من قبل لدى مجموعة فور الجنوبية التى تقطن المرتفعات الشرقية بغينيا الجديدة وكان النساء يمارسن عادة أكل لحوم البشر الشعائرية وخاصة المخ لأقاربهن الذين يتوفون من النساء ولذلك فقد أظهر هذا المرض العديد من الخصائص الوبائية الغير عادية ولذا فهو يقتصر على النساء والأطفال حيث تبلغ نسبة الوفيات إلى النصف تقريبا من النساء البالغات وأغلب وفيات الأطفال بين سن الخامسة والسادسة عشر بسبب هذا المرض ومن أعراضه التدهور التدريجى فى الجهاز العصبى المركزى وهذا يؤدى إلى عجز كامل غالبا ما يكون مصحوبا بعدم القدرة على بلع الطعام وتحدث الوفاة عادة فى خلال فترة من ٦: ١٢ شهرا منذ بداية ظهور الأعراض ولم يكن هناك علاجا يمكن أن يوقف الإصابة بهذا المرض فقد كان عبارة عن لغز يبحث عن حل له ـ القيام بدور المخبر للبحث عن العامل المحير

الذى يعتبر مفتاح التفسير حتى تم التوصل إلى حل لهذا اللغز بعد عشرة سنوات بعد تضافر جهود العديد من العلماء وفى مقدمتهم عالم الأنثروبولوجيا والفيروسات كارليتون جاجدوسيك *Carleton Gajdusek* فقد كرس حياته المهنية لهذه المشكلة حيث وضع عدة تفسيرات وفروض له منها ماهو وراثى ومعدى وإجتماعى وسلوكى وهرمونى وغذائى وتحصينى والذى اعزو هذا المرض يرجع إلى أصل وراثى إلى أن ظهور دور الدراسات الأثنوجرافية لعالمين من علماء الأنثروبولوچيا الاجتماعية هما روبرت جلاس *Robert Glasse* وشيرلى جلاس *Sh rley Glasse* تفسيرا لهذا وفقا للتقاليد المحلية وهى ظاهرة أكل لحوم البشر بين نساء فور الجنوبية وهى ظاهرة حديثة نسبيا ظهرت أول ما ظهرت فى عام ١٩١٠ أى فى نفس الفترة التى ظهر فيها المرض لأول مرة فهذه العادة تم إستخدامها كشعائر ضمن طقوس الحداد .

وقد إهتم علماء الأنثروبولوجيا أيضا بما يسمى بنوبة التنمية أى النتائج الصحية ـ وهى غالبا ما تكون ضارة ـ لمشروعات التنمية التكنولوجية حيث إنتشر عدد من الأمراض نتيجة الأنشطة التنموية التى أطلق عليها كل من هوفزى *Hughes* وهنتر *Hunter* بأمراض التنمية أو مايمكن تسميتها بالأمراض التى تسببها التنمية كمرض النوم والبلهارسيا وعمي النهر والفيلاريا والملاريا والضعف الصحى الذى ينتج عن سوء التغذية وأيضا الدرن والأمراض المزمنة عامة ، وهذه الأمراض لها علاقة نسبية بالبحيرات الصناعية والزراعية المعتمدة على الرى وإنشاء الطرق التى تسبب هجرات عمالية وإتساع نطاق التجارة والتحضر السريع وسوف نتناول باختصار الآثار الوبائية لبعض هذه الأنشطة التنموية والتى أدت إلى حدوث مثل هذه الأمراض .

١ ـ البحيرات الصناعية :

منذ الحرب العالمية الثانية لم تغير أية مشروعات تنموية سطح الأرض مثلما غيرت البحيرات الصناعية العديدة التى ظهرت فى العديد من القارات المأهولة

بالسكان مثل بحيرة ناصر على الحدود المصرية السودانية والهدف من إنشائها التحكم فى الفيضانات وتوليد القوى الكهربائية وللزراعة إلا أن لها نتائج صحية خطيرة منها تزايد أمراض البلهارسيا وعمى الأنهار .

فالبلهارسيا على سبيل المثال أكثر إنتشارا فى افريقيا وأمريكا الجنوبية والشرق الأدنى حيث تزايد عدد المصابين بها بدرجة كبيرة فى السنوات الأخيرة ليصل إلى حوالى ٢٠٠ مليون شخص على مستوى العالم ويعتقد بعض العلماء أن هذا المرض يعتبر من أسرع الأمراض الطفيلية البشرية إنتشارا ومن أكثرها أحداثا للمرض وهذا الأنتشار السريع نتاجا لرى الأراضى بواسطة مياه السدود المخزونة ورائها . فخلال فترة الثلاث سنوات من إكتمال السد العالى فى مصر على سبيل المثال تزايدت معدلات العدوى بالبلهارسيا بين الأطفال الذين يعيشون فى المناطق الريفية والذين يتراوح أعمارهم بين ٢ ـ ٦ سنوات من ٥ ـ ٢٥٪ إلى ٥٥ ـ ٨٥٪ ، وعلى الرغم من أن مرض عمى الأنهار أقل تأثيرا من من البلهارسيا فإنه يمثل تهديدات متزايدة لحياة العديدة من الشعوب التى تعيش على ضفاف الأنهار والبحيرات الإستوائية فالذبابة المسببة لهذا المرض والتى يعيش فى هذه البيئة تقوم بعض الضحية فى المنطقة خلف الرقبة وتضع بيضها الذى يفقس يرقات تدمر العصب .

٢ ـ استصلاح الأراضي :

إن إستصلاح الأراضى والزراعة المعتمدة على الرى لها بعض الآثار الصحية الضارة حيث يقدم ميلر *Miller* عددا من الأمثلة على ذلك فالزراعة المنظمة على السواحل الكاريبية أدت إلى خلق ظروف زادت من تكاثر بعوضة الأنوفيليس *Anopheles* التى تنقل الملاريا والبعوض وفى منطقة بجنوب الهند حيث أدى إزالة الغطاء النباتى بالمرتفعات الى تشجيع بعوضة الأنوفيليس وبالتالى ظهور الملاريا .

٣ ـ إنشاء الطرق :

إن بعض الأمراض التى كانت مستوطنة فى مناطق معينة إنتقلت إلى مناطق كانت خالية منها من قبل نتيجة الإتصال السريع الواسع النطاق والذى أصبح ممكنا عن طريق إنشاء الطرق والسكك الحديدية والطيران ، فمرض النوم يعتبر أحد تلك الأمراض الموجودة الآن فى أجزاء كبيرة من إفريقيا وتنقله ذبابة التسى تسى ومع إنشاء الطرق الجديدة أصبحت المقاطعات النهرية نقاط وقوف جذابة للمسافرين حيث يتوقفون للشرب وللإستحمام وبالتالى أصبحوا عرضة لعضة تلك الذبابة والأصابة بعدوى مرض النوم وعلى ذلك فالطرق تعتبر مواقع نقل للأمراض .

٤ ـ التحضر :

إن هجرة القرويين إلى المناطق الحضرية الفقيرة والمزدحمة تسبب العديد من المشكلات الصحية . ففى المناطق العشوائية التى تحيط بقلب العواصم فى أغلب دول العالم الثالث تتميز ظروف المعيشة بالزحام وإنعدام الصحة لإفتقارها لمعظم الخدمات وبالتالى تتوطن الأمراض كالدوسنتاريا نتيجة المياه الملوثة . كما يعانى قاطنى هذه الأماكن من نقص غذائى خطير بالاضافة إلى تغذية إطفالهم بالألبان الصناعية نظرا لعمل الأمهات فى المصانع ووقوع الأمهات ضحايا لدعايات المعلنين الذين يحاولون اقناعهم بأن التغذية الصناعية هى الطريقة الحديثة والتقدمية لتغذية الطفل .

٥ ـ برامج الصحة العامة :

إن الإهتمام بصحة البيئة وغيرها من البرامج التى تهدف إلى التحكم فى الأمراض يمكن أن تؤدى إلى زيادة المشكلة سوءا أو تحول المشكلة من مرض إلى أخر ففى شمال الملايو أدت عملية رش المنازل إلى إزالة البعوض الناقل للأمراض وقد أدى هذا إلى فتح الطريق أمام نوع من أنواع بعوضة الأنوفيليس القاطنة

بالغابات لكى تنتقل إلى مصدر تهديد للدم البشرى لتتغذى على الناس ثم تعود مرة أخرى إلى الغابة حيث لايصل الرش هناك . وقد أدى هذا إلى إنتشار الملاريا وغيرها من الأمثلة الواضحة لأنواع المشكلات الوبائية التى يدرسها الأنثروبولوچيون فى البلاد النامية ، والواقع أن أسباب المرض كامنة أساسا فى طبيعة الحياة الاجتماعية وأن هذه الحياة يمكن الإرتقاء بها لو إتبعنا التدابير الوقائية ضد المرض عامة والأمراض الوبائية بصفة خاصة ، فالبحث عن أسباب الصحة والمرض بدراسة حدوث المرض فى الجماعات المختلفة وتعريفها فى حدود مصطلحاتهم المحلية وأسبابها من وجهة نظرهم غالبا ما تؤدى إلى الوقاية من حدوث المرض بينهم وعلى هذا فإن النهاية العملية للدراسات الوبائية تتجلى فى أنها تمثل الأساس العلمى لنسبة كبيرة من مهنة الصحة العامة .

ـ نظرية المرض :

إن الإنسان فى كل مكان يستنبط أو يتنبأ الأسباب للأحداث الهامة أو ذات المعنى فى حياته ، فالأمراض التى تهاجم الجسم والعقل تفسر فى حدود أو مصطلحات طبيعية والفوق طبيعية (ميتافيزيقية) فقطع الأصبع وكسر الذراع وعضة أو لدغة الثعبان والحمى والتلعثم فى الكلام وتوهان العقل أثر الشيخوخة فكل هذا قد ينظر له كمخاطر فى الحياة ولتفسير مثل تلك الأحداث يوجد دائما بعض النظم الهيكلية المفاهيمية التى توجد فى التصور التجريبى العام ، لكن غالبا لايعالج الجرح والمرض لاتستجيب للعلاج وإن كل من التنبؤ والتوقع المألوف لايحدث ففى مثل تلك الحالات فهناك نظام آخر للتفسير يوظف لهذا متمثلا فى التصور الميتافيزيقى لدى معظم المجتمعات اللاغربية المتجاوز للحد لحدوث المرض الذى يميل لتصور أكثر تضليلا فى القوام الكلى للمعرفة الطبية والممارسة من النظام الهيكلى التجريبى والمتسبب فى عدم القدرة وإرتفاع نسبة الوفيات من المرض فى العالم النامى من فى المجتمعات الصناعية المتقدمة [٢٨] .

١ ـ السحر أو الشعوذة :

ذهب *Hammond* إلى أنه مع غياب التفسيرات العلمية للمرض ولأسبابه يكون الإعتماد دائما على التفسيرات الثقافية المتصلة بالسحر والدين والقوى الفوق طبيعية كمفسرات لأسباب المرض ولأساليب العلاج كذلك توصل إلى أن الإعتماد على القوى فوق الطبيعية لتفسير حدوث المرض أمر يتلاءم مع ثقافة المجتمع الذى يسود فيه هذا الإعتقاد ولذلك كان من الصعب على السكان تقبل الممارسات الطبية المتعلقة بالطب الرسمى الحديث فى حالة كونها غير متجانسة مع العادات والقيم والمعتقدات الثقافية السائدة ، وخير مثال لذلك نجده لدى قبائل التيف *Tiv* بجنوب نيجيريا فعندما إنتشر وباء الجدرى وازدادت معدلات الإصابة بدرجة خطيرة الأمر الذى دفع الأوروبيون لتطعيم الأهالى بالمصل الواقى حيث اعتبره الأهالى نوع من السحر الأسود ورفضوا التطعيم وذلك بسبب التعارض بين الممارسات الطبية للطب الحديث مع القيم والتقاليد الثقافية ، ويتمثل السحر فى الإعتقاد فى أن القوى فوق الطبيعية يمكن التحكم فيها لتحقيق رغبات لصالح بعض الأفراد ويتطلب القيام ببعض الشعائر والممارسات التى يقوم بها السحرة ومن أفضل تقسيمات السحر تقسيم ريموند فيرث الذى يشمل السحر المنتج والسحر الوقائى (شفاء الأمراض) والسحر المدمر (الإصابة بالأمراض) ففى دراسة للهنود الحمر لهالوول *Hallowell* حيث يعتبر السكان أن أمراض المعدة وآلام الأسنان والإمساك ونزلات البرد والكسور تعد أمراضا بسيطة تصيب الإنسان بطريقة عرضية بينما يعتبرون الأمراض ذات الأعراض الغريبة أو التى تصيب الإنسان فجأة وتأخذ وقتا طويلا فى علاجها أمراضا سببها السحر ويعتبر الشخص المصاب مسحورا ويعالج بالسحر أما المريض نفسه فيعتقد أن شخصا ما (عدوا) يريد قتله باستخدام السحر الأسود ولذلك يقوم المريض باستئجار أحد السحرة والعرافين لإتخاذ الإجراءات الضرورية لمعرفة الجانى ولإحباط تأثير هذا السحر الضار الذى يسبب فى إعتقادهم العديد من الأمراض العضوية كالصداع وآلام

المعدة والقئ والإسهال والمغص والعقم والأمراض النفسية كالصرع . كما درس هالوول نظرية المرض بثقافة هؤلاء الهنود المتمسكين بعقائدهم الوثنية على إعتبار أن السحر والخروج عن الأحكام الأخلاقية فى المجتمع يعد من أهم أسباب المرض لديهم فالسحر الضار يعد من أهم أسباب المرض حيث يعتقد السكان أن هناك بعض السحرة الذين يقومون من خلال هذا السحر بقذف أشياء مادية معنه إلى داخل قسم المريض مثل بعض المحارات والأحجار أو بعض القطع المعدنية الخاصة ويعتبر ظهور أورام أو خلايا دهنية تؤكد على صدق هذا التصور لأسباب المرض ويلجأ المريض إلى المعالج الذى يقوم بإجراء عملية شفط هذه الأشياء المادية من جسم المريض مما يؤدى إلى تخفيف حدة التوتر والخوف .

٢ ـ إنتهاك قواعد التابو والخروج عن القيم الأخلاقية :

ويتمثل فى إرتباط حدوث المرض بارتكاب المريض أو أبويه لأحد الخطايا والآثام أو الجرائم كالقتل والزنا بالمحارم والكذب والغش والممارسات الجنسية غير الأخلاقية مع الحيوان أو مع أفراد من نفس النوع ويكون الإعتراف للكاهن بمثابة خطوة تمهيدية لتحقيق الشفاء . كما أنه فى كثير من المجتمعات يظهر تأثير اسيز على السلوك حيث نجد الخروج على قواعد التابو يجلب معه العقوبة والشر والألم للعطاه فانتهاك قواعد المحرمات يستثير غضب أرواح الأسلاف ويستنزل على العصاه ألوانا من العقوبات كالعقم والمرض وموت الأولاد والعلاج فى هذه الحالة يتطلب القيام بالشعائر التكفيرية .[٢٩]

٣ ـ إختراق أحد الأرواح الشريرة جسد أحد الأشخاص مسببة له المرض :

كانت الفكرة السائدة لدى قدماء المصريين أن الأمراض تنشأ من غضب آلهتهم أو من تأثير أرواح الموتى وتقمصها لجسد المريض وإمتلاكه وأن هذه الأمراض يعود دخولها للجسم فمنها ما يصيب العظام أو يعيش على لحمه فيحدث المريض من جراء فتكها بأجهزته ولذلك كان أهم دعائم علاجهم معرفة الطلسم والسحر لطرد هذه الأرواح الخطرة والقضاء عليها بالتعاويذ والرقى ثم شرع بعد

ذلك إستخدام الدواء والغذاء لمعالجة الأضرار ، ومن الحالات التى تنسب للأرواح الشريرة وينتج منها الضرر للإنسان حالات الضعف العقلى والجنون والصرع والإنجذاب والمزاج الحزين وكان المجنون عند عرب الجاهلية رجل صرعته جنية والمجنونة امرأة صرعها جنى وكانوا يعتقدون أن الصرع نتيجة لمخالطة الجن للإنس ، ويذهب *Linton* إلى أن الثقافات الغربية لها تصور عن أسباب المرض النفسى كالهستريا يختلف عن الثقافات البدائية فالأولى تربطها بالعلم بينما الثانية فترجعها للثقافة وأن هذا المرض خاضع لروح شيطانية (تلبسه) *Howard* أو المس (اللمسة الأرضية) *Possession* .

ويعتقد سكان قبائل *Trigwe* بنيجيريا أن الأشخاص الذين يقومون بخدمة الأماكن المقدسة قد يتعرضون للمرض أو الموت المبكر بسبب غضب أرواح الأسلاف نتيجة عدم قيام هؤلاء الأشخاص بالتزاماتهم الكاملة فيما يتعلق بالحراسة .

٤ ـ إختراق المجال المادى وحدوث المرض :

وتتمثل فى إختراق الأرواح الشريرة للأشياء المادية وتصبح جوهرا مكونا لها كالأخشاب والصخور والجلد والذى يرجع إلى الفعل الشرير الذى يقوم به الساحر لإنزال الأذى بشخص ما .

ولقد ذكرت *Ruth Bendict* أن سكان الدوبو الأصليين يحاولون التخلص من أعدائهم بإحضار تعويذة وغمسها فى فضلات العدو أو وضعها داخل النباتات المقدسة الواقعة فى طريقه وتظل التعويذة مكانها إلى أن يتأكد الشخص من أن عدوه قد مر على هذه النباتات ، فيقوم بأخذها إلى منزلة ويظل محتفظا بها إلى أن تدبل وحين يريد التخلص من عدوه يقوم بحرقها وإلقائها فى البحر .

٥ ـ فقدان الشعور بالروح :

يسود الإعتقاد لدى قبائل مورنجن *Murngin* الواقعة شمال إستراليا أن

عدم دفن الروح سوف يؤدى إلى المرض والوفاة لبقية أعضاء الأسرة وعلاج هذه الحالة يستلزم إعادة الروح إلى الجسد وذلك عن طريق نوع من السحر الطقوسى وإستخدام الرقى والتعاويذ ويحدث فقد الروح فى أعقاب رعب بشع يطلقها من عقال البدن أو نتيجة لفعل ساحر أو روح خارقة للطبيعة .

يضاف إلى ذلك فئتين آخرين وهما فقد الاتزان الأساسى للجسم ويحدث عادة نتيجة لدخول حرارة مفرطة أو برودة مفرطة فى الجسم وكذلك العين المصابة بسوء .

ويمكن القول أن ليس كل مجتمع يدرك تلك الفئات المسببة للمرض وإنما عديد من المجتمعات تركز على سبب أو سببين ، فالاسكيمو على سبيل المثال يرجع أصل الأمراض لفقد الروح وخرق التابو بينما يمثل السحر والعرافة العامل الأساسى لدى العديد من الثقافات الإفريقية .(٣٠)

ثانيا ـ العوامل الطبيعية :

لو رجعنا ما كتب بالموسوعات العلمية عن أسباب المرض فإننا لن نصل إلى معلومات محددة مؤكدة بشأن أسباب المرض من الكتب الطبية المتخصصة ذلك لأن الإجابة ليست بسيطة ومحددة فالبحث عن سبب الإصابة بالبرد أو الركام يعكس بوضوح مدى صعوبة تحديد الإجابة عن كلم السبب أو العلة وتعيين حقيقة مسببات الأمراض

وحقيقة فإن النظريات المتصارعة الخاصة بأسباب المرض يمكن بل يجب التوفيق بينهما وصولا للعلل الحقيقية للأمراض طالما أنها لاترجع أساسا إلى سبب واحد بعينه وفى كل الحالات تقريبا تعمل عوامل متعددة ومختلفة معا وفى تظافر ككل لكى تتمكن من إيجاد حالات باثولوجية أو مرضية معينة وعلاوة على ذلك فإن أثر هذه العوامل نفسها يختلف من شخص لآخر وهكذا فإن العلية أو السببية فى المرض وعملية التحديد النوعى لها هى عملية أقل فاعلية فى الظروف

الإكلينيكية الطبيعية بالمقارنة بفاعليتها فى التجارب المعملية ولهذا فإنه من غير الملائم القول بأن هناك أسبابا يمكن تحديدها على أنها المسئول الوحيد عن الأمراض وإنما هناك حاجة ماسة لتكوين نظرية جديدة عن " مسببات أو علل الأمراض " وأن أى نظرية مثلها مثل الكائن الحى تماما يمكن أن تعيش وتستمر فقط عن طريق التكيف والقوام للحركة الدائمة لتتلائم مع المتطلبات المتجددة ، وعلى هذا يمكن أن نشير إلى نظريتان أساسيتان لمسببات المرض ألا وهى : نظرية (السبب الواحد) للأمراض ***Single Cause*** التى نادى بها ***David Dudge*** و ***Martin*** و ***Walter*** وتفترض هذه النظرية أن المرض ينتج عن سبب واحد محدد وفى حالة وجود هذا السبب تظهر الحالة المرضية . أما النظرية الثانية (الأسباب المتعددة للمرض) ***Multiple Causes*** وتعد نموذج لتعدد أسباب المرض وهى أساس البحث الاجتماعى للوبائيات حيث تلعب المتغيرات الاجتماعية كعوامل سببية إلى جانب العوامل البيولوجية والفيزيقية وتضم هذه المجموعة كل العناصر الطبيعية التى يعتقد السكان أنها تؤدى إلى الإصابة بالأمراض كالتغير المفاجئ فى درجة الحرارة والرياح القوية والطعام غير المهضوم والتغير فى فصول السنة وتنوع الفصول وتغير أنواع الأطعمة والظاهرات الكونية كحالات الخسوف والكسوف وما يترتب على هذا من إختلال العوازل بين العناصر الموجود فى الجسم بما فيها الدم .

والفكرة السائدة لدى معظم الشعوب أن الصحة تتحقق عن طريق التوازن بين عناصر الدفء والسخونة والحرارة وبين عناصر البرودة الموجودة داخل الجسم وأن المرض يحدث عن طريق إختلاف توازن النسب بين أى عنصر من هذه العناصر (٣١).

ونظرية التوازن هى فى الواقع نظرية هندية ظهرت فى الكتابات السنسكريتية الهندية وظهرت فى كتاب أبو قراط زجالينوس وإنتشرت فى أنحاء عديدة من العالم وجوهر هذه النظرية لدى الهنود هو أن الوجود يتكون من عدة

عناصر وهى التراب والماء والهواء والأثير والجسد الإنسانى يتكون من ثلاثة أخلاط وهى البلغم والصفراء والهواء ولقد إعتقد الهنود أن الوظائف الحيوية تعتمد فى نشاطها على عناصر الهواء والصفراء والبلغم وأن المرض ليس إلا إضطرابا فى نسب الأسس المركزية التى تتكون من هذه العناصر والتى تختلف من وقت لآخر فى كميتها طبقا لتغير المناخ ، فالبلغم يتزايد فى الشتاء لأنه عنصر بارد والدم يتزايد فى الربيع لأنه يكون متأثرا برطوبة الشتاء ونظرا لاختلاف الفصول وإختلاف نسب العناصر فإن الأمراض تختلف هى أيضا بحسبها ، وطبقا لهذه النظرية نجد أن البرودة من الممكن أن تدخل إلى الجسم عن طريق الهواء أما السخونة فتنتج بسبب التعرض لأشعة الشمس أو الإنفعال أو تناول الأطعمة التى تصنف على أنها ساخنة ، بالاضافة إلى ذلك النماذج التصورية فى علم الأوبئة المتعلقة بمسببات نوعية للمرض (مسببات حيوية) كديدان البلهارسيا والفيروسات " ومسببات غذائية " وقد تؤدى زيادتها أو قلتها فى الجسم للأمراض " ومسببات إجتماعية ونفسية " المتمثلة فى ضغط الحياة والإحساس بالمسئولية والشعور بالقلق يضاف إلى ذلك " مسببات كيميئية وعوامل تتعلق بالانسان العائل (المضيف) ***Host*** كالمقاومة الطبيعية والعوامل الوراثية والاجتماعية والعادات والسن والنوع وعوامل تتعلق بالبيئة ***Environment*** كالبيئة الطبيعية والاجتماعية ككثافة السكان وتوزيعهم ومستوى التعليم والدخل والطبقة (٣٢) .

ـ مراحل المرض :

رأى كل من الأنثروبولوجيين والسوسيولوجيين أن المرض يمر بمراحل متميزة تحليلية حيث حدد ***Suchman*** عام ١٩٦٥ لخمس مراحل يسير المرض فى مجراها ويشير فى هذا الصدد " نتيجة الأحداث الطبية تتقدم نقاط إنتقال كبيرة متضمنة قرارات جديدة عن مستقبل مجرى الرعاية الطبية " . كما أدرك الأنثروبولوجيون مراحل مشابهة ولكن برؤية مختلفة أكثر عمقا ووصفا وعمومية بعقد المقارنات الثقافية لكن أقل تحليلا بينما عالم الإجتماع لايبو ينتقل بعيدا من

الأدوار والقرارات . وإن المراحل الخمس التى أشار لها *Suchman* تستخدم كأساس للطريقة المبرهنة التى فيها الرؤية الأنثروبولوجية والسسيولوجية لسلسلة مراحد المرض (٣٣) . وتتمثل تلك المراحل فيما يلى :

١ ـ أعراض المرور بالمرحلة :

إن الغرض من وجهة النظر الطبية يعتبر علامة مرشدة واشارة لتشخيص المرض ولقد أدرك الأطباء منذ سنوات أن الأعراض كعلامات مرشدة قد تكون خداعة مضللة ولهذا السبب قسم العلم الطبى الأغراض العامة المألوفة إلى مجموعتين أولهما تسمى الاشارات *Signes* وهى موصوفية ويمكن أن تقاس وموثوق فيها وتبدو واضحة إما للاعبين أو عن طريق القياس متمثلة فى درجات الحرارة على الترمومتر إلى الطفح الجلدى والورم والإلتهاب وتغير لون الشعر أما الثانية وتسمى أعراض وهى ذاتية وتتمثل فيما يشعر أو يشكو المريض منه وبما أنها ذاتية فهى تتأثر بالنزعة والمزاج والشخصية وإنفعالات الفرد ولذا يصعب قياسها وليس بدقة قياس الاشارات التى لاتعكس المشاكل الشخصية (٣٤) .

وتحدث أعراض تلك المرحلة فى الدراما الطبية عندما المتاعب الجسمية والألم والتغير فى لامظهر أو الضعف تقترح من الشخص نفسه وأن بعض الشئ يكون خطأ أو غير صحيح مع حالته الفسيولوجية وهذه الأعراض كماى قول *Suchman* لاتدرك ولا تعرف فى فئات التشخيص الطبى ولكن فى حدود أو مصطلحات تداخلها مع الوظيفية الاجتماعية العادية ، وبعد ادراك الأعراض وتفسيرها كان لابد من البحث عن معنى الإدراك والتفسير نو الاستجابات النفسية للخوف والقلق وذلك لأن الأعراض الحقيقية قد تكون البشير أو النذير لبعض الشئ الأكثر خطورة ويتفق الأنثروبولوچيون مع هذه النقاط بل ويذهب معظمهم إلى أبعد من ذلك للسؤال عن (كيف يدرك الناس ويتقبلوا وجود المرض) وهنا سوف يوجد إختلاف كيفى أو نوعى بين عديد من الشعوب الغربية واللا غربية رغم أن أعضاء من كل الجماعات تخصص أو تحدد أولوية للأعراض الجسمية كدليل للمرض إلا أن

المرضى الغربيين يعتقدون أن فى غياب ادلالات أو الإشارات المعلنة والاختبارات المعملية والفحص الجسمى للطبيب قد تكشف عن دليل مرضى الذى يتطلب العلاج المناسب وذلك لخضوعهم للفحص الجسمى سنويا وإشارات إفتراضهم أن لحظة المرض تسبق إدراكهم للأعراض وذلك لثقتهم فى الطبيب المعالج كدليل ويبدأ العلاج فى غياب الأعراض .

بينما على العكس من ذلك لدى الشعوب اللا غربية حيث تميل للإعتقاد أن بدون ألم ومتاعب حقيقية موجودة هنا لا يمكن أن يكون هناك مرض لدرجة أنهم عرفوا الصحة " بالمشاعر الجيدة " أو " غياب الأعراض " .

ويشير ***Read*** فى هذا الصدد أن بين فلاص مصر من يشاركوا هذه النظرة أو الرؤية فالبلهارسيا والتلوثات الطفيلية الأخرى التى تضعف الفرد ولكن نتيجة أنها لاتسبب آلام معلنة فلا يعتنى بها ، وهناك مثال آخر من ***Pachmarhi*** (مكان مرتفع بوسط الهند) حيث يوضح عدد كبير من الناس دليل أو علامة لتضخم الغدة الدرقية ونظراً إلى أنها لا تضعف ولا تصنف كمرض ولذلك فلاشئ يفعل تجاهها ، فمن نقطة المدخل للرعاية الطبية العلمية داخل العالم التقليدى فتعريف الصحة كشعور جيد لديه نتائج سلبية هامة ليس فقط على مستوى الجماعة المقاومة لقبول التشخيص المعملى كدليل للمرض فى غياب الأعراض المعلنة لكن عندما يبلغ العلاج النقطة التى بها تختلف الأعراض .

أما المرحلة الثانية : فتتمثل فى إفتراض حالة دور المريض وإحتياجه للرعاية المهنية وذلك إذا فسرت المعانى لأعراض المرحلة الأولى كدليل للمرض حيث يبدأ مرحلة البحث عن النصيحة من خلال مناقشة الأعراض مع الأقارب والأصدقاء للحصول على الإثبات أو التأييد المؤقت من جانبهم لادعاء المرض وللإعفاء المؤقت للشخص من التزاماته العادية تجاه الآخرين .

ويشير ***Suchman*** " كيف أن مشورة الفرد تعكس أعراضه وقبولهم لأى تدخل مع وظيفته الإجتماعية وذلك لتحديد قدرة الفرد للدخول فى دور المريض "

فإذا دعم الأصدقاء والعائلة ادعاءات المعانى فيصبح الشخص أكثر تبنى للذهاب فى المرحلة الثالثة من إذا كان تعبيرهم مشكوك فيه .

ويميل الأنثروبولوچيون لرؤية المرحلة الثانية بين الناس وذلك بالتركيز على تسمية المرض لأهميتها لسببين .

١ ـ حيث المعرفة بالشئ تكون أقل تهديدا من عدم المعرفة به فمن السهل العيش مع لامرض المسمى من عدم المسمى .

٢ ـ تسمية المرض تحدد سببيته التى تمد الطبيب بالمعلومة التى يحتاجها ليصرف العلاج ، حيث وصف *Shiloh* كيف فى الشرق الأوسط عندما يدعى المعالج لزيارة المريض ليتحقق من المرض ليعرفه ويعينه ويحدده ليمد المريض بالإحساس بالراحة من أن الألم الغير معروف يمكن أن يخضع أو يقهر ويمد التشخيص الطبيب بالعلاج الطبى المناسب . وحتى عندما يشير التشخيص بالتهديد للصحة الشديدة إلا أن معظم الناس تشعر بالراحة عندما يقرر الطبيب ماذا يكون الخطأ نظرا لأنه تظهر معظم الأمراض على السطح وإن كل من الطبيب والمريض يعرفا الآن ما يمكن أن يتوقع .

وتتمثل المرحلة الثالثة فى الإتصال بالرعاية الطبية (أى قرار البحث عن الرعاية الطبية المهنية) ، ففى هذه المرحلة فالشخص الذى يشك أو يتوهم أنه مريض يكون بحق على الطريق ليصبح مريض ولذا فهو يبحث عن شيئين :

أ ـ إثبات رسمى (تأيير مؤقت) لدوره كمريض .

ب ـ إذا كان الإثبات على وشك الوقوع فهو يتوقع التشخيص الطبى ويدخل فى مجرى العلاج ليعيده للصحة ويشير *Balint* أن على الطبيب دور كبير فى رفض إدعاء دور المريض أو قبوله له وبناء على ذلك إما أن يعود المريض لأنشطته العادية أو يذهب لطبيب آخر وتستمر العملية حول التسويق حتى يجد أحد الأطباء الذى يتقبل إدعاءه كمريض وأن القرارات التى يتم تنفيذها فى المراحل الثلاث

تختلف بصورة كبيرة من مجتمع لآخر ، ففى المجتمعات الغربية عادة ماتتم القرارات عن العلاج الطبى فى التشاور مع الطبيب المعالج وأفراد الأسرة القريبة من الشخص المريض وفى أضيق الحدود وذلك لأن تلك القرارات ليست إجتماعية ، بينما على العكس من ذلك فى المجتمعات التقليدية والقبلية حيث تبلغ القرارات الطبية أكثر بطأ وتتم بعد مداولات التى تستلزم عدد كبير من الناس حيث وصف *Clark* إن الناس بالمجتمع الأمريكى المكسيكى لا تفعل كأفراد معزولة فى المواقف الطبية كالمرض ولنواحى أخرى من الحياة وإنما يمثلوا أعضاء الجماعة من الأقارب والأصدقاء تقع على عاتقهم مسئولية الدعم المالى والتصديق أوالموافقة الإجتماعية ، فالرعاية الطبية تستلزم إنفاق الوقت والجهد من جانب أقارب المريض والأصدقاء ، فعلى سبيل المثال توفير المال للأطباء والأدوية تأتى من مال العائلة العام ، وإن عديد من واجبات الشخص المريض تنجز أثناء فترة المرض بأعضاء آخرين من جماعته الإجتماعية ، فالمرض ليس مجرد إضطراب بيولوجى لنظام الفرد ككائن حى ، ولكن يمثل أزمة إجتماعية وفترة لإعادة التوافق أو التنظيم للجماعة الكلية من الناس ، فعرفيا . فالفرد ليس يعرف اجتماعيا كمريض إلا بعد أن يؤيد رفاقه أو عادة فإنه مريض حتى ولو كان مقتنع أنه مريض ، وعندما يتقبل الأقارب والأصدقاء حالته كمريض هنا يتم إعفاءه من إنجاز واجباته اليومية العادية .

ويذكر *Clark* فى العلاقات مع الشخص الطبى لذا فالمريض لم يكن حرا لعمل ومباشرة القرارات النهائية المتعلقة بصحته فهو لا يفعل كفرد لكن كعضو عائلة .

أما المرحلة الرابعة والمتمثلة فى دور المريض العالة (أى مرحلة الإنتقال لتحكم الطبيب وقبول إتباع أوامره وعلاجه الموصوف) فطبيعة المرض خلال المراحل الثلاثة الأولى لديها تأثير قليل على ماذا سيفعل لكن عندما يبلغ المرحلة الرابعة فالأمر يصبح هام ، فالمريض الذى يمكن أن يتوقع الشفاء سوف يعالج أو

يبحث عن العلاج ويكون أكثر إستجابة وتفاعلا من المريض الذى يعانى من مرض مزمن المستحيل شفاءه ، فالمرضى فى الفئة الأولى يروا غالبا دورهم بتكافؤ الصندين (أى درجة من الإنبساط والإنطواء) وراحة هذه الحالة تدرك بالطبيب وهناك مقاومة أو نفور تجاه الأقارب لقبول العلاقة الإتكالية (العالة) التى تحرمهم أو تمنعهم من عديد من حقوقهم فى صنع القرار بينما المرض فى الفئة الثانية تدرك التضمينات الكاملة لتشخيصهم أن الشفاء مستحيل وأنهم مضطرين لتبنى دور المريض الدائم مع زيادة متكررة مع زيارات متكررة للطبيب وربما دخول المستشفى المتكرر والفقر الحتمى للكفاءة الجسمية واللعاقة الإتكالية أو المعتمدة على الطبيب تصبح حتمية تحتوى على بيانات كثيرة ودقيقة من علامات وأعراض المرض وخاصة مرض السل الرئوى الذى كان منتشرا فى المدن العريقة المتقدمة المتحضرة فى ذلك الوقت وهناك عدد لايحصى من اللوحات والرسومات تثبت ظهور مرض الطاعون وإنتشاره على فترات متعددة فى أوروبا وذلك فى الفترة من القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر ، والآن وإن إختفى هذا المرض من البلاد الأوروبية إلا أنه ما زال إلى يومنا هذا فى قارة آسيا ويعتبر مصدرا للكوارث والدمار ، كما أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة أن عوامل التوتر التى تسببها المدينة الحديثة فى السنوات القليلة الماضية والعادات التى تسمى حضارية والتى تدخل فيها الآلات والموصلات والكثافة السكانية المرتفعة والتلوث لها دور خطير على الصحة وتتسبب فى أمراض لها علاقة بعمر الإنسان كما أن العلاقات الإجتماعية لها تأثيرجوهرى على المرأة عامة والريفية خاصة باعتبار أنها تعيش فى منطقة مترابطة عائليا وهذا يما يفتقده سكان المدينة ، بالاضافة إلى عوامل أخرى لها علاقة بإطالة عمر الإنسان منها جمال الطبيعة ونسمات الهواء فى الريف ويحضرنا فى هذا الصدد دراسة *Robert Swenson* الذى أكد على أن وباء الطاعون الذى إنتشر فى أوروبا خلال فترة زمنية من تاريخها كما ذكرنا قد أدى إلى حدوث خلل فى بناء ووظائف المجتمع الأوروبى والذى كان يعانى خلال فترة إنتشار هذا

الوفاء من وطأة العديد من العامل والمتغيرات كتدنى مستوى المعيشة وإرتفاع معدل الكثافة السكانية وخاصة بالمدن وإنخفاض مستوى الرعاية الصحية ، وأن للتغير الإجتماعى السريع وغير المخطط أبعادا تهز كيان الفرد والمجتمع وتؤثر سلبا وإيجابا فى صحتها ومرضها فمرض السرطان وأمراض القلب وإضطرابات الجهاز العصبى عموما ما يشار إليها على أنها أمراض الحضارة أو المدينة نجد أنها نتاج لتفاعلات عديدة ترتبط بنمط الحياة والتكنولوجيا السائدة ، والأنماط الثقافية والسلوكية لذلك يصفها الباحثون بأنه : مرض إجتماعى " وفى هذا الصدد أكد *Allport* أيضا على أن أنماط التفاعل الإجتماعى والعلاقات السائدة داخل الأسرة وعمليات التنشئة الإجتماعية التى تقوم بها الأسرة تعتبر عاملا هاما فى صحة الصغل الجسمية والعقلية يضاف إلى ذلك الوضع الإجتماعى والوعى الصحى والغذائى للأسرة .

ومما يجدر الإشارة له هنا أن الأمراض اليوم تختلف فى العصر الحالى من منطقة جغرافية لأخرى ومن جماعة إجتماعية لأخرى فهى تختلف باختلاف البيئة ككل وباختلاف طرق المعيشة ، فالأمراض التى تعرض لها الإنسان فى مرحلة الصيد وجمع الطعام تختلف عن الأمراض التى تعرض لها فى مرحلة الزراعة التى تميزت بالإستقرار وإستئناس الحيوان وتوفير مصدر مستقر للإمداد بالطعام بخلاف ماهو موجود فى المجتمعات الحديثة والمتقدمة .(٣٧)

وان التضاد بين الموقفين قدمهم بصورة أفضل لـ *Gussow* فى إشارته للمرض المزمن الذى يتضمن أشخاص فى إحالة أو تعهد طويل الأمد للمعنى والتضمين للعجز أو عدم القدرة ومطلب لإعادة التوافق والتكيف والإنفعالات على عدد من المستويات الإجتماعية فالتغيرات والتبدلات تفترض صفة أكثر ديمومة أو إستمرارية مد إعادة تنظيمات أكثر أو أقل إستمرارية فى النظام لبرنامج الحياة حيث تحولات أو تبدلات الدور للمرض القصير الأمد تكون عادة تبدو كغير هامة أو ثانوية مقارنة بالحالات المزمنة التى تعنى إعادة التنظيم لطرق الحياة السابقة لكل من المريض ولهؤلاء من حوله الذين يكونوا أكثر تأثيرا بمرضه .

فمشكلات المعانين من أمراض مزمنة قد تتفاقم عندما تبصمهم هذه الظروف فى أعين الآخرين وخاصة أمراض السل والسرطان والجزام وذو التشوهات الحادة بسبب عوامل فطرية أو حادثة التى تثير إنفعالات خوف زائد وإشمئزاز أو تعب نفسى للآخرين بما فى ذلك المرض العقلى ، وإن معظم الأبحاث التى أجريت على المرضى المزمن قد تمت فى مجتمعات معدة تكنولوجيا حيث الفعالية الطبية والرعاية الوبائية المستمرة طوال فترة الحياة وبصورة كبير . بينما فى المجتمعات التقليدية فالمرض المزمن نادر نسبيا لأن قليل من الناس تبقى على قيد الحياة .

أما المرحلة الخامسة والأخيرة : وهى مرحلة الشفاء أو حالة إعادة التأهيل وقرار التخلى عن دور المريض والتعامل بصورة أفضل مع الحياة .

وهذا القرار يكون نسبى فالمعانين من حالات مزمنة يعرفوا أن دور المريض دائما يكمن حول زاوية تالية لأمراض أخرى ، وأن المراحل الخمسة السالفة الذكر تكون واقعية فى كل المجتمعات . ففى تلك المرحلة تمارس أفعال شعائرية ورمزية ترمز إلى أن المريض قد إسترد حالته الطبيعية أو إسترد أدواره العادية ، ولكن تختلف من مجتمع لآخر ، ففى الولايات المتحدة التصديق على الشفاء يرتكز بصورة كبيرة على كلمة الطبيب المعالج للحالة حيث يكون المريض قادر على أن يقول " إن طبيبى صرح بإمكانية أن أفعل أى شئ أريده " وبهذه الطريقة تمثل تأمين لأصدقائه أن كل شئ على مايرام . ففى المكسيكو يشير المريض فى هذا الصدد لتعبيرا مماثلا حيث يقول " أنا جاهز الآن للإستحمام " وذلك لاعتقادهم أن الإستحمام يمثل أعلى خطورة للمريض ويحرم منه مباشرة عندما تظهر الأعراض الأولى ويسمح به ثانية عندما تختلف كل أدلة التوعك فمعنى كلمة " إستجمام " تعنى طريقة تعرفية للتعبير عن الشفاء الكامل ، بينما فى مجتمعات أخرى فالشعائر تكون أكثر إحكاما أو إتقانا ، ففى نيجيريا هناك ما يمثل التمثيل الشعائرى للشفاء الرمزى من المرض العقلى فالملابس التى كان يرتديها المريض

أثناء مرضه يأخذها للنهر مع نبح يمامه أو حمامة على رأسه ويغتسل بدمها ثم يلقى بملابسه القديمة وجسد الدبيحة للطائر فى المجرى تصاحبها ترتيلات أو ترنيمات الكاهن أو القسيس مع نداء المريض وحديثه للنهر الذى لا يتوقف تدفقه بألا يعود المرض مرة ثانية ثم يرتدى المريض ملابسه الجديدة ويقابل أقاربه الذين يجتمعوا لمأدبة فى حفاوة أو تكريم لاسترداد صحته بصورة جديدة .

ويشير *Maclean* أن كل من المريض والعائلة تفترض فائدة من هذه الشعيرة فهى تمثل إستعادة لثقة المريض فى نفسه وبأن أقاربه سوف يرحبوا به ليحتل دوره العادى ، وتأكيد وثقة الكاهن للعائلة أنه يمكن أن يقدر على أنشطته العادية أو الطبيعية ، أما التناقض المدهش مايحدث لدى المجتمع الغربى فالمريض العقلى عندما يغادر المستشفى تستمر آثار مرضه تلاحقه وتبقى وصمة قد لاينجح فى التخلص منها أو بعدها ورغم هذا إلا أن هناك نقص شديد فى إهتمام الأنثروبولوچيين بسلوك المرضى لدى الشعوب اللا غربية فالباحث السلوكى الذى يعمل فى مستشفى أمريكى يمكن أن يكرس فترات طويلة من الوقت لسلوك المريض عندما تتوافر لديه عينة مناسبة من المرض لكن قد يجد الأنثروبولوچى صعوبة فى أن يجلس بجوار كل شخص مريض فى كوخه ليلا ونهادا ويلاحظ ماذا يفعل له وكيف يكون رد فعله حتى يشفى أو يموت ، ولكن مع ذلك بدأ الأنثروبولوچيون دراسة المستشفيات فى المجتمعات اللاغربية كالهند وأندونسيا وذلك لعقد مقارنات لما يحدث بها .

ـ الادوار الإجتماعية للمرض :

إن العالم السلوكى فى دراسته للمرض يجب أن يدرك ويعى دور الثقافة فى تشكيل السلوك الذى يلاحظه دور سيكولوجية الفرد والأهداف الشعورية واللاشعورية للمريض فمعظم الناس تفضل أو تعتقد أنهم يفضلوا الصحة على المرض والتمتع بها وهذا عرض برامج الصحة العامة لعقود عديدة فالصحة الجيدة مثل أشياء أخرى مرغوبة فى الحياة تأخذ مكانها لدى كل شخص بدرجات متفاوتة

من الأسبقية ، فقد تكون على مقربة من القمة لدى البعض بينما فى أسفل الإنحدار لدى الأخرين ، حيث يريد البعض الصحة الجيدة مهما كلفهم الأمر ، بينما على العكس من ذلك تماما ما يحدث لدى الأمريكان من إرتفاع هائل للإصابة بسرطان الرئة ومرض القلب أثر التدخين والإمتناع عن إجراء الفحوص الطبية المنتظمة وذلك لإنشغالهم بأمور أخرى تبدو لها الأسبقية عن الصحة الجيدة التى يجب أن تتنافس كأسبقية مع كل الأولويات اللاصحية ، ولذا فسلوك الفرد الصحى يمكن أن يفهم فقط فى هذا المحتوى الواسع من أهداف الحياة ، وبعيدا عن الأولويات الشخصية فالمرض لديه غالبا وظائف تكيفية إيجابية . فكل شخص فى بعض المواضع يرحب بالمرض كتخلى أو تحرر وقتى أو مؤقت من مواقف مضغوطة، ولذا فدور المريض يمكن أن يبدو كميكانيزم وكعنصر مفيد فعال فى إستراتيجية الحياة الكلية للفرد ، فمبكرا أدرك الناس أن الشخص المريض يحصل على إمتيازات خاصة فلقد إكتشف الأطفال الصغار التمارض بالبرد وقرح الحلق للتغيب من المدرسة لفترة من الوقت حيث كشفت دراسة على أطفال مدرسة إبتدائية إرتفاع نسبة المصابين بدرجة الحرارة المرتفعة أو الميل للقئ فى اليوم التالى للعطلة الأسبوعية إلى أن تتحسن الحالة تدريجيا بعد ذلك ، كما أنه من منا لا يرحب بيوم أو يومين راحة فى الفراش مع برد خفيف أو أنفلونزا لكى تمده بفترة راحة قصيرة يصدق عليها إجتماعيا من الروتين اليومى العادى وعلى هذا يوصح دور المريض كتخلى وقتى شكل معقول من السلوك التكيفى لمعظم الناس وقد يصبح طريقة مرضية للحياة حيث وصف *Nolen* هذه الشعوب المعروفة أساليبهم للأطباء بقوله " الإستمتاع بالصحة الضعيفة هوايتهم وإهتماماتهم ومهمتهم حيث يبنوا معيشتهم بالكامل حول أعراضهم وزياراتهم المتكررة للأطباء وأقامتهم بالمستشفيات ، وفى كلمات أخرى قد يحقق المرض أدوار إجتماعية تالية .

١ ـ يمد المرض بتحرر من الضغوط الغير محتملة :

حيث يشير كل من *Fox* و *Parsons* إذا أدرك أعضاء المجتمع الأمريكى

المكسيكى الشخص كمريض وفشل فى إنجاز وظائفه العادية فلاينسب الخطأ له وتوافقه مع الصواب للأعضاء والرعاية ، وفى مواجهة الضغوط الإجتماعية الثقيلة فدور المريض يمثل قناة شبه شرعية لإعفاء العامل الإجتماعى من مسئوليات الراشدين وإستمتاعه ليسمح لنفسه بأخذ الرعاية من الآخرين .

٢ ـ يساعد المرض علي تقدير أو تفسير الإخفاق الشخصي ويحد بفترة راحة وقتية من الضغط العامر أى ربما صمام أمن صحى ووقت إستعدادا مسبق يتم بكل المجتمعات ليعد الشخص لدفع الوقت لمواجهة مشاكل صعبة ثانية لكن للبعض يصبح طريقة دائمة أو مستمرة للحياة .

ويشير *Shuval* أن المرض يتضمن عدم القدرة لإنجاز مسئوليات أو واجبات وتجنب قبولها نتيجة للمرض .

٣ ـ يستخدم المرض للحصول علي الإنتباه :

حيث تحلى التقاليد الثقافية أن المريض يستقبل إنتباه خاص وتساؤلات مملوءة بالأمل والجزع أو القلق عليه عن كيف يشعر وأطعمته الخاصة وأساليبه العلاجية فهو صلة جذابة للحصول على الإنتباه ، ويشير *Balint* فى هذا الصدد أن فى لندن وكنتيجة للتحضر وفقد الناس لجذورهم التقليدية حيث يعيشوا فى عزلة أو حدة ينتج عنها مشاكل عديدة ولم يجدوا من يفضلوا لهم بهمومهم ويتعاطف معهم وما ينجم عن ضغوط عقلية ونفسية وأعراض جسمية وعلى هذا فاستخدام المرض هنا يمثل منفذ خارجى يقع على الطبيب والشاكى ، وإن هذا السلوك ليس محدد للمجتمعات الغربية فبين *Navaho* (نافاهو) على سبيل المثال يظهر المرض أعراضهم للسحرة لجذب الإنتباه أو يكشفوا عنها فى عزلة سرية فى بيوتهم ويكونوا ضحايا للعرافة .

٤ ـ يستخدم المرض كعطلة للراحة بالمستشفي :

تختلف الاختلافات تجاه المستشفيات فى المجتمعات التقليدية عنها فى

المجتمعات الغربية نظرا لاختلاف القيم وقواعد التحريم التى تعرض على النساء فى المجتمعات التقليدية من وجود الغرباء وبخاصة من الرجال ولهذا يستفيد كل من الرجال والأطفال من الرعاية الطبية التى تقدم بالمستشفيات أكثر من النساء كما أن هناك عزوف عن الذهاب للمستشفيات بوجه عام من قبل المجتمعات التقليدية والرغبة فى العلاج بالبيت لكن الوضع يختلف تماما لدى المجتمعات الغربية حيث يعتبروا الإقامة بالمستشفى بعض الوقت نوع من الراحة والإستجمام وتهدئة الأعصاب من روتين الحياة اليومية وكذلك لإجراء الفحوص والتحليلات الدورية .

٥ ـ يستخدم المرض كحيلة للضبط أو التحكم الإجتماعي :

وهناك أمثلة عديدة يستخدم فيها المرض كحيلة للتحكم متمثلة كالآم الأرجل بالمجتمع الأمريكى الذى تلعب به بمسامر أطفالها لتضمن أنهم سيفعلوا لها ماتريده ، والإبنة التى تبقى بمفردها كل حياتها تكريسا لرعاية أمها ثم إحساسها بالوحدة فيما بعد ، والأبناء الذكور التى ترغب الأم فى عدم زواجهم استمرارا لرعايتها وذلك باعتراضها على أى زوجة لأبنائها بحجة أنها ليست جيدة أو غير جديرة بإبنها . كما يعطى *Clark* مثالا تقليديا من المجتمع المكسيكى الأمريكى فالمرأة الصغيرة التى تنتظر طفلها الأول وكنتيجة لإساءة زوجها لها وإهانته المتكررة يأخذها أقاربها إلى المرأة المعالجة التى يطلق عليها *Curandera* وذلك للخوف على طفلها الذى لم يولد ولذلك تلجأ إلى مرض يعرف شعبيا *Susto* (أى الرغبة) لكى تحصل على تعاطف ودعم من دائرتها الإجتماعية بالكامل وذلك بنشر أخبار تجربتها السيئة خلال الجيران وبالتالى تفتح مجال النقد المباشر إيذاء الزوج عديم المشاعر الذى يهدد حياة طفلها الذى لم يولد بعد وخلال ضغط الجماعة فيقتنع أخيرا بخطأه ويقدم إعتذاره وإعادة السعادة للحياة الزوجية كما يستخدم المرض أيضا للحصول أو لإحراز أشياء مرغوبة كالرفاهية الإجتماعية والمنزل الجيد والعمل المجزى ، ويشير *Shuval* أن بعض الناس فى إسرائيل وجدت المرض كأداة توزيعية وما يترتب على ذلك من استياء للأطباء الإسرائيليين

من إستمرار إستخراج الشهادات المرضية التى ينالوا بها المرضى ما يشتهون .

٦ - يستخدم المرض كحيلة للتكفير عن المشاعر الأثمة أو الشعور بالذنب :

حيث تنظر عديد من الشعوب الغربية واللاغربية للمرض كنتاج لآثامهم أو لذنوبهم أو لإزعاج آلهتهم ، ويذكر *Roemer* أن فى التقليد اليهودى الأنصارى مايقر بأن الله يظهر قانونه أيا كان يتبعه ورع أو تقى سوف ينعم بالسعادة فى هذا العالم ومن يكسر هذا القانون سوف يعاقب . وعلى هذا فالمرض قد يكون عقاب وكنتيجة لهذه النظرة فالإنسان المريض يميز بعلامة معينة لأنه ليس ضحية بريئة بل يستحق المعاناه الأثمة وخلال فترة مرضه تصبح آثامه حدث للعامة للذين شعوريا أو لاشعوريا يتمسكوا بوجه النظر أو رؤية المرض كحيلة للتكفير عن الآثم (٣٥) .

ـ تطور إستراتيجيات المرض :

يصف *Balint* عملية البحث عن إتفاق مشترك لتعريف المرض على كل من الطبيب والمريض فالعالم السلوكى فى دراسته لسلوك المرض وأدوار المريض قبل دخوله المستشفى أو قبل التشخيص الكلينيكى وأدواره بعد ذلك يجب أن يدرك ليس فقط العوامل الإجتماعية والعرقية (الأثنية) والثقافية ولكن يجب أيضا أن يتذكر علاوة على ذلك فلا شعوريا أن المرضى قد يستخدموا ظروفهم كحيلة علاجية وأن للمرض قيمة إيجابية وسلبية لهم .

وفى ضوء ذلك أمد عالم الإجتماع *Talcott Parsons* بنموذج دور المريض الذى إستخدمه كثيرا من العلماء السلوكيين فعلى الرغم من أنه يدرك حقيقة " المرض كاضطراب فى الوظيفية العداية للفرد " إلا أنه يتضمن كل من الحالة العضدية كالجهاز البيولوجى وشخصيته وتوافقه الإجتماعى .

فالمرض من وجهة نظر " بارسونز " يكون شكل من السلوك الانحرافى الذى يمد أو يزود بتصديق إجتماعى وطريقة تنظيمية للإنسحاب من المتطلبات وضغوط

الحياة اليومية تليها شرعية لهدفه لشغل دور المريض ففى المجتمع الغربى يتم هذا بقبول الطبيب له كمريض ، وعلى هذا فالمريض له حقين أساسيين وهما :

أ ـ الإعفاء من مسئوليات دوره الإجتماعى العادى .

ب ـ الرعاية حتى يشفى ، كما أن عليه واجبين رئيسيين :

١ ـ معرفة دور المريض يمثل شئ غير مرغوب فيه وشعور مكروه ولذا فعليه أن يبذل ما فى وسعيه ليكون أفضل مايمكن وبأقصى سرعة .

٢ ـ البحث عن المساعدة التقنية المختصة كالطبيب والتعاون معه للحصول على الأفضل ولقد أمكن الإستفادة من هذا النموذج وتطبيقه على المرضى الذين يعانون من أمراض محددة ذاتيا والتى يتوقع شفائها وتمثل حالات وقتية بينما يمثل أقل فائدة لدى الحالات التى لايأمل شفائها حيث لايتخلى المرضى عن أدوارهم ولا ينصحوا بمحاولة الشفاء عندما يكون مستحيلا أقصى من ذلك ـ أن كثيرا من الأمراض المزمنة لن يتبخز الدور العادى ، فمرض القلب قد يقيد أنشطة الشخص الجسمية العنيفة ويسمح بالأدوار الإجتماعية العادية كما أن المرض المزمن ليس موزع عشوائيا بين الناس وإنما يتعلق بالتقدم فى العمر ، وذلك لأن كبر السن ذاته يكون ملحوظ ببعض توقعات الدور للنموذج البارسونى .

وعلى هذا يشير كل من *Kassebaunn Bauman* للفشل فى التمييز بين المرض وكبر السن كأساس لتوقعات الدور مما قد يكون له نتائج مخلة وظيفيا لكل من علاج المريض وللعلاقة بين الطبيب والمريض كما أن هذا النموذج وضح نقصا كبيرا فيما يتعلق بالمرض العقلى حيث وجد *Segall* عدد من الأبحاث التى تتعلق بهذه المشكلة فالشخص الذى يبحث عن مساعدة نفسية لحالته العقلية يكون مثل الشخص المريض جسميا الذى يذهب للطبيب ملتمسا الشفاء إلا أن الشخص المريض جسميا لا يعاد بمقتضى المرض ويتوقع أن يتخلى عن إلتزاماته العادية بينما المريض العقلى يجب أن يعد لمواجهة الوصمة أو العار وربما الرفض كما أنه

لن يعفى من كل المسئوليات الإجتماعية ، وأن سلوك المريض مرضا جسمانيا يتوقع أن يكون ملحوظ بالسلبية والخضوع والإتكالية أو التابعية بينما المريض مرضا عقليا يتوقع أن يكون سلوكه ملحوظ بالفاعلية والإستقلالية والإتجاه الذاتى فى علاقته بالمعالج (٣٦) .

ـ المرض والتطور والتحولات الإجتماعية المسببة :

كانت الأمراض المعدية عاملا هاما فى التطور البشرى لفترة تزيد عن مليونين من السنين ومن خلال ميكانيزم تطور " الحملة الوراثية " *Genetic Protection* أصبح لأسلافنا القداما القدرة على التغلب على تهديدات المرض لحياة الفرد والجماعة ويعتبر ظهور الجينات التى أعطت مقاومة لمرض الملاريا فى المجموعات السكانية التى تعيش فى منطقة غرب افريقيا أحد الأمثلة الهامة لهذه العملية التطورية ، وفى السنوات الأخيرة تعرف الأمريكيين على نوع من الأمراض الجديدة بالنسبة لهم يعرف باسم سمة الخلايا المنجلية *Sickle Cell Anemid* وكان هذا المرض يصيب السود بنسبة أعلى من المجموعات السلالية الأخرى ، ويتميز هذا المرض بأن كرات الدم الحمراء تأخذ الشكل المنجلى بدلا من الشكل الاسطوانى العادى الذى يعتبر وراثى الأصل وأغلب الأفراد الذين تظهر عليهم أعراض المرض يموتون فى سن مبكرة ولم يكن هناك علاجا معروفا لهذا المرض ، وبالإضافة إلى أولئك الذين كانوا يموتون من المرض كان هناك نسبة كبيرة من السود الذين كانوا يحملون السمة أو الجينة فى صورة متنحية وبالتالى ينقلونها لأولادهم دون أن يؤثر ذلك على صحتهم وسمة الخلايا المنجلية بدأ الإعتراف بها على أنها تمثل تهديدا صحيا خطيرا للسود فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهناك محاولات تبذل الآن للتحكم فى إنتشار الجينة ـ وفى بيئات أخرى تعتبر السمة من السمات المرغوب فيها ، لما لها من درجة عالية من الوقاية فى المناطق الموجودة بها الملاريا على الأفراد الذين يتعرضون لعضة بعوضة الأنوفيليس *Ànopheles* وقد أثبتت البحوث التى تمت فى غرب إفريقيا فى

السنوات القليلة الماضية أن الوقاية من الملاريا قد أدت إلى نوع من الإنتخاب الوراثى الذى يفضل إنتخاب الأفراد حاملى سمة الخلايا المنجلية فى البيئات الموجودة بها الملاريا ، ويعتبر هذا المثال هام لعلماء الأنثروبولوجيا الطبية حيث أنه يوضح كيف يمكن لمرض معين وهو تهديد بيئى للصحة أن يؤثر فى التطور البشرى فسمةالخلايا المنجلية تعتبر حلا بيولوجيا لمشكلة ثقافية (يقصد بها التغيرات التى أحدثها الإنسان فى بيئات الملاريا التى أدت إلى زيادة تكاثر البعوض وإنتشار المرض وبالتالى إنتشار الجينة المسئولة عن الوقاية من المرض كحل بيولوجى) وعلى ذلك يمكن أن نقول أن التكيف السوسيواقتصادى عندما يحدث تغيرا فى البيئة فان نسبة تردد الجينة سوف تتغير وفقا للقيمة البقائية التى تضفيها الجينة على حامليها فى النظام الأيكولوجى الجديد فزيادة ترددات الجينة التكيفية يؤدى إلى إزالة العوائق البيئية ويؤدى إلى تطور أكثر للتيكف السوسيواقتصادى ، ولقد أوضحت الخبرات التاريخية التى تراكمن لدى الباحثين أن كل الشعوب البدائية قد سقطت ضحايا لعدة أنوا ع من الأمراض عند إحتكاك هذه الشعوب وخضوعها للسيطرة الأوروبية وحضارة الغرب ، وكلما نزل المستكشفون الأوروبيون بلادا أدخلوا معهم حامل ميكروب لأمراض عديدة ضارة للغاية لأنهم لم يتعرضوا لهذه الميكروبات من قبل ، كما أن وصولهم وإحتكاكهم بالبدائيين أحدث إضطرابات فى عادات الغذاء وطرق الحياة والمعيشة القديمة التى ورثها أفراد هذه القبائل من أسلافهم وهذه الإضطرابات الإجتماعية قد قللت بدورها من المناعة ضد الأمراض . ولقد ذكر ريموند فيرث وغيره ما أصاب الشعوب البدائية مثل الهنود الحمر والبولاينزيين فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين من جراء ذلك (إنتشار البكتريا والزهرى والسيلان) وكذلك الحال للأوروبيين قد سقطوا بدورهم ضحايا لأمراض معدية لم يكتسبوا مناعة ضدها من قبل ، وفى أوروبا وأمريكا فقد كان كل تحول إجتماعى مفاجئ مصحوب عادة بزيادة واضحة فى حدوث أمراض مختلفة ومتنوعة وعلى هذا بالظروف التى صاحبت الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر سببا فى إنتشار الكثير من الأمراض وتدهور كبير فى

المسنويات الصحية وعلى الأخص بين الطبقات العاملة وذلك لأن المحيط الصناعى هو الظرف الذى يكون السبب الوحيد فى حدوث الاضطرابات لدى بعض الباحثين فى تفسير أسباب حدوث المرض لأنه من وجهة نظرهم أن هذا المحيط يمثل بيئة غير صحية من ناحية كما أنها مختلفة كل الإختلاف عن تلك البيئة التى ألفها هؤلاء المهاجرون من قبل كما فرض على المهاجرين لتلك البيئة الصناعية مطالب عديدة للتكيف ولم يستطيعوا أن يستجيبوا لها ومن ثم كانوا عرضة للأمراض الناجمة عن سوء التكيف . وعلى أية حال كلما كان المجتمع أكثر قابلية للتغير أى أكثر نشاطا وديناميكية كلما كان ذلك مدعاة لحدوث المزيد من الأمراض لأنه سببا لحدوث المزيد من التغيرات فى البيئة المحيطة وفى طرق المعيشة .

وأن معظم الأمراض المتسلطة على الأمم الصناعية الحديثة قد أثرت فى نفسها على أمم وشعوب ماقبل التاريخ وهى نفس الأمراض المتواجدة الآن فى المجتمعات البدائية وهذه الأمراض سببت لهذه الأمم جميعا الكثير من المشاكل ومن المعروف أن الأمراض ليست لها المقدرة على تغيير مميزاتها العامة ولأن الطبيعة الإنسانية إستمرت على حالها من غير تبدل لمدة أكثر من ١٠٠٠٠٠ سنة ومع ذلك فإن الزيادة النسبية للأمراض المختلفة قد تغيرت تغيرا نسبيا من فترة تاريخية لأخرى ، وهناك العديد من الشواهد التى تثبت التغيرات العامة فى نسبة حدوث وخطورة الأمراض المختلفة عبر الفترات التاريخية المختلفة بالكتب الكلاسيكية والهندية والإفريقية والرومانية .

ـ الإرتباط بين المرض والفئة العمرية والنوعية والمهنية :

أ ـ المرض والفئة العمرية :

إنه من المعروف أنه كلما تقدم الناس فى العمر صارت لهم مناعة ومقاومة ضد بعض الامراض الضارة والمعدية بينما تكثر الأمراض المعدية والعدوى بين الأطفال كما تزداد نسبة الوفيات فيما بينهم وخاصة قبل العام الأول من عمر الأطفال . وقليلة فى سن الخامسة عشر ثم تزداد وتستمر كذلك على مدى سنين

العمر المختلفة حيث يؤكد كل من فرانسوا وميكانك أن علم الوظائف الطبية تعكس الحالات البيولوجية من حيث خطورة الأمراض على إختلاف الأعمار ولكن هذه الأنماط تتوقف فى الواقع على تأثير المجتمع والثقافة ، كما أكد أندرسون على نوع التغذية والنظافة والعناية الطبية .

ب ـ المرض والفئة النوعية :

إن العوامل البيولوجية التى تلعب دورا كبيرا فى إختلاف الجنس أثبتت الدلائل أن لها دورا كبيرا بالنسبة للمرض ، إذ يتوقع أن الإناث يعيش مدة أطول ونسبة الوفيات أعلى فى الذكور عن الإناث .

والواقع أن الإختلاف فى نسبة الوفيات على أساس الجنس يعتبر مشكلة معقدة فليس هناك تأكيد حاسم وليس هناك إجابة إن كان الذكور أو الإناث لأحدهم مميزات خاصة يتميزون بها أو لديهم قدرة خاصة متباينة فيما بينهم بالنسبة للتفاعل مع المرض والتأثر به على إختلاف أطواره ولعل ذلك يرجع إلى نواحى ثقافية وإمتيازات يتميز بها جنس عن أخر ، فعلى سبيل المثال إرتفاع نسبة الإصابة بمرض لين العظام فى بلاد تسطع فيها أشعة الشمس كالنيجر بين النساء عن الرجال والأطفال وذلك لأنهن يقضين معظم الوقت داخل الخيام مرتديات ملابس تغطى جميع أجزاء الجسم كما أن غذائهن لايحتوى على فيتامين أ ، ب وعنصر الكالسيوم كما أن السبب المباشر فى حدوث مرض لين العظام عند المرأة البدوية هو الحمل والولادة والرضاعة فى فترات متقاربة ومايؤدى بهن فيما بعد عدم القدرة على الحركة الا متكأت على العصى .

جـ ـ المرض والمهن :

أثبتت الدراسات أن هناك علاقة بين المهن والأمراض فقد ذكر ذلك فى أجزاء كثيرة فى كتب علم الوبائيات منذ القرن التاسع عشر وأيضا فى دراسات أمراض المهنة ، إلا أن إمكانية إنتشار المرض تختلف على حسب ظروف ممارسة

المهن المختلفة نظرا لأن بعض المهن تحتوى على قدر كبير من الضغوط النفسية والبعض الآخر يحتوى على مجهود جسمانى كبير فعلى سبيل المثال يشير موريس أن الضغوط النفسية الشديدة والحادة تسبب مرض القلب المفاجئ بين محاسبى الضرائب نظرا إلى أن الظروف النفسية تؤدى إلى تفاعلات فيزيقية تنتهى بالإصابة بأمراض القلب .

ـ المرض والفوارق الاثنية :

إن إختلاف النسب فى الأمراض وعلاقتها بنوعية الناس أصبحت مشكلة فى الدراسات الأنثربولوجية الطبية التى تؤكد على العلاقة بين نوعية الناس وطريقة حياتهم من ناحية وأغراض الأمراض من ناحية أخرى ومن أمثلة هذه الدراسات التى أجريت فى جزر هاواى عن سرطان المعدة وفى الفلبين عن سرطان الكبد وسرطان الثدى والأمعاء والحلق والفم وعادة يحدث هذا المرض لغير الملونيين أما سرطان عنق الرحم عند النساء المسلمات فقد وجد أن هذا المرض قليل الإنتشار بين المسلمات والعبريات بسبب عملية الختان .

ـ المرض والفوارق الإجتماعية :

إن إختلاف الأمراض وفترات حدوثها ومقارنتها فى تركيب الجماعات السكانية شكلة بؤرة إهتمام علم وظائف الأمراض الوبائية وجزء من هذا الإهتمام هو العلاقة الإجتماعية والملائمة بين الفرد القروى والفرد فى المدينة .

وقد لاحظ البعض وجود إرتفاع فى ضغط الدم فى الزولو بصرف النظر عن الجنس والعمر حيث لاحظ سكوتش أن المدن فى الزولو معرضة لفترات كبيرة تقع فيها تحت ظروف إجتماعية معينة تسبب إرتفاع ضغط الدم عندهم وقد أرجع سكوتش ذلك للتغير الذى طرأ على التقاليد الثقافية وأضعفها لديهم حيث بدأت الثقافة المحلية فى الزوال وحلت محلها أسلوب الحياة الغربى مما يجبر الفرد على الإلتزام بأنماط أخلاقية فى الوقت الذى قد يكون حاملها غير معدا للتكيف مع

الثقافة الجديدة .

كما أن الأمراض المزمنة وحالات إعتلال الصحة أكثر إنتشارا فى المجتمعات الأكثر رخاء وتقدما بالمقارنة بمعدلات حدوثها فى المجتمعات الفقيرة ماديا والتقليدية لدرجة تكفى بأن يطلق مايسمى بأمراض الحضارة وهذا تسليم يتضمن الإعتراف بأن طريقة حياتنا لها تاثيرها السئ ، كالإشعاعات الذرية والمواد الكيماوية وأمراض مصدرها زيادة إستخدام الفيتامينات (هير فيتامنيوسين) وأمراض نتيجة إستخدام السوائل المنظفة والمطهرة والتركيبات الكيماوية والتى أدت إلى زيادة الإصابة بأمراض الحساسية كما أن التقدم فى العلاج الكيميائى قد خلق الآن صورا جديدة من الأمراض الميكروبية أى أمراض تراكم السموم على أثر تناول العقاقير وهناك أيضا بعض الأمراض التى يمكن أن يشار إليها الآن باسم "أمراض عدم الحركة " ومنها ما ينتج من مخاطر العمل والإشتغال بالمهن التى تقتضى الجلوس لمعظم الوقت .

وهنا يمكن القول أنه فـ يالوقت الذى ظلت فيه طبيعة الإنسان الأساسية كما هى الآن أى أنها ظلت على حالتها التى كانت فى العصر الحجرى القديم فإن نمط الأمراض التى تصيبه مستمرة فى التغير ، لأن التغيرات فى إستجاباته السيكولوجية التى واكبت التغيرات البيئية لم تمكنه من التكيف بالسرعة الملائمة والتى تتناسب مع التغيرات السريعة فى ظروفه فالتغير نفسه قد يشكل أحد أسباب الأمراض .

ـ المرض والوراثة :

أبرز جرينبرى *Greenbery* دور العوامل الوراثية فى إصابة الإنسان بالمرض فالوراثة تلعب دورا كبيرا فى تعريض بعض الأفراد للإصابة ببعض الأمراض مثل السكر وضغط الدم والهيموفيليا أو الميل الوراثى للنزيف المتكرر ومرض لأنيميا المنجلية وهؤلاء الأفراد يكون لديهم قابلية للإصابة بهذه الأمراض الوراثية لحملهم بعض الجينات الوراثية التى تحمل جراثيم هذا المرض ، وهذا

المرض الوراثى يصيب بعض السلالات البشرية دون الأخرى ففى الولايات المتحدة الأمريكية يعتبر هذا المرض من الأمراض الخطيرة التى تهدد صحة الزنوج لأنهم يحملون جين أو سمة وراثية تعتبر مسئولة عن ظهور هذا المرض فى هذه السلالة بالذات وتوضح الدراسات الطبية المختلفة أن إنتشار هذه الصفة الوراثية تعتبر شيئا موغوبا فى بعض البيئات بينما لا يتعتبر كذلك فى بيئات أخرى ففى غرب افريقيا يعتبر إنتشار الجين الذى يحمل هذه الصفة الوراثية شيئا هاما وذلك لأنها توفر درجة عالية من الحماية للمصابين بمرض الملاريا بينما نجد أنه فى الولايات المتحدة يعتبر مرض الأنيميا المنجلية مرضا خطيرا يؤدى إلى موت معظم المصابين به فى سن مبكرة ومن أعراضه ظهور بثور حمراء على الجلى تأخذ شكلا منجليا بدلا من الشكل الدائرى المألوف كما ذكرنا سابقا..

ـ تصنيف المرض :

ـ هناك وجهتان نظر يصنف المرض من خلالهما :

أ ـ الطب الحديث : ويصنف المرض إلى مجموعات ويعرف المرض حيث توجد أعراضه وعلاماته بغض النظر عن الثقافة أو الحضارة وهذه الطريق وإنتشارها قد ساهمت فى تقدم عملية التشخيص حيث تصنف فيه الأمراض إحصائيا حسب إعتبارات معينة والتى تختلف حسب وجهة نظر المصنف فأخصائى التشريح يصنف المرض حسب العضو وأخصائى المرضيات يصنفه حسب طبيعة المرض وطبيب الصحة العامة يصفه حسب منشأ العدوى والطبيب المعالج يصنفه حسب الأعراض والعلامات وقد عقد أول مؤتمر لوضع أول تصنيف دولى لأسباب الوفاة فى باريس فى سنة ١٩٠٠ وقسم أسباب الوفاة إلى ١٧٩ مجموعة ثم عقدت مؤتمرات صحية دولية متوالية باشراف منظمة الصحة العالمية لعمل مراجعات للتصنيف الدولى للأمراض كان آخرها فى يناير ١٩٧٩ وتقع الأمراض حسب التصنيف الدولى للأمراض كان آخرها فى يناير ١٩٧٩ وتقع الأمراض حسب التصنيف فى سبع عشرة مجموعة متمثلة فلى : الأمراض

الطفيلية ، الأورام ، أمراض وإضطرابات الغدد الصماء والإستقلاب والمناعة ، أمراض الدم والأعضاء المكونة له ، الإضطرابات العقلية ، أمراض الجهاز العصبى وأعضاء الحس ، أمراض جهاز الالدوران ، أمراض الجهاز التنفسى ، أمراض الجهاز الهضمى ، أمراض الجهاز التناسلى البولى ، مضاعفات الحمل والولادة والنفاس ، أمراض الجلد والأنسجة تحت الجلدية ، أمراض الجهاز العضلى العظمى والأنسجة الضامة ، العيوب الخلقية ، بعض الحالات الناشئة فى فترة ماحول الولادة ، وعلامات وأعراض وحالات غير محدودة ، والإصابات والسموم (٣٨).

ب ـ تصنيف المرض في نظم طب السلالات : فهناك إختلاف فى تصنيف المرض وذلك بسبب الحدود الثقافية الضيقة كما أن هناك إختلافات واضحة فى حيثيات التشخيص وهذه تختلف من ثقافة لأخرى ومثالا لذلك فإن بعض الظواهر والأعراض تعتبر أعراضا وعلامات واضحة للمرض ولكن بالمثل بما نجد أن هذه الأعراض تمثل علامات الصحة بالنسبة لمجموعة أخرى من البشر وفى نفس الوقت قد لاتكون ذات أهمية بالنسبة لآخرين ، ولقد أعطى الركنشت مثالا لمرض الاسبيروشين *Spirochetosispinto* (نوع من البكتريا ذات شكل حلزوني وتسبب مرض الزهرى) وهو مرض جلدى منتشر بين الهنود القاطنين شمال الأمازون والذى يؤدى الإصابة به إلى بثور فى الجلد وهى من علامات الإصابة بالمرض ونعامل هذه الحالة طبيعيا ولا تعتبر مرضا على الإطلاق حيث ينظر إلى الأصحاء من المرضى على أنهم المرضى لذلك لايسمح لهم بالزواج وكذلك الحال لدى قبائل مانو *Mano* فى ليبيريا الإفريقية والذى ينتشر بينهم مرض *Yaws* وهو مرض جلدى فهم أيضا لا يعتبرون أن المصاب بهذا الداء مريض بل ينظرون إليه على أنه إنسان طبيعى ولا يحتاج لعلاج ، وتبدو الصورة واضحة أيضا بالنسبة لمرض الملاريا الذى إنتشر فى وادى المسيسيبى فى أواخر القرن الماضى حيث نجد أن المريض بالملاريا لا يعتبر مريضا من خلال نظره سكان المجتمع لذلك لاتوجه أى عناية أو رعاية له كما لايتم القيام بتحصين

الأصحاء ضد هذا المرض .

ونجد عند قبائل التونجا الإفريقية أن بعض الديدان التى تعيش فى الأمعاء يعتبرونها ضرورية لعملية الهضم ، وكذلك بعض القبائل الهندية فى كود ماله تعتبر الديدان على أنها حالة غير مستجمة ولكنها على أية حال فهى حالة طبيعية إلا أن المشكلة تبدو عندما تعيش هذه الديدان أو تخرج من خلال البلعوم وتسبب فيتا أو تتجمع وتظل فى مكانها وبذلك تسبب سدا يعطل نزول الطعام إلى المعدة وفى هذه الحالة تعتبر مشكلة يجب أن يبحث لها عن علاج وكذلك فإن القرويين المصريين مثلا يعتقدون أن المرض يجب أن يكون مصحوبا بالآم ، ونجد أن البلهارسيا وبعض الأمراض التى تسببها بعض الطفيليات المختلفة لاتعتبر مرضا وبالتالى لاتحتاج إلى أى علاج (٢٩) .

كما ذهب *Maretzki* فى دراسته الميدانية لهنود النافاهو *Navaho* أن معتقدات المريض عن المرض تتوافق مع طبيعة الحياة الإجتماعية ومع نمط وخصائص البيئة الفيزيقية التى يحيا فيها ويؤكد أن للسكان مفهوم خاص بهم للصحة وللمرض يختلف عن المفهوم الغربى ، فالصحة هى تلك العلاقة الصحيحة وذلك التوافق السليم بين الفرد والبيئة التى يحيا فيها من فيزيقية وإجتماعية وما بها من قوى وكائنات فوق طبيعية ، أما مفهوم المرض لديهم هو فقدان الإنسان لذلك التوازن المفترض وجوده بينه وبين كل من البيئة الإجتماعية والفيزيقية والكائنات فوق الطبيعية وعلى هذا فهناك أنواع كثيرة من الامراض لاتعرف بإعتبارها تشكل حالات أو ظروف مرضية من وجهة نظر جماعات لأنها تحدث على نطاق واسع ومن ثم يعتاد أعضاء المجتمع على النظر إليها على أنها تمثل الحالة السائدة للإنسان ومعنى ذلك أن الصحة والمرض هى جميعا أمور تتشكل من خلال السياق الإجتماعى الذى تحدث فيه .

ولكن رغم ماقيل من أمثلة فهى لاتعنى أن عملية تشخيص المرض فى أنظمة الطب الشعبى أقل حساسية لعلامات وأعراض المرض مما يجعلها أقل كفاءة فى

عملية التشخيص الطبى الحديث ولكنها فى الواقع قد تكون أكثر أو أقل حساسية عند إعتمادها على الظواهر وبتحليل مجموعات المرض عند قبائل : السبانشى * بجنوب إفريقيا وصف فراك عام ١٩٦٦ نظاما فيه تمييز دقيق بين أعراض المرض الجلدى أكثر دقة من التمييز فى الطب الحديث .

وهذه القبائل تفرق بين المرض الذى يحدث فى الأيدى والذى يحدث فى الأرجل وبين الذى يحدث فى أجزاء الجسم المختلفة وكذلك التفرقة بين المرض الذى تخفيه الملابس وبين الذى يكون مرئيا بالرغم من إرتداء الملابس كل هذا يوضح كيفية التشخيص الدقيق عند هذه القبائل .

- مراجع البحث :

١ ـ محمد الجوهري ، الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

2 - Paul Fejos, Magic, Witchcraft and Medical Theory, in, Jegb , Goldston (ed) Man's Image in Medicine Anthropology, U.S.A., 1980, P. 109 .

٣ ـ رمسيس عبد العليم جمعة ، التنمية الصحية ، المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية ، أكمل ـ الكويت ـ طبع ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٨٧ ، ص ١٢٩ .

4 - Richard W. Lieban : The Field of Medical Anthropology in David Landy (ed) Disease and Healing : Studied in Medical Anthropology, Macmillan Publishing Inc., U.S.A., 1971 , P. 14 .

5 - Dorothea C. Leighton, Medicine Anthropology of in the Encyclopedia of Bioethic, Vol. 43 , A Division of Macmillan , New York, 1977, P. 104 .

6 - Eleanor Ebauwens, The Anthropology of Health, Mosby Company, Saint Louis, 1979 , P. 68 .

7 - Guenter B. Risse, Health and Disease in the Encyclopedia of Bioethis, Vol. 2, A Division of Macmillan Publishing Co., Inc., New York, P. 579 .

8 - George M. Foster, Medical Anthropology, by John Wiley Sons, in, 1978, P. 240 .

٩ ـ محمد حسن الغامري ، مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ، المكتب العربي الحديث ، اسكندرية ، ١٩٨٩ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

10 - William, A., Closer, Medical Care, Social Aspect in the Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 10, P.94.

11 - Henry Yomi Akinsda, Behavioural Sciences for Nurses, Churchull Living Stone, London, 1983, P.92.

١٢ ـ علي المكاوي ، علم الاجتماع الطبي ، مدخل نظري ، اسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٦ ، ص ٦٠ ، ٦١ .

١٣ ـ محمد علي وآخرون ، دراسات في علم الاجتماع الطبي ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

14 - Michael C., Howard, Contemporary Cultural Anthropology, Scoll Foresmanand Company Boston, Foster, Op.Cit., P. 349 .

15 - George Foster, Op.Cit., P. 40 .

١٦ ـ محمد حسن الغامري ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ ، ١٨٨ .

١٧ ـ علي عكاوي ، الجوانب الاجتماعية والثقافية للخدمة الصحية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨ ، ص ٥٤ .

18 - Charlotte Seymour, Smith, Macmillan Dictionary of Anthropology, Macmillan Press Ltd., Printed in Hong Kong, 1986, PP. 181 , 188 .

19 - David Mechanic, Medical Sociology, the Free Press , a Division of Macmillan on Publishing Co., Inc., New York, P. 55 .

20 - Henry A. Kin Sola, Op.Cit., P. 22 .

21 - Howard, E. Freeman, Sol. Levine, Handbook of Medical Sociology, Prentice Hall, Inc., Englewood Cliffs, New York , P. 32 .

22 - George Foster, P. 39 .

23 - Peter Hammond, Cultural Social Anthropology Introductory Readings, in Ethnology, Macmillan Publishing Co., Inc., New York, 1975 , P. 51 .

24 - Ibid., P. 516 .

٢٥ ـ فاروق مصطفي اسماعيل ، الأنثروبولوجيا الثقافية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

٢٦ ـ فاروق مصطفي اسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

27 - Kasa J. Zolak, Poverty and Health , Sociology Analysis, Harvard, Uni. Press, 1975, PP. 41,44 .

28 - Charles C. Hugles, Ethnomedicine in DAvid L. Sills International Encyclopedia of the Social Sciences , the Macmillan Company, the Free Press, 1972, Vol. 9, P.10, 89 , 90 .

29 - Heget E.L., Hadidi, Socio Cultural, Cross - Cultural, Studies of Behaviour, Ltd., Kinehart and Winston Inc., U.S.A., 1970 , P. 469 .

30 - Rodney M. Coe, Sociology of Medicine, McGrow Hill Book Company, U.S.A., 1978, PP. 154 , 155 .

31 - George Foster, Op.Cit., P. 22 .

32 - Richard W. Lieban, Op.Cit, P. 22 .

33 - George Foster, Op.Cit., PP. 157 , 158 .

34 - Mirian Lincoln, Woman, Her Change of Life, Williams Norgate, Ltd., London, 1951, P. 27 .

35 - George Foster, Op.Cit., PP. 154 , 155 .

36 - Ibid., P. 170 .

37 - Ibid., P. 15 .

٣٨ ـ رمسيس عبد العليم جمعة ، مرجع سابق ، ص ١٣٨ .

٣٩ ـ التسمية الدولية للأمراض ، المجلد الثاني ، الأمراض الخمجية المعدية ، الجزء الثالث : الأمراض الفيروسية ، المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية ، منظمة الصحة العالمية ، مجلس المنظمات الدولية للعلوم الطبية ، الطبعة الأولي، ١٩٨٩ .

الفصل السابع

الأنثروبولوجيا الثقافية والبحث الأركيولوجي *

- تمهيد
- أولاً – تعريفات الأركيولوجيا
- ثانيًا – مجال البحث الأركيولوجي
- ثالثًا – أهمية البحث الأركيولوجي

---

* كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة/ نادية أحمد محمد، مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية.



الفصل السابع
الأنثروبولوجيا الثقافية والبحث الأركيولوجى

ـ تمهيد :

نحاول فى هذا الفصل أن نعرض تعريفات الأركيولوچيا ، ومجال البحث الأركيولوچى ، ثم نتعرض لأهمية هذا البحث وأهدافه .

ويبدو من المفيد أن نحدد ماهية الأركيولوجيا لمعرفة ماإذا كانت علما مستقلا بذاته ، وهل هى نوع من التاريخ أم الأنثروبولوجيا ، أم أنها مجرد نوع من الأداء الفنى *Technique* والأسلوب الإجرائى الحقلى ، هذا التحديد يؤثر على طبيعة الموضوعات التى يتناولها البحث الأركيولوچى ، وطبيعة المادة وإستخداماتها .

من ناحية أخرى يمكن أن نقسم الأركيولوچيا إلى ثلاثة أنوا ع هى :

الأركيولوچيا الى ماقبل تاريخية والتاريخية ثم الأركيولوجيا الحديثة ، أو كما تسمى الأركيولوجيا الأنثروبولوچية ، وهل هذه الأنوا ع متميزة ، ولكن منها كيان خاص أم أنها تتكامل معا ، وتشكل فى النهاية علما واحدا .

ننتقل بعد ذلك إلى التعرف على مجال البحث الأركيولوچى فى كل من هذه الأنوا ع الثلاثة ، ونعنى بالمجال النطاق الجغرافى للبحث من ناحية والعمق الزمنى الذى يتوغل فيه من ناحية أخرى ، وفى هذا الصدد يهمنا أن نتعرف على التطورات التى حدثت فى المجال البحثى للأركيولوچيا من حيث الإمتداد والإتساع الجغرافى ، وكذلك التوغل الزمنى فى الماضى السحيق .

وأخيرا نتعرض لأهمية البحث الأركيولوچى الذى يهدف إلى دراسة الماضى سواء كان ماضى ماقبل التاريخ ، أو الماضى التاريخى ، أو دراسة حاضر

• كتب هذا الفصل السيدة الدكتورة نادية أحمد محمد مدرس الأنثربولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

المجتمعات الحالية ، وإذا كان البحث الأركيولوچى لم يعد قاصرا على دراسة الماضى بل إمتد إهتمامه ليشمل الحاضر فما هى مسئولبته لتسجيل الثقافات المادية فى المجتمعات المعاصرة وذلك قبل أن تندثر وتصبح ماضيا بائدا ، وما هى حدود مساهمة الأنثروبولوجيا فى هذا الصدد ، وكيف يمكنها أن تستفيد من الأهداف والنتائج الأركيولوجية ومدى تأثير دراسات الأركيولوجيا على فهمنا لثقافات الإنسان القديم .

أولا ـ التعريفات :

يشتمل تعريف أى علم من العلوم على تحديد طبيعة موضوعات الدراسة فيه، والتساؤلات التى يحاول الإجابة عليها ، ونوع المادة التى يتم جمعها ، وهذا كله يتحدد فى ضوء الأهداف التى يرمى هذا الع‍لم إلى تحقيقها .

وإذا نظرنا إلى مصطلح الأركيولوچيا *Archaeology* من الناحية اللغوية يمكن ترجمته حرفيا إلى *Archeo* أو *Archaeo* وتعنى قديم أو بائد أو منقرض ثم *Logy* وتعنى علم ، وبهذا يكون معنى المصطلح فى مجمله : العلم المختص بدراسة العاديات أو الآثار القديمة . والواقع أننا لا نستطيع حصر جميع تعريفات الأركيولوچيا ، وإن كنا نستطيع القول بأنها تتناول الأركيولوچيا عموما أما بوصفها علما مستقلا له كيان ومناهج وأساليب خاصة فى البحث أو باعتبارها فنا يستخدم أساليب تقنية لجمع وتحليل المادة ، وقد تنظر تعريفات أخرى إلى الأركيولوچيا على أنها نوع من العلم والفن معا ، وهناك نوع آخر من التعريفات يعتبر الأركيولوچيا نوعا من التاريخ أو الأنثروبولوچيا .

ومن أمثلة التعريفات التى تعتبر الأركيولوچيا علما مستقلا : تعريف وولتر تيلور *W. Taylor* (١٩٤٨) : " الأركيولوچيا ليست تاريخا ولا أنثروبولوچيا ، ولكنها علم مستقل ، ويتكون من منهج ومجموعة من الأساليب الفنية المتخصصة لجمع وإنتاج المادة الثقافية " [١] .

---

(1) Cleator, P.E., 1976 , Archaeology in the Making, P. 15 .

فالأركيولوچيا في تعريف وولتر تيلور هي أسلوب تقني ، والأركيولوچي ماهو إلا فني يطبق هذا الأسلوب للحصول على مادة . وعندما يقوم باستخدام هذه المادة لتحقيق أهداف منحددة فإنه يصبح مرتبط بالعلم الذي يستخدم تصوراته ويخدم أهدافه[٢] .

أما هاموند *Phillip C.Hammond* (١٩٦٣) فيعرف الأركيولوچيا بأنها " الدراسة العلمية للآثار القديمة ، أو البقايا المادية للحياة الإنسانية القديمة . وسواء أكانت فرعا من الأنثروبولوچيا أم التاريخ فإن هذا لا يزال موضع جدل ، وعلى أية حال فإن الأركيولوچيا تشتمل على كل الثقافة القديمة من عمارة وفن وصناعة وفخاريات وتاريخ " .

تعريف أخر لـ بيك *Leo Biek* (١٩٦٣) يحدد الأركيولوچيا بأنها " علم لأنها تفحص بموضوعية ، وتستقى انتانج ، ثم تختبرها في حقل الدراسة " .

ويعرف لويس بينفورد *Lewis Binford* الأركيولوچيا بأنها " العلم الذي يهتم بوصف وتفسير الإختلافات والمتشابهات الملاحظة في السجل الأركيولوچي " .

وهناك نوع أخر من التعريفات ينظر إلى الأركيولوچيا باعتبارها علما وفنا معا مثال ذلك تعريف هال *H.R. Hall* (١٩٢٩) للأركيولوچيا " بأنها علم وفن في نفس الوقت ، فهي لابد أن تكون فرعا علميا منظما يقوم به باحثون مدربون تدريبا علميا حقيقيا في موضوع محدد هو بقايا الأنشطة الإنسانية القديمة ، كما أنها لابد أن تكون الفن الذي يتعامل مع هذه البقايا بطريقة علمية ، تلك البقايا التي يعثر عليها بالتنقيب في الأرض حيث دفنت وحفظت والتي يمكن نشرها باعتبارها مادة خاصة بالجنس البشري " .

ويعرفها فاجان *Brain M. Fagan* (١٩٧٢) بأنها " مجموعة من المناهج

(2) Hester, Heizer & Graham , 1975 , Field Method in Archaeology. P. 4 .

والأساليب الفنية لدراسة الإنسان فى الماضى سواء أكانت علما أم فنا ، جزءا من الأنثروبولوچيا أو التاريخ " [٣] .

والأركيولوچيا عموما هى دراسة للإنسان على أوسع نطاق ، بحيث تشتمل هذه الدراسة على محاولة التعرف على حياته اليومية ، عاداته الدينية ، فنونه ، وصناعاته ، مواطن الإقامة والأنشطة التى مارسها ، ثم دراسة علاقته بالبيئة المحيطة ، وتهدف الأركيولوجيا إلى إعادة رسم صورة كاملة بقدر الإمكان لماضى الحياة الإنسانية من خلال جميع الأدلة المتاحة ، متبعة فى ذلك أسلوب المحقق *detective* الذى يهتم بكل شئ حتى لو بدى تافها أو سطحيا ، كما أنها تستعين بأساليب ومناهج من العلوم الأخرى وذلك بعد تطويعها لتلائم طبيعة المادة الأركيولوچية[٤] .

أما الأركيولوچيا التاريخية *Historical Archaeology* فهى دراسة المواقع السكانية التى ترجع إلى فترة التاريخ المكتوب ، وهذه الدراسة تستخدم كل من المادة الأركيولوچية والتاريخية ، وليس معنى هذا أنها نوع مختلف من الأركيولوچيا [٥] وإن كانت تعتمد على نوع مختلف من المادة ذات طبيعة خاصة ونعنى بها الوثائق التاريخية المتاحة ، وتساعد الأركيولوچيا على سد الثغرات فى هذه الوثائق وإستكمال نواحى النقص فيها ، وتعمل على التحقق منها وضبطها ، بل يمكن إعتبار المادة الأركيولوچية ذاتها وثائق تاريخية وليست مجرد إيضاح للوثائق المكتوبة (جوردون تشايلد ١٩٥٦ *V.G.Childe*) [٦] .

فالأركيولوچيا علم تاريخى لأنها تتعامل مع السلوك الإنسانى الملاحظ خلال الزمن ، من خلال المصادر والوثائق المكتوبة التى تعطينا المؤشرات الدالة عل

(3) Cleator, Op. Cit., PP. 14 - 17 .
(4) Piggott, S., 1935 , Progress of Early Man, PP. 3 - 7 .
(5) South, S. 1977, Method and Theory in Historical Archaeology, PP. 1 - 2 .
(6) Cleator, Archaeology in the Making, Op.Cit., P. 15 .

الماضى (٧) .

وتعتبر أركيولوچيا ماقبل التاريخ *Prehistorio* دراسة للثقافات المبكرة *Early Cultures* فى الفترات السابقة على كتابة التاريخ ، وتسجيل الأحداث والتطورات فى مجتمع معين ، والأركيولوچى يدرس هذا التاريخ غير المسجل فى ضوء بقايا الصناعة الإنسانية المسماه بالأدوات المصنوعة *Artifacts* وبقايا الأبنية والفخار ، وكذلك بقايا المتاع التى يعثر عليها مع المتوفى فى القبر (٨) .

ويستخدم مصطلح ماقبل التاريخ للإشارة إلى ٩٩ ٪ من ماضى الجنس البشرى ، وهذه فترة طويلة للغاية تقدر بحوالى ثلاثة آلاف سنة منذ إستطاع الإنسان أن يصنع الأدوات *Tools* ، بينما لم يعرف إختراع الكتابة إلا منذ والى ٥,٠٠٠ سنة فقط وهذا يبين مدى أهمية فترة ماقبل التاريخ نظرا لطولها لأهمية الأحداث والتطورات التى وقعت خلالها (٩) .

وأحد أقسام ماقبل التاريخ يطلق عليه التاريخ الأصلى أو الأول *Proto-history* وهو يعنى بدراسة الشعوب التى تتوافر عنها مادة معروفة من خلال البيئة *Medium* التى تعيش فيها الشعوب المجاورة والتى وصلت إلى مرحلة تاريخية قبل أن تكون لديها أية سجلات مكتوبة ، مثال ذلك الألمان وسكان فرنسا القديمة (بلاد الغال *Cauls*) فى القرون السابقة على الغزو الرومانى . وهناك قسم آخر يسمى باليونتولوچى *Human Paleontology* أو *Palaeontology* ، وهو يعنى بدراسة بقايا العظام البشرية ، وأحيانا يعرف بأنه دراسة كل ما يتعلق بأفراد ثقافة قديمة محددة ، ويشمل هذا فنونهم وصناعتهم وكذلك سماتهم الفيزيقية (١٠) .

---

(7) Woodburg, R., 1972, Archaeology : The Field, in Internatioal Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. 1 , P . 378 .
(8) Shapiro, L.H., 1956, Man, Culture and Society, P. 22 .
(9) Barnouw, V., 1971, Ethnology : An Introduction to Anthropology P.6 .
(10) A Vayson De Pradenne, 1940 , Prehistory, Translated by : Ernest F. Row, P. 11

وتهتم أركيولوچيا ماقبل التاريخ بوصف وتحليل الانساق السوسيوثقافية البائدة ، وهى تتفق فى أهدافها مع فروع الأنثروبولوچيا الأخرى ، تلك الأهداف التى ترمى إلى تفسير كل من التطور الفيزيقى والثقافى للإنسان (١١) . والواقع أن ماقبل التاريخ هو دراسة إجتماعية لا تهتم فقط بالأفراد وعلاقاتهم أو بالمجتمع فقط ولكنها دراسة تعنى بالتدرج الطبقى داخل المجتمع والتنظيمات المحلية والعلاقات القائمة بينها ، وعلاقتها بالعالم الطبيعى الذى تكون فيه هذه المجتمعات جزءا متكاملا . إلا أن ماقبل التاريخ هو أساسا دراسة تاريخية لأنه يتعامل مع الزمن كبعد رئيسى وأساسى (١٢) .

ولايزال ماقبل التاريخ علما جديدا ، ولم يطور بعد بدرجة كبيرة ، وقد تعرض ومازال لنقد شديد ، وذلك لأن كثيرا من رجال الثقافة والعلم لايزالون يتشككون فى أمره ويترددون فى أصباغ الصبغة العلمية عليه وإعتباره علما ، وذلك لأن هناك عقبات تقف فى طريق تطوره وتحقيق نتائج مؤكدة فيه ويمكن حصرها فيما يلى :

١ ـ تحديد أو قصر ماقبل التاريخ على الجزء الغربى من العالم القديم ، ولايزال هذا تقليدا متبعا حتى الآن ، وربما يرجع هذا إلى حكم الضرورة ثم إلى نقص الوثائق ، وأخيرا بحكم العادة نظرا لأن هذه المناطق قد أصبحت مطروقة ومعروفة مما يجعل دراستها أيسر من غيرها ، إلا أن التطور الإنسانى الثقافى قد شمل العالم بأسره ، ولا نستطيع تتبع هذا التطور واقتفاء أثره إلا إذا كان مستوى الأبحاث متماثلا أو متناظرا فى جميع مناطق العالم .

٢ ـ محاولة تحديد علم واحد عام لفترة ماقبل التاريخ وتطبيقه على دراسة جميع مناطق العالم أمر يتنافى مع الحقيقة ، لأننا لانستطيع تحديد بداية ونهاية

---

(11) Longacre, W., 1972 , Archaeology : Research Methods, In Inter.. Encyc.. , Vol. 1 , P. 386 .
(12) Clark, G., 1960, Archaeology and Society, PP. 25 - 26 .

واحدة لهذه الفترة فى كل المناطق ، لأن إنتقال مناطق العالم من فترة ماقبل التاريخ إلى ما يسمى بعصر التاريخ المكتوب لايمكن تحديده تحديدا قاطعا نتيجة لإختلاف معدل أو سرعة الإنتقال من العصر الأول إلى الثانى ، كما أن إستجابة الشعوب المختلفة للتطور ليست واحدة بحيث أن هناك بعض مناطق لاتزال تمثل عصر ماقبل التاريخ فى النواحى الثقافية والتكنولوجية [١٣] .

النوع الثالث من الأركيولوچيا هو الأركيولوچيا الأنثروبولوچية *Anthropological Archaeology* التى تعرف بالاشارة إلى الأنثروبولوچيا باعتبارها جزءا منها فإذا كانت الأنثروبولوچيا تدرس الإنسان من النواحى الفيزيقية والثقافية والإجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها ، فإن الأركيولوچيا تختص بدراسة الإنسان القديم وثقافته ، وبهذا يمكن أن نطلق عليها أنثروبولوچيا الإنسان القديم .

والأركيولوچيا الأنثروبولوچية قديمة قدم الأنثروبولوچيا وتتعامل مع شتى البقايا الإنسانية القديمة فى أى مكان من العالم ـ وعلام " الأركيولوچيا ماهو إلا أنثروبولوچى ينقب عن البقايا المادية للثقافات الماضية ويحاول من خلالها إعادة تركيب تاريخ الإنسان منذ الماضى البعيد ، وتحديد الأنساق الثقافية فى العصور والمناطق المختلفة من العالم [١٤] .

ـ ويعرف كروفورد *G.S.Crawford* (١٩٥٢) الأركيولوچيا بأنها " مجرد الزمان الماضى *Past tense* للأنثروبولوچيا" [١٥] فالأركيولوچيا هى أحد الأساليب الأساسية التى تستعين بها الأنثروبولوچيا فى دراسة التجربة الثقافية لإنسان ماقبل التاريخ . فهى العلم الذى يدرس تاريخ الثقافة *Culture - History* والعمليات الثقافية *Cultural - Processes* (التى تشير إلى

---

(13) A Vayson De Pradenne, Op.Cit., P. 6 .
(14) Deetz, J., 1967, Invitation to Archaeology, P. 3 .
(15) Cleator, Archaeology in the Making , Op.Cit., P. 15 .

العلاقات الدينامية الفعالة بين مكونات النسق وبين البيئة وهى دراسة حديثة ترجع إلى العقد الماضى فقط) وكذلك يدرس أساليب الحياة فى الماضى *Past Life ways* من خلال البقايا المادية ، على إعتبار أن كل المجتمعات الإنسانية يتخلف عنها شواهد وأدلة لا تعكس النواحي المادية فقط ولكنها تشير أيضا إلى السلوك والمعتقدات والنظم الإجتماعية . وهذه جميعا موضوعات إهتمام للأنثروبولوچيا(١٦) .

وتاريخ الثقافة ماهو إلا أحد فروع التاريخ العام ، ويتناول التطور التاريخى للشعوب التى لا تعرف القراءة والكتابة *non - Literate* سواء فى الماضى أو الحاضر ويدخل هذا الموضوع ضمن إهتمام كلا من علماء الأنثروبولوچيا والأركيولوچيا . إلا أنه لايوجد إختلاف حقيقى من حيث المبدأ بين التاريخ الذى يتناوله المؤرخ المتخصص ، والتاريخ عند مؤرخ الثقافة ، وإن كان هناك إختلاف فى مصادر المعلومات ، فدارسى تاريخ الثقافات يستخدمون مصادر غالبا ما تكون تخمينية أو إفتراضية *Conjectural* ، وهذا هو رأى المؤرخين الذين يعترضون على إتساع نطاق مجال التاريخ من خلال المناهج أو المدارس الأنثروبولوچية وبخاصة مدرسة الوظيفيين الإجتماعيين ، وهؤلاء المؤرخون لا يعترفون إلا بأهمية التاريخ الخالص أو الدليل المكتوب *documentary-evidence* بينما يعترضون على التاريخ الظنى الذى يستعين به الأنثروبولوچيون المهتمون بدراسة تاريخ الثقافة ، وبالتحديد تاريخ ثقافات الشعوب البدائية الذى تختص الأثنولوچيا بدراسته وكذلك تاريخ ثقافة شعوب ماقبل التاريخ وهو أحد موضوعات البحث الأركيولوجى ، ولما كان الهدف الأول للأركيولوچى أو مؤرخ الثقافة هو فهم التطور الثقافى فإنه يحتاج إلى مادة غير ثقافية تتعلق بالتغيرات البيئية والتمايز السلالى البرى والعوامل الديموجرافية (١٧) .

وإذا كان ما قبل التاريخ (وهو أركيولوچيا فترة ماقبل معرفة القراءة

(16) Chard, C., 1975, Man in Prehistory, P. 14 .
(17) Greenberg, J., 1972 , Culture History In Enternational Encyclopedia, Vol.5 , PP. 448 - 449 .

والكتابة التى سادت مناطق العالم والتى يحقق الكثير منها الآن إستقلاله) والأركيولوجيا هما شئ واحد فإن ماقبل التاريخ هو جزء أو جانب من الأركيولوچيا والجانب الآخر يعرف بالباليوإثنولوچيا أو الباليو اثنوجرافيا *Paleoethnography- Pleoethnology* أو كلاهما معا . والمعروف أن كلا من الأثنولوچيا والأثنوجرافيا فروع من الأنثروبولوچيا الثقافية التى تهتم بدراسة الإنسان الحالى فى حدود ثقافته وتعرف الإثنوجرافيا بأنها الدراسة الوصفية للثقافات كل على حده ، أما الأثنولوچيا فهى الدراسة التحليلية المقارنة فى ضوء المادة الأثنوجرافية الوصفية ، بهدف التوصل إلى تعميمات نظرية بصدد الثقافة فى عمومها وكليتها .

أما الباليو أنثروبولوچيا فهو إتجاه حديث ، ويشمل كلا من الجوانب تاريخية والأثنولوچية لثقافات ماقبل التاريخ ، وأيضا الجوانب البيولوچية . ويشترك كل من الأثنولوجيا والأثنوجرافيا من ناحية ، والباليو اثنولوچيا والباليو اثنوجرافيا من الناحية الأخرى فى دراسة ثقافة الإنسان ، ويتمثل الإختلاف بينهما فى مناهج التحليل المستخدمة ، ويرجع هذا إلى إختلاف نمط المادة التى تخضع للتحليل وإن كانت النتائج متشابهة فى الحالتين ، فالمادة الأركيولوچية تعكس سلوك الإنسان القديم الذى تعبر عنه الأشياء التى صنعها وخلفها لنا ، وبذلك يمكن التعرف على ثقافة هذا الصانع [١٨] .

وهكذا بدأت الأنثروبولوچيا الأركيولوجية تحتل مكانا بارزا بين فروع الأنثروبولوچيا الأخرى ، وذلك نتيجة للإهتمام البالغ الذى حظيت به أركيولوچيا ماقبل التاريخ ، والذى تمثل فى ظهور عدد كبير من الكتب والدراسات التى تناولت تاريخ ومنشأة هذا العلم ، والإنجازات التى تمت فيه على أيدى الأنثروبولوچيين الأركيولوچيين بوجه خاص وعلماء الآثار بوجه عام [١٩] .

(18) Deetz, J., Op.Cit., PP. 7 - 8 .

(١٩) أحمد أبو زيد، ١٩٧٩ ، أصوات من الماضي ، عالم الفكر، المجلد العاشر، العدد الأول، ص ١٧٥ .

مما سبق يمكننا أن نضع تعريفا إجرائيا للأركيولوچيا .

فالأركيولوچيا هى علم مستقل وفرع من فروع المعرفة يقوم به باحثون مدربون تدريبا علميا ، يقومون بإجراء الدراسات العلمية للآثار القديمة أو البقايا المادية للنشاط الإنسانى فى الماضى ، والتى يعثر عليها أثناء عمليات الحفر والتنقيب ، وهذا العلم له منهج وأساليب فنية متخصصة لجمع وإنتاج المادة الثقافية ، ثم فحصها بموضوعية وإستخلاص النتائج وإختبارها فى حقل الدراسة ، هذه المادة يمكن أن يستخدمها الأنثروبولوچيون والإقتصاديون والنقاد الفنيون أو أى دارس يهتم بالإنسان وأنشطته وإنجازاته المختلفة ، ولهذا تعرف الأركيولوجيا بأنها علم وفن معا .

وكذلك فإن الأركيولوچيا هى الدراسة المنهجية للإنسان من خلال الآثار القديمة لما قبل التاريخ ، والوثائق المكتوبة فى العصور التاريخية ، ثم من خلال الدراسات الأثنولوچية للثقافات الحالية ودراسة المجتمعات البدائية التى تعيش الآن ولاتزال تحتفظ بطفولة الجنس البشرى ، وهكذا يكون الإرتباط بين الأنواع الثلاثة للأركيولوچيا منطقيا وعمليا ويحقق فى النهاية فهما أفضل للإنسان وتطوره الثقافى فى أى مكان فى العالم منذ فجر التاريخ بل وقبل التاريخ وحتى العصر الحالى ، وذلك لأن ٩٩ ٪ من تاريخ هذا العالم يقع فى فترة ماقبل التاريخ منذ ظهر الإنسان الذى يقدر عمره بحوالى ثلاثة ملايين سنة ، والذى لم يترك لنا مايدل عليه سوى بقايا نشاطه ومخلفات اقامته ، وهذه الفترة الطويلة الغنية بأحداثها تختص أركيولوجيا ماقبل التاريخ بدراستها وتحاول إعادة بناء أساليب الحياة القديمة ورسم صورة للثقافة التى كانت سائدة ، إلا أن هذه الصورة غالبا ماتكون ناقصة إلا فى المناطق التى تعمل فيها الأركيولوچيا التاريخية وتصبح الوثائق المكتوبة وسيلة متاحة تساعد على رسم صورة أكثر كمالا ووضوحا للماضى ، فالمادة التاريخية تساعد على سد الثغرات فى المادة الأركيولوچية وتجعل النتائج المستقاه أكثر دقة وضبطا .

أما الأنثروبولوجيا أو الأركيولوچيا الأنثروبولوچية فهى فرع حديث نسبيا يعكس التكامل بين الدراسات الأثنولوچية والأركيولوچية . فاذا كانت الأنثروبولوچيا الثقافية تدرس ثقافات الإنسان وأساليب حياته فى الماضى والحاضر فإن الدراسات الأثنولوچية يمكن أن تعطى الكثير للدراسات الأركيولوجية، حيث أنه عن طريق المقارنة بين الثقفات الأركيولوچية ، حيث أنه عن طريق المقارنة بين الثقافات الأركيولوچية القديمة والثقافات الأثنولوچية المعاصرة نستطيع أن نعرف الكثير عن التطور والإنتشار الثقافيين ومن هنا يمكن إعادة بناء صورة لما قبل التاريخ ولأساليب الحياة والعمليات الثقافية القديمة ، لنتعرف على مدى ما وصل إليه الإنسان من تقدم ، ونصبح أكثر قدرة على رؤية المستقبل ، وهكذا تساهم الأنثروبولوچيا فى إستكمال وإيضاح الصورة الناقصة لما حدث فى فترة ماقبل التاريخ عن طريق دراسة المجتمعات البدائية التى تعيش الآن ولا تزال تحمل سمات عصر ما قبل التاريخ وثقافات العصور الحجرية البائدة مما يحقق فى النهاية مزيدا من الفهم للإنسان وللثقافة فى كل زمان ومكان .

ثانيا ـ مجال البحث الأركيولوچي :

تعتبر الأركيولوچيا أكثر فروع الأنثروبولوچيا العامة ذيوعا ، وهى ترتبط فى أذهان الكثيرين بالمدن المطمورة والمقابر المملوءة بالكنوز وبقايا الحضارات المفقودة والمجال الزمنى والجغرافى للأركيولوچيا بأنواعها الثلاثة لا يمكن تحديده تحديدا قاطعا نظرا لتداخلها ، وإن كنا نستطيع تحديد مجال بحث الأركيولوچيا التاريخية بشكل أكثر لأنها تختص بدراسة الفترة الزمنية التى تقدر بحوالي ٥,٠٠٠ سنة منذ بداية معرفة الإنسان بالكتابة وتدوين التاريخ ، وهذه الوثائق المكتوبة تتوفر فى مناطق الحضارات الكلاسيكية وبالذات فى مصر والعراق وروما واليونان .

أما المجال البحثى فى أركيولوجيا ماقبل التاريخ فقد إتسع وحدثت فيه تطورات كثيرة [٢٠] . فلم يعد هذا المجال الذى إزدهر فى أوروبا حقيقة مقصورة

(20) Robert Mcc. Adams, 1976, Archeological Research Strategies , Past and Present, In Physical Anthropology and Archaeology Edited by Peter B., Hammond, P. 167 .

على الأوروبيين ، ولكنها إنتشرت من أوروبا إلى العالم بأ سره لدراسة التطور الثقافى مما أدى إلى إتساع مجال الدراسة الجغرافى وإلى جانب هذا الإتساع الكبير بحيث أصبحت الدراسات الأركيولوچية تغطى كل مناطق العالم تقريبا ، فإنه قد حدث تطور فى المجال الزمنى للبحث وزادت المقدرة على تحديد تواريخ أكثر ضبطا للمواقع والبقايا[٢١] ذلك لأنه مع تطور مناهج التأريخ المطلق *absolute dating* كالتأريخ بالإشعاع الكربونى *radioactive Carbon* أصبح من الممكن التوصل إلى تواريخ مطلقة أكثر دقة من التواريخ النسبية [٢٢].

والوحدات الأساسية فى دراسات ماقبل التاريخ هى الجماعات والمجتمعات والقضايا الإجتماعية ، فمحور الدراسة هو الجماعة وليس الأفراد ، ويساعدنا هذا على دراسة العلاقات الإجتماعية ، والتنظيم الإجتماعى والأيكولوجيا ، وهذه الدراسة تساعد على إعادة بناء تاريخ الإنسان ، والتعرف على العمليات الثقافية الأساسية ومدى تأثيرها على حياة الإنسان وتحقيق تقدمه الثقافى والإقتصادى والعلمى ، ويعتبر الإختراع *Invention* أهم هذه العمليات . عند دراسة أحد الإختراعات أو الإكتشافات مثل معرفة الإنسان للنار فإننا لانهتم بمعرفة طريقة أو تاريخ معرفته بها لأول مرة ولكننا نهتم بمعرفة تأثيرها على التقدم الثقافى للإنسان.

وبالإضافة إلى الإختراع فهناك عمليات ثقافية أخرى كالانتشار ، والتغير ، والتنوع ، والإبداع السوسيوثقافى .

وهكذا تحول ماقبل التاريخ من مجرد البحث عن الأصول [٢٣] الى البحث فى العمليات الثقافية ، مما جعله مرتبطا بالاثنولوچيا وهى أحد الفروع الرئيسية للأنثروبولوچيا العامة . [٢٤]

---

(21) Clark, Op.Cit., P. 35 .
(22) Greenberg, Op.Cit., P. 449 .
(23) Chard, C., Op.Cit., PP. 6 - 7 .
(24) Hammond, Op.Cit., P. 167 .

وتعتبر الايكولوجيا الثقافية من المجالات الحديثة فى دراسة مقابل التاريخ حيث تدرس المجتمعات المحلية الماقبل تاريخية من منظور كلى ، وذلك بملاحظة التفاعل بين الأنشطة الإنسانية والكائنات الحية والبيئات المحيطة ، ولدراسة هذا الموضوع فى علاقته بالزمن لابد من ملاحظته الأسباب التى تحدث التغيرات ، وكل من الأسباب والتغيرات يشكل مجال ماقبل التاريخ (٢٥) .

والواقع أنه من الصعب تحديد المجال الزمنى لما قبل التاريخ بصورة حاسمة فى جميع مناطق العالم ، لأن لكل منطقة وضعا خاصا فيما يتصل ببداية ونهاية فترة ماقبل التاريخ ، فقد كان ماقبل التاريخ والتاريخ يعيشان جنبا إلى جنب فى بعض المناطق ، ورغم أن مجال ماقبل التاريخ بدأ ينكمش فإن هناك بعض المناطق لاتزال تعيش عصر ماقبل التاريخ (٢٦) . مثل استراليا وميلانيزيا وبولينزيا ومعظم مناطق العالم الجديد وافريقيا حيث لم تعرف فيها القراءة حتى عهد قريب (٢٧) .

وهنا يمكن أن تساهم الأنثروبولوچيا الأركيولوچية فى إجراء دراسات على الثقافات البدائية التى لم تدخل عصر التاريخ المكتوب مثل حضارة المايا ***Maya*** وحضارة وادى السند ***Indus*** .

وقديما كانت الأركيولوچيا تنحصر فى مجال الحفر والبحث عن الكنوز المطمورة واستخراجها ونقلها إلى المتاحف الخاصة والعامة ، وقد إستمر هذا طويلا ثم بدأ مجال البحث الأركيولوجى يتغير تدريجيا من مجرد جمع الأدوات القديمة ووصفها إلى إجراء أبحاث علمية تجيب عن الأسئلة الكبرى المتعلقة بتغير الثقافات وأسباب هذا التغير.

وعندما ظهر مجال الأركيولوچيا كان إهتمامه الأساسى هو إثبات أو تأكيد الإفتراضات الأساسية المختصة بطبقات الأرض وتكوينها والإكتشاف فيها ، وقد

(25) Clark, Archaeology and Society, Op.Cit., PP. 6 - 37 .
(26) Chard, Man in Prehistory, Op.Cit., PP. 7 - 8 .
(27) Barnouw, V. Ethnology, Op.Cit., P. 6 .

كان هذا مطلبا حيويا حتى يمكن ملء الخرائط الشاغرة للقارات بالمكتشفات الأركيولوجية ، وأخرها الحضارة المفقودة والتى إكتشفت فى وادى السند عام ١٩٢٠ . وهكذا كان الجانب الأكبر من إهتمام البحث الأركيولوچى ينصب على دور المتاحف فى التنقيب وإقتناء الأشياء الجميلة ، ودور هواه جمع التحف والآثار القديمة ، إلا أن هذا النشاط أصبح ممنوعا الآن ، وتحول مجال البحث من هذا المستوى الخاص إلى المستوى العام لأقسام الجامعة ، وبدأ المجال يتسع ويتشعب أكثر نتيجة للرغبة المتزايدة فى تحقيق إستنتاجات موضوعية (٢٨) .

ثالثا ـ أهمية البحث الأركيولوچي :

لاشك أنه لايمكن إنكار أهمية البحث الأركيولوچى ، كما أن إجراء مثل هذا البحث أصبح ضرورة ليس فقط من أجل دراسة الماضى كهدف فى ذاته ، ولكن من أجل فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل .

وإذا كان للبحث فى التاريخ القديم أهمية كبرى فى فهم الشئون الإنسانية فإن هناك الآن إعتبارات ملحة تؤكد على أهمية البحث الأركيولوچى فى تفسير الحاضر من خلال دراسة الماضى . وتتمثل هذه الإعتبارات فى إضطراب الظروف السياسية والصراع الدولى من أجل مصادر الغذاء والثروة ، وكذلك تغير مراكز القوة والتأثير فى العالم .

وإذا كانت الأركيولوچيا وهى دراسة للماضى سواء كان ماضى ماقبل التاريخ ، أو الفترة التاريخية أو ماضى بعض المجتمعات البدائية التى تعيش فى بعض مناطق العالم خاصة فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، والتى لا تزال تعيش حياة تكاد تكون بدائية صرفه وتظللها ثقافات تماثل ثقافات شعوب عاشت فى فترات غابرة من الزمان ، فإن هذا يبين مدى أهمية البحث الأركيولوچى وضرورة التوسع فى إجراءه لتسجيل حياة وثقافات هذه الشعوب (٢٩) .

(28) Hammond, Op.Cit., PP. 167 - 169 .
(29) Rainey, F., 1978 , Archaeology In : Yearbook of Science and Future, P. 256 .

ولما كان الكثير من مناطق العالم والتى يمكن أن تكون مصدرا لجمع مادة أركيولوجية تتعرض الآن للدمار مما يؤدى إلى إبادة كثير من المواقف الأركيولوجية ذات الأهمية القصوى وضياع الشواهد المادية للحياة الإنسانية فى الماضى وذلك نتيجة للتطورات الإقتصادية وأعمال الحفر والبناء عن البترول وطريقة الحرث العميق للأرض والتجارة فى الآثار القديمة ، فإن كل هذا يتطلب ضرورة التنقيب لإنقاذ المواقع الأركيولوجية [٣٠] وهذا يؤكد على أهمية البحث الأركيولوچى ويعتبر البحث الأركيولوچى هو الوسيلة الوحيدة المتاحة التى يعتمد عليها للرجوع إلى الماضى والتعرف على الثقافة ، طالما أن التواريخ التقليدية المنقولة شفاهة ليست سطحية فى عمقها الزمنى فحسب ، ولكنها عرضة أيضا لتحريفات كثيرة بمرور الزمن .

وتظهر أهمية البحث الأركيولوچى فى الأهداف الهامة التى يمكن أن يحققها وهى :

١ ـ تحقيق الضبط المطلوب لنظريات التطور الثقافى ، باعتبار البحث الأركيولوچى وسيلة لإختبار التعميمات فى الأنثروبولوچيا والعلوم الإجتماعية الأخرى التى تعنى بطبيعة الإختراع والإنتشار والتغير ، والسلوك الثقافى والأيكولوچيا البشرية .

٢ ـ إعطاء المادة اللازمة لاختبار الفروض المتعلقة بالبيئة والتطور ، وهى موضوعات تشكل جانبا هاما من إهتمامات الأنثروبولوجيا .

٣ ـ كما أن البحث الأركيولوچى يساعد على التوصل إلى الحقائق البديلة للتصور والتخمين فى موضوعات أصول تربية الحيوان وزراعة النبات ، وبداية الكتابة والتحضر وغيرها من الراحل الحاسمة فى الإتجاه نحو الحضارة .

---

(30) Thomas Charles, 1974 , Archaeology in Britain 1973, In Rescue Archaeology, Edited by Phillip, A., Rahtz, P. 18 .

٤ ـ وهو بخلاف الدراسات الأثرية وجمع التحف ، إستطاع فى أقل من قرن من الزمان أن يمدنا بصورة تفصيلية وشاملة عن أنشطة الإنسان فى كل مناطق العالم منذ بدايات الجنس البشرى (كلارك *Clark* ١٩٦١) اذن فهذا البحث هو أساس الفهم العلمى للإنسان (٣١) .

وهناك ثلاث أهداف رئيسية للبحث الأركيولوجى وهى :

أ ـ تأويل أو بناء تاريخ الوقائع المتسلسلة زمنيا .

ب ـ إعادة بناء أساليب الحياة البائدة .

جـ ـ البحث فى العمليات الثقافية (٣٢) .

وقد أشار تيلور *Taylor* (١٩٤٨) إلى أن إعادة بناء تاريخ الثقافة هو غاية الأركيولوچى ، وذهب باحثون آخرون إلى وجود هدف آخر هو إعادة بناء أساليب حياة الشعوب التى خلفت لنا بقايا أركيولوچية . ثم ظهر بعد ذلك الإهتمام بمشاكل العملية الثقافية والبحوث التتبعية . ويعتبر هذا إتفاقا عاما حول أهداف الأركيولوجيا (٣٣) .

ونظرا لطول فترة ماقبل التاريخ وأهمية أحداثها فانها تعد مجالا خصبا لدراسة تاريخ الثقافة قبل أن تظهر الكتابة كوسيلة لتسجيل الأحداث ، فحتى التاريخ المكتوب فى مجلدات ضخمة بقلم المؤرخين الكلاسيكيين الأوائل نجده فى الغالب تاريخا عسكريا يعطى أقل إهتمام للثقافة والتكنولوجيا والإقتصاديات والكثافة السكانية ، وهكذا لم نستطيع دراسة هذه الموضوعات فى السنوات الأخيرة إلا من خلال البحث الأركيولوچى الذى يعيد بناء الماضى .

بالإضافة إلى هذا فإن قصور المادة التى يمدنا بها التاريخ القديم والذى

---

(31) Woodburg, Archaeology : The Feild, Op.Cit., P. 378 .
(32) Thomas. H.D., 1974, Predicting the Past, P.3.
(33) Binford, L., 1972, Archaeological Perspectives, In : New Perspectives in Archaeology, Edited by Lewis & Sally Bingord, PP. 5 - 6 .

يركز على تاريخ وسير الأفراد يجعل من العسير تمييز الإتجاهات والعمليات الثقافية والتى تعتبر هدفا من أهداف البحث الأركيولوجى .

وترجع أهمية البحث الأركيولوچى فى فترات ماقبل التاريخ ليس فقط إلى طول هذه الفترات ولكن أيضا لأنها كانت حافلة بالأحداث الهامة ، ذلك لأنه فيما عدا الثورة الصناعية والعلمية (القرن ١٩) فان المنجزات الجوهرية التى حققها الجنس البشرى وقعت فى فترة ماقبل التاريخ مثال ذلك إنتاج الطعام وإختراع النار .

وإذا كان إختراع الكتابة قد لعبت دورا ملحوظا فى تاريخ الفكر الإنسانى فا ، الإختراعات والمنجزات التكنولوجية لإنسان مقابل التاريخ كالعجلة ***Wheel*** والتعدين ***Metallurgy*** ، والفخار***Pottery*** ، وصناعة المنسوجات ***Textiles*** . تبر الأسس الضرورية التى قامت عليها تكنولوجيا اليوم وجميع الاختراعات لحديثة مما أثر على مقدرات الحياة الإنسانية [٣٤] .

ويساعد البحث الإكيولوكى على جمع مادة أكثر دقة ليس فقط عن الفترات التى ليس لها تاريخ مكتوب ، ولكن أيضا عن الفترات والشعوب التاريخية ، فالبحث الأركيولوچى يسد الثغرات فى التاريخ المكتوب ويستكمل جوانب النقص فيه ، مثال ذلك التنقيب الحديث فى الدنمارك الذى ألقى مزيدا من الضوء على تاريخ الحياة فى العصور الوسطى بصورة أفضل من الوثائق المكتوبة . وأيضا دراسة الحضارات الشرقية القديمة السابقة على العصور الأوروبية الكلاسيكية أو الحديثة[٣٥] .

ويعنى البحث الأركيولوچى بدراسة الأشياء المادية بوصفها براهين أو مؤشرات للأنشطة الثقافية فى الماضى . وهو يحاول من خلال دراسة أنماط الإقامة والشواهد الدالة على المناخ ، ومجموعات الحيوانات والنباتات ***Fauna & Flora*** الخاصة بمكان وزمان معين أن يعيد رسم صورة للأنماط الديموجرافية

(34) Chard, Op.Cit., PP. 5 - 6 .
(35) Clark, Op.Cit., P. 21 .

والتكنولوجيا الأساسية التى تساعد على إستنتاج النواحى الأخرى من الثقافة كالبناء الاجتماعى والدين ، وأن يعيد تركيب العلاقات الزمانية والمكانية للذاتيات أو الكيانات السوسيوثقافية التى يستدل عليها من البقايا المادية . [٣٦]

وتكمن قوة البحث الأركيولوجى وأهميته فيما يقدمه من إسهامات للعلم الأكبر (الأنثروبولوجيا) وذلك لأن أهم أهداف البحث الأركيولوجى هو إعادة تركيب صورة للبيئة القديمة ، وتحليل العلاقات بينهما وبين الأنساق السوسيوثقافية ، ولهذا تصطنع الأركيولوجيا مدخلا مزدوجا أو متعدد النظم *Multidisciplinary* لدراسة هذه الموضوعات [٣٧] .

وللبحث الأركيولوجى جانبان هامان :

- الجانب الأول :

دراسة ماضينا الأكثر حداثة منذ العصر الحجرى الأخير وحتى وقتنا الحاضر ، وهذه الدراسة يمكن اجراؤها بشكل أفضل وأجدى من دراستها فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، وذلك لأنه بعد وصول الجنس البشرى إلى مرحلة الإنسان العاقل *Homo- Sapiens* فإن المراحل التالية لتطورنا كانت سوسيوثقافية أكثر منها فيزيقية ، فقد إستطاع الإنسان أن يتكيف مع الظروف البيئية المتغيرة لا من خلال التعديلات المستمرة للجينات *Genes* ولكن بمواءمة ثقافته وتطوير أشكال ثقافية وقدرات أكثر تواؤما ، بحيث أن الأسلوب الأساسى للتكيف مع ظروف الحياة المتغيرة ، كان هو إحداث تغيرات فى السلوك السوسيوثقافى وليس فى النواحى الفيزيقية .

- الجانب الثاني :

إستكمال السجل الحفرى القديم الخاص بتطور الإنسان ، ويستعين البحث

(36) Greenberg, Op.Cit., P. 451 .
(37) Longacre, Op.Cit., P. 289 .

الأركيولوجي بالسجل الحفرى فى رسم صورة دقيقة توضح طريقة تطور الثقافة مما يساعد على صياغة فروض عن الإتجاهات المستقبلية للتطور السوسيوثقافى ، وكلما اكتمل هذا السجل بتفاصيل أكثر دقة وتعميمات نظرية تخضع للاختبار تكرارا فى ضـــوء حقـائق أركيـولوچية جديدة ، فإن الأنثروبولوچيا تتقدم كعلم تنبوئي (٣٨) .

إلا أنه حتى الآن لم تستغل إمكانيات الأركيولوچيا بصورة كاملة والسبب الأساسى الذى وجه الإهتمام نحو ضرورة إجراء البحث الأركيولوچى أن الأركيولوچيا إستطاعت حديثا أن تنجز قدرا كبيرا ومفصلا من المعلومات المرتبة بطريقة متسلسلة تسلسلا قاطعا ، ومع هذا فقد ظلت البحوث الأركيولوچية حتى عهد قريب تركز إهتمامها على كم المادة وتراكمها ، وإلى يومنا هذا لاتزال هناك مناطق لها أسبقية دون غيرها فى جمع المادة وتحقيق الضوابط التاريخية المتسلسلة ***Chronological*** (٣٩).

- خاتمة :

تناولنا فى هذا الفصل ثلاثة موضوعات خاصة بالتعريف ومجال البحث وأهميته ، وإنتهينا إلى تعريف الأركيولوجيا بأنها علم وفن فى نفس الوقت فهى علم مستقل وفرع من فروع المعرفة يقوم باجراء دراساته باحثون مدربون تدريبا علميا ، وهى علم له منهج وأساليب فنية متخصصة لجمع وإنتاج المادة وفحصها بموضوعية وإختبارها للتوصل إلى النتائج .

ثم تناولنا ثلاثة أنوا ع من الأركيولوچيا بالتعريف : الأول هو الأركيولوجيا التاريخية بوصفها علم تاريخى يتعامل مع السلوك الإنسانى الملاحظ خلال الزمن ولهذا تعتمد على المصادر التاريخية اما أركيولوچيا ماقبل التاريخ فتركز على دراسة الثقافات المبكرة فى ضوء بقايا الصناعة الإنسانية ، كما أنها تهتم بدراسة

(38) Hammond, Op.Cit., P. 165 .
(39) Woodburg, Op.Cit., PP. 378 - 379 .

العلاقات الاجتماعية ، ثم الأركيولوچيا الأنثروبولوچية التى أطلقنا عليها أنثروبولوچيا الإنسان القديم وبحيث يعتبر الأركيولوچى باحث أنثروبولوچى ينقب عن الماضى بهدف إعادة تركيب تاريخ الثقافة والتعرف على أساليب الحياة والعمليات الثقافية فى العصور والمناطق المختلفة من العالم ، كما أن الأركيولوچيا هى أحد الأساليب الأساسية التى تستعين بها الأنثروبولوچيا لدراسة التجربة الثقافية للإنسان ، وإنتهينا إلى وجود إرتباط منطقى وعملى بين أنواع الأركيولوچيا الثلاثة وبحيث يمكننا تعريف الأركيولوچيا بأنها الدراسة المنهجية للإنسان من خلال اثار ماقبل التاريخ ، والوثائق التاريخية ونتائج الدراسات الأثنولوچية للثقافات المعاصرة والشعوب البدائية الحالية .

أما مجال البحث : فقد إنتهينا إلى عدم وجود حدود قاطعة بين الأنواع الثلاثة ، ولكنها متداخلة ومتكاملة والتمييز بينها يتم بهدف خدمة أغراض علمية ومع هذا فقد حاولنا تحديد المجال الزمنى للأركيولوچيا التاريخية بحوالى ٥٠٠٠ سنة وهى فترة التاريخ المكتوب ، والمجال الجغرافى لها يتركز فى مناطق الحضارات الكلاسيكية .

ثم أركيولوچيا ماقبل التاريخ : ووجدنا أن مجال الدراسة قد إتسع فيها وإمتد ليشمل معظم مناطق العالم بعد أن كان محصورا فى القارة الأوروبية ومن الناحية الزمنية فإن دراسة ماقبل التاريخ تمثل ٩٩ ٪ من ماضى الإنسان و فترة طويلة وغنية بالمنجزات الهامة

ثم حددنا مجال البحث فى الأركيولوچيا الأنثروبولوچية من الناحية الجغرافية فى المناطق التى توجد بها ثقافات بدائية تعيش الآن ولاتزال تحتفظ بسمات مجتمعات ماقبل التاريخ مثال ذلك بعض مجتمعات افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . وقد حدث تحول فى مجال البحث الأركيولوچى من مجرد الإهتمام بالحفر عن الأشياء الغريبة بهدف عرضها فى المتاحف إلى مرتبة البحث العلمى والإجابة عن الأسئلة الكبرى الخاصة بالتطور الثقافى ، كما زادت القدرة على

التوغل فى الماضى بفضل الأساليب الحديثة للتاريخ المطلق وأصبح البحث الأركيولوجى يشمل العالم بأسره .

وأخيرا تناولنا أهمية البحث الأركيولوچى وأهدافه التى لايحققها أى بحث آخر فى نطاق الأنثروبولوچيا والتى يمكن إختصارها فى النقاط التالية :

١ ـ القدرة على تفسير الحاضر والتنبؤ بالمستقبل فى ضوء دراسة الماضى.

٢ ـ إنقاذ المواقع التى تتعرض للدمار وإبادة كثير من الأدلة الهامة نتيجة للتطورات الحديثة فى مجالات الصناعة والزراعة والعلم .

٣ ـ ضبط نظريات التطور الثقافي، وتهيئة المادة لإختبار الفروض الخاصة لبيئة والتطور والتغير الثقافى ، بالاضافة إلى تقديم الحقائق البديلة للتخمين فى وضوعات الأصول والبدايات والمراحل الحاسمة نحو الحضارة .

٤ ـ الكشف عن أنشطة الإنسان فى كل مناطق العالم ، منذ بدايات الجنس البشرى ولهذا يعتبر أساس الفهم العلمى للإنسان.

٥ ـ يسد الثغرات فى التاريخ المكتوب ، ويستكمل جوانب النقص فيه ، بل ويضبط هذا التاريخ ويتحقق من صحته .

٦ ـ تكملة السجل الحفرى ورسم صورة دقيقة لتطور الثقافة وصياغة الفروض الخاصة بالاتجاهات المستقبلية للتطور السوسيوثقافى .

٧ ـ دراسة عصر ماقبل التاريخ الذى حقق الإنسان فيه إنجازات جوهرية لاتزال تؤثر على مجتمع وتكنولوجيا اليوم .

٨ ـ دراسة المراحل التطورية منذ ظهر الإنسان العاقل بصورة أفضل من دراسة الأنثروبولوچيا الفيزيقية لها .

٩ ـ يساهم فى إثراء الدراسات الأنثروبولوچية ، وبخاصة فى موضوع إعادة بناء صورة البيئة القديمة ، وتحليل علاقتها بالانساق السوسيوثقافية .

الفصل الثامن

الأنثروبولوجيا الفلسفية : النشأة والاهتمامات *

- مقدمة
- الحرية والإرادة عند بول ريكور
- أنثروبولوجيا الحرية عند بول ريكور :

أولاً – الحرية والطبيعة :

١- الحرية واتخاذ القرار

٢- الحرية والفعل

٣- الحرية وقبول الفعل

٤- الحرية والطبيعة ومبحث ذاتية الجوهر

ثانيًا – الحرية والمقابلة للخطأ

ثالثًا – الأنثروبولوجيا الفلسفية ورمزية الحرية

رابعًا – الأنثروبولوجيا ومضمون الأسطورة

- المراجع والهوامش

---

* كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور/ محمد عباس إبراهيم، أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية.

الفصل الثامن
الأنثروبولوجيا الفلسفية : النشأة والاهتمامات

ـ مقدمة :

من المعروف أن تفسير الظواهر المجتمعية *Societal* ومختلف العلاقات والأحداث التى تظهر على سطح الحياة الإجتماعية كانت محل إهتمام ودراسة من جانب علماء المدرسة الفرنسية للفكر الإجتماعى والنظرية الإجتماعية ، والتى تمثلت فى كتابات كل من أوجست كونت ***August Comte*** وإميل دوركيم ***Emile Durkheim*** ولوسيان ليفى بريل ***Lucien Levy - Bruhl*** ومارسيل موس ***Marcel Mauss*** ومارسيل جرانيت ***Marcel Granet*** ، وغيرهم ، ولايتمثل تاريخ الفكر حصريا فيما جاءت به قرائح الفرنسيين فحسب ، وإنما تتمثل تلك الإسهامات أولا وقبل كل شئ فيما جاء به علماء الفكر والنظرية الإجتماعية الألمان، من أمثال جورج زيمل ***Georg Simmel***، وفيركاندت ***Vierkandt*** ، وليوبولد ڤون ڤيز ***Leopold Von Wies*** ، وفرديناند تونيز ***Ferdinand Toennies*** ، وماكس فيبر ***Max Weber*** وكارل مانهايم ***Karl Mannheim*** وغيرهم .

وقد نتج عن خلاصة هذا الفكر الإجتماعى فرعان رئيسيان فى مجال المعرفة الإجتماعية ، هما علم الإجتماع الفلسفى ، والأنثروبولوجيا الفلسفية ، وفيما يلى نعرض بإيجاز لأهم محاولات علم الإجتماع الفلسفى ، ثم نتناول بعد ذلك تفصيلا الدور الذى تقوم به الأنثروبولوجيا الفلسفية وإسهاماتها فى دراسة القضايا والمقولات الإنسانية العامة :

---

* كتب هذا الفصل الأستاذ الدكتور/ محمد عباس ابراهيم أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

أولا ـ علم الإجتماع الفلسفي *Philosophical Sociology* :

ويعالج عند جورج زيمل وأنصار المدرسة الصورية فى الفكر الاجتماعى البحث عن الشروط القبلية *Apriori Conditions* للعلاقات الإجتماعية ، وهى نفس المشكلة التى إنشغل بها إيمانويل كانط *Kant* فى محاولته الفلسفية الجادة لاكتشاف " الشروط القبلية " للمعرفة . فمن الشروط الوجودية للمجتمع ـ وفقا للمذهب الصورى ـ هى " صورية الوجود الإجتماعى " على نحو " قبلى " ، حيث يتمثل المجتمع بوجود " فراغات " أو " أماكن " يشغلها الأفراد ، حين تخلو تلك الفراغات وتتجرد الأماكن عن محتوياتها الفردية المسبقة ، ففى المدرسة يشغل الطالب " مكانه " الذى أخلاه له الآخرون وهكذا المجتمع والمجتمع المدرسى كمجموعة من " الفراغات " أو " الصور المكانية " *Spatial Forms* " التى يشغلها الأفراد .

ومن ثم نجد علم الإجتماع الفلسفى ينشغل بالبحث عن الأبعاد الفلسفية للعلم *Philosophical Dimensions of Science* الإجتماعى ، أى البحث عن المعرفة أو الأبستمولوجيا *Epistemology* ، أى تنظير المعرفة بالنسبة للعلوم الإجتماعية المتخصصة ، وهنا يكون هذا العلم منصبا على معرفة قضايا الميتاسوسيولوجيا *Meta- Sociology* أى البحث عن طبيعة الحقيقة *Nature of Truth* ، والكشف عن حقيقة الواقع *Reality* فى ضوء الدراسة المركزة للظاهرة الإجتماعية ، كما تبحث الميتاسوسيولوجيا مسألة الإنطولوجيا *Ontology* ، وهى مسألة فلسفية الأصل تتعلق بأصل الوجود ومصيره من خلال فهم وتحليل الوجود الإجتماعى ، أى أنها دراسة التاريخ العقلى *Intellectual History* للوجود الإنسانى ، وهى المحاولات التى نتج عنها فيما بعد قيام ما يعرف بعلم إجتماع المعرفة *The Sociology of Knowledge* والذى إنشغل بتجريد الظواهر الإجتماعية عن واقعها المحسوس ، ووضع مقولات " العقل الجمعى " فوق الفردى ، والصورة البنائية " فوق البناء الواقعى ، " وما فوق

العضوى " أعلى مرتبة من العضوى ... وهكذا .

ويرتبط بعلم إجتماع المعرفة بصورة وثيقة الإتجاه الفينومينولوجى *Phenomenology* عند إدموند هوسرل *Edmund Husserl* ، والذى شاع لدى أتباعه من أمثال ياسبرز *Jaspers* ، ومارتن هيدجر *Heidegger* ، وماكس شيلر *Max Scheler* وديلثى *Delthy* ، وبول ريكور *Paul Ricoeur* ويهدف التيار أو النزعة الفينومينولوجية إلى دراسة القيم الموضوعية بقصد الكشف عن مكنونها " الجوهري" العميق ، وذلك من خلال الوصف الدقيق " لمعطيات الوقائع " أثناء تجاربنا المجتمعية المباشرة ، ولاشك أن عمق البحث فى هذا الإتجاه وكثرة تشعبه قد جعلت مفكرا مشهورا مثل ماكس شيلر كواحد من رواد النزعة الفينومينولوجية لم يستطع أن يخلع رداء الفيلسوف ، حين أراد تمييز بين الإنسان الحقيقى " أو " الإنسان الجوهرى *Essence Man* " . وبين الإنسان الواقعي *Fact Man* . حيث الإنسان الجوهرى عن شيلر " كائنا إستاتيكيا لا زمنيا " أما الإنسان الواقعى فهو الكائن الذى يخضع للضرورة والتغير التاريخى ، وهو إذن كائن تاريخى زمانى ، يخضع لفعل التاريخ ، وهو إنسان ديناميكى متغير ، وفق التجربة وحتمية الزمان التاريخى (١).

ثانيا ـ الأنثروبولوجيا الفلسفية : *Philosophical Anthropology*

تأصلت الأنثروبولوجيا الفلسفية ونشأت خلال العشرينات من هذا القرن فى ألمانيا أما فى الأربعينات فصارت فرعا مستقلا ومبحثا متمايزا من مباحث الفلسفة الألمانية ، واحتلت مكانها بين النزعات الفلسفية الحيوية *Lebens Philosophie*، والوجودية *Existentialism* ، والفينومينولوجية *Phenomenology* ، وعلى الرغم من أنها كانت غير متماثلة أو متطابقة *Not Identical* مع توجهات النزعات السابقة ، إلا أنها تتشابه إلى حد ما مع التوجهات المنهجية والبحثية الخاصة بعلم إجتماع المعرفة ، وعلى الرغم من أن الأنثروبولوجيا الفلسفية قد تأسست تاريخيا على معطيات التراث الألمانى ، إلا

أنها إستفادت من الإسهامات التى قدمها علماء ومفكروا " علم الطبيعة الإنسانية *Science of Human Nature* من رواد القرن الثامن عشر . فزاوجت الأنثروبولوجيا الفلسفية فى نزعتها البحثية والنقدية بين الإتجاهات النقدية التقليدية لعلماء عصر التنوير ، وبين تأكيدات أصحاب البراهين والدلائل القاطعة التى سادت على يد أنصار أصحاب " المسلمات " أو " البديهيات " التى لاتقبل الشك والجدل .

ولقد تأثرت الأنثروبولوچيا الفلسفية فى نشأتها الأولى وفى إطار جل إهتمامها بالبحث عن " موقع الإنسان فى العالم *Man's Place in thd World* بآراء كل من سورين كيركجارد *Kierkegaard* وكارل ماركس *Marx* ، ونيتشه *Nietzsche* ، كما كانت هناك تأثيرات لآراء كل من باسكال *Pascal* ، وهيردر *Herder* وجوته *Goethe* ، وكانط *Kant* ، وهيجل *Hegel* ، وفيورباخ *Feuerbach* فى المقومات الموضوعية والمنهجية لتأصيل الأنثروبولوچيا الفلسفية ونشأتها فعلى سبيل المثال يعتبر المفكر الألمانى هيردر هو أول الباحثين الذين ربطوا بين البيولوجيا وفلسفة الإنسان ووجد أن الإنسان كائن عاجز *Deficient being* يسعى إلى تعويض نقصه بواسطة اختراع واستخدام الآلات والأسلحة والتكنولوجيا . أما هيجل وفيورباخ فقد أشار الأول فى نظريته عن الإغتراب إلى نقد المجتمع فقدم الذات عن الموضوع ، وقدم العقل عن البرهان ، أما الثانى ، فيورباخ ، فقد ركز على بناء تصورات ومفاهيم العقل الإنسانى من خلال مقولات تأملية فى وجود الله ، والجسد والروح ، وهى مقولات لاهوتية *Theological* ، ولكنها صارت فيما بعد أركانا أساسية للبحث فى نظرية الثقافة ضمن مباحث الأنثروبولوجيا الفلسفية (٢) .

وقد ركز موضوع البحث منهجيا ـ لدى المدرسة الفكرة الألمانية ـ فى مجال الأنثروبولوجيا الفلسفية من خلال ما إصطلح عليه بحثيا باسم *Geistewissen Schaften* أى البحث فى " علم الطبيعة الإنسانية *The Science of Human Nature* والذى تأسس فيما بعد بفضل أعمال هوبز *Hobbes* ،

ولوك ***Locke*** ، وشافتزبيرى ***Schaftesbury*** ، وغيرهم وهى كلها كانت بمثابة مقدمات للبحث فى " علم الإنسان " .

ومن جهة أخرى لايمكن إغفال الأعمال التى قدمها كل من آدم سميث ***Adam Smith*** والنزعتين النيوتونية ***Newtonian*** (نسبة إلى إسحاق نيوتن) ، والبيكونية ***Baconian*** (نسبة إلى فرانسيس بيكون) ، وإسهامات كل من المدرستين الإسكتلندية والفرنسية فى الفكر الإجتماعى فى القرن الثامن عشر وخصوصا على يد كل من فرانسيس هتشكوسون ***Francis Hutcheson*** ، وآدم فيرجسون ***Adam Ferguson*** وجون ميللر ***John Millar*** ، ودوجالد ستيوارت ***Dugald Stewart*** وديدرو ***Diderot*** وغيرهم . وهى الأعمال والآراء التى تبلورت فيما بعد لدى جون ستيوارت ميل ***John Sturat Mill*** وآرائه الإجتماعية والتى صارت فيما بعد بمثابة مبادئ هامة فى الأنثروبولوچيا الفلسفية من خلال آرائه حول الأسس البيولوجية التطبيقية ***Empirical Biological Basis*** [٣] . وهى المحاولات العلمية التى حاولت جاهدة أن تضيق الفجوة بين مفهوم الإنسان ووضعه ككائن طبيعى ، وبين مفهوم الإنسان فى ضوء تأثره بنظامه السوسيو ثقافى .

أما عن إهتمامات الأنثروبولوجيا الفلسفية وموضوعات البحث فيها فتركز على مسألة وجود الإنسان وتجاربه ، وإنجازاته ومخاوفه ، كما تبحث فى حقائق العلوم التى تسعى إلى الكشف عن طبيعة الفرد وعلاقاته بالوجود الإنسانى ، والإرتباط بين نمو الجسم وتطور حالة التفكير عند الإنسان ، كما تبحث فى أهم الخصائص الفيزيقية التى تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى ، وهى تلك الدراسات التى تم تصنيفها تحت مايسمى بإهتمامات الأنثروبولوچيا الفسيولوجية ***Physiological Anthropology*** والتى تختص بالحدود الطبيعية للإنسان ووظائفها وأيضا الأنثروبولوجيا العلمية أو الإجرائية ***Pragmatic Anthropology*** والتى تختص بتفهم دور الإنسان فى صنع نفسه ، سواء

بإعتماده على الذات أم باعتماده على آخرين .

ومن هنا فإن الأنثروبولوچيا الفلسفية تهتم بدراسة الإنسان المبتكر أو المخترع للثقافة ، والإنسان المستخدم للثقافة والقيم الثقافية ***Cultural Values*** وهنا يركز علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية على ضرورة الإستعانة بالمنهج التأملى أو التخيلى ***Imaginative*** كمدخل للبحث ، من أجل إعادة تأسيس مايعرف بخريطة أو محيط المعرفة ***Map of Knowledge*** .

هذا وقد إتسع نطاق ومؤيدى البحث فى مجالات وموضوعات الأنثروبولوجيا الفلسفية فى كل من المانيا ، والشعوب الناطقة بالألمانية ، بالاضافة إلى هولندا وأسبانيا والولايات المتحدة وفرنسا ، فبرزت إهتماماتهم فى دراسة الجوانب اللاهوتية ، والتاريخية ، والسياسية ، والتشريعية (فى الفقه الإجتماعى) والبيولوجية والفينومينولوجية [٤] . هذا بالاضافة إلى الإهتمامات البحثية فى مجالات ماوراء الطبيعة والوجود ونظرية القيم والأبستمولوجيا ، وفلسفة العلوم ، وفلسفة التاريخ ، وقد توجت إهتمامات الأنثروبولوجيا الفلسفية من جانب العلماء المحدثين بالبحث فى العلم السلوكى ***Behavioral Science*** ونظرية الفعل ***Theory of Action***، وهى كلها محاولات من جانب العلماء يسعون من خلالها إلى إقامة دعائم ومجالات الأنثروبولوجيا الفلسفية ، كفرع مستقل ومتميز عن بقية العلوم الإجتماعية الأخرى .

ولاشك أن هناك الكثير من علماء الأنثروبولوچيا المعاصرين الذين أسهموا بشكل فعال فى تطور الفكر الأنثروبولوچى وجعلها ذات شأن عقليا وفلسفيا ، وسعت أعمالهم إلى إلهاب الخيال وتحفيز الذاكرة لدى عدد غير محدود من الأنثروبولوچيين العاملين فى مجال أنثروبولوجيا المعرفة والأنثروبولوچيا الرمزية [٥]. فبدأت تلك الأعمال فى إعادة النظر فى الطريقة أو الكيفية التى تعاملت بموجبها النظريات الأنثروبولوچية مع موضوعات مثل " البناء الإجتماعى ، والقرابة ، والطقوس ، والأساطير ، ونظم المعتقدات ، واللغة ، والرمز ، والفن ، وغيرها .

ومن خلال نظرتهما وتحليلاتهما الفينومينولوجية فقد حاولا التوفيق بين ثنائية العقل والجسم ، وهي تلك الثنائية الموجودة في الكوزمولوجية الكلاسيكية .

٣ ـ الحرية والقبول : *Freedom and Consent*

إن النشاط الكامل للإرادة ليس مجرد قرار ، ولا مجرد فعل ، إنما يرتبط باللحظة النهائية في الفعل الثلاثي للإرادة وهو القبول أو الموافقة ***Consent*** فالقبول هو أكثرها أهمية في عملية الإرادة لأن القبول يوضح صعوبة قضية العلاقة بين الحرية ***Freedom*** والضرورة ، والتعامل مع قضية القبول أو الموافقة ليس أمرا سهلا لاسيما في ظل التفرع الثنائي العام والمطلق بين الحرية والضرورة الـ ـ يؤيدها الوجوديون المحدثون ، حيث دشن سورين كيركيجارد ***Kierkegaa.*** ! تلك المعضلة ***Dilemma*** بهدف التأكيد على التفرد الثقافي ـطلق بين الحرية والضرورة ، وإقترح أن مشكلة الإنسان مرتبطة بوجوده العالمي (الكوني) ، ويأتي مشروع كيركيجارد للوجودية بمثابة تحرير للإنسان من إرتباطه بالعالم (الكوني) لكي يتأكد من إمكانات وجوده الخاص . ويظل الأمر ، ويبقى على جان بول سارتر ***Sartre*** أن يعيد تأكيد هذا الشقاق الراديكالي (الأصولي) بين الحرية والضرورة بعمل وإقامة تمييز بين الكينونة في ذاتها ***Being - in - itself*** (الضرورة) ، والكينونة من أجل ذاتها ***Being - for - Itself*** (الحرية) أما بول ريكور ومن منطلق إهتمامه بالتغلب على قضية الثنائية الأبستمولوجية ورغبة منه في دمج الجسم المتجسد ***Marcel*** فإنه يرى القضية لا من منظور ثنائي راديكالي (أصولية الحرية والضرورة) ولكن من منظور التوفيق بينهما ، إذن يصبح القبول أو الموافقة هو حركة الحرية نحو الطبيعة لكي تصبح متحدة مع ضرورتها وتمويلها في ذاتها .

لكن الأمر ليس بهذه السهولة ـ كما يبدو فالقرار النهائي للحرية والضرورة في الموافقة والقبول من المنظور السيكولوجي هو أمر حتمي وجبري ***Determinism*** أما من وجهة نظر المنظور الفلسفي فليس بالضرورة إنتصار

الجبرية على الإختيار ، حيث تكون الموافقة أو القبول ـ من وجهة نظر بول ريكور ذات صلة بعناصر ثلاثة رئيسية هي الشخصية *Character* والوعى أو الإدراك *Consciousness* والحياة *Life* فالشخصية يتم تعريفها على أنها الأقرب للإرادة ، فهى التى تقيد الإنسان بإتخاذ كل قرار ما ، وأن كل فعل للإرادة ممكن ومحتمل وغير متوقع بسبب خصوصية الشخصية فى مدى قدرتها على إستكمال القرار ، وحيث أن الفرد ليس حرا فى أن يكون شخصا أو فردا آخر ، وليس حرا فى أن يغير شخصيته وفقا لرغبته ، فإن هذا هو أحد جوانب الضرورة ، أى أنه جانب الإجبار الذى لايمكن تغييره أو تعديله ، ورغم إعجاب بول ريكور بعبارة ديموقريتس *Democritus* الذى قال أن شخصية الإنسان هى قدرة *Man's Character is his fate* إلا أن ريكور لم يرغب ببساطة فى صياغة تفسير حتمي للشخصية لأن الشخصية هى موضع حرية الإنسان (١٤) .

أما عن حالة الشعور أو الوعى وحالة اللاشعور واللاوعى *Unconscious* ومدى علاقتها بدرجات القبول أو الموافقة على ممارسة الفعل من جانب الإنسان فتكمن فى مدى وعينا وإدراكنا بحالة اللاوعى واللاشعور والتى إنطبعت لدينا تفسيراتها اجرائيا بأن حالة اللاشعور هى تلك التى لانشعر بها ، بل وصل الأمر بالبعض إلى تفسير ما نملكه من شعور بأنه مجرد إحساس مزيف ، وهنا نجد أنفسنا أمام مشكلة أخرى ألا وهى " رفض صدق الشعور أو الوعى " وهو الأمر الذى جعل بول ريكور يرى أن اللاوعى هو مجرد حدود وقيود الحرية ، وهنا يكون اللاوعى هو الطرف الثلاثى للعلاقة مع كل من الحرية والوعى ، وهو الأمر الذى جعل بول ريكور يوجه إنتقاداته لتفسيرات سيجموند فرويد فى الجوانب التالية :

أ ـ إن واقعية *realism* فرويد تثير شكا فيما يتعلق بواقعية خبرة الوعى ، فمن وجهة النظر المنطقية تصبح تلك الواقعية مزيفة طالما أن الفكرة الأساسية فى تفسير اللاوعى تؤكد حالة الوعى ، حيث يجب على الفرد أن يكون على وعى (شعور) بالخاصية الجوهرية (للاشعور) لكى يضمن تفسيره ، وعليه فإن مبحث فرويد بأن اللاوعى يسود على الوعى إنما هو أمر يثير التساؤلات .

٢ ـ الحرية والفعل : *Freedom and Action*

منذ اللحظة الأولى التى يتخذ فيها الفرد القرار تعد هى بمثابة فعل " للإرادة " أو عمل " للإرادة " الإنسانى ، ذلك لأن الإقدام على أتخاذ القرار إنما يعنى بدء نشاط الإرادة وتحديد بدايتها ، وهنا يصبح القرار نوعا من المعنى الدلالى *Semantic* الأجوف أى الخالى من ما يضيف الوفاء به ، ألا وهو الفعل الإرادى للإنسان والذى يكشف ويؤكد على الحرية الإختيارية للفعل والتى يصبح معها إتخاذ القرار قد وصل إلى غايته ، وأبسط الأمثلة على ذلك كما يراها بول ريكور للحركة الإرادية هو " أنا أحرك جسمى " أى إنتقال حركة الإرادة من المثالية إلى الإرادة الفعلية المقرونة بنية إستحضار الفعل *Presence of Action* والمنجز بواسطة الذات ، وهنا تأكيد على مايشير عمليا إلى الطريقة التى يربط فيها الفرد ذاته بالأشياء .

وقد أدت تصورات الفعل فى علاقاته بالأشياء ـ عند بول ريكور ـ إلى القول بأهمية مبدأ النفعية البراجماتية *Pragmatic* لتلازم الفعل والإرادة والعمل *Correlate of doing* ففى المثال السابق لايكون الجسم هو موضوع الفعل بل هو وسيلة أو أداة الفعل *Organ* أى أن الجسم يكون متضمنا ومستغرقا فى عمليتى إتخاذ القرار وفعل الإرادة حتى تستكمل العلميتان ويمكن إتمامهما .

ومن هذا المنطلق نجد إهتماما من جانب العلماء فى إبراز العلاقة بين كل من الفكر الفلسفى والفكر الفينومينولوجى من أجل التغلب على المشكلات التى تواجه تفسير ثنائية الظواهر لاسيما تلك الفجوة بين الحقائق العقلية والمادية ، فادخال الجسم *Body* ـ من منظور الفكر الفلسفى الأنثروبولوجى فى دراسة الحركة الإختيارية إنما يمثل قدرا من التغلب أو على الأقل فهما لقضية ثنائية الجبر والإختيار ، فالفرد يكون قادرا على تحويل الفعل الإجبارى إلى فعل إختيارى ، وذلك فى ضوء وجود ثلاث أسس للحركة الجبرية فى نطاق وحدود الفعل المضاد وهى : أداء المهارات الفطرية والمكتسبة ـ الحركة وفلسفة وفن أدائها ـ العادة أو

روتينية وتلقائية الأفعال .

فأداء المهارات يرتبط بشدة بالمبدأ العلمى الموضوعى وهو إنعكاس لما نملكه من مهارات فطرية ومكتسبة ، حيث تشير المهارة المؤداه ـ من وجهة نظر بول ريكور " بأنها نمط بدائى لسلوك جسمنا فى علاقته بالأشياء المدركة " . أما الحركة وفلسفة وفن أدائها فترتبط بمدى شدة أو ضعف الأنفعال أو العاطفة ***emotion*** والتى يمكن تحديدها فى ثلاثة أنماط أو أنواع من العواطف هى : عاطفة التعجب ***Wander*** وهى نوع من التوحيد الأولى الإنفعالى لكافة جوانب الوحدة الأساسية (للحوافز والنزوات) الجسمية والإختيارية ، وعاطفة الصدمة ***Shock*** والتى تفهم على أنها مزعجة وغير مريحة وخصوصا فى الحـ الات الشديدة من الخوف والألم حيث تؤدى الصدمة إلى التقليل جدا من طاقة " الإرادة " ومن ثم يحدث التشتت ***Disunity*** وعدم الإتحاد بين الإرادة والفعل . فانفعالات الصدمة تؤدى إلى ضعف " الإختيار " بينما إنفعالات التعجب فى أقصى شكلها المجرد هى رغبة تؤدى إلى تجميع كل ما هو إجبارى داخل حدود الفعل ، وأخيرا عاطفة أو إنفعال النزوة ***Passion*** (كالرغبة الجنسية مثلا) وهى عادة تكون بمثابة الإنفعال والشعور المتماسك فى ذاته .

أما العادة ***Habit*** فتشير إلى المجال الثالث للتلقائية الجسدية ، والتى بمقتضاها تصبح الحركة والفعل الإختيارى شيئا ملموسا ومدركا ***Inform*** ، فالعادة هى بمثابة الأسس والثوابت الدالة على وحدة الجبر والإختيار على مستوى التلقائية الجسمية أو الجسدية ، وهنا تتميز العادة عن المستويين الآخرين (المهارات ـ والحركة) باعتمادها على التعلم ، فالعادة مكتسبة ومن خلال عملية الإكتساب تصبح لدى الإنسان طبيعة ثانية تسمح للذات بتأدية المهارات والتى بدونه (العادة) لايمكن للمهارات أن تنجز وتؤدى ، فالعادة تطبيع مفيد للشعور والوعى والحرية ، والعادة مكتسبة بفضل تطبيق الإرادة الإنسانية على الطبيعة الكونية للإنسان والتى هى مجال الجبر والإلزام ، ومن خلال ماسبق يتضح لنا أن كلا من هوسرل وريكور

هذا الإرتباط سيعتمد فى النهاية على وظيفة ***Function*** الحرية . ونتيجة لذلك ، ولكى نفهم دور ***Role*** الحرية وحدودها فى علاقتها بالرموز والأساطير ، فمن الضرورى أن نتصور أنثربولوجيا الحرية ***Anthropology of Freedom*** وحدودها فى العمل البنائى الكلى أو العمل الإستدلالى ***Constructive*** عند بول ريكور .

أولا ـ الحرية والطبيعة : *Freedom and Nature*

من المعروف أن مبدأ ريكور للحرية تم تصوره وتطوره فى ضوء محتوى أوعمل بنائى وظيفى / إستدلالى كما ورد فى كتابه المجلد الأول بعنوان : فلسفة الإرادة ، حيث ذكر بأنها ليست حرية نابعة من القلق بمفهوم سورين كيركجارد ***Soren Kierkegaard*** ، ولا هى حرية نابعة عن الرفض والسلبية بمفهوم سارتر ، ولا تدعمها دقة ألحركة الكوزمولوجية ***Cosmological*** الكونية كما جاءت عند هيجل ***Hegel*** (١٢) . فمبدأ الحرية الذى قدمه ريكور يمكن فهمه على أنه ليس رسالة عادية عن الحرية أو إرتباط الحرية بالإرادة كما جاء فى كل من التفسيرين الأوغسطينى ***Augustinian*** (نسبة إلى القديس أوغسطين) واللوثرى ***Lutherian*** (نسبة إلى المناضل الزنجى مارتن لوثركينج) ولكن ريكور قصد بذلك أن يستبعد من المناقشات ـ منذ البداية ـ إرتباط الحرية بمشكلة العبودية للعاطفة (كالرغبة الجنسية) والقانون ، وعندئذ يكون الفهم الأصلى للحرية المعطاه فى فكر ريكور هى حرية الوضوح والتميز المنهجى لجوهر ***Eidetic*** الإرادة فى ضوء محتوى العمليات الإختيارية واللا إرادية (الجبرية) ، وهنا يقدم ريكور مبدأ الحرية ، ليس كمبدأ مستقل ولكن يقدمه من خلال علاقته بالطبيعة المعتمد عليها والمتحد معها ، وهنا يكون جوهر منهجة هو التبادلية ***Reciprocity*** بين الإرادة (الإختيار) واللا إرادة (الجبر) فلكل منهما دور وظيفى تجاه الآخر يؤدى إلى نتيجة ثالثة ، فالتلقائية الجسمية ، والعادات ، والتأملات التلقائية ، والحاجات والإنفعالات .. الخ ، إنما تقدم لنا أساسا وأولويات

لأى نشاط إرادى ممكن فعله .

إذن المناقشة الأصلية والجوهرية عند ريكور لمبدأ الإرادة هى مناقشة منظمة تحت فعل " أراد " والذى يحتوى على ثلاث حركات أو مراحل إختيارية : فا أنا أقرر *Idecide* ، أنا أحرك جسمى ، أنا أوافق فالحركات الإختيارية مؤكدة بفعل الإرادة ، ففى كل حركة من الحركات السابقة نجد مثالا منفصلا ـ لكنه إنفصال نسبى ـ فالحركة الإختيارية تتضمن إرتباطا إجباريا طالما أن الإجبار يقدم أسبابا للإختيار ، فى حين أن الإختيار يقدم تركيزا على الإجبار ، وهنا يكون من الضرورى الأخذ فى الإعتبار هذه المراحل أو اللحظات أو الحركات الثلاث فى عملية الإرادة لفهم مبدأ ريكور الأصلى عن الحرية فى محتوى أو مضمون الإرادة.

وفيما يلى نضع بين يدى القارئ النص التالى كما جاء فى كتاب ديفيد راسموسين *David M. Rasmussen* أستاذ الفلسفة والأنثروبولوچيا الفلسفية بالكلية الجامعية فى بوسطن بعنوان : اللغة الأسطورية ـ الرمزية والأنثروبولوچيا الفلسفية [١٣] . والذى يشير إلى خلاصة رؤية ريكور للإرادة والحرية، والنص كما نعرضه دون ترجمة منا هو :

The Central theme of Ricoeur's thought. From the point of view of his attempt to constract a philosophical Anthropology , is Freedom and its Limitations. Although Ricoeur originally considered freedom in relationship to nature, Later he turned to Myth and Symbol as Phenomena Constitutive for the experience of freedom and its limitation .

ومن خلال المناقشات الخاصة بالحرية والطبيعة والإرادة تتضح لنا بعض النقاط التالية :

١ ـ الحرية وإتخاذ القرار : *Freedom and Decision*

يشير تحليل وتفسير الإرادة تحت أى ظرف إلى حالة إتخاذ القرار الذى يدل على فعل ما فى الحاضر والمستقبل ، وهو الفعل الذى يعتمد على الإنسان نفسه وتحت سيطرته وإرادته وهنا تظهر النية أو القصدية فى مشروع فعل الحاضر والمستقبل ، ولكن مع شرط إضافى لايمكن التغاضى عنه وهو أن الذات أساس وجوهر قبل التعامل مع الوعى أو الإدراك الإنسانى والذى قد يكون فى بعض الأحيان تأملات قبلية *Pre - reflexive* مزيفة ، وبدلا من تلك التفسيرات الطبيعية لحالة إتخاذ القرار فى ضوء السببية ، فإن بول ريكور قد ربط إتخاذ القرار بالدافعية *Motivation* ، ورفض التفسير الذى يجعل الدافع موجودا فى سبب أو حالة منفصلة عن القرار ، كما تجنب ريكور التفسير الأخلاقى البحت للدافعية ، والذى قد يربط عملية إتخاذ القرار بمخطط أو مخططات تفسيرية قد تخفى حالة الإستدلال الفعلى للقرار ، فالقرار كما نراه من منظور الفرد مرتبط بحالة الإنتساب إلى الذات *Slef - Imputation* والدافعية فى ضوء النشاط التبادلى بين القيود الجوهرية للحرية وإرادة الإنسان ، وأن كل منهما لا ينفصل عن الآخر .

وهنا تكون الجبرية *Involuntary* من أجل الإرادة ، والإرادة موجودة بسبب الإجبار ، وأنه مجرد وضع القرار فى حالة النية أو القصد فإننا نكون قد دخلنا إلى مجال الإختيار *Voluntary* ، والذى يمكننا بدوره من إكتشاف الأسلوب الذى يكون فيه الإجبار الكونى أو الجسدى أو المادى *Corporeal* (أى الهيولى) أساسا للفعل الإختيارى ، وينظر بول ريكور الى العلاقة المتبادلة بين الحاجة والرغبة فى تحقيقها وبين الخيال على أنها أساس لتلك العلاقة التبادلية بين الإختيار والجبرية ، لاسيما وأن الخبرة الجسدية أو المادية أو الحسية عموما تصبح قاصرة بدون فعل من الإرادة كى يتم إشباع الحاجات الحسية ، كما أن الإشباع فى ضوء تلك العلاقة التبادلية لقيم الجبر والإختيار يتم تحقيقه على أنه

لذة وسعادة ، فموضوع الحاجة وتحقيقها تسلية بالرغبة والإرادة ، وغالبا ما يتم تقييمه على أنه خير ، في حين يقيم الألم على أنه شر ، وينظر إلى الألم على أن مصدره في الخوف وليس في الحاجة .

ولا شك أن بول ريكور بنظرته السابقة يحاول أن يوسع من طريقته المنهجية الكلاسيكية في مثالية التميز أو التفرد ***Eidetic*** للتفسير ، لتشمل الجبرية الجسدية أو المادية كجزء من العالم التأسيسي ***Constitutive*** الفطرى للخبرة والمعنى ***Meaning*** .

فالتعريف المبدئي للحرية هي ليست "حرية التي تم تكوينها وتأسيسها باعتبارات ذهنية أوعقلانية وإختيارية بحتة ، وإنما أيضا بتفسيرات وإعتبارات قبل عقلانية ***Pre - Rational*** وجبرية ***Involuntary*** ، وعند وضع هذين الجانبين المتناقضين كما يبدو ، فإن مجمل هذا الوضع يبدأ في رسم تعريف إجرائي للحرية التي تحاول أن تشتق رؤية ليست كونية (كوزمولوجية) بهذا المعنى. وهنا يكون بول ريكور قد سار وفق مدلول هوسرل فيما يتعلق بإعادة التقييم الفينومينولوجي للثنائية التقليدية بين الحرية العقلية والضرورة الموضوعية، حيث إعتقد هوسرل في ميتافيزيقا جديدة ، وأنطولوجيا جديدة يمكن أن تشتق من المنهجية الظاهراتية (الفينومينولوجيا) ، لأنه مجرد ترك الإنسان لمجال الإتجاه الطبيعي ، فإنه يكتشف أن الثنائية المتلازمة والمتأصلة للخبرة العادية هي مجرد ثنائية مزيفة .

ورغم أن مبدأ الحرية حتى الآن عبارة عن رسم تخطيطي ***Sketchy*** ، إلا أنه من الواضح أن بول ريكور يعمل وفق رؤية منهجية متسعة يحاول أن يكتشف من خلالها المناطق الحسية (المادية) دون أن يقع في مأزق (مصيدة) بناء كوزمولوجي يؤيد الثنائية وعليه فإن تصور اللحظة الأولى لفعل الإرادة ، هو فعل القرار ، وهنا يتم تقديم مبدأ الحرية لتكون نقيضا للتعريف الكوزمولوجي للحرية .

الإنسان وفقا لهذا المنظور هى مشكلة الحرية *Freedom* ، لأنه لكى يصبح الوعى كما هو عليه *What it is ?* فمن الضرورى أن يتحرر من موضوعية الكينونة فى ذاتها *Being - in - Itself* لكى تصبح كينونة من أجل ذاته *Being - for - Itself* .

وبالتركيز على مشكلة ارادة الإنسان فقد جعل بول ريكور الحرية الإنسانيةهى القضية الأساسية لنزعته الفكرية مما جعله واحدا من بين الذين يقفون فى قلب المناقشات الفينومينولوجية (مذهب الظاهراتية) فهو مثل سارتر اختار أن يتعامل مع الوعى من وجهة النظر الفاعلة *Active* ويبدو أنه قبل بهذه الفكرة بعد تعديلات فى توجهاته الفكرية لاسيما وأن المبحث الرئيسى لدى ريكور ينصب على مشكلة الإرادة الإنسانية والتى تفهم الحرية فى محتوى الطبيعة لا فى رفضها .

من جهة أخرى فقد إختار بول ريكور فى دراسته عن الإرادة أن يسير وفقا لما جاء به ميرلو بونتى *Merlew - Ponty* بأن ترتكز دراسة هذه الظاهرة للإدراك على أساس التأمل المسبق *Pre - reflexive* عن العالم ، وهذا لاينفى أن الإرادة تتحقق من ذاتها ، ولكن فى تعاون مع مبدأ الجبرية أو اللا إختيارية (١٠) . والعالم والطبيعة ، وكما وجد ميرلو بونتى أن الإدراك أو الوعى يحدث فى قلب العالم *Midst of the World* ، وجد بول ريكور أن الحرية فى قلب الطبيعة ، وهى التى تمثل التأملات الأولية أو القبلية لظاهراتية العالم أو الجسم أو حتى اللا ارادية أو الجبرية .

وقد علق بيير تيفيناز *Pierre Thevenaz* (١١) . فى كتابه بعنوان ما المقصود بالظاهراتية ؟ على كل من سارتر وميرلو بونتى بقوله أن فكر سارتر موجه تماما مثل فكر ميرلو بونتى نحو تحليل وتفسير شدة الترابط بين الفعل والتاريخ ، وهو ما سار عليه علماء المدرسة الفرنسية (أنصار المذهب الظاهراتى) الذين ارتموا بشدة فى أحضان التاريخ . وهنا قد لايكون الأمر غريبا عندما يختار

بول ريكور " الإرادة " كموضوع للتفسير الفلسفى ، مقرونة " بالحرية " كموضوع فلسفى / أنثروبولوجى حيث تقدم موضوعات وقضايا الحرية عنده نفسها كموضوعات أساسية في توجهه الفكرى ، وهنا يتفق ريكور مع علماء الأنثروبولوجيا بأن محتوى هذا الموضوع هو النظرة الشمولية والكونية *Global* للإنسان وأن هذا الموضوع ينال أهمية خاصة من خلال منهجية مبحث الجوهر أو التفرد الذاتى *Eidetic* ، والوجودية والتفسيرية والتأملية .

ومركزية قضية الحرية فى فلسفة ريكور الإرادة تفترض ثلاثة أسس للتفسير هى :

١ ـ الحرية والطبيعة .

٢ ـ الحرية والقابلية للخطأ .

٣ ـ الحرية والخطأ .

فتركيز الإنسان على مشكلة الحرية ليس عملا ترفيا أو مختزلا ، لاسيما وأن مبدأ ريكور عن الحرية هو على النقيض من سلبية وإنكار ورفض سارتر لها ، ولهذا فهى فى مبدأ ريكور نوع من التأكيد على الإيجابية والشمولية *Inclusive* والضمنية أيضا ، ولذلك فإن نقاش ريكور ينصب على أن الفهم الكافى للحرية يمكن وصفه فقط كحرية يتم معرفتها بالطبيعة ، حرية تعتبر من الناحية الواقعية إمكانية الخطأ ، حرية فى مواجهة مع حقيقة الخطأ .

ويتضح مما سبق أن المحتوى الكلى لهذه المناقشات يكمن فى أن الحرية هى مادة جوهرية للأنثروبولوجيا الكونية *Global Anthropology* ـ والنابعة من عولة الإنسان ـ حيث أن الحرية وتوابعها[١] فى النهاية لها صلة باللغة الأسطورية ـ الرمزية *Mythic - Symbolic Language* ، فالحرية وحدودها تشكلان الأساس الأنثروبولوجى للغة الأسطورة ـ الرمز ، لأنه إذا كانت لغة الأسطورة ـ الرمز والأنثروبولوجيا الفلسفية مرتبطتان بعضهما البعض فى فكر ريكور ، فإن ..

وتركز الصفحات التالية من هذا العمل على الجهود التى قام بها المفكر الفرنسى بول ريكور *Paul Ricoeur* من خلال نقاشاته وحواراته مع قضايا الحرية وإرادة الإنسان والعلاقة بين الخير والشر مستعينا بالأسطورة واللغة الأسطورية ورمزيتها كدالة حية على ما تحتويه المخيلة البشرية من تراث ثقافى .

ـ في الحرية وإرادة الإنسان :

أيا كانت المنهجية التى قدمها المفكر الفرنسى بول ريكور *Paul Ricoeur* (٦) لعمله الرئيسى فى نظرته ومعالجاته لفلسفة الإرادة *Philosophy of Will* ، فإنه لايمكن النظر إلى إسهاماته بأنها أعمال تقليدية مثل ما كان عليه الحال منذ القديس بولس *Saint Paul* وغيره من المفكرين والفلاسفة وعلماء الفكر الإجتماعى وخصوصا نظرتهم حول " رمزية الشيطان " ، والرمزية الأسطورية والدينية الغربية ، وهو الأمر الذى خلق حالة من التفاعل الجدلى *Dialectical* لمفاهيم الحرية ، والعبودية ، والإحتمالات المثالية ، والقيود الواقعية المفروضة ، والخطأ والسمو ، والحرية وعلاقاتها بدرجات إقتراف الشر ، وهى المبادئ والبدايات التى شكلت أساسا موضوعيا ومنهجيا للدراسة .

ورغم تقليدية الموضوعات المطروحة وتصدى البعض من المفكرين لدراستها إلا أن مناقشات بول ريكور لفلسفة الإرادة تعد ـ من وجهة نظر البعض ـ عملا غير تقليديا ، فقد حاول ريكور أن يجعل المناقشات والمعالجات فى محتوى الطريقة المنهجية *Methodological* القائمة على تصنيف الإحتمالات الجوهرية للإنسان فى سياق مايسمى بالإرادة *The Will* ومن خلال بنية الجبر *Involuntary* والإختيار *Voluntary* مع وجود خاصية القابلية للخطأ والتأويل (التفسير) القصدى للخطأ الفعلى ، ويرجع سبب إختيار بول ريكور لموضوع الإرادة ليؤكد لنا شدة إرتباطه بموضوعات مذهب الفينومينولوچيا *Phenomenology* الفرنسية .

ومن المعروف أن ادموند هوسرل *Edmund Husserl* الفيلسوف

الألمانى هو الذى حاول تأسيس قاعدة فكرية وفلسفية تستند إلى الظاهراتية أو ما يطلق عليها الفينومينولوچيا *Phenomenology* للتفسير وتكون ذات أسس معرفية أو ابستمولوجية *Epistemological* فى خصائصها (٧) . وجاء المفكر الفرنسى جان بول سارتر *J.P.Sartere* ليغير هذه الطريقة (٨) من التأمل إلى الفعل على عكس هوسرل الذى إستند إلى الطريقة الظاهراتية ليبحث ويكشف عن أسس الفكر *Thought* والأعمال الأولية للوعى أو الإدراك الإنسانى *Consciousness* فى ضوء التطابق المتميز والمثالى والمتفرد لكل من التصورات والواقع والتى أطلق عليها هوسرل بطريقة مبحث ذاتية الجوهر للموضوعات *Eidetic Method* وهى الطريقة التى حاول مارتن هيدجر *Martin Heidegger* التركيز عليها ، والبحث فى أسسها محاولة الوصول إلى أبعد من هذه الأفعال الجوهرية للوعى من أجل تأسيس قاعدة أونطولوچية *Ontological* تتوام من خلالها التصورات التأملية مع المعطيات الكونية (٩) . وقد قبل " سارتر" هذا التمايز الأساسى الذى قدمه " هيدجر " بين الأفعال الشعورية والإنغماس فى الكينونة أو الجوهر *Being* والتى أشار إليها هيدجر بأنها أفعال محتملة وممكنة .

فى الوقت الذى ركز فيه سارتر متبنياً وجهة النظر والمنهجية الهيجلية (نسبة إلى الفيلسوف الألمانى هيجل) *Hegelian* ـ على مناقشة العلاقات القائمة بين كل من الكينونة فى ذاتها *Being - in - Itself* والكينونة من أجل الكينونة *Beign - for - Itself* من خلال النشاط أو الفعل العدمى *nihilistic* الذى أدى إلى الإنقسام أو الفصل بين الكينونة *Being* التى فى ذاتها *In - Itself* واللاشيئية *Nothingness* التى هى من مصادر الوعى والإدراك الإنسانى .

وهنا يتضح التمييز بين سارتر وهوسرل عند هذه النقطة فهو عند هوسرل يكون الوعى أساسا تأمليا وعقلانيا ، فى حين عند " سارتر " يكون الوعى عملا وفعلا نشطا ، أى أن الوعى صانع لذاته ، وهنا تكون المشكلة الجوهرية لدى

ب ـ يرتبط بهذه الواقعية ***Realism*** السببية ***Casulism*** أو العلية ميل إلى تفسير الحقائق فى ضوء خبرة اللاوعى بطريقة علية تختص بالأشياء والوقائع وليس من حيث خبرة اللاوعى الذاتى الرئيسية المجردة فالقضية هنا تنصب على لغة العلية أو السببية ، وليس لغة القصد أو الفعل العمد لحالة اللاوعى أى أنك " تشعر " أولا ثم تشرع فى الفعل ، وهى حالة الإنسان الأنثروبولوجى الكونى أو العولمى فيزيقيا وحضاريا ، أما لغة السببية أو العلية فتشير إلى الأشياء المادية المتجسدة فى الفيزياء الذهنية ***Mental physics*** ، وهنا تكمن صعوبة لغة السببية بسبب رفضها للحرية ، وتصبح السببية هدفا مساويا للدافعية الغير حرة بصورة مطلقة ، وهى محاولة من جانب ريكور للفهم الصحيح للعلاقة بين الحرية والطبيعة .

جـ ـ إن مشكلة الشعور أو الوعى تكمن فى أصلها الوراثى ***Genetic*** أو النشوئى التطورى ، أما اللاوعى فقد إكتشفه وأكد عليه فرويد رغم علمه بالمبادئ الوراثية للتفسير ، فالمشكلة هنا هى كيفية محاولة تفسير الأشكال العليا من الوجود بأشكال دنيا وهو ما يرفضه بول ريكور الذى يدعم مبدأ الحرية ويرى أن تصديق مبدأ اللاوعى فى التفسير إنما هو ضربة قاضية للحرية ، أى أنه قراءة فى إتجاه معاكس لكل من الشخصية والإرادة ، وهنا يصبح فهم اللاوعى ـ من وجهة نظر ريكور ـ بأنه شرط للحرية ، وإذا تم فهم الشخصية على أنها ضرورة أى أنها أقرب الى الإرادة وأنها " قدر الإنسان " فإن الحياة هى التى تلى الشخصية ثم اللاشعور أو اللاوعى (١٥) .

ويمكن تحليل الحياة ***Life*** من خلال ثلاث مراحل أساسية هى :

ـ البناء الفيزيقى ، وهى المكونات البيولوجية ووظائفها والتى غالبا تحد من حرية الإنسان ، حتى وإن كانت هذه الوظائف ليست محكومة بواسطة الحرية ، فالجهاز العصبى ، وجهاز الغدد الصماء وغيرها إنما يحتاج إلى قليل من الإرادة لكى تعمل بصورة صحيحة وكبناء فالحياة شرط للإرادة والوعى بصفة عامة ،

فالعلاقة التلازمية بين الإنسان والطبيعة ـ والتى قد تفسر فى بعض الأحيان بأنها زيف فى الكوزمولوجية الكونية للبشر ـ يمكن تفسيرها وحلها بواسطة دور الإنسان الفرد .

ـ النمو الفيزيقى ، وهو المجال الثانى الذى تتعرض فيه قضية الحرية والحتمية للتناقض وهى عملية ليس للحرية سيطرة عليها ربما على الإطلاق ، فالنمو ليس من صميم عملى كفرد ، ولكنى أعرف النمو كحقيقة قاطعة . فحقائق النمو يمكن تصورها على أنها تصور وراثى نشوئى تطورى جيناتى ، ومعها نمو الشخصية ، ومحدودية العمر وهى كلها جوانب للحتمية أو الضرورة التى ما على الحرية سوى الإذعان لها .

ـ النشأة أو الميلاد : وإذا كانت الحرية محدودة بالحياة كبناء ونمو ، فهى أيضا محدودة بالنشأة والميلاد طالما أن كل مخلوق متأمل ومفكر *Cogito* ليس لديه سيطرة على أصله ، فالميلاد ظاهرة لايمكن للوعى أن يدركها وبما أن الميلاد والوراثة عمليات تسبق الفرد فإن ـ حالة الموافقة أو القبول إنما يتم تقديمها كعامل وما على الحرية سوى الإذعان بالموافقة والقبول .

٤ ـ الحرية والطبيعة ومبحث ذاتية الجوهر :

وهنا وعلى حد قول بول ريكور نكون قد إقتربنا أكثر فأكثر من محتوى وموضوعات الأنثروبولوجيا الفلسفية والتى هى فى نظره كل مايمكن التعبير عنه بالإتجاهات والخصائص المادية لسلوك الإنسان بما فى ذلك الإرتباط القائم بين لغة الأسطورة ودلالاتها الرمزية القادرة على تجسيد الأحداث والأفعال والأفكار والتصورات والتأملات العقلية ، ولكن السؤال الهام ليس فى محتوى أو مضمون الأنثروبولوجيا الفلسفية بما فى ذلك مايقره علماء الأنثروبولوجيا التقليدية حول أنثروبولوجيا الجسم وفلسفة ومغزى وجوده ، وإنما السؤال الأساسى يكمن فى [illegible]كة محتوى الطريقة المنهجية الخاصة بالبحث فى تلك المسائل الجوهرية والتى [illegible] عنها ادمند هوسرل بأنها بحث فى مثاليات وجوهر *eidetic* الأشياء ، ومن

بينها البحث فى جوهر إرادة الإنسان وحريته ، والعمل على حل قضية الثنائية الأبستمولوجية (لنظرية المعرفة) القائمة على ثنائية الجسم *Body* والعقل أو الذهن *Mind* .

والجسم كجانب مؤسس للمعرفة مثله مثل العقل لأنه على أساس الجسم العقلى يتم تكوين القرارات وإصدارها ، فالحرية والإرادة الإنسانية لنشاط وسلوك الإنسان تتشكل بواسطة الجسم (أى الطبيعة) ، وهنا يكون الجبر مرتبطا بالإختيار ، كما هى ثنائية الجسم والذهن ، ومن ثم يكون بول ريكور قد إحتوى الحرية داخل الطبيعة ، أى الإرادة داخل الجسم ، وفى ضوء ذلك الشمول يمكن إدراك النظرة الكونية أو العولمية *Global* تجاه الإنسان الجوهر ، مع الأخذ فى الإعتبار حتى أنه مع هذا التصور الشمولى لنشاط الإنسان فإن الحرية محدودة وفقا لنشاط الفرد وتفرده الذاتى عن غيره من أقرانه من بنى البشر ، وعليه فإن الحرية البشرية لايمكن إخضاعها ببساطة لضرورة الجسم أو الطبيعة الفيزيقية ، فخبرة الإنسان الواقعية على التحطيم والتدمير والشر تجعله يتحرك نحو السمو مما يعبر عن بعض التناقض الواضح والحيادى ـ إلى حد ما ـ بين قضية الحرية والجسم أو الإرادة والطبيعة ، فالإنسيابية داخل إنسانية الإنسان وإدانة الإنسان الظاهرة للشر هى التى تدعم قضية الحرية فى أفعاله ونشاطاته ، وهنا يأتى دور الأنثروبولوجيا الفلسفية التى تسعى وتهتم بالفهم الكامل للحرية (فى ضوء خاصيتها الكونية أو العولمية) .

ثانيا ـ الحرية والقابلية للخطأ : *Freedom and Fallibility*

إن حركة الإنتقال من الوصف إلى حالة مبحث مثالية وجوهر *Eidetic* الأشياء إلى الوصف الوجودى هى الحركة من القيود التى تفرضها الطبيعة أو الجسم الفيزيقى للإنسان إلى قيود وحدود تفرضها القابلية للخطأ ، من خلال الخاصية المتجسدة لحرية الإنسان والمتضمنة فى حصيلة معلوماته اللغوية والإتصاليه وحدودها ، ومحتوى التحليل الوجودى لدى الإنسان ، فهى منهجيا

تنصب على وجهة النظر الكلية للإنسان أو عولمة الإنسان " وكوننتة " وتعامله مع مبدأى السمو والخطأ والخير والشر ، وقد فسر ادموند هوسرل وأتباعه وفقا لطريقته الفينومينولوجية نشاط الإنسان بأنه تشييد وإقامة للتأمل والإنعكاس *Reflection* الصادر عن الجسم ، حيث يقوم الجسم بوظيفة الإعلان والإعلام بالإرادة ، ولكن هل هذا التأمل كليا وشموليا أم مجموعة من التأملات تلك قضية أخرى إنشغل بها بول ريكور ، ووجد وفقا للوصف الوجودى أن هناك فرضا بأن الإنسان هو الذى يعمل كأساس فلسفى للتأمل المتميز ذو الدلالة ، ويمكن للأنثروبولوچيا الفلسفية فى تصورها لعولمة الإنسان أن تنظر إلى موضوع الحرية والطبيعة فى ضوء إهتمامها بمجال أخلاقيات الإنسان ودرجات سموه وتجنبه من الوقوع فى الخطأ ، وهو أمر لا يتوقف عند وعى الإنسان بالحرية ، ولكن من خلال خبرة الإنسان ذاته .

ويظل هناك سؤال هام مؤداه : كيف يكتشف الفرد الحرية كجانب مكون للوعى الإنسانى؟ ويجيب بول ريكور على هذا السؤال بقوله أن الحرية لا تفهم إلا فى علاقتها التبادلية مع الشر ، والتى هى رؤية أخلاقية عن هذا العالم ، وهذا التفسير يعتبر المفتاح للطريقة التى يجب أن نتناول بها موضوعات السمو والخطأ وطبيعة العلاقة التبادلية بينهما .

ومن هذا المنطلق تهتم الأنثروبولوچيا الفلسفية بموضوع الحرية فى علاقته بدرجات القابلية للخطأ من جانب الإنسان ، لاسيما الإنسان الخطأ أى الإنسان اللامعصوم *Fallibleman* وهو الذى يستعيد معنى القابلية للخطأ والبحث عن موقعها فى خبرة الإنسان التأملية عن ذاته ، وهى المهمة التى يتم تنفيذها فكريا وأنثروبولوجيا تحت مسمى الحرية ، وعموما تكون حركة الإنسان اللامعصوم نحو الحرية محكومة بثلاث جوانب هى : درجة المعرفة ، ومستوى الفعل ، ودرجة حدة الوعى والإدراك . ويدعم القول السابق مايلى :

١ ـ النزعة الإفتراضية : *Hypothetical*

وهى القائمة على أساس أن الإنسان بطبيعته هش وعرضه لاقتراف الإثم ، وأنه ليس هناك تطابق للإنسان مع ذاته ، وهى تلك الفرضية التى توضح أن القابلية للخطأ هى خبرة معرفية ، وعمل وشعور داخل الشعور .

٢ ـ نظرية المعرفة والقابلية للخطأ :

إن مستوى المعرفة أو مايعرف فلسفيا بالإتجاه التكوينى الأبستمولوچى لدى الإنسان يتوقف على مدى عملية التأمل المعرفى والخبرات بصورة جادة ، ومن ثم يمكن فهم الخاصية التكوينية لمستوى الوعى ، وهى حالة المراحل الأولى للفكر والتكوين الفكرى التى تحدث عنها علماء الأنثروبولوجيا الأوائل أمثال إدوارد بيرنت تايلور ولويس مورجان ، وليفى بريل ، ومارسيل موس ، وكلود ليفى ستروس وغيرهم ، وعليه يكون مستوى الفعل والممارسة مطابقا لمستوى الوعى والإدراك ، وأن محدودية الفعل والنشاط تتوقف على محدودية درجات الوعى ، وهنا يصبح محكوما على الفكر إما بالإنشطار وإما بالإنغلاق ، حيث تكون البداية للفكر ووفقا لوجهة النظر الأنثروبولوچية " بالإدراك " ، فالإدراك هو شئ قد تبدأ به المعرفة (الأبستمولوجية) ، ولكنه شئ آخر أن تفهم أو تقوم بالتأمل لما أدركت ، وهنا نكون فى حاجة إلى الوظيفة ذات الدلالة والمعنى للغة ، وقد ساير بول ريكور ، ايمانويل كانط *Kant* فيما يسمى " بالتركيب المتسامى للخيال البحت " وهو أن يطلق الإنسان خياله الحسى من أجل الإدراك مثال ذلك ، فأنت حين تدرك شجرة فإنك تتلقى سلسلة من البيانات الحسية حول : شكلها ، ولونها ، وأوراقها ، وثمارها ، وإرتفاعها ، وسمك فروعها وأغصانها ، وفوائدها .. وهكذا ، وهى أمور تأخذ الإنسان إلى كشف عالم الثنائية المحدود واللامحدود ، وتبقى أمام الإنسان فى بناء فكره الفلسفى الأنثروبولوجى أن يفرق بين ما يرى ويدرك ، وبين ما يفهم لفظيا ويدرك بمستوى الفهم والدلالات اللغوية من خلال الخيال .

٣ ـ الفعل والقابلية للخطأ :

بينما يسعى المفكر الفلسفى فى مجال الأبستمولوجى لإدراك مشكلة الأساس العقلى والفكرى للوعى نجد أن الأنثروبولوجى الفلسفى ينظر إلى الأبنية الذهنية للإنسان ومدى قابلية الإنسان للخطأ من خلال الفعل والممارسة ، وهى لاشك خاصية التفاوت والقفز من المعرفة إلى الفعل والإنتقال من النظرى إلى العملى ، وهو ما يؤكده بول ريكور فى كتابه بعنوان الإنسان الخطأ *Fallible Man* وهى النواحى العملية المرتبطة بشخصية الإنسان ، ولكن مع ذلك فإن بول ريكور لم يتجاهل مبدأ الخيال المتسامى (١٦) . الذى يسعى من خلاله الإنسان إلى تكوين " الإحترام " وهو ما آكد عليه بول ريكور نفسه فى كتابه بعنوان الحرية والطبيعة *Freedom and Nature* حيث يرى أن الشخصية العملية هى ضرورة شديدة الإلتصاق " بالإرادة " فشخصية الإنسان وفقا لهذا الوصف هى حدوده وقدره (١٧) . وإن كان فى هذا القول شئ من التحفظ ، لاسيما وأنه لا يجب النظر إلى الشخصية على أنها شئ مطلق ، أو حالة من الأنغلاق ، وإنما الشخصية هى أيضا حالة من الإنفتاح الذى يجعل الحرية ممكنة .

٤ ـ الشعور : *Feeling*

هنا تكون كلمة الشعور أو الأحاسيس أو التأثر ذات إختلاف إلى حد ما فى طبيعتها مع كلمة الشعور أو الوعى *Consciousness* ، فهى تشير إلى عدُ تنازلى فى أحاسيس ورقة مشاعر الإنسان فهو يسمو من حالة الشعور بصفة عامة (وهى الوعي) إلى حالة الشعور بالذات (وهى المشاعر والأحساسيس *Fellings*) أو بمعنى آخر يتدرج الإنسان من النظرى إلى العملى إلى العاطفى ، وهنا يتطور فكر الأنثروبولوجيا الفلسفية ، ويصبح ذا تعبير أكثر داخي *Inward* ، وأكثر رقة بل وأكثر قابلية للإنكسار أو الإنشطار *Fragile* لأنه إنتقل مع المشاعر إلى مجال القلب ، وهنا نقترب من تفسير فكر الإنسان ومشاعره المرتبطة بمبادئ اللذة والألم ، واللذة والسعادة والفضيلة والرذيلة ، الخير والشر ،

وهنا يصبح الإنسان مهيئا أنثروبولوجيا للتعامل مع القضايا الغيبية والأسطورية والرمزية ومدى دلالاتها الوظيفية فى ضوء الفكر الفلسفى الأنثروبولوچى ، والذى يسعى إلى تحليل المكون الأساسى للخبرة التى يشعر بها الإنسان ، ومدى الصلة فى تركيبه وتكوين وتشكيل المعرفة لديه ، وبين النشاط أو الفعل ، ومدى المساحة الفاصلة بين المعرفة والفعل والتى تعرف بخليط المشاعر أوالأحاسيس .

ثالثا ـ الأنثروبولوچيا الفلسفية ورمزية الحرية واقتراف الخطيئة :

يتضح من كل ماسبق أن موقف المفكر الفرنسى بول ريكور ***Paul Ricoeur*** ومن خلال بحثه فى مضمون الأسطورة والرمز واللغة تجاه الظاهرة التأملية وقد تم تحليله وتفسيره من خلال وجهتى النظر التأملية العقلية وحرية الفعل ، ممارسة الإنسان لسلوكياته فى إطار ومضمون الخبرة السابقة لديه من رصيد المعرفة المختزن ، وهو الأمر الذى تسعى الأنثروبولوچيا الفلسفية إلى تبنيه كمبحث فكرى / عملى يحقق " عالمية وجود الإنسان المفكر " وفى ضوء مايمكن أن يطلق عليه بالأنثروبولوچيا العولمية التى تستند إلى الدعائم الأربع المتمثلة فى الأسطورة ***Myth*** الرمز ***Symbol*** والحرية ***Freedom*** والإنسان سواء المعصوم أو اللامعصوم ***Fillible Man*** من إقتراف الخطيئة .

وعليه تصبح الأنثروبولوچيا الفلسفية فى حاجة ماسة إلى الإستعانة ـ وفقا لوجهة نظر بول ريكور ـ بمبحث مثالية الجوهر ***Eidetic Method*** من أجل تحقيق فهم جيد للحرية المعلنة والمقننة والمشروعة ، والمحدودة فى نفس الوقت من قبل الطبيعة البشرية والإلهية ، كما تسعى الأنثروبولوچيا الفلسفية إلى الإستعانة بمبحث الطريقة والمذهب الوجودى والذى يقدم فهما للحرية المعدلة فى ضوء القابلية للخطأ ، ورغم هذا التوجه المنهجى المذهبى فى البحث فى القضايا الفلسفية التى تهم الإنسان الأنثروبولوجى إلا أن بعض المفكرين الأنثروبولوجيين يرون بأن التعامل مع الحدود الواقعية للحرية لابد وأن يتم من خلال تفسير " الخطيئة والشر" فهى مجالات شديدة الغموض من جهة ، وهى غنية فكريا وعمليا من جهة

أخرى لارتباطها وإتصالها بمسارات الرمزية السحرية والدينية ، وهو الأمر الذى جعل بول ريكور يخصص جانبا كبيرا من كتابه بعنوان " فلسفة الإرادة " لتوضيح الرؤية العالمية (العولمية) للأنسان فى ضوء الظاهرة التأملية والأخذ فى الإعتبار رمزية الأسطورة والإنسان فى إطار لغة الرمز والأسطورة ، وهى اللغة ذات المستوى الخاص جدا عند بول ريكور والتى أشار إليها فى تعريف إجرائى بأنها لغة الإعتراف *Avowal* والإقرار والمجاهرة بمضمون الوعى أو الشعور الأسطورى / الرمزى ، ولهذا يرى بول ريكور أن هذه اللغة الإتصالية لهذا النوع من بنية الفكر الإنسانى / البشرى هى لغة قد تكون سابقة عن لغة الفكر الفلسفى الحديث والمعاصر ، بل والفكر الفلسفى الغابر فى القدم ، وعلى هذا الأساس نجد أن بول ريكور يحاول أن يشيد لنا إطارا بنائيا من الفكر الإنسانى مدعوما بوحدة العقل والوعى والشعور الإنسانى فى ذاته وفى كينونته ، القابلة للخطأ ، وفى حدود التعامل مع الإمكانات ***Possibilities*** المتاحة فقط .

ويشير بول ريكور إلى ثلاثة أنواع من اللغة الإتصالية فى حالة تفسير الخطيئة أو الشر ، وهى :

١ ـ اللغة الأساسية المرتبطة بالرموز ، وهى الأكثر جوهرية ومركزية للتعبير عن الخطيئة أو الشر ، كالغة التمرد والعصيان ، والكفر ، والزنا ، والسرقة ، والكذب ... وغيرها ،

٢ ـ لغة التفسير الرمزى فى الأسطورة والتى تعتمد على الرموز الجوهرية داخل الأسطورة ، مثل حالة جبروت الأب فى أسطورة أديب .

٣ ـ ثم تأتى بعد ذلك لغة التفسير الفلسفى والتى تعتمد على التأملات ***Hermeneutics*** أساسا فى تناولها لمشكلة الشر .

ولهذا يتضح أن الرمز هو أكثر العناصر تعبيرا عن الشعور بالخطيئة والشر ، فمناقشة التوجه إلى أسبقية الرمز على أنه الأصل ، تعنى أن المناقشات الفلسفية العادية إنما تكون مجردة وتأملية للغاية ، ولا تستطيع تحقيق التعليل

الأساسى الذى يعطيه الإعتراف الدينى مثلا عن الشر والخطيئة فى لغة الرمز ، وعليه فإن التفسير بواسطة الإستعانة بالتعبيرات التلقائية فى مثل تلك الحالات قد يكون أجدى من الإستعانة بالتعبيرات التأملية ، كما ركز بول ريكور من جانبه على ضرورة البحث فيما وراء التعبير العقلانى الغربى الزائف للكشف مباشرة عن المواجهة فيما بين الشعور أو الوعى مع الشر ، وأن مبدأ الخطيئة الأولى أو الأصلية هو مبدأ عقلانى فى مظهره فقط . وقد إستند هذا التفسير لأصل الشر والخطيئة إلى التعاليم التى سادت خلال الفترة الغنوسطية *Gnostic Period* (المذهب الغنوسطي) عند النصارى الأقدمين والذين كانوا يعرفون بأصحاب مذهب عارفين ، وهو مذهب مسيحى يعتقد بأن المادة شر وبأن الخلاص يأتى عن طريق لمعرفة الروحية ويرون بأن الخبرة الإنسانية السابقة ــ والتى تشكلت سابقا ــ هى نفسها التى تسهم فى التفسير ، بل هى وحدها القادرة على تنمية الشعور بالوعى والتفرقة ما بين الخير والشر ، والصلاح والخطيئة وكل ذلك فى ضوء مبدأى الحرية والإرادة ، وهنا تتعرض الحرية كمبدأ لأكثر إختباراتها الراديكالية *Radical* (الأصولية) ، وفيما يلى عرض لبعض النقاط التى تشير إلى تلك الإختبارات :

أولا ــ الرمز والإرادة المستسلمة :

جاء من خلال إهتمامات بول ريكور بالبحث عن الرمز*Symbol* فيما أسماه بالأنثروبولوچيا العولمية *Global Anthropology* أن رمز الشر وجد بسبب الإرادة المستسلمة *The Servile Will* والتركيز على التحليل الفينومينولوچى *Phenomenological* أى المحسوس *Perceptible* ذو الصلة بالظواهر الطبيعية *Natural Phenomena* القابلة للملاحظة والمشاهدة لا على أساس التأمل فى ذاته ، لأنه حتى فى مبدأ قابلية الإنسان للخطأ ، فإن مبدأ الإرادة المستسلمة يكون متوفرا لديه ولكن بطريقة غير مباشرة وتلك الحقيقة وحدها تبرر الدراسة الرمزية التى تنقل الفرد من إمكانية القابلية للخطأ إلى الخبرة الحقيقية (أو الفعلية) للخطأ المعترف به لغويا ، ولفهم هذه النتيجة حول رمزية الظواهر

المحسوسة ، علينا من الضرورى أن نتناول الرموز نفسها فى هذا السياق كما يلـى :

١ ـ بقعة أو وصمة الشر *Stain* أو " التلطخ " بالخطيئة والذنب ، وهنا تكون الرموز أكثر مناسبة للإعتراف بالشر ، حيث يكشف تحليل " تلطخ " الإنسان بالذنب عن سمتين الأولى موضوعية بأن التلطخ بالذنب شئ يسبب الفساد أو العدوى أو التلوث ، وحتى فى التعبير اللغوى نفسه *Stain* يأتى عكسها لغويا *Stainless* بمعنى الصافى أو اللامع أو غير المتلطخ وقد إنتقل هذا المعنى إلى وصف بعض المعادن لشدة لمعانها وصفائها وغير قابليتها للصدأ أو التلطخ بالتلوث، وتلك السمة تشير إلى المذنب كالزانى والفاسد والكاذب والكافر أو الملحد وغير ذلك .

أما السمة الثانية للتلطخ فهى ذاتية وهى تشير إلى " الذنب " نفسه أو الشر نفسه كشئ مرعب ومخيف كالكفر والإلحاد والزنا ، والسرقة والنجاسة وغيرها ، وعندئذ يأتى المفهوم الرمزى ليشير إلى الخاصية المزدوجة للتلطخ (موضوعيا وذاتيا) وعليه لابد من تنقية النفس من الخوف والرعب التى ترمز له هذه البقعة .

٢ ـ الخطيئة *Sin* حيث رمزية إقتراف الإثم أو الذنب ذات علاقة قديمة بالخطيئة ، وبغض النظر عن المفهوم التاريخى لإقتراف الإنسان للذنب فإن الخطيئة موجودة كونيا ، وأن الإنتقال من النجاسة أو التدنس *Defilement* إلى الخطيئة أمر مستمر ، وقد يكون غير مستمرا (متقطعا) وقد نظر بول ريكور إلى الخطيئة بأنها حالة من تمزق العلاقة التعاقدية بين الإنسان وخالقه ، ولهذا فالخروج عن الإيمان بالوحدانية أو الإله الواحد *Monotheistic* يعرض الإنسان للعقاب الالهى ، وهكذا تظل رمزية الخطيئة موضوعيا وذاتيا أمرا لا نهاية له طالما وجد الإنسان بمفهومه الأنثروبولوچى (العملى) .

٣ـــ الذنب *Gult* يشير الذنب إلى كمية متصلة من النقاط الخارجية والداخلية التى تربط بين كل من التلطخ والخطيئة والذنب ، وقد وجد بول ريكور أن

الذنب يعد من أكثر النقاط داخلية (فى نفس الإنسان) ومن أكثرها راديكالية (أصولية) أيضا ، فالنجاسة تعبر عن مواجهة الإنسان للشر ، وبذلك يتأكد أسبقية الشر عن مواجهة الإنسان له ، كما أن الخطيئة لدى الفرد تعبر عن نفس فى صورة " الشعور غير السعيد " وهكذا عندما يرتبط الذنب بالإعتراف بالشر فإن الأمر يرتبط مباشرة بتطبيق وتطوير " قانون العقوبات " وهنا يرى بول ريكور أن تعزيز الذنب يعد بداية لدخول الإنسان فى دائرة الإدانة ، والتى قد تسد بالإستناد إلى تبريرات " الضمير " وهنا يتم فهم المعنى الكامل للقانون والذنب أمام القانون .

وهكذا فتحت المبادئ السابقة المجال للمناقشة فى إمكانية وصول الفرد بدأ الحرية الحبيسة *Captive Freedom* أو المقيدة أى الأسيرة ، وهى قضية كبرى للبحث فى الحرية فى علاقتها بالإنسان الأنثروبولوجى العملى ، ولكن رغم عدم وضوح الفكرة العقلانية للإرادة *Will* والحرية ، إلا أن هناك دلالات أنثروبولوجية متضمنة فى بعض الرموز ذات الأبنية المتشابهة ، وهى التى تلخص البناء الأساسى لرمزية الشر فى إرتباطه بالإرادة المستسلمة أو الحرية الحبيسة فى ضوء الخصائص التالية :

١ ـ إن الخطيئة أو النجاسة توضح أن الشر ليس عدما *Annihilate* ، وأنه واجب الوجود لأنه شئ يتم عمله وتحقيقه سواء من المنظور البشرى أو الآلهى.

٢ ـ يُنظر إلى الشر على أنه شئ يأتى للإنسان من خارجه ، أى أنه شئ مقدم الوجود على وجود الإنسان ، وبذلك يكون للشر بناء يشارك فيه الإنسان .

٣ ـ ينظر إلى الشر على أنه شئ معدى *Infects* أى مفسد نظرا لأنه ظاهرة معدية .

وتتضح رمزية تلك الخصائص من خلال النظر إلى الإنسان ومدى قابليته للخطأ ، نظرا لأن الشر هو الذى يحيط بحرية الإنسان ، وهو الذى يعترض

الإنسان ويفسده ، وبالتالي يحد من قدرته على الخير الذى قد يختاره ، وقد نظر علماء الأنثروبولوجيا الفلسفية إلى الأساطير باعتبارها تمثل الفكر البدائى للرموز بأنها ذات أهمية بالغة فى تفسير الحرية وعلاقتها باقتراف الشر .

رابعا ـ الأنثروبولوجيا الفلسفية والأسطورة :

يخطئ من يظن أن الأساطير ماهى إلا حواديت وحكايات تروى من الناس إلى الناس دون هدف من ورائها سوى قطع الوقت والقضاء على وقت الفراغ بالتسلية ، كما يخطئ من يظن أن الأساطير ماهى إلا خرافات وخيالات غير حقيقية لايستجيب لها سوى البلهاء والدهماء والأطفال ، ولكن واقع الأسطورة وتاريخها ينبئ بغير ذلك كله ، فهى تراث إنسانى خالد قامت على أساسه آداب وفنون عالمية، ويأتى ذلك فى ضوء مرافقة الأسطورة للإنسان منذ نشأته فى الكون ولاتزال ترافقه حتى الآن ، وأيا كانت الأسطورة بألوانها المختلفة ونماذجها المتباينة مابين الآلهية ، أو البطولية أو الغرامية أو الفكاهية إنما تمثل جزءا من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلا بعد جيل ، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبا حيويا فى تكوينهم الثقافى وحياتهم الإجتماعية (١٨) .

وأغلب الأساطير تدور حول إقامة وإنشاء حياة أفضل للإنسان ، وهى محاولات ظهرت ونشأت مع نشوء الإنسان وتطوره ، يفسر بها أهم المشكلات التى واجهته فى بدء حياته على الأرض وعلى رأسها مشكلة خلق الكون ، ويحاول بواسطتها أن يجتاز الفجوة والهوة بين العالم الذى يعيش فيه والكون الغامض الذى يحيط به ، فيحاول عن طريقها الوصول إلى معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله ، ولماذا يقع الشر ؟ وكيف ينتصر الخير ؟

وإذا كانت الأسطورة تحوى كما وحجما لا بأس بهما من الغموض والأسرار التى تكتنف معنى وإستخدام مصطلح الأسطورة *Myth* والحكاية الأسطورية *Legend* وأيا كانت علاقتها بالحقيقة التاريخية أم أنها تتسم بطابع أسطورى غير جدير باليقين ، إلا أن استخدامنا لمفهوم الأسطورة وتحليلها أنثروبولوجيا

وفلسفيا إنما ينطوى على معايير وظيفية لايمكن إنكارها أو التغاضى عنها ، ذلك أن الأسطورة إنما هى نتاج المخيلة الإنسانية *Human Memory* ، تنبثق من موقف محدد لتؤسس شيئا ما ، ومن هنا جاء الإختلاف فى وجهات النظر حول تعريفها ونماذجها المختلفة والوظيفة أو الوظائف التى تؤديها .

ولما كانت الأسطورة أكثر إرتباطا بتفسير العلاقة بين الشر والخير ، فقد جاءت مناقشات بول ريكور *Paul Ricoeur* حول تعريف الأسطورة باعتبارها فكرا بدائيا للرمز إنما تتضمن أبعادا وأنماطا متباينة من المناقشة الرمزية تتفرع بدورها إلى قضايا أساسية أكثر شمولية من مضامين الرمز ذاته ، ولهذا يترتب عليها تحليلات وتفسيرات أكثر إكتمالا وشمولية للقضية الأساسية عنده ـ ريكور ـ وهى العلاقة بين الحرية والشر ، ولهذا ينظر ريكور إلى تعريف الأسطورة بأنها تتضمن القضايا والأسس التالية :

١ ـ إن الأسطورة تحكى وتروى فى سياق تاريخى يتحدد من خلاله مفهوم الإنسان والإنسانية ، فيصبح كل منهما نموذجا تاريخيا لحالته ودالته .

٢ ـ إن الأسطورة تحكى قصة أو رواية تجمع بين الخرافة والتاريخ .

٣ ـ تحاول الأسطورة شرح الأحاجى *Riddles* وتفسير لغز *Enigma* التاريخ الإنسانى ، وأن يوضع داخل القصة أو الحكاية شرح وتفسير للمشكلة أو القضية الخاصة بالإنسان .

هذا وقد وقف بول ريكورمنذ البداية موقفا حاسما فى نظرته إلى الأسطورة ووظائفها والتى نظر إليها بأنها لاتقل عن الرمز فإنها تخبرنا بالفكر المتضمن فى الذاكرة البشرية أو الإنسانية ، وهو بذلك يقف موقفا معارضا من ميرسيا إلياد *Mircea Eliade* الذى يرى أن الأسطورة تتضمن موقفا كاذبا وغير حقيقى *Falsity* ، أما ريكور فينظر إليها بأنها حديث ذو معنى ، فالأسطورة فى رأيه ، ومن خلال النمو الفكرى (التأملى) يمكن لها أن تتأكد وتستمر وأن تفسيرها

المناسب يجعلها فى أفضل صورة من مجاورة المعرفة الروحية (١٩) . وهذا التجاور - فى رأى ريكور - أصبح بمثابة الأساس الأخلاقى *Axiological* لتنظيم رؤى الأسطورة فى سياق تاريخ الفكر الفلسفى الغربى ، والذى ينصب إعتراضه الرئيسى لتفسير الأسطورة بأنها تتعارض مع العقلانية التى تم إكتشافها منذ مرحلة ماقبل السقراطيين *Pre - Socratics* فى الغرب ، ومن هذه المرحلة التاريخية فصاعدا فإن الأسطورة تقدم صورة مزيفة للعقلانية ، وهو النقد الذى لم يقبله بول ريكور لأنه من وجهة نظره هو بمثابة نقد إفتراضى ، وهو خطير جدا ليس للأسطورة فحسب ولكن للمعرفة الروحية أيضا ، ومايريده ويهدف إليه ريكور هو " فك " الأسطورة عن المعرفة الروحية ، وأن الأسطورة عنده تعمل بمثابة "راوى" للمعرفة(٢٠) .

ودراسة الأسطورة عند بول ريكور لاتتركز على دراسة الأسطورة بصفة عامة ، وإنما ينتقى أساطير ذات خصائص معينة لها علاقة بمفهوم الشر فى حياة الإنسان فيأخذها بمثابة نماذج رمزية يحدد فى ضوئها أصل الشر وتاريخه وغايته (نهايته) . وتتحدد تلك الأساطير فى أربعة إنماط - عدة - هى : أساطير الخلق *Creation* ، والسقوط أو الفناء *Fall* ، والتراجيديا *Tragedy* ، الطرد والنفى أو الأبعاد *Exile* ، فأساطير قصة الخلق تسعى إلى تفسير أصل الشر ، الممتد من أصل الأشياء ، حيث تبحث هذه القصة فى حقيقة الأساطير ، وحقيقة خالق الأساطير نفسه (الإنسان) منذ نشأته ، حيث عاش أول أمره حياة بدائية محاطة بمئات الأخطار والأسرار ، فكانت أعاجيب الكون التى لم يستطع إدراكها إدراكاً علميا ، فتوهم لها تفسيرا ، وتخيل لها أصولا ووقائع يرتاح إليها فتزول حيرة نفسه ، ومن هنا كانت أقدم الأساطير التى وضعها الإنسان هى أساطير الخلق ، وسوف نعالج موضوع تاريخ الأساطير وأنماطها أنثروبولوجياً فى عمل علمى آخر ، حيث لم يكن هدف العمل الذى بين أيدينا والخاص بالأنثروبولوجيا الفلسفية: وبحثها فى الحرية وإرادة الإنسان هادفا لهذا الجانب من التفصيلات -

أما أساطير السقوط ـ كما يراها بعض علماء الغرب فى سقوط آدم ـ فتشير إلى الأحداث اللا عقلانية فى تاريخ الإنسانية ، أما أساطير التراجيديا فتشير إلى الذنوب والأخطاء باعتبارها ـ فى نظر ريكور ـ غير مترادفة مع الفعل اللاعقلانى أو مع الحقيقة الواضحة للوجود ، وعليه فإن علاقة الذنوب والأخطاء بالحرية هى علاقات متزامنة فى ضوء الضرورة ، وأخيرا يشير ريكور إلى أسطورة الروح المطرودة ***The Myth of exiled Soul*** والتى تفصل الروح عن الجسم وهى الأسطورة التى انشغل بها التفكير الإنسانى ، وعنها نبعث فكرة الثنائية فى البحوث الأنثروبولوجية فركزت على الرؤية البنيوية للإدانة الآلهية ، كما جاءت فى سفر الخروج والطرد البابلى اليهودى من أرض كنعان إلى بابل كأسرى ، وغيرها من الأساطير ذات جوانب الثنائية ، فكل من الرموز والأساطير تهتم مباشرة بالحرية نفس إهتمامها بالشر ، وأن مناقشات الرمز والأسطورة تنصب على التفسير الكلى والشمولى لمبحث الحرية والإرادة ، وهو فى نهاية الأمر دراسة للإنسان أو الفرد الذى يسود ويسيطر على كل موضوعات الأنثروبولوجيا الفلسفية.

ـ المراجع والهوامش :

(١) للمزيد فى ذلك أنظر كل من :

ـ قبارى محمد إسماعيل ، الإتجاهات المعاصرة فى مناهج علم الإجتماع ، دار الطلبة العرب ، بيروت ، ١٩٦٩ ص : ٤٤٥ ـ ٤٤٧ .

- Karl Mannheim, Essays on Sociology of Knowledge, Routledge & Kegan Paul, London, 1962, PP. 7-9.

(٢) أنظر عرضا لتاريخ ونشأة الأنثروبولوچيا الفلسفية وإهتمامات البحث فيها وأهم روادها من علماء الفكر والفلسفة والإجتماع والأنثروبولوچيا فى :

- Philosophical Anthropology ; in Encyclopedia of Philosophy edited by : Paul Edwards, The Macmillan Company & The Free Pressm New York, 1967, Vol. 5, PP. 159 - 166.

(٣) للمزيد حول إهتمامات الأنثروبولوجيا الفلسفية بالجوانب البيولوجية للإنسان ، لاسيما ما يتعلق منها بأنثروبولوجيا الجسم ، ووحدة المخ البشرى .. أنظر فى ذلك :

- Stuart F, Spicher, (ed); The Philosophy of the Body, Quadrangle Books, Chicago, 1979.

(٤) من العلماء الدين إهتموا بشكل خاص بالتحليلات الفينومينولوچية للثقافة ، عالم الإجتماع الأمريكى بيتر بيرجر Peter L,Berger حيث إهتم بالنظرية الإجتماعية وعلم الإجتماع الدينى وعلم إجتماع المعرفة ، كما ركز فى دراساته على إظهار المعانى والرموز التى يشترك فيها الأفراد فى تفاعلاتهم الذاتية والموضوعية ، من خلال التنوع الكبير للنتاجات الثقافية المختصة بوصف الوقائع الإجتماعية بإعتبارها مواقف تكون البشرية فيها عملية مستمرة من الخلق والإبتكار وإعادة الخلق والإبتكار مرة أخرى ، وهكذا تتمثل صورة الثقافة بأنها إنسيابية ، أما صورة المجتمع فهو أزلى فى الحركة رغم تغيره ، وهو نفس الإتجاه الذى تشكل منهجيا لدى كل من ماكس فيبر M.Weber ، والفيلسوف الإجتماعى الأمريكى النمساوى الأصل الفريد شوتز ، والألماني يورجين هابرماس ، والإنجليزية مارى دوجلاس ، والفرنسى ميشيل فوكو ، والأمريكى تالكوت بارسونز خصوصا ما جاء فى مؤلفه الأخير بعنوان" بناء الفعل الإجتماعى " والنسق الإجتماعى " للمزيد أنظر فى ذلك :

- Robert Wuthnow and Others; Cultural Analysis : The Work of Peter L.Berger , Mary Douglas, Michel Foucoult and Jurgen Habermas, Routledge and Kegan Paul, London , 1984 (1987) .

(٥) عبد الله عبد الرحمن يتيم ، كلود ليفى ستروس : قراءة فى الفكر الأنثروبولوچى المعاصر ، الكتاب الشهرى للمشروع الثقافى الخيرى ، إصدارات بيت القرآن ، المنامة ، البحرين ، ١٩٩٨م ، ص ١٥٣ .

(٦) للمزيد حول الآراء والتصورات التى قدمها المفكر الفرنسى بول ريكور Paul Ricoeur لفلسفة الإرادة أنظر مايلى :

- Paul Ricoeur , " The Hermeneutics of Symbols and Philosophical Reflection" International Philosophical Quarterly, II, No.2 1963.

- --------------- : Freedom and Nature: The Voluntary and the Involuntary, Trans. by:: Erazim V, Kohak, Northwestern Univeristy Press, Evanston, 1966 .

- ----------------- : The Symbolism of Evil, Trans. by, Emerson Buchanan, Harper and Row, London, 1967.

ـ بول ريكور Paul Ricoeur مفكر فرنسى معاصر ينتمى إلى مدرسة التفسيرات أو التأويلات الثقافية Cultural Hermeneutics للتراث الفينومينولوچى ، كما يعد واحدا من إتباع المدرسة الفرنسية الظاهراتية ، ينتمى فى فكره إلى مدرسة فلهلم ديلثى Wilhelm Dilthey وادموند هوسرل Edmund Husserl له مواقف مضادة للتفسيرات الماركسية والبنيوية ، والفرويدية ، وربما كان ذلك راجعا لتمسكه بمذهبه البرتستانتى ، والذى يجعله يفسر الثقافة من منظور غربى ، ويرى أن التراث الثقافى والحضارى يعيش فى ضمير المفسر ، ولكنه يتساءل : من هو المفسر ؟ وماهو الشئ المفسر ؟ وماهو دور الذاكرة والخيال فى ذلك ؟ وإن كان ريكور يعطى أهمية منهجية للذاكرة وماتحمله عن ماضى الثقافة ثم إسترجاعه عند الحاجة ، أما الخيال فيأتى فى المرتبة الثانية ، وربما قد يكون لا قيمه له عندما لا يحقق فائدة منهجية .

(٧) إتخذت المعرفة أو الأبستمولوجيا Epistemology على يد أنصارها طرقا ومذاهب عدة منها على سبيل المثال :

أ ـ الاستدلال المعرفى العقلى Rationalism ويمثله رينيه ديكارت وأنصاره فى إطار من الشك المنهجى ، على إعتبار أن الشك المنهجى عملية فكرية بحتة ، فأنا أشك إذن أنا أفكر ، أنا أفكر إذن أنا موجود ، وهنا تكون دائرة الوجود تابعة لدائرة الفكر ، أما إستدلاله على وجود الله فهو يقر بأن هناك كائن لا متناهى وأن هذا الكائن اللامتناهى موجود (الله) وهنا أيضا تسبق دائرة الفكر دائرة الوجود . أما عن اثباته المعرفى لوجود العالم فهو ينكر وجوده المادى ، ويثبت فقط أن وجود العالم ماهو إلا فكرة هندسية ذات امتداد هندسى ليس إلا .

وهكذا يوكد أنصار المذهب العقلي بزعامة ديكارت أن الوصول إلى الحقيقة لايتم إلا عن طريق العقل وعن طريق العقل وحده ، وأن كافة الأفكار والتصورات موجودة فطريا ـ أودعها الله ـ فى العقل منذ ميلاد الإنسان ،

ب ـ الاستدلال المعرفى التجريبى Empiricism وهو القائم على فلسفة الملاحظة والتجريب ، وأهم رواده جون لوك Locke وديفيد هيوم Hume وأنصارهما وهم يعارضون وجهة النظر العقلية فى الاستدلال المعرفى ويؤمنون بأن الحواس هى المصدر الوحيد للمعرفة وليس العقل ، وهاجموا فكرة فطرية التصورات الديكارتية ، وذهبوا إلى أن العقل يولد صفحة بيضاء خالية من النقش ، والخبرة والمعرفة ، وأن العقل يكتسب معارفه عن طريق الحواس ، وإن كانت هذه المدرسة الفكرية قد أخذت فيما بعد بالأفكار الحسية Sensations والأفكار التأملية Reflection واستخرجت منها أفكارا مركبة تجمع بين الحسى والتأملى .

ـ راجع فى ذلك :

- Locke, J., An Essay Concerning Human understanding, Landon , 1690 .
- Hume, D., An Inquiry Concerning Human Understanding, London, 1748

جـ ـ مذهب الظاهراتية Phenomenology والإستدلال الأيمانى فالظاهراتية مذهب فلسفى مصحوبا بهدف انطولوجى (وجودى) كونى وإذا كانت الفلسفة العقلية لاتعنى إلا بالفكر المجرد ، فالظاهراتية هى شكل من أشكال الوعى الصاعد إلى أعلى النشاطات العقلية والروحية فالتجربة الدينية لايمكن أن ترتبط بتلك الحقيقة كما يقدمها لنا المذهب العقلى ،وكان أول من إستخدم مصطلح الفينومينولوچيا هو العالم الرياضى الفلكى جوهان هنرى لامبرت Lambert فى كتابه " الأورجانون الجديد " ثم إستخدمه كانط Kant ليعبر به عن عالم الظواهر فى مقابل الحقائق ثم جاء ادموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) وطور من مفهوم الفينومينولوچيا فى كتابه بعنوان Ided, General Introduction to pure Phenomenology حيث أن الفينومينولوچيا عنده هى إقامة مذهب فلسفى وصفى يصف باسهاب وعمق كافة الموضوعات فى ماهيتها كما يراها المشاهد نفسه .

د ـ المعرفة الإجتماعية والأنثروبولوچية وهى محاولات علماء الإجتماع والأنثروبولوچيا من أجل تحديد مفاهيم المقولات الرئيسية فى حدود الإستدلال المعرفى برد تلك المقولات وارجاعها إلى مصادر وأصول إجتماعية فقد حدد اميل دوركيم Durkheim مقولات

الفكر بأنها إجتماعية المصدر ، وقد سار على نفس نهج أميل دوركيم المفكر الفرنسي موريس هاليفاكس Hallwacks أما كل من رادكليف براون -Radcliff Brown وايفانز بريتشارد Evans Prichard فيؤكدان أن مقولات الفكر تعود الى الحياة الإجتماعية والإرتباط بالنسق البنائي للمجتمع .

ـ راجع في ذلك :

- Durkheim. E. , Les Formes Elementaires de Lavie Religieuse, Paris, 1912.

- Radcliff- Brown, Andaman Islanders, Free Press, London, 1948.

(٨) جان بول سارتر Jean Paul Sartre فيلسوف فرنسي (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) إقترن اسمه بالفلسفة الوجودة والتى حدد معالمها في كتابه بعنوان : الوجود والعدم عام ١٩٤٣ وتركز فكرة الوجودية على أن الوجود نفسه بلا عقل ولا هدف ولا إتجاه ولا أفكار كبرى ، وهذا الوجود هو الحقيقة الوحيدة ، وهذا الوجود يجب على الإنسان أن يقبله ، ومنه يصنع حياته عن طريق الاختيار المستمر ، فالفرد إذا نظر إلى داخل نفسه فإنه يغير الذات التى يحاول فهمها ، وبفضل سلوكه وإستخدام قوة إرادته يقرر من يكون وماذا يكون ، أن لديه الحرية في الإختيار ، ولكن هذه الحرية مفروضة عليه .

فمفهوم الحرية عند سارتر ليس معناه أننى حر تماما ، ولكن معناه أننى حر في إختيار ما يعجبنى من الأفعال ، وأنا عندما أختار أن أقوم بشئ فإن هذا الإختيار صورة لحريتى ، وإذا اخترت أن تكون مهندسا وليس أديبا ، فأنت عليك أن تتحمل بعد ذلك نتيجة هذا الإختيار بنتيجته النجاح أم الفشل .

الإنسان إذن وحيد في الكون ، ليس له ما يعتمد عليه إلا نفسه (وهذا قول الوجودية الذى يتنافى بالطبع مع القيم الإيمانية بالله) والإنسان إذن مسئول عن نفسه ، لأن له عقلا يفهم به أغلال الحياة ، وله ارادة عاقلة يحطم بها هذه الأغلال ، كل مافى الطبيعة عبد مسير إلا الإنسان ، فهو وحده مخير ، وله عقل فهو مختار ، وهو إذن مسئول عن نفسه وعن أخوته في الإنسانية .

ـ راجع في ذلك :

ـ هنرى توماس ودانالى توماس ، أعلام الفكر الأوروبى ، الجزء الثانى ، ترجمة عثمان نويه ، دار الهلال ، فبراير ١٩٧٧م ، القاهرة .

- Jean- Paul Sartre, Being and Nothingness, Washington Square press, New York, 1966.

٩ ـ يشير مبحث ذاتية الجوهر أو المتفرد كما جاء في قاموس الفلسفة على النحو التالي:

Eidetic: (Ger. eidetisch) In Husserl: Of or pertaining to an eidos or to eide. Eidetic Existent : anything falling as an example within the ideal extension of a valid eidos, e. g, an ideally or purely possible individual, (Purely) eidetic iudgments: Judgments that do not posit individual existence, even though they are about something individual, Eidetic necessity : an actual state of affairs, so far as it is a singularization of an eidetic universality. E.g., This color has (This) brightness, so far as that is a singulariztion of all eidetically possible examples of color have brightness, Eidetic possibility: see eidos. Eidetic reduction: see phenomenology .

ـ تترجم كلمة Eidetic بأنها طريقة منهجية بحثية في مثاليات جوهر الأشياء ـ وهي من إجتهاد المؤلف ـ لاسيما وأن كلمة Eidetic لم نعثر لها على ترجمة عربية في غالبية المراجع والقواميس المتداولة ، وتعود الكلمة كما جاءت في القاموس الفلسفي إلى المفكر الألماني ادموند هرسرل Husserl والتي عبر عنها من خلال الوجود في ذاته ، والمثالية في ذاتها ، والعدالة في ذاتها ، الفردية في ذاتها ، تفرد الألوان في طبيعتها ، تفرد الظواهر في ذاتها ، لدرجة أن علماء النفس الألمان أمثال E.R. Jaensch قد إستخدموا المفهوم بمعنى Eidetic Imagery منذ عام ١٩٢٣ .

(١) للمزيد حول أراء ميرلو بونتي أنظر :

- M.Merleau- Pontym ; Phenomenology of Perception, Routledge and Kegan Paul, London, 1962.

(11) Pierre Thevenaz, What is Phenomenology? (ed.), James M, Edie, Quadrangle Books Inc., Chicago, 1962 ,

(١٢)سورين كيركجارد S.Kierkegaard (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) مفكر دانمركي الأصل ، يعتبر المؤسس الأول للوجودية المسيحية ، يرى أن الإنسان في سعيه للبناء المعرفي ينتقل من الحسي إلى الأخلاقي ثم إلى الديني ، وأن الإنتقال من الحسي إلى الأخلاقي قد يتم تلقائيا مقرونا بتطور الإنسان ونموه . أما الإنتقال من الأخلاقي إلى الديني ، فلا تتم إلا بواسطة قفزة عاطفية هائلة إلى المجهول ، يلتمس فيها الإنسان أن يكون بين يدي الله .. ويؤمن به .

ـ راجع فى ذلك :

على عبد المعطى محمد ، سورين كيركجارد : مؤسس الوجودية المسيحية ، دار المعرفة الجامعية ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ ، الاسكندرية .

(13) David M . Rasmussen, Mythic - Symbolic Language and Philosophical Anthropology: A Constructive Interpretation of the Thought of Paul Ricoeur, Martinus Nijhoff, The Hague, Nether Lands, 1971, PP 51 - 59.

والمعروف أن ديفيد راسموسين قد حصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة شيكاغو عام ١٩٦٨ وقام بالتدريس فى جامعات Drake والكلية الجامعية ببوسطن Boston College بالولايات المتحدة ، كما عمل لفترة رئيسا لتحرير مجلة التأويلات أو التفسيرات الثقافية .Journal Cultural Hermeneutics

(14) - Ibid, PP.87-91.

١ ١) أنظر فى ذلك :

- Paul Ricoeur, Freedom and Nature, Op, Cit, P.397.

(١٦) أنظر فى ذلك :

- Paul Ricoeur , Fallible Man , Translated by : Charles Kelbley, Henry Regnery, Co Chicago , 1965, PP.74-78.

(١٧) أنظر فى ذلك :

- Paul Ricoeur, Freedom and Nature, Op, Cit, P.86.

(١٨) سليمان مظهر ، أساطير من الشرق ، الألف كتاب الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الصحافة ، ١٩٩٧ ، القاهرة، ص : ٩ ـ ١١ .

ـ أنظر فى ذلك :

(19) Mircea Eliade, Myth and Reality, Harper and Row, New York, 1963, P,64.

(٢٠) أنظر فى ذلك :

- Paul Ricoeur, The Symbolism of Evil, Op. Cit., pp.164-171

ـ محمد حسين دكروب ، أنثروبولوجيا الحداثة العربية : منطلقات نقدية ، معهد الإنماء العربى ، بيروت ، ١٩٩٢ .

الفصل التاسع

تطبيقات المنهج التاريخى فى الأنثروبولوجيا *

- مقدمة

- الجذور التاريخية للأنثروبولوجيا

- تاريخ البحث الأنثروبولوجى

- الدراسات الأنثروبولوجية

---

* كتب هذا الفصل السيد الدكتور / مصطفى عمر حمادة مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الاسكندرية .

الفصل التاسع

تطبيقات المنهج التاريخي في الانثروبولوجيا *

تعتمد الدراسة في الأنثروبولوجيا على المنهج التاريخي للكشف عن تاريخ الثقافة ، كما تعتمد على هذا المنهج لتكشف عن طبيعة البحث الأركيولوجي (الأثرى) الذى يمدنا بالأدلة المباشرة لبناء الأحداث التاريخية (الترتيب التاريخي).

فالتوسع المستمر في البحث الأركيولوجي قد قلل من دور الأدلة غير المباشرة التي تمدنا بالمعلومات الحديثة في بناء تاريخ الثقافة ، وعلى ذلك فالمنهج التاريخي يعطي بعدا أساسيا في دراسة العمليات الثقافية .

ويرجع الإهتمام بالبحث عن الأصول التاريخية للثقافة وإنتشار الملامح الثقافية إلى القرن التاسع عشر ،وهو إهتمام ناشئ ـ إلى حد بعيد ـ من تصور العلماء للثقافة على أنها حصيلة النشاط البشرى ، وقبولهم بالتالى لفكرة إستمرار الثقافة عبر الزمن [١].

وقد إضطر العلماء إزاء النقص الشديد في المعلومات الأثنوجرافية المؤكدة عن ماضي تلك الثقافات الى التاريخ الظنى أو التخميني *Conjectural History* الأمر الذى يقلل من أهمية القيمة العلمية لدراساتهم .

كذلك إسترعى إنتباه العلماء قدرة تلك الثقافات على الإنتشار من مجتمع لآخر ، وإنتقالها عبر الحدود السياسية ، وما يوجد بالتالى من تشابه في السمات الثقافية لدى كثير من المجتمعات المتباعدة في المكان والتى تؤلف وحدات سياسية بل وسلالية ولغوية متمايزة .[٢]

* كتب هذا الفصل السيد الدكتور/ مصطفى عمر حمادة مدرس الأنثروبولوجيا بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية .

(١) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، البناء الاجتماعي ، مدخل لدراسة المجتمع ، المفهومات ، الهيئة المصرية للكتاب ، الاسكندرية ، ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

ومن هنا وقف علماء القرن التاسع عشر موقفين متمايزين إزاء تفسير هذا التشابه وهما :

١ ـ الموقف الأول : وهو الذى يرد التشابه فى السمات الثقافية فى مختلف المجتمعات إلى التشابه فى الظروف الطبيعية فى تلك المجتمعات ، وذلك على أساس أنهم كانوا يسلمون بتشابه التفكير الإنسانى فى كل زمان ومكان ، ونتيجة لتشابه التكوين العقلى عند جميع البشر ويعرف هذا الإتجاه فى الأنثروبولوچيا باسم " مدرسة النشأة المستقلة " والتى تأثرت فى تعاليمها بفلسفة التنوير وحتمية الظروف الطبيعية والبيئية وكان من كبار أتباع هذه المدرسة عالم الأثنولوجيا الألمانى ادولف باستيان .

٢ ـ الموقف الثاني : وهو الذى يرد التشابه الثقافى إلى إنتشار السمات الثقافية من مجتمع لآخر نتيجة لاتصال هذه المجتمعات بعضها ببعض عن طريق الحروب والغزوات والهجرة أو التجارة وما إلى ذلك وأنصار هذا الإتجاه يرفضون فكرة " تلقائية الثقافة " أو الاختراع أو الإبتكار بالنسبة لكل مجتمع على حده ، لكن كثيرا ما تكون هجرة المركب الثقافى جزئية فقط ، بمعنى أنه لاينتقل منه إلا بعض عناصره دون البعض الآخر ، كأن تنتقل طريقة معينة يتبعها شعب معين فى زراعة أحد المحاصيل إلى شعب آخر مجاور دون أن تنتقل ـ فى نفس الوقت ـ الأفكار والمعتقدات والطقوس الدينية التى ترتبط بهذه الزراعة فى المجتمع الأصلى. (١)

وقد يتخذ الإنتشار شكل الهجرة الشاملة ، بمعنى أن ينتقل المركب الثقافى بكل ملامحه وسماته وعناصره من مجتمع لآخر ، كما هو الحال مثلا فى إنتقال " مركب الماشية " من قبيلة لأخرى فى شرق ووسط افريقيا وإنتقال " مركب الأرز البرى " بين قبائل السهول فى أمريكا . (٢)

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .
(2) Wissler, C., 1923 " Man and Culture" , PP. 50 - 51 .

وقد إعتمد المنهج التاريخى فى الأنثروبولوجيا على الأخذ بنمطين أساسيين، على أساس إنهما يمثلان مدخل نظريا أساسيا وهما :

١ ـ النمط الأول : وهو ما يعرف بالدراسة المتزامنة للثقافات المختلفة *Cynchronic* .

٢ ـ النمط الثانى : وهو دراسة الأنماط الثقافية فى أزمنة تاريخية مختلفة لمنطقة معينة ، والتى إصطلح على تسميتها بالدراسة التاريخية أو الطولية *Diachronic* .

ومن هنا كانت جهود العلماء تنصب على محاولة إعادة تركيب الثقافة الإنسانية ورسم المراحل التى مرت بها خلال تاريخها وتطورها والطرق التى سلكتها فى وإنتشارها وما طرأ عليها أثناء ذلك من تغييرات .

ويرى بعض العلماء أن الإتجاه السائد فى الأنثروبولوچيا الآن هو تركيز الدراسات الحقلية على مجتمعات محددة يقتضى من الأنثروبولوجيين الثقافيين أن يكتفوا بدراسة الثقافة التقليدية فى ذلك المجتمع بالذات والتغييرات التى طرأت عليه نتيجة للإحتكاك الثقافى .

ولم يكن إستخدام المنهج التاريخى فى نظر فرانز بواس *Franz Boas* يعنى البحث عن تاريخ ثقافة الجنس البشرى كله ، وإنما يعنى دراسة تاريخ ثقافة مجتمع محدد بالذات ، ويرى أنه يتعين على علماء الأنثروبولوچيا قبل أن يقدموا على مثل هذه الدراسة أن يدرسوا أولا ديناميات الثقافة ، وعمليات التغير الثقافى التى تحدث بالفعل فى ثقافات محددة بالذات دراسة تفصيلية مركزة .

ومن هنا فإننا نجد أن أهم ما يميز الدراسة التاريخية والمنهج التاريخى هو الوصف التحليلى لمجموعة من الظواهر الثقافية فى موقف معين .

وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية تأخذ فى إعتبارها عنصرى الزمان والمكان[١] .

---

(١) أحمد أبو زيد ، مرجع سابق ، ص ٢١١ ـ ٢١٤ .

وخلاصة القول فإن الأنثروبولوجيا الثقافية ـ كما ذهب كروبير *Kroeber* تعد علما طبيعيا ودراسة إنسانية تاريخية فى نفس الوقت .

ويُستخدم مصطلح التاريخ الإجتماعى *Social History* للإشارة إلى دراسة التغيير الذى يطرأ على المجتمع وشبكة العلاقات الإجتماعية الخاصة به ، وتطور النظم الإجتماعية ، والتحول فى المفاهيم والقيم الإجتماعية .

وقد إرتبط هذا المصطلح بمصطلح التاريخ الإقتصادى *Economic History* وكلاهما كان نتيجة مباشرة وإستجابة محددة لمصطلح التاريخ السياسى ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى العالم العربى الشهير عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) والعالم الإيطالى فيكو *Vico* فى وضع أصول التاريخ الإجتماعى ، وقد أوضح فيكو ذلك فى مؤلفة الشهير " العالم الجديد ، حيث إستطاع أن يحول الإهتمام فى التاريخ السياسى للحروب والمعاهدات إلى دراسة للعادات والتقاليد والقوانين والأنظمة الإقتصادية والإجتماعية أما العالم العربى الشهير عبد الرحمن بن خلدون ، فقد عرف التاريخ تعريفا إجتماعيا فى مقدمته بقوله " يهدف التاريخ إلى إعطائنا صورة واضحة عن الحياة الإجتماعية للإنسان ، وهو يعنى حضارة الإنسان ، ويهدف كذلك إلى تعريفنا للظواهر الإجتماعية التى ترتبط بهذه الحضارة ، وإلى معرفة الحياة البدائية والأخلاق وروح الأسرة والقبيلة وفوارق الطبقات وجميع التغييرات التى تحدثها الطبيعة الخاصة بتلك الأشياء على أعضاء المجتمع " لذلك رأى أن علم العمران البشرى يهتم بدراسة التاريخ الإجتماعى على هذا النحو بحيث يبحث فى مسائل الإجتماع الإنسانى والعمران البشرى وما يلحق بها من عوارض .

ومنهج التاريخ الإجتماعى عند إبن خلدون ، أو الدراسة الإجتماعية للتاريخ يعد منهج ديناميكى بالضرورة يسير مع حركة التاريخ ويستوعب تطور الحياة الاجتماعية وإنتقالها من حالة إلى أخرى ، ذلك لأن أحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، وإنما هى إختلاف على مر الأيام والأزمنة

وإنتقال من حال إلى حال ، ويرجع هذا الإختلاف أو التباين فى أحوال المجتمعات إلى عوامل عديدة إقتصادية وجغرافية وثقافية ، ذلك أن المجتمع عند إبن خلدون شأنه فى ذلك شأن الفرد يمر بمراحل عديدة منذ ولادته حتى وفاته ، تبدأ بمرحلة البداوة وتنتهى بمرحلة الإضمحلال ، يتوسطها مرحلتين هما مرحلة الملك ، ومرحلة الترف والنعيم أو الحضارة .(١)

وفى الأنثروبولوجيا أو علم الإنسان يؤكد أصحاب المدرسة التاريخية على أهمية مفهوم التاريخ الثقافى *Cultural History* فيذهب ميتلاند *Maitland* إلى أن " الأنثروبولوجيا عليها أن تختار بين أن تكون تاريخية أو لا تصبح شيئا على الإطلاق" .

كما أكد بول رادين *P.Radin* نفس العبارة كمقدمة فى مؤلفة " منهج الأثنولوجيا " كذلك ذهب بيركت سميث *K.Birket Smith* إلى أن " الحاضر لايمكن فهمه إلا كنتاج للماضى " لذلك فإن المشكلة الحيوية فى الأثنولوجيا ـ كما يفهمها ـ يتعين أن تكون مشكلة تاريخية ، كذلك إفتتح سابير *E.Sapir* مقاله الكلاسيكى الشهير عن " منظور الزمان " بقوله " إن الأنثروبولوجيا الثقافية تتجه أكثر فأكثر نحو الإعتراف بأنها علم تاريخى أساسا " فالمعلومات التى نحصل عليها يتعذر فهمها سواء فى ذاتها أو فى صلتها بعضها ببعض إلا بوصفها نهاية تتابع معين للأحداث التى تضرب جذورها فى الماضى السحيق ، ومن الضرورى أن يتحقق عندنا نوع من الفهم التاريخى للوقائع بوصفها الهدف الأثنولوجى الخاص بالبحث .

وعموما ، فإن مصطلح التاريخ الثقافى يكتسب معناه الحقيقى ودلالته فى ضوء علم المناهج وتنقسم المناهج فى هذا الصدد إلى قسمين :

١ ـ قسم أنثروبولوجى .

---

(١) محمد علي محمد ، ١٩٨٣ ، علم الاجتماع والمنهج العلمي ، دراسة في طرائق البحث وأساليبه ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٧٠٥ .

٢ ـ قسم وضعى تاريخى .

أما القسم التاريخى فهو الوسيلة التى بواسطتها ستطبع تلك النتائج منظورات تاريخية صادقة ومفيدة بالنسبة للشعوب التى ندرسها ، والنتاج النهائى لذلك كله هو التاريخ الثقافى .

وهكذا تحتل الثقافة فى الأنثروبولوجيا مكانة رئيسية ، ويعد البحث التاريخى للثقافة مطلبا هاما وحيويا بالنسبة للأنثروبولوجيا الثقافية ، ويعكس هذا الإهتمام دراسة نشأة الثقافة وتطورها وأصولها ، وعملية إعادة بناء تاريخ الثقافة، وتقوم هذه الدراسة على أساس توزيع الخصائص وتحليلها ، ثم التحقق من مدى إمكانية حدوث إحتكاكات وإتصالات بين الوحدات الثقافية ، بل يمكن أن تكشف أيضا التتابع الزمنى الذى ظهرت فيه هذه الإحتكاكات والإتصالات .

أما علماء التأويل التاريخى للثقافة من أمثال كروبير ***A.Kroeber*** فإنهم يرون أن التاريخ هو فى جوهره محاولة لإعطاء وصف دقيق لموضوع الدراسة ، وليس معالجة التتابعات الزمنية ، ولهذا إعتقد أنه يمكننا الإعتماد على المنهج التاريخى فى دراسة الأحداث والوقائع الحالية ، كذلك فى دراسة الظواهر التى تحدث فى زمن محدد ، وهو مايعرف باسم الدراسات المتزامنة ***Synchronic*** هذا فضلا عن دراسة الظواهر التى تحدث فى أزمنة متعددة ***Diachronic*** فكأن ماهية التاريخ لا تتحصر فى عنصر الزمن ، كما أن الذى يميز الدراسة التاريخية هو الوصف التحليلى لأية مجموعة من الظواهر الثقافية فى موقف معين بالذات ، وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية تأخذ فى إعتبارها عنصر الزمان والمكان ، وهذا هو المحك الأساسى الذى تقوم التفرقة عليه بين العلم والتاريخ ، ولا شك أن هذا الإصرار على أهمية المنهج التاريخى فى دراسة الثقافة يوجد لدى كثير من علماء الأنثروبولوجيا الثقافية .(١)

---

(١) أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ ، البناء الاجتماعي ، مدخل لدراسة المجتمع ، جـ ١ ، المفهومات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ١٤٠ .

وعلى ذلك فإن الإهتمام بتاريخ الإنسان يعتبر من بين المصادر الرئيسية للدراسات الأنثروبولوجية وقد تمثل ذلك فى الدراسات المقارنة للمجتمعات والنظم الإجتماعية ، وفى محاولة إعادة بناء تاريخ مجتمعات بعينها ، فقد إعتمد كل من فولتير *Voltaire* وجوستاف كلم *Gustav Klemm* وسير هنرى مين *Sir Henry Maine* وماكلينان *J.F. Mclenain* وباخوفن *Bachofen* وفوستيل دى كولانج *Fustel de Coulonges* ولويس مورجان *L.H.Morgan* وادوار تايلور *E.B. Tylor* إعتمدوا جميعا على المصادر التاريخية فى إقامة علم إجتماع مقارن عن الثقافة والمجتمع .

وإذا إنتقلنا إلى الدراسات الأمريكية المعاصرة سنجد أيضا إهتمام واضح بالمصادر التاريخية فيما يعرف إصطلاحا باسم " الذاكرة الثقافية " *Memory Culture* حيث تحاول المدرسة التاريخية أن تعتمد على ذاكرة كبار السن من القبائل الهندية لكى تحصل على معلومات عن ثقافة هذه القبائل ، ويعتمد علماء الأنثروبولوجيا المهتمين بتاريخ الشعوب على ثلاث مصادر ومناهج رئيسية فى تحقيق أهدافهم هى :

١ ــ الوثائق المكتوبة *Written Documents* فبرغم الصعوبات التى تواجه الإعتماد على هذه الوثائق وخاصة فى المجتمعات التى لاتوجد عنها وثائق مدونة ، إلا أن محاولات حديثة تبذل لجمع مادة يمكن الإعتماد عليها فى تكوين بعض المعلومات المنظمة عن هذه المجتمعات .

٢ ــ التراث الشفهى *Oral Traditions* حيث يغطى التراث الشفهى أنواع متعددة من الظواهر والأنظمة والعلاقات الإجتماعية ، ويمكن أن نعثر على التراث الشفاهى من دراسة هذه الظواهر الإجتماعية ، حيث تكشف عن أهمية الإعتماد على هذا المصدر فى البحوث التاريخية الأنثروبولوجية .

٣ ــ البحث الحقلى *Field Work* حيث يمثل البحث الحقلى القائم على الملاحظة المشاركة وجمع البيانات من الواقع مصدرا رئيسيا للمعلومات ، وجزءا

رئيسيا من تدريب الباحث الأنثروبولوچى ، وذلك بهدف ابراز الوظائف المختلفة للأنساق الإجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها ، إلى جانب تقديم وصف دقيق ومتكامل للحياة الإجتماعية فى مجتمع أو ثقافة معينة ، وهذا لن يتم إلا من خلال إجراءات وأساليب البحث الحقلى أو الميدانى .

- الجذور التاريخية للأنثروبولوچيا :

الأنثروبولوچيا هى علم الإنسان أو علم دراسة الأنسان حسب المعنى الاشتقاقى أو الأصل اللغوى *Elymolgy* لهذا الإصطلاح الذى يتألف من الكلمتين اليونانيتين :

- أنثروبوس *Anthropos* ومعناه ' ؛نسان .

- لوغوس *Logos* ومعناه علم أو دراسة موضوع .

ويمكن القول بأن ظهور الأنثروبولوچيا الاجتماعية كعلم منهجى متميز لايرجع إلى أبعد من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ولو أن مشكلات وموضوعات هذا العلم كانت تدرس فى جامعات أوروبا قبل ذلك بوقت طويل فالاهتمام بالبحث فى شئون الإنسان والمجتمعات الإنسانية قديم قدم الإنسان نفسه وسابق على ظهور الأنثروبولوجيا كعلم أكاديمى معترف به .

وكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية كان يولى إهتماما بمعرفة كيف نشأت العادات والتقاليد لديه ومعرفة الفروق بين ثقافته الخاصة وثقافة المجتمعات المجاورة له ، وعلى هذا فإنهم جميعا قد أقاموا أنثروبولوچيا خاصة بهم بصورة ما ولكن التفسيرات التى توصلوا إليها وحتى ما استندوا منه جزئيا على الملاحظة الدقيقة ظل بصفة عامة فى مستوى الأساطير .

ونذكر أن المؤرخ الاغريقى هيرودت الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد قد قدم وصفا لحياة الشعوب المتبربرة وللحياة الإجتماعية فى مصر وقد بدأ التفكير العلمى فى الظهور فى عدد محدود من مراكز الحضارة الإنسانية فى

العالم ، فى منطقة البحر المتوسط وفى الصين وفى المنطقة العربية بالشرق الأوسط وفى الحضارة الغربية الحديثة ، ومن الملامح المميزة لكل تلك المراكز الحضارية السيطرة التى تمارسها على مناطق شاسعة والفرص التى أتيحت لها عن طريق جنودهم وتجارهم ومبشريهم ومبعوثيهم لجمع الملاحظات عن مجموعات عريضة من الشعوب[1].

ولقد كان جمع تلك المعلومات والملاحظات ضروريا كبداية لإدراك كيف يتكيف الناس فى بيئاتهم وكيف تسير النظم الإجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة وكيف تحول الجنس البشرى من المجتمعات البسيطة الى المجتمعات المركبة .

ولقد واجه المؤرخون والفلاسفة من قدماء الإغريق والصين والعرب مثل تلك التساؤلات ، وإذا أخذنا أوروبا الغربية على سبيل المثال فإن كثير من التساؤلات أثارها الفلاسفة الفرنسيين من أمثال جان بودان ***Jean Bodin*** وميشيل دى مونتانى ***De Michel De Montaigne*** الذى خصص جانب كبير من مقالاته لما يمكن تسمية الآن بالمعلومات الأثنوجرافية فى أوائل القرن السادس عشر ومن الفلاسفة الإنجليز توماس هوبز وجون لوك فى القرن السابع عشر ومن الفلاسفة الفرنسيين مونتسكيو وروسو وفولتير فى القرن الثامن عشر حتى نصل إلى سان سيمون الذى كان أول من إقترح بصراحة ضرورة إنشاء علم للمجتمع وكل هؤلاء يوصفون أنهم من بين المؤسسين للأنثروبولوچيا الحديثة .

ولقد ظهرت البدايات المبكرة للأنثروبولوچيا الحديثة وبدأت تتشكل قبل منتصف القرن التاسع عشر بسبب ظهور سلسلة من المستحدثات فى العالم الغربى فلقد بدأت المرحلة الأخيرة والعظيمة من عهد الكشوف الجغرافية ومعرفة المجتمعات التى ظلت خارج دائرة معرفة العالم الغربى والحضارة التكنولوجية له

---

(١) مجدي حميدة ، ١٩٨٦ ، دراسات سوسيوأنثروبولوجية ، الكتاب الأول ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٢٨ .

فى نهاية القرن الثامن عشر وفى نفس الوقت فإن الثورات الثقافية والسياسية قد يسرت إخضاع مبادئ دينية معينة للتساؤلات .

وبذلك فتحت الطريق لمناقشة موضوعات ومسائل كانت فى السابق ممنوعة ولذلك سرعان ما شهد القرن التاسع عشر أحياء الإهتمام بدراسة أصل الإنسان ووحدة أو تعدد الأجناس البشرية وثبات أو تبادلية الأنواع الحيوانية ، وهكذا فإن علم الأنثروبولوچيا قد نما وتطور باعتباره نتاج للدراسات المعاصرة لتصنيف الأجناس البشرية والملامح المميزة لتشريح الإنسان وتاريخ المستوطنات البشرية وتصنيف اللغات ومقارنة القواعد اللغوية والمقارنة بين المجتمعات البدائية والقديمة والتطور التاريخى للإقتصاد والصناعة عن الإنسان .

وأخيرا فى سنة ١٨٤٠ وضع مبدأ هام لدراسة الحقائق الإنسانية وهو مبدأ التطور وقد كان ذلك قبل أن ينشر سير تشارلز داروين *Sir Charles Darwin* كتابه الشهير عن أصل الأنواع سنة ١٨٥٩ وهذا المبدأ الذى أثار محاولات قوية يعتبر نقطة البدء فى الأنثروبولوچيا .

وإن كان إيفانز بريتشارد يرى أنه لايمكن تحديد نقطة معينة بالذات بدأت عندها الأنثروبولوچيا الإجتماعية (١) .

وهو يرى أن القرن الثامن عشر يمثل فترة النشوء الأولى لهذا العالم وأن الأنثروبولوچيا وليدة عصر التنوير ، وأنها ظلت تحمل كثيرا من الملامح المميزة لذلك الأصل خلال كل تاريخها حتى اليوم ومع نهاية القرن التاسع عشر فإن النظرة التطورية قد حددت مهمة العلم الجديد وكان يعتقد أن المهمة الرئيسية للأنثروبولوچيا هى تصنيف مختلف المجتمعات والثقافات وتحديد المراحل والحالات التى مرت بها كل الجماعات الإنسانية .

ويمكن أن نلمس الفرق الهائل بين الأنثروبولوچيا الاجتماعية كما هى عليه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ ــ ٣٠ .

الآن وبين ماكانت عليه فى أواخر القرن التاسع عشر من مقارنة الدراسات العديدة التى يخرجها العلماء المحدثون : فلقد كانت معظم الدراسات الأنثروبولوچية المركزة تسيطر عليها النزعة التطورية وتهتم بوجه خاص بالبحث عن أصول النظم مثل أصول الدين والنظام الطوطمى وما إلى ذلك أما الآن فإن الغالبية العظمى من الدراسات تتجه إتجاه حقلى تجريبى تمتزج فيه الملاحظة بالتحليل . (١)

والغرض المراد من هذا الفصل هو معرفة أهم الطرق الخاصة بالبحث الأنثروبولوچى والمستخدمة فى الدراست الحقلية الأنثروبولوچية ، وهنا سنعرض لعدد من الدراسات الموجودة لدينا والتى تحدث مؤلفيها فى مقدمتها أو فى أحد فصولا عن الطرق الخاصة بالبحث الأنثربولوچى والتى طبقوها هم أنفسهم فى دراساتهم وبحوثهم الحقلية التى قاموا بها وبالتالى فإن معرفتنا لهذه الطرق سوف يساعدنا بلا شك فى الدراسات الحقلية وبخاصة الدراسات الميدانية التى يقوم بها القسم فى تدريب طلابه وتوجيههم لدراسة بعض المشكلات الموجودة فى المجتمع .

وبخاصة عند تعرضهم لدراسة بعض جونب الثقافة الخاصة بمجتمع ما ، حيث أن تركيز الدراسات الحقلية على مجتمع محدد بالذات يقتضى من الأنثروبولوچيين الثقافيين أن يكتفوا بدراسة الثقافة التقليدية فى ذلك المجتمع بالذات والتغييرات التى طرأت عليه نتيجة للإحتكاك الثقافى ، مما يعطى للمنهج التاريخى أهمية خاصة فى الأنثروبولوچيا بوجه عام وفى الأنثروبولوچيا الثقافية بوجه خاص .

- تاريخ البحث الأنثروبولوچى : (٢)

ظهرت كتابات كثيرة تفحص العلاقة بين التاريخ والأنثروبولوجيا وطرحت هذه الكتابات مجموعة تساؤلات مثل : ماهى الأنثربولوچيا أن لم تكن تاريخا ؟

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٢) محمد علي محمد ، ١٩٨٣ ، علم الاجتماع والمنهج العلمي ، دراسة في طرائق البحث وأساليبه ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٢٥٦ .

وأجاب البعض عن ذلك بأنها علم ولكن التساؤل الذى فرض نفسه فى هذا المجال هو ، هل الموضوع الذى تدرسه الأنثروبولوجيا يمكن معالجته بمناهج العلوم ؟ كذلك طرحت طائفة أخرى من الأسئلة حول إستخدام التاريخ فى الدراسات الأنثروبولوجية وهنا يمكن أن يشير التاريخ إلى أشياء مختلفة ، فهو يعنى كل ما يستطيع الأنثروبولوجى أن يكشفه عن ماضى الشعوب التى يدرسها وكذلك ما يتعلمه من كتابات المؤرخين حول النظم الإجتماعية وهل يمكن أن يستخدم مناهج البحث التاريخى فى دراسة المجتمعات التى لاتتوافر عنها سجلات مكتوبة؟

كتب هربرت سبنسر عام ١٨٧٨ يقول (أن القصص أو السير بالنسبة للأنثروبولوجيا تماثل التاريخ بالنسبة لعلم الإجتماع) .

كذلك كتب ميتلاند *Maitland* عام ١٨٩٩ يقول :(يجب على الأنثروبولوجيا أن تختار بين أن تكون التاريخ أولا تصبح شيئا على الإطلاق ، وكان متيلاند من المهتمين بالمراحل المتتابعة التى يمر بها المجتمع البشرى) .

إن التفرقة التى يقيمها سبنسر تنحصر فى القصص أو الروايات الخاصة ببعض الأحداث ، وبين البحث عن التعميمات التى يمكن أن تصدق على الأجناس والسلالات في مجال علم الإجتماع وهو في كلتا الحالتين يهتم بمحاولة إقامة قوانين التطور وحينما كان يكتب عن الأنثروبولوجيا كان يقصد بالذات ما يعرف الآن بالأنثروبولوجيا الفيزيقية لكن إهتمامه الأساسى يتمثل فى أن الأنثروبولوجيا وعلم الإجتماع يدخلان فى نطاق العلم ومعنى ذلك أنهما يجب أن يبحثا فى القوانين التى تحكم تطور المجتمعات البشرية وإنتقالها من مرحلة إلى أخرى شأنها فى ذلك شأن العلوم الطبيعية والحيوية التى تصف تطور الكائنات البشرية وإنتقالها من حالة إلى حالة أخرى متقدمة ذلك أن سبنسر يعتقد أن تطور المجتمع هو إستمرار طبيعي ولازم للتطور العضوى على أية حال الشئ الذى يعنينا من ذلك كله أن هناك فريقا يرى أن الأنثروبولوجيا تدرس أنساق طبيعة *Natral Systems* تخضع لقوانين إجتماعية يمكن إكتشافها والتوصل إليها عن طريق

الملاحظة والإستقراء ثم إستخلاص التعميمات ويقابل ذلك فريق أخر يرى أن المجتمعات أنساق أخلاقية وبالتالى لا نستطيع أن نكشف بصددها قوانين تماثل فى صدقها القوانين الطبيعية ، ولهذا فإن الأنثروبولوجيا هى نوع من الدراسات الإنسانية التاريخية أكثر من كونها علم بالمعنى الذى يطلق على العلوم الطبيعية والحيوية .

ويختلف العلماء فى رأيهم حول هذه المسألة فبينما نجد رادكليف براون من بين أنصار الفريق الأول ، نلاحظ أن إيفانز بريتشارد يعارض بشدة هذا الإتجاه ، إذ يقرر أن الأنثربولوجيا الإجتماعية لم تستطع حتى الآن أن تصل إلى شئ يشبه ولو من بعيد قوانين العلوم الطبيعية لذلك يحق لنا أن نتشكك فيما إذا كانت الأنساق الإجتماعية هى فى حقيقتها أنساق طبيعية على الإطلاق ، وإذن فالأنثروبولوجيا الإجتماعية لاتهتم بالعمليات قدر إهتمامها بالأشكال وتسعى إلى إكتشاف الأنماط لا القوانين وتدلل على الإتساق بدلا من العلاقات الضرورية بين الأنشطة الإجتماعية كما أنها تحاول التأويل أكثر من التفسير ويمثل هذا الإتجاه فى الدراسات الأنثربولوجية يماثل الإتجاه التاريخى أكثر ممايقترب من تصور العلم .

كذلك لاحظ فورتس *Fortes* أن التعميمات التى أمكن صياغتها فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية سوف تظل صادقة بغض النظر عن الزمان والمكان بينما يستهدف التاريخ إقامة تتابعات محددة بعد دراسة أزمنة وأمكنة معينة بالذات فى الماضى ، ومع ذلك أن فورتس ينبه إلى أن المؤرخين أنفسهم لا يستطيعون ترتيب معلوماتهم إلا بعد إفتراض وجود (إتجاهات أو ميول عامة) من نوع معين بالذات، ونحن حينما نعترف بهذه الحقيقة فإن لنا أن نتناول موضوعنا بروح العالم، لكن ذلك لايعنى أننا نعتقد فى الحتمية الآلية فيما يتعلق بالحياة الإجتماعية الإنسانية ذلك أن القوانين الإجتماعية تشير إلى ملامح معزولة مثاليا للحياة الاجتماعية ، ويمكن صياغتها فقط فى ضوء فكرة الإحتمال ـ أما ليفى ستروس *Levi Strauss* فإنه ينظر إلى التاريخ والأنثروبولوجيا على أنهما يشتركان فى أصل

واحد فهو يذهب مع المؤرخين إلى أن معرفة الماضى تعتبر ضرورية لفهم أية ظاهرة إجتماعية كما أنه يعتقد مع الأنثروبولوجيين بأن تتبع تاريخ المجتمع يمكننا من تحديد ماهو دائم فى التيار الإجتماعى ، أى يجعلنا نتعرف على تلك العناصر التى يكتب لها الإستمرار والبقاء بغض النظر عن التغيرات التى ترجع إلى إحداث مثل الحروب أو الهجرات ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن ليفى ستروس يعترف بضرورة التعاون بين المؤرخين وعلماء الأنثروبولوچيا ذلك أن التوصل إلى تعميمات تحتاج منا إلى فحص العديد من الصور والأشكال الاجتماعية فى أمكنة وأزمنة مختلفة حتى نستطيع أن نكشف المبادئ الأساسية للبناء الاجتماعى [١] .

ولقد أصبحت الفكرة القائلة بأنه يتعين على الأنثروبولوچى أن يبحث بنفسه عن البيانات التى تحتاج إليها دراسات بدلا من الإعتماد على كتابات الرحالة شائعة فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فقد قام فرانز بولاس *Boas* بدراسات بين الاسكيمو بين عامى ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ ثم قام فى انجلترا هادون على رأس بعثة جامعة كمبردج لدراسة منطقة مضايق توريس *Torres Straits* فى المحيط الهادى بين عامى ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩ وكانت هذه الرحلة علامة مميزة فى تشكيل الأنثروبولوچيا كعلم يحتاج إلى التخصص والتفرغ ، ويعتمد على الخبرة الحقلية باعتبارها عنصرا جوهريا فى تمرين الطلاب والدارسين والتفرغ لهذا العلم أما مالينوفسكى فهو الذى عمل على تدعيم البحث الحقلى فى ميدان الأنثربولوچيا فقد قام بدراسة لسكان جزر التروبرياند *Trobriand* فى ميلانيزيا أمضى فيها أربع سنوات بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٨ وهى فترة تطول كثيرا عن المدة التى أمضاها أى باحث أنثروبولوچى من قبل ، كما كان مالينوفسكى هو أول أنثربولوچى يستخدم لغة الأهالى فى إجراء البحث وكذلك أول من عاش مع الأهالى وبطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة ، وترجع أهمية دراسات مالينوفسكى الحقلية أنها أكدت أن فهم الحياة الإجتماعى لدى شعب من الشعوب البدائية لن

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

يتحقق إلا إذا درست دراسة مركزة ، كما كان يؤمن بأن القيام بدراسة حقلية مركزة واحدة على الأقل فى مجتمع بدائى يؤلف جزءا ضروريا من تدريب الأنثربولوجى الإجتماعى ، ويتلخص الموقف الحالى فى أن علماء الأنثروبولوجيا الإجتماعية المعاصرة يدرون أن الدراسات التفصيلية المركزة التى تقوم على الملاحظة تستطيع إذا أجريت على عدد معين من المجتمعات بقصد حل بعض مشكلات محدودة ـ أن تكشف لهم عن طبيعة المجتمع البشرى مالا تكشفه التعميمات الواسعة الفضفاضة التى كان العلماء السابقون يقيمونها على أساس قراءتهم الواسعة ـ ونتيجة ذلك كله أننا بدأنا نعرف بالفعل بعض الحقائق المؤكدة عن البدائيين[١] .

وهكذا يتضح لنا أن (المعرفة) التى يعتمد عليها الأنثروبولوجى تستند إلى (بيانات تتعلق بالمجتمع *Data about Society*) وهذه الأخيرة تقوم بدورها على (معلومات توجد فى المجتمع *(Information in Society* والحصول على هذه المعلومات يحتاج إلى الإستعانة بكافة الإجراءات اللازمة لتسجيل هذه المعلومات تسجيلا دقيقا ثم عرضها بالطريقة العلمية المألوفة ، لدينا إذن ثلاث مصطلحات أساسية هى : (المعرفة) و (البيانات) و (المعلومات) أما المعرفة فى العلوم الإجتماعية فيمكن النظر إليها على أنها تمثل قضايا أو عبارات على أعلى مستوى من العمومية تقترب من قوانين العلوم الطبيعية والبيانات وهى وقائع تستند إلى معلومات أى أنها تعرض لظواهر الحياة اليومية عرضا موجزا ومن ثم فهى توازى مايعرف بالتصنيف وأخيرا توجد (المعلومات) فى أدنى مستوى إذ أنها تشير إلى ما يعرفه كل منا فى الحياة اليومية (أى أنها سجل الأحداث اليومية) وهى (البيانات الخام) التى يحصل عليها الباحث الحقلى ويمضى الباحث الحقلى فترة طويلة من عمله فى تسجيل الملاحظات والمقابلات التى يقوم بها حتى يتمكن من تصنيفها والإفادة منها .

---

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

وهناك معياران أساسيان يجب أن يحتكم إليهما الباحث الأنثروبولوجى فيما يتصل بالعلاقة بين المعرفة والبيانات والمعلومات أولا أن يتأكد من وجود صلات حقيقية صحيحة وملائمة بين الملاحظة وسجل المعلومات وبين المعلومات وتصنيفها إلى بيانات يمكن الإعتماد عليها فى التوصل إلى التعميمات ، وثانيا أنه بالإضافة إلى هذا التحديد الواضح للملاحظات وما تنطوى عليه من دلالات علمية ، يجب أن يوجد أيضا وصف دقيق لخطوات البحث وعملياته أى أن يوضح الباحث كيف يمكن لباحث آخر أو لمجموعة من الباحثين ملاحظة نفس الظواهر ويمكننا الإستعانة بهذين المعيارين فى تحديد ملائمة (البيانات) النظرية ومعنى ذلك أننا يجب أن نحدد إجابات واضحة لتساؤلين هما : ما الذى يتحدث عنه الباحث ؟ وكيف إستطاع أن يتوصل إلى هذه المعلومات [١] ؟

- الدراسات الأنثروبولوجية :

أن الدراسات الأنثروبولوجية تتميز عن غيرها من الدراسات المعنية بالظواهر والنظم الإجتماعية بأنها دراسات تعتمد على البحث الحقلى الذى يعيش فيه الباحث فترة مقبولة أو مناسبة من الزمن تتيح له فرصة مشاهدة دورة الحياة فى المجتمع وقد كانت الفترة التالية التى يقضيها الباحث فى المجتمع مثلا لاتقل عن العام الواحد .

- نموذج لدورة حياة في المجتمع البدوى لمدة عام كامل :

وهذه الفترة الزمنية كانت تتيح له أن يشاهد ويلاحظ ويدون عن قرب دورة الحياة فى المجتمع فى إطار الوحدة الزمنية للسنة التى تتعاقب فصولها ويرتبط كل فصل منها بنشاط إقتصادى معين ومثال ذلك أننا نجد أن فترة سقوط الأمطار يقضيها أعضاء المجتمع فى إعداد الأرض للزراعة والقيام بعمليات الحرث وبذر البذور ثم يسكن أعضاء المجتمع فى فترة سقوط الأمطار بيوتهم ويعتمدون فى

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

غذائهم وفى علف حيوانهم على محصول العام السابق ثم يأتى فصل الربيع وقبل فصل الصيف يظهر شكل جديد للتوطن حيث تنتقل الجماعات إلى الرعى حيث يتوفر المرعى والماء ويبقون فترة من الزمن فى هذه "المرابع "ليعودوا عندما يشتد الحر وينضج المحصول وتقوم أعياد الحصاد وما ينشط فيها من مشاركات إجتماعية مثلا فيما يتعلق بإقامة المولد أو إحتفالات دينية وتكثر فى هذا الوقت أيضا عمليات بناء المساكن وحفلات الزواج وفى نهاية الصيف ينتقل هؤلاء الرعاة مرة أخرى إلى دورة جددة من دورات الحياة فى المجتمع قبل سقوط الأمطار .

كانت تلك الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية فى تلك المجتمعات التقليدية بوجه خاص تبدأ من فرض أساس يتعلق بابراز مظاهر التضامن والتماسك فى تلك المجتمعات التقليدية (١) .

كذلك تتميز الدراسات الأنثروبولوچية بارتباطها بمجتمعات محددة وإذا إستعرضنا الكتابات الأنثروبولوچيا التى بأيدينا الآن نجد أنها تتعلق بمجتمعات محلية محددة من أنماط مجتمعية مختلفة تقليدية أو غير تقليدية وغالبا ماتكون هذه المجتمعات مجتمعات جزئية فى ثقافات أكبر أو فى مجتمعات قومية تنظمها ، وهذا يعنى بقول آخر أن الباحثين لم يعودوا الآن يوجهن كثيرا من إهتمامهم إلى محاولة رسم مراحل تطور النظم الإجتماعية . (٢)

إن وصف عادات الشعوب وسرد كثير من ملامح الحياة الثقافية بل وطرح القضايا المتصلة بالأجناس والأعراق والطباع والنحل والملل مسألة قديمة يعود تاريخها إلى المؤرخ الإغريقى هيرودوت ٤٨٠ ق.م الذى قدم أوصافا للتقاليد والطقوس وغيرها ، كما تناول لوقريطس ٤٨٠ ق.م مراحل التمدين وإرتقاء الإنسان عن طريق تقدم الأدوات والفنون فى أسلوب شعرى وحفلت الحضارتان اليونانية

(١) د . محمد عبده محجوب ، ١٩٨١ ، مقدمة في الاتجاه السوسيوانثروبولوجي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٤

والرومانية بالعديد من الدراسات الإنسانية ، وساهم العرب بقسط وافر فى هذا الصدد ولاسيما الرحالة العربى " ابن فضلان" و" ابن بطوطة " خاصة هذا الأخير الذى يروى تفاصيل كثيرة من خصائص وسمات الشعوب من الغرب حتى الصين ـ وقد ساهمت كتابات ابن بطوطة فى وضع أساس لتوزيع القبائل فى غرب إفريقيا والتعرف على الحدود الأثنولوجية وأشكال الإنتماء والإندماج ، والجدير بالملاحظة أن هولاء الرحالة لم يتأثروا بآراء ومذاهب فلسفية معينة وإنما كانوا مدفوعين برغبة فى الإطلاع على مختلف مظاهر الحياة وتسجيلها بما فى ذلك السمات المزاجية والخصائص الجسمية والطباع والأخلاق . وإعتمدوا على الإقامة فى المجتمعات التى درسوها ، والتفاعل مع السكان كما أنهم إستعانوا بالمقارنة وتمحيص الأوصاف قبل تسجيلها وتلك نزعة علميـــة للدراســات الأنثروبولوجية غير المباشرة(١) .

ومن جانب آخر يشتمل " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر " للعالم العربى عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦) على وقائع أثنوجرافية متعددة الأبعاد تعتمد على مبادئ منهجية هامة هى الشرح والتحليل والتعليل والمقارنة بين الأخبار والحوادث مع ردها إلى طبيعة البيئة ونوع السكان ، وتعتبر دراسته لمورفولوجيا المجتمعات البدوية والسمات التى يتميز بها البربر وطبيعة التحولات إلى الحياة الحضرية والمدنيات بما فى ذلك توزيع السكان والمساحة من أبرز الموضوعات التى تنتمى إلى الأنثروبولوجيا الإجتماعية ، والتى عالجها على أسس منهجية تجمع بين الوصف والتحليل والتفسير وتأخذ بقواعد الإستقراء والإستنباط العلمى بكل ماتحمله من دلالات .

وظهرت بعد ذلك عدة موسوعات للوصف الأثنوجرافى فى القرن التاسع عشر غير أن البداية الحقيقية للدراسات الأنثروبولوجية كانت فى القرن الثامن

---

(١) محمد عبد المعبود ، ١٩٨٦ ، الأنثروبولوجيا العامة ، مناهج البحث الأنثروبولوجى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٢٣٧ .

عشر خاصة النصف الثاني منه ، حيث ظهرت الدراسات الأنثروبولوچية التقليدية وتمركزت حول الشعوب البدائية مثل دراسات جابرييل ساجارد ***Gabriel Sagard*** وجوزيف لامثيو لقبائل الهيرون ***Hurons*** والايروكواى ***Irquois*** وبالرغم من محاولات هؤلاء وغيرهم الإلتزام بحدود الموضوعات التى درسوها فقد إستعانوا بالإستيطان والإستدلال القبلى أو السابق على التجربة ، بمعنى أن التفكير الخالص وتكوين النظريات كان يسبق تجربتهم المباشرة بهذه الشعوب ، ويتقدم على جمع المعلومات ، فالوقائع تأتى فى مرحلة تالية لتفسير النظريات أو لتدعيمها أحيانا ، ولم تظهر الدراسات المنهجية فى الأنثروبولوجيا الإجتماعية والثقافية إلا فى منتصف القرن التاسع عشر حيث وجدت مجموعة من أمهات الكتب فى لانظرية الأنثروبولوچية ومنها كتاب " سير هنرى مين " عن القانون القديم ١٨٦١ والمجتمعات القوية فى الشرق والغرب ١٨٧١ ثم كتاب باخوفن " حق الأم " ١٨٦١ فوستيل ديكولانج " المدينة العتيقة " وماكلينان " الزواج البدائى " ١٨٦٥ وبعد ذلك أبحاث فى التاريخ القديم للجنس البشرى سنة ١٨٦٥ وكذلك الثقافة البدائية سنة ١٨٧١ " لتايلور " وفى نفس العام أصدر لويس مورجان " أنساق روابط الدم والمطاهرة فى العائلة الإنسانية " (١) .

ويمكن تحديد إطار الوصف الأثنوجرافي خلال القرن الـ ١٩ في العناصر التالية :

١ ـ الإعتماد على الوسائل غير المباشرة فى جمع المادة الأثنوجرافية ومن هذه الوسائل حكام المستعمرات ورجال الإدارة والصحافة وغيرهم .

٢ ـ التركيز على ماضى النظم من حيث النشأة والتكوين ومراحل التطور ولهذا حظيت فكرة الرواسب ***Survivals*** بإهتمام كبير فى المنهج التاريخى لعلم الأنثروبولوچيا .

---

(١) محمد عبد المعبود ، ١٩٨٦ ، الأنثروبولوجيا العامة ، المرجع السابق ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

٣ ـ البحث عن القوانين العامة التى تنطبق على كل المجتمعات أو تتحكم فى سير النظم الإجتماعية .

٤ ـ إستخدام فكرة التأويل أو التاريخ الظنى لإثبات وجود النظم والظواهر عندما تنضب الوثائق أو تنعدم وسائل المعلومات ولهذا فإن الإستقراء الجزئى " الناقص " أدى إلى تعميمات غير واقعية .

٥ ـ أيقن هؤلاء لفكرة التقدم المضطرد فى مراحل أو حلقات وعلى مستوى كل المجتمعات ولم يتعرضوا للمعوقات أو الأسباب التى تفسر التباين فى أشكال التقدم وإنعكس ذلك بشدة على تصورهم الكلى للنظم الإجتماعية .

٦ ـ لم يفرق علماء القرن التاسع عشر بين الثقافة والمجتمع كما لم تنضج فى أذانهم الجوانب والأبعاد المتباينة التى تهتم بها الأنثروبولوچيا كعلم مركب ، ولهذا إختلطت دراسة نظم الزواج والقرابة بكثير من جوانب التراث الثقافى كاللغة والفولكلور والفنون مع وجود أفكار غير علمية عن الإنسان القديم من حيث سماته الجسمية والخلقية ويرجع ذلك لأسباب منهجية تتصل بقصور وسائل التاريخ للماضى البشرى من الناحيتين العضوية الفيزيقية والاجتماعية الثقافية .

ومنذ البدايات الأولى للقرن العشرين بدأت الدراسات الوصفية تأخذ مسلكا آخر ينطوى بالضرورة على تحولات عن الطرق القديمة إلى أساليب جديدة وإتجاهات مغايرة وإقترنت هذه التحولات بالتخصص وتشعب فروع الأنثروبولوجيا بعد ما تقدم الوسائل الفنية (الدقيقة) فى الكشف عن آثار الماضى البعيد وتغيرت مناهج البحث فى العلوم الإجتماعية والإنسانية ككل .

ويكفي إيجاز أهم جوانب التحول في الدراسات الأثنوجرافية علي النحو التالي :

١ ـ بدأت الدراسات الأنثروبولوجية المباشرة التى يقوم بها باحث واحد أو عدد من الباحثين على شكل فريق وكانت أول بعثة [illegible] إتبعت نظام فريق البحث

بعثة جامعة كمبردج برئاسة الاستاذ هادون ***Haddon*** التى قامت بدراسة أنثروبولوچية مباشرة على سكان مضايق جبال تورس فى المحيط الهادى خلال عامى ١٨٩٨ ـ ١٩٨٨ وكانت هذه البعثة إيذانا بتحول الأنثروبولوجيا نحو التخصص وبالاعتماد على الخبرة الحقلية حيث توالت على أثرها الدراسات والبحوث النوعية والمحددة .

٢ ـ تقلص الإتجاه التطورى ولم يعد علماؤه يعتمدون بالبحث عن أصول النظم أو كيفية نشأتها والأشكال التى مرت بها ـ وبدلا من ذلك تمركزت البحوث حول حاضر النظم والعلاقات والروابط التى بينها فى ضوء التحليل البنائى الوظيفى ولهذا قلما تشتمل الدراسات الأثنوجرافية على بيانات تتصل بتاريخ المجتمع والثقافة .

٣ ـ إتجه الأنثروبولوچيون المعاصرون إلى التحليل التكاملى مع ابراز الملامح الهامة فى مقابل الإقلال من التفاصيل والجزئيات وإختفت الملاحظات التى كان يدونها الأنثروبولوچى فى مذكراته وحلت محلها البيانات والشواهد المرتبطة بالمشكلات النوعية الخاصة بالثقافة أو النظم .

٤ ـ إتسع مجال الدراسات الأنثروبولوچية فإلى جانب الفروع الأساسية الكبرى لهذا العلم المركب وهى :

الأنثربولوجيا الجسمية ، الثقافية ، الإجتماعية ظهرت مجالات أخرى للبحث الأنثروبولوچى أخص منها الإهتمام الأنثروبولوچيا الإقتصادية ، والأنثروبولوچيا الحضرية والأنثروبولوچيا الطبية وأنثروبولوچيا التنمية وتقتضى البحوث النوعية فى أى من هذه الميادين وغيرها تكييف منهجى خاص ـ بحيث تختلف طبيعة المادة الأثنوجرافية فى كل من فروع الأنثروبولوچيا على حده [١].

---

(١) محمد عبد المعبود ، ١٩٨٦ ، الأنثروبولوجيا العامة ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ .

- المراجع العربية :

١ ــ أحمد أبو زيد ، ١٩٧٥ :" البناء الإجتماعي : مدخل لدراسة المجتمع جـ ١ المفهومات " الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ألاسكندرية .

٢ ــــــــــــــ ، ١٩٥٦ : " الطريقة الأنثروبولوچية لدراسة المجتمع " حوليات كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد العاشر .

٣ ــ محمد عبده محجوب ، ١٩٨٢ " مقدمة في الإتجاه السوسيوأنثروبولوچي " الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية .

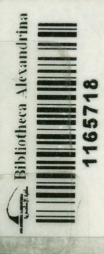
٤ ــ محمد على محمد ، ١٩٨٣ :" علم الإجتماع والمنهج العلمي : دراسة في طرائق البحث وأساليبه " ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية .

٥ ــ محمد عبد المعبود مرسى ، ١٩٨٦ :" الأنثروبولوچيا العامة " الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية .

٦ ــ محمد محمد الجوهري ، ١٩٩٥ :" الأنثروبولوچيا : أسس نظرية " ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية .

٧ ــ مجدى حميدة ، ١٩٨٦ :" دراسات سوسيوأنثروبولوچية " الكتاب الأول ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية .


مدخل إلى
الأنثروبولوچيا
تأليف
نخبة من أعضاء هيئة التدريس
تحرير
دكتور
محمد عباس إبراهيم
أستاذ و رئيس قسم الأنثروبولوچيا
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية
دار المعرفة الجامعية


Bibliotheca Alexandrina
1165718